

محمد عرفة وكيل كلية الشريعة لبرئة ابن حزم مما نسب اليه ! ثم أنفجست اللجنة وأنزوى أعضاؤها الفضلاء ! أليس ذلك دليلا على أن هذا الكتاب فاجأ الشرقيين بنبا عظيم ؟ وما كتبته عن ابن دريد ؟ هل كان ينتظر أحد أن يكون هذا الرجل ذو واضع الأقصوصة في اللغة العربية، والملمهم الأول لبطل المقامات بديع الزمان ؟

تلك ملاح من شمائل هذا الكتاب، أقف عندها ولا أزيد !

ومعاذ الأدب أن أمت على لغة العرب التي أعزنى بها الله . وإنما هي ثورة نفسية أنطقني بها ما أظن أني من غدر وعقوق . والله المستعان، على إفك هذا الزمان !

- ٢ -

وأنا، بعد ذلك، مسئول عن عرض المؤاخذات التي وُجّهت الى هذا الكتاب .

وأذكر، أولا، أن في هذا الكتاب عيبا بجله الأستاذة في جامعة باريس، وهو غلبة النزعة الوجدانية، وقد اعتذر عنى المسيو ماسينيون يوم أداء الامتحان في السوربون، فذكر أنى شاعر، والشعراء لا يستطيعون الفرار من نزوات الوجدان .

وأذكر، ثانيا، أنى قصرت تقصيرا ملموسا في عرض الشواهد، ولم أذكر شاهدا كاملا غير مناظرة الخوارزمي والهمداني، واكتفيت بالإشارة في الهوامش الى مراجع الشواهد . وعذرى في ذلك أن هذا الكتاب لم يؤلف إلا للخواص، ومن السهل عليهم أن يرجعوا الى الشواهد في مصادرها حين يشاءون . يضاف الى هذا أن الشواهد لو ذكرت كاملة لوصل حجم الكتاب الى أكثر من أربعة مجلدات . وأين الناشر الذى ينفق على نحو ألفى صفحة من هذه الصفحات الطوال العراض^(١) ؟ !

وأذكر، ثالثا، أن منهج العرض والتأليف يختلف في هذا الكتاب بعض الاختلاف . والسبب في هذا أن الكتاب لم يؤلف في عام واحد، وإنما كتبت فصوله كما أسلفت في خلال سبع سنين، وهى مدة طويلة يتحول فيها العقل والذوق من حال الى حال .

(١) تردد الحاج مصطفى محمد أولا في نشر هذا الكتاب لطوله وضخامة ثقافته، ولم تصح عزيمته على نشره إلا بعد أن علم أن حضرة صاحب المعالي الأستاذ محمد حلى عيسى باشا وعد بطبعه على نفقة وزارة المعارف العمومية .

وأذكر، رابعاً، غلبة الاستطراد في صلب الكتاب، وهو عيب لامني عليه الأساتذة في باريس. وعذري في ذلك أني أميل الى هذا النحو الموروث في التأليف، لأن مؤلفاتنا القديمة كان أكثرها كذلك، والقارئ هو الغائم على أي حال، والفهرس المفصل^(١) الذي ألحقته بالجزء الأول والجزء الثاني سيمكّن القارئ من تعقب ما في الكتاب من شتت الفوائد الأدبية والتاريخية.

— ٣ —

عُنيّا في هذا الكتاب بدرس النثر الفنى، أما الزمان فهو القرن الرابع، ~~وأما المكان فهو~~ الأمصار الإسلامية لذلك العهد. فهل كان يمكن أن يتفق العرب والمستعربون في القرن الرابع على أصطناع أسلوب واحد أو مقارب في التعبير عن مختلف المعاني والأغراض؟ ذلك سؤال وجهه إلينا المسيو ديموبين، وأجبنا عنه في النص الفرنسي^(٢)، ونعرض له في هذه المقدمة بشيء من البيان.

لا جدال في أن الموضوعات كانت تختلف كثيراً أو قليلاً، فالمشاكل العقلية والوجدانية التي كانت تعرض لكتاب الأندلس تغاير بعض المغايرة ما كان يعرض لأمثالهم في مصر والشام وفارس والعراق.

أما اللغة والأسلوب فالاختلاف فيها قليل. لأن العرب الذين هاجروا فاتحين الى مصر والمغرب والأندلس نقلوا تقاليدهم الأدبية الى تلك البلاد، وكان من هم المؤلفين في المغرب والأندلس أن ينقلوا الى مواطنهم أدب أهل المشرق. والتاريخ يحدثنا "أن الصاحب بن عباد سمع بكتاب العقد فحرص حتى حصل عنده، فلما تأمله قال: هذه بضاعتنا ردت إلينا، ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم، وإنما هو مشتمل على أخبار بلادنا، لا حاجة لنا فيه"^(٣).

(١) الفهرس المفصل هو الترجمة المقبولة لمبارة Table analytique

(٢) ص ٤١ و ٢٣١ و ٢٣٢ (٣) معجم الأدباء ج ١ ص ٦٧

ولهذا الخبر الصغير وجهان على جانب من الأهمية : فالصاحب كان يتشوف الى أدب أهل الأندلس ، لأنه لم يكن منشورا في المشرق ، وكان يرى أن أول ما ينبغي أن يشغل به رجل كأحمد بن عبد ربه هو تدوين أدب أهل الأندلس . أما ابن عبد ربه فكان أعرف بحاجة بلاده من الصاحب ، فأجتهد في أن ينقل اليهم أدب أهل المشرق ، وكانوا يرونهم اساتذة في الشعر والبيان . وأهتمام أمثال ابن عبد ربه بجمع الآداب المشرقية يؤيد ما نراه من محافظة أهل الأندلس على الأساليب العربية التي كان يصطنعها كتاب الشام وكتاب العراق . وما وقع في الأندلس وقع مثله في المغرب ، فان مؤلف زهر الآداب يتحدثنا في مقدمة كتابه أن العباس بن سليمان أرتحل الى المشرق في طلب الكتب ” باذلا في ذلك ماله ، متعذبا فيه تعب ، الى أن أورد من كلام بلغاء عصره ، وفصحاء دهره ، طرائف طريفة ، وغرائب غريبة ” وسأله أن يجمع له ” من مختارها كتابا يكتفى به عن حملتها ” فألف كتاب زهر الآداب .

وكما خلا العقد الفريد من أدب أهل الأندلس خلا زهر الآداب من أدب أهل المغرب . أياكون معنى ذلك أن الأندلسيين والمغاربة كانوا يستخفون بآثارهم الأدبية ؟ لا ، ولكن معناه أنهم كانوا يرون المثل الأعلى عند أهل المشرق ، فكانوا يبحثون في نقل ما أثر عن أهل الشرق من القصائد والرسائل والحكم والأمثال . وكذلك كان زهر الآداب المرجع الأول الذي اعتمدت عليه في أكثر الشواهد المشرقية مع أنه لرجل تونسي من أهل القيروان .

— ٤ —

ويمكن الحكم بأن حظ بغداد في الأيام الخالية كان شبيها بحظ القاهرة في هذه الأيام ألنا نرى العرب والمستعربين في مختلف الأقطار الإسلامية يتأثرون ما يحدث في القاهرة من ضروب الآداب والفنون ؟ ألنا نرى مناهج النشر والتأليف التي يبدعها أهل القاهرة تنتشر في أكثر الأمصار الإسلامية بشيء من التغيير قليل ؟

والمسيو ديمومين يحدثنا أن زرياب حين رحل الى الأندلس آستطاع أن يؤثرفى الأغاني الأندلسية ويصبغها بصبغة شرقية، أفيرتاب أحد فى أن أغانى محمد عبد الوهاب تعطر الأغانى الشرقية بنفحة مصرية، وتنقل الى أكثر البلاد العربية أسرار الغناء فى وادى النيل ؟

يضاف الى هذا نظام الرحلة فى طلب العلم، وكان أهل الأندلس معروفين بذلك ، وكان الأخذ عن علماء المشرق مما يرفع رأس الرجل حين يعود الى بلاده موفور العلم والعقل ، وكان يتفق لأهل الأندلس أن يقيموا زمنا بمصر فى طريقهم الى المشرق، ليأخذوا عن علماء مصر ما يرون فى أخذه فضلا وعائدة . وقصة المنذر بن سعيد البلوطى معروفة، وهى لا تخلو من فكاهة، فقد حضر مجلس أبى النحاس فى مصر وهو يلى هذه الأبيات :

خلىلٍ حل بالشام عين حزينه تبكى على ليلى لعلى أعينها
قد أسلمها الباكون إلا حمامة مطوقةً بانت وبات قرينها
بجاوبها أخرى على خيزرانة يكاد يذنبها من الأرض لينها

فقال ابن سعيد : يا أبا جعفر ! ماذا ، أعزك الله ، باتا يصنعان ؟ فقال أبى النحاس : وكيف تقوله أنت يا أندلسى ؟ فقال : بانت وبان قرينها .

وبالطبع ما كان يتفق لجميع من وفد على مصر من أهل الأندلس ما آتفق لأبن سعيد مع أبى النحاس ولكن المهم أن نشير الى أن أبى النحاس آستثقل أبى سعيد بعد ذلك حتى منعه كتاب العين وكان يذهب فيتسبخ من نسخته ، فأنصرف عنه الى الانتساخ من نسخة أبى العباس بن ولاد^(١) .

وفى أمثال هذا الخبر ما يدل على أن الأندلسيين والمغاربة فى رحلتهم الى المشرق كانوا يجمعون بين فائدتين : الاستماع الى الرجال وانتساخ ما يظفرون به من نادر المصنفات ، حتى إذا عادوا الى بلادهم آشتغلوا بالوراقة والتدريس ، أما الوراقة فلكسب الرزق ، وأما التدريس فطلب المجد .

وبعض هذا كإف لصبغ أذواقهم بالصبغة المشرقية في الشعر والبيان .

أ يكون عجيبا بعد هذه الأدلة أن نحكم بأن أساليب الكتاب في القرن الرابع كانت متقاربة في السمات والخصائص وإن آفرت مساكنتهم بين المغرب والمشرق ؟

— ٥ —

مرات المناقشات هادئة في هذا الكتاب ، ولم يستعزضيهما إلا حين اتصلت برجلين من كرام الرجال ، هما المسيو مرسيه والدكتور طه حسين .

أما المسيو مرسيه فعالم واسع الاطلاع ، وهو رأس المستشرقين الفرنسيين لهذا العهد ، و انت له آراء مدونة عن نشأة النثر الفني عند العرب . وما كدت أصل الى باريس حتى هممت بمهاجمته ، فنصحتي المسيو ماسينيون وأفهمني أنه رجل صعب المراس ، وأن منزلته في المعهد العلمي عظيمة ، وأن المستشرقين جميعا يحلون له أعظم الإجلال . ولكن كتب الله أن لا أنتصح برأى المسيو ماسينيون ، فابتدأت رسالتي التي قدمتها للسوربون بفصلين في نقض آرائه من الأساس ، فغضب الرجل وثار ، وصمم على حذف الفصلين بحجة أنهما لون من الاستطراد لا يوائم الروح الفرنسي في البحث ، وصممت على إبقاء الفصلين بحجة أنهما العباد الذي تنهض عليه نظريتي في نشأة النثر الفني .

وكأنما عز على الرجل أن أهاجمه في عُقد داره فمضى يعاديني عداً خفياً كانت له آثار بشعة لا اتذكرها إلا أنتفضت رعباً من عجز الرجال عن ضبط النفس وقدرتهم على تقويض دعائم الإنصاف .

وقد قابلت خصومته بلدي أقسى وأعنف ، ورأيت الحرص على آرائى أفضل من الحرص على رضاه ، فأبقيت الفصلين اللذين أغضباه ، وأضفت الى البحث الذي قدمته الى مدرسة اللغات الشرقية فصلاً كان أشار بحذفه لأنني هاجمته فيه ، وأنتهينا الى عاقبة أفصح عنها المسيو ماسينيون كل الإفصاح إذ قال حين لقيته أخيراً في باريس :

”إن المسيو مرسيه لا يحبك، ولكنه لا يستطيع أن ينسأك“ .

أما أنا فأحب هذا الرجل وأذكره بالجميل ، لأنه من خيرة الأساتذة الذين تلقيت عنهم في باريس ، ولأنه كان رئيس لجنة الامتحان الذى ظفرت فيه بدبلوم الدراسات العليا في الآداب من مدرسة اللغات الشرقية . والله سبحانه هو القادر على أن ينسيني ما لقيت على يديه من ظلم وإجحاف !

أما الدكتور طه حسين فما أدري والله ما ذنبه حتى يهاجم أعنف الهجوم في هذا الكتاب !

إن هذا الرجل تربطني به ألوف من الذكريات ، يرجع بعضها الى العهد الذى كنت طالبا بالجامعة المصرية القديمة ، يوم كان يصطنع العدل الذى يلبس ثوب الظلم في امتحان الطلاب ، فقد ساعد مرة على إسقاطي في امتحان الجغرافيا ووصف الشعوب ، وأسقطني مرة ثانية في امتحان تاريخ الشرق القديم . والسقوط في الامتحان مما يحفظه الطالب المخلص لأستاذه المنصف .

ويرجع بعض الذكريات الى العهد الذى كنت فيه مدرسا بالجامعة المصرية الجديدة ، حين كنت أحمل اليه على أكتافى أحجار الأساس لنرفع القواعد من كلية الآداب .

وأدق ما يصل بيننا من الذكريات ما وقع في ربيع سنة ١٩٢٦ يوم ظهر كتاب الشعر الجاهلي ، وثارت الأمة والحكومة والبرلمان ، وكان أصدقاؤه وزملاؤه بين خائف يترقب ، وحاسد يترصب ، وكنت وحدي صديقه الذى لا يهاب ، وزميله الذى لا يخون .

ولكن حماستي للفكرة التى أدافع عنها ، وغرام الدكتور طه بنقضها في رسائله وأحاديثه ومحاضراته ، كان مما حملني على مقاومته بعنف وقوة ، حتى ليحسب القارئ أن بيننا عداوة سقيت لأجلها القلم قطرات من السم الزعاف حين عرضت لدحض آرائه في فصول هذا الكتاب .

أكتب هذا وقد شَرَّق الدكتور طه وغرَّبت ، ولم يبق بيننا إلا أطياف من كرائم الذكريات ، قلبي بها ضنين .

— ٦ —

يشتمل هذا الكتاب على مقدمة وستة أبواب ، أما المقدمة فتبحث عن نصيب النثر الفنى من عناية النقاد ، وتبين الغرض من تأليف هذا الكتاب ، وفى الباب الأول يتكلم المؤلف عن النثر الجاهلى والنثر الاسلامى وأطوار السجع والأزدواج ، وكان من الضرورى فى نظر المؤلف أن ينشئ هذا الباب ، وهو أصل الخصومة بينه وبين أستاذه المسيو مرسيه .

وحجة المؤلف أنه من الواجب تعرف مذاهب النثر من عصر النبوة الى القرن الرابع لتظهر خصائص النثر فى العصر الذى أُلِف عنه الكتاب ، وفى الباب الثانى يدرس المؤلف خصائص النثر فى القرن الرابع فيبين ما فيه من الظواهر الفنية والعقلية ، ثم يمضى فيتكلم فى الباب الثالث عن كُتَّاب الأخبار والأقاصيص ، ويتحدث فى الباب الرابع عن كُتَّاب النقد الأدبى ، ويشرح فى الباب الخامس بعض الجوانب المهمة من كُتَّاب الآراء والمذاهب ، ويختم الكتاب بالباب السادس عن كُتَّاب الرسائل والعهود .

والمؤلف مطمئن الى صحة هذا التقسيم ، ويعترف بأنه لم يتكلم عن البلاغة الدينية إلا قليلا ، فقد حملته الأثرة على أن يستبقى هذا الجانب لكتابه "أثر التصوف فى الأدب والأخلاق" الذى يرجو أن يوفق الى إتمامه بعد قليل .

— ٧ —

راعينا روح العصر فى تأليف هذا الكتاب ، فتجنبنا ألفاظا وتعاير كانت تستساغ فى القرن الرابع ولا تستساغ اليوم ، ولكنا فى الوقت نفسه لم نهمل واجب الدقة فى التأليف فأشرنا الى نوازع اللهو والمجون ، ودلنا القارئ على مصادرها إن كان يهيمه استقصاء الظواهر الاجتماعية التى حفظها التاريخ . والأدب فى رأينا أصدق مصدر للدراسات الفلسفية والتاريخية ، ومثل هذا الكتاب يقدم للخواص الذين يُعَدُّ التحفظ فى مخاطبتهم ضربا من الجمود .

- ٨ -

بين الأصل الفرنسى وبين هذا الكتاب اختلاف قليل ، ففى النسخة الفرنسية أشياء تكتب لأهل الغرب ولا يحتاج إليها أهل الشرق ، وفى هذه النسخة العربية تفاصيل لا يحتاج إليها أهل الغرب وتنفع أهل الشرق ، ويمكن القول بأن فى النسخة العربية حرية لم تكن فى النسخة الفرنسية ، لأن الأصل الفرنسى كتب لأداء امتحان الدكتوراه فى جامعة باريس ، تحت إشراف أستاذين فيها صرامة وقسوة ، وهما المسيو مرسيه والمسيو ديمومين ، فالأصل الفرنسى وجه وجهه العلم الصرف ، أما هذا الكتاب فوضع لغرض التعليم والتثقيف .

- ٩ -

أيرانى القارئ أحسنت التمهيد لهذا الكتاب ؟

قد يكون ذلك وقد لا يكون ، ولكن مما لا ريب فيه أنى رفعت عن كاهلى عبئاً ثقيلاً بانحراجه الى الناس ، فقد كان من الواجب أن ينشر بالعربية بعد نشره بالفرنسية . وقد قضيت عاماً فى طبعه بمطبعة دار الكتب المصرية ، وأستوجب تحقيقه وتصحيحه جهوداً لم تكن تحظر بالبال ، وصبر ناشره الحاج مصطفى محمد صبرا جميلاً ، وأحتمل عمال المطبعة ضجر الإفراط فى المراجعة والتصحيح .

وأرى من الواجب أن أشكر صاحب العزة الأستاذ برادة بك على التسهيلات التى أخصنى بها فى تيسير طبع هذا الكتاب على الطريقة الفنية التى أستطعت بها ربط أصول الكتاب بعضها ببعض ، وأن أسدى الشئاء الى صديق المفضل محمد افندى نديم على معونته فى إنجاز الطبع على أحسن حال .

والله أسأل أن يقينى شر الفتنة ، فتنة النفس والقلب والعقل ، وأن يهدينى الصراط المستقيم ، وأن يمنح هذا الكتاب من القبول ما يكافئ ما أضعت فى تأليفه من العمر والعافية .
إنه قريب مجيب

محمد زكى عبد السلام مبارك

٦ شوال سنة ١٣٥٢
٢٢ يناير سنة ١٩٣٤
مصر الجديدة فى

فقد النثر الفني

١ - ينبغي أن نقيّد في صدر هذا الكتاب أن النقاد لم يعطوا للنثر ما أعطوا للشعر من العناية : فلسنا نجد في كتب النقد تلك الأبحاث المطوّلة التي يراد بها ردّ معاني الكتاب الى مصادرها الأولى على نحو ما فعلوا في درس معاني الشعر وبيان المبتكر منها والمنقول . فقد نجدهم يتعقبون المعنى حين يرد في بيت من الشعر فيذكرون أجديداً هو أم قديم ، ثم يذكرون من أخذ عنه إن كان قديماً ، ويبينون الفرق بين المعنى في صورته الأولى وبينه في صورته الثانية . وقد يزيدون فيذكرون الأدوار التي مر بها المعنى منذ عُرف عن الجاهليين ويبينون درجات من تناوله من الشعراء . وهذا الذي نقوله يبين وجهها من الفروق بين النثر والشعر من الوجهة الفنية : فالشعر في نظر النقاد من العرب أكثر حظاً من الفن وأولى بالنقد والوزن . والنثر مهما احتفل أصحابه باتقانه وتجويده لم ينل من أنفس النقاد منزلة الشعر . ولذلك قلّت العناية بتقييد أوابده والنص على ما فيه من ضروب الإبداع والابتكار أو دلالات الضعف والجمود .^(١) وليس في اللغة العربية كتاب منشور شغل به النقد غير القرآن ، على أن شغل النقد بالقرآن لم يكن عملاً فنياً بالمعنى الصحيح للنقد الأدبي : فقد كانت مفروضا في كل من يكتب عن القرآن أن يظهر عبقريته هو في إظهار ما خفي من أسرار ذلك الكتاب المجيد . وليس هذا

(١) ومع هذا نجد في مطالعاتنا إشارات الى سرقات الكتاب فقد كان أحمد بن أبي طاهر يقول في سعيد بن حميد « لو قيل لكلام سعيد وشعره ارجع الى أحلك لما بقى معه شيء » — الفهرست ص ١٧٩ — (الكلام) ها هو النثر الذي يسمى أيضاً (الكاتب) وقد سمي النثر (كلاماً) في عدّة مواطن منها قول بدیع الزمان « البليغ من لم يقصر نقله عن نثره ، ولم يترك كلامه بشعره » ...

وعرض الثعالبي لبعض المعاني التي وردت في نثر الصاحب بن عباد مسروقة من شعر المتنبي — اليتيمة ص ٨٧ ج ١ وعرض الثعالبي كذلك لاحدى رسائل الصابي فيبين أن بعض ألفاظها مأخوذ من فصل كتبه جعفر بن محمد بن ثوابه عن المعتضد الى ابن طولون — اليتيمة ص ١٩١ ج ١ وفي وفیات الأعيان — ج ١ ص ١٥ و ١٦ — كلام لابراهيم الصولي عما أضاف الى نثره من معاني الشعراء .

من النقد في شيء . إنما النقد أن يقف الباحث أمام الأثر الأدبي موقف المتحن للحاسن والعيوب . من أجل ذلك وُسم أكثر ما كتب عن القرآن باسم الإعجاز لأن النقاد أطمأنوا الى أن القرآن هو المثل الأعلى الذي تقف عنده حدود الطيعة الانسانية في البلاغة والبيان .

٢ — فإذا خيلنا القرآن جانباً وانتقلنا الى غيره من غرر النثر وجدنا البدائع النثرية قليلة الحظ من عناية النقاد : فنحن نستطيع أن نجد طائفة صالحة من المؤلفات تدور حول أبي تمام والبحتري ومسلم بن الوليد وأبي نواس وبشار والمتنبي ، بحيث نستطيع أن نجزم بأن الشعراء الكبار الذين شغل بهم الناس كانوا سبباً في نشاط النقد الأدبي وإمداده بتلك الحيوية العظيمة التي ظهر أثرها في مثل مؤلفات أبي هلال العسكري وابن الأثير وابن رشيق وأبي الحسن الجرجاني وغيرهم من فحول النقاد الذين شغلوا بالموازنة بين الشعراء . ولكن قل أن نجد أثراً لمثل ذلك الاهتمام إذا شئنا أن نعرف ما صنع النقاد في الموازنة بين كاتيين كالبديع والحوارزمي ، أو الصاحب والصابي ، أو عبد الحميد وابن المقفع ، أو الصولي وابن الزيات ، أو ابن زيدون وابن شهيد ، وغيرهم من الكتاب الذين شغلوا معاصريهم من المتأدبين والناقدين .^(١)

(١) ولا نكرع هذا أنه وضعت كتب كثيرة في نقد النثر أشهرها كتاب قدامة بن جعفر الذي نشرته الجامعة المصرية بتحقيق الدكتور طه حسين والاستاذ عبد الحميد العبادي . وكتاب (المذهب في البلاغات لابن العميد) — ١٩٤ فهرست — وكتاب (غرر البلاغة) (أوردته صاحب صبح الأعشى شواهد — ٢٨٠ و ٢٨٥ ج ٩ — و تحفة الكتاب في الرسائل) — ٢٧٤ ج ٦ ياقوت — و (كتاب الكتاب) — ٢٧٩ ج ٦ ياقوت — و (علط أدب الكاتب) و (مصباح الكتاب) — ٢٨١ ج ٦ ياقوت — و (الاختيار من الرسائل) أو (فقر البلاء) — ١٣٠ ج ياقوت — و (علم النثر) — ٢٥١ ج ١ ياقوت . و (أنواع الأنبياء) — ٧٥ ج ٤ ياقوت — و (الرسائل السلطانيات والاخوانيات) و (الفرق بين المترسل والشاعر) — ٢٥٧ ج ٢ ياقوت .

وفي مطالعاتنا نجد كتباً كثيرة ألقت في النثر : لا نعرف أهمى من قليل المجموعات أم من باب النقد أم من علم البيان ، لأن أصولها لم تصل إلينا . وهي تدل على أن المتقدمين اهتموا بالدراسات النثرية . ولكلا لا يزال نرى أن الشعر استبد بمجهود أكثر النقاد ولم يخلص للنثر من عنايتهم إلا القليل .

ولنقيد أن نقد النثر الذي انصرف عنه أكثر الباحثين هو فن غير الفن الذي عرف بأدب الكتاب ووضعت فيه أبحاث كثيرة منها « الرسالة العذراء » التي قدمناها مع مقدمة بالفرنسية الى مدرسة اللغات الشرفية في باريس ونشرناها في سنة ١٩٣١ و (أدب الكتاب) للصولي . و (كتاب الكتاب) لابن درستويه ، وما الى ذلك من الدراسات التي تصل =

٣ - وإيثار الشعر على النثر له مظاهر كثيرة في البيئات العربية، فهذا أبو بكر الخوارزمي الذي كان يحفظ نحو خمسين ألف بيت من الشعر لم يعرف عنه أنه أهتم بحفظ الرسائل حتى ذكروا أنه لم يحفظ غير رسالة واحدة هي كتاب الصاحب إلى ابن العميد جواباً عن كتابه عليه في وصف البحر^(١)، والواقع أن الشعر أقرب إلى النفس من هذه الناحية، وهو بالذات كرة أعلق، وعلى الألسنة أسير، بفضل القوافي والأوزان.

٤ - ولندكر هنا أن في كتاب القرن الرابع من نظر في هذه المسألة وفاضل بين الشعر والنثر وبين مقام الكتاب ومقام الشعراء. وأهم مالفت نظري في تحرير هذا الموضوع ما كتبه الثعالبي في تفضيل النثر وما كتبه ابن رشيق رداً عليه في تفضيل الشعر. والثعالبي يبني حكمه على أن طبقات الكتاب كانت ولا تزال مرتفعة عن طبقات الشعراء «فإن الكتاب وهم ألسنة الملوك إنما يتراسلون في جباية خراج، أو سدّ ثغر، أو عمارة بلاد، أو إصلاح فساد، أو تحريض على جهاد، أو احتجاج على فئة، أو دعاء إلى ألفة، أو نهى عن فرقة، أو تهنئة بعطية، أو تعزية في رزية، أو ما شاكلها من جلائل الخطوب، ومعظم الشئون، التي يحتاجون فيها إلى أن يكونوا ذوي آداب كثيرة، ومعارف ممتنة»^(٢).

وهذا حق من جانب وخطأ من جانب آخر: هو حق من حيث تنويهه بفضل النثر في المصالح المعاشية والسياسية والإدارية، لأن النثر هو الأداة الصالحة للتفاهم في شئون الحرب والسلم والتجارة والزراعة والصناعة وما إلى ذلك من شئون العمران، ولكنه خطأ من حيث يعطى للنثر جوانب هي أقرب إلى الشعر: فالدعاء إلى الألفة والنهي عن الفرقة والتهاني بالعطايا والتعازي في الرزايا من الموضوعات التي كان الشعر فيها أصلح أداة من النثر وأقدر على تسجيل العواطف والأحاسيس، وأمتلاك القلوب والنفوس.

== في الأغلب بأحوال الكتاب من الوجهة الديوانية والاجتماعية. وأهم كتاب في هذا الباب هو (صبح الأعشى) الذي يعدّ أرفع ما صنف في أدب الكتاب. على أن هذا النوع من التأليف حافل بالملاحظات الفنية التي تقر به من (النقد الأدبي) وإن لم تتم به إلى المصنفات المنتمية التي قصرها أصحابها على دراسة آثار الشعراء.

(١) ص ٨٧ ج ٣ ثر من يتيمة الذهر.

(٢) ص ٣، ٤ ثر النظم.

والثعالبي صدق في نصه على أن ما يشتغل به الكتاب يقضى بأن يكونوا ذوى آداب كثيرة ومعارف مفتنة : فانه يكاد يغلب على جمهور الشعراء في اللغة العربية فراغ الأفتدة وفقر الروس . والشعراء المتفوقون عند العرب هم الشعراء المثقفون الذين أستطاعوا أن ينافسوا كبار الباحثين من أصحاب المذاهب وأرباب الأقلام . فأبو نواس وبشار بن برد ومسلم بن الوليد وابن المعتز وابن الرومي وأبو تمام والبحترى والشريف الرضى والمتنبي، كل أولئك كانوا من أهل العلم الوافر العميق، وكانوا فوق ذلك أصحاب مطامع وأهواء في الملك والسياسة، وكانوا لا ينامون إلا على سر مبيت أو غرض دفين .

ونظرة إلى شعراء العصر الحاضر تعطينا ما يؤيد هذه الفكرة، فالشعراء النابهون في عصرنا هم الذين لا بسوا رجال الملك وأتصلوا بالجماهير اتصال آستثمار وأستغلال : فقد كان شوقي سلاسل القصر، وكان حافظ شاعر الشعب، كما كان البارودي شاعر السيف، وقد نحل من نحل من الشعراء الذين قعدت بهم ثقاتهم ووقفت بهم همهم عند الاكتفاء بمضغ الكلام الموزون !

٥ - والثعالبي بعد كلماته تلك يذكر في أسباب تقديم النثر على الشعر أن الشعر تصون عنه الأنبياء وترفع عنه الملوك . وهى حجة واهية وسبب ضعيف ، فالشعر أقرب الفنون إلى أرواح الأنبياء، وأنا لا أتصور الأنبياء إلا شعراء، وإن جهلوا القوافي والأوزان، لأن الشعر الحق روح صرف، والنبوة الحقة شعر صراح . أما الملوك فترفعهم عن الشعر لا يحيط من قدره، ولا يفيض من شأنه، والملوك لو أستطاعوا أن يضموا إلى قواهم المادية تلك القوة الروحية لكان حظهم أوفى الحظوظ . ولكن شواغل الملك وتكاليف السياسة اليومية تصرف العقل والحس والخيال عن إجادة الشعر الذى يتطلب صفاء النفس وجلاء الوجدان .

٦ - وربما كان أطرف نقد وجه للشعر والشعراء ما قصه الثعالبي إذ قال : وقد أفصح عبد الصمد بن المعذل عن حقيقة الحال في انحطاط رتبة الشاعر لأشتغاله بخلاف المراسد حيث قال لأبي تمام وقد قصد البصرة وشارفها :

أنت بين آثنين تبرز للناس
س وكتاهما بوجه مذل

لست تنفك طالبا لوصال من حبيب أو طالب لنوال
أى ماء لحر وجهك يبتقى بين ذل الهوى وذل السؤال

فلما بلغت الأبيات أبا تمام قال : صدق والله وأحسن ! وثنى عنانه عن البصرة وحلف أن لا يدخلها أبدا^(١) .

وهذه الأبيات التى قالها ابن المعتز تصور حياة الشعراء الأقدمين أصدق تصوير . وقد رأيت أن أرجع بمناسبة هذه الأبيات الى وصية أبى تمام للبحتري لأرى الأغراض التى كان يهتم بها مثل ذلك الشاعر البليغ ، فلم أجده نص على غير النسيب والمدح إذ قال :

”وإن أردت التشبيب فأجعل اللفظ رقيقا ، والمعنى رشيقا ، وأكثر من بيان الصبابة وتوابع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق . فاذا أخذت فى مدح سبيد ذى أيادٍ فأشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأبن معالمة ، وشرف مقامه“^(٢) .

فالشاعر على هذا الوضع لا يبرح دامع العين فى سبيل الحب ، أو قلق النفس فى سبيل المال ، وحياته إذن مقسمة بين ذلين : ذل الهوى وذل السؤال .

٧ — غير أنه ينبغي أن لا نفتن بهذا الكلام فتنة باقية ، وأن نفهم أن جماله يرجع الى أنه سخرية تدل على براعة وذكاء ، فانه إن جاز لنا أن نلوم الشعراء على إسفافهم حين يطمعون فى عطايا الملوك فانا لا نستطيع أن نأخذ عليهم أن تُفتن عيونهم بالحسن ، وأن تخفق قلوبهم بالوجد ، فان للشاعر رسالة يؤتيها الى العالم هى فهمه العميق لأسرار الجمال ثم غناؤه الساحر فى تقديس الحسن المصون . الشاعر الملهم حين يفهم المعانى الروحية لصباحة الوجود وأسالة الحدود ، ورشاقة القدود ، وهو قيثاره إلهية يمسى رنينها ساحرا أخاذا لا يملك الغض منه إلا صمّ المسامع أو غلّف القلوب .

٨ — أما ابن رشيق فيفضل الشعر على النثر لأسباب فنية ، وهو يذكّر أن كلام العرب نوعان : منظوم ومنثور ، ولكل منهما ثلاث درجات : جيدة ومتوسطة ورديّة ، وفى رأيه

أنه إذا اتفق الطبقان في القدر وتساوتا في القيمة، ولم يكن لإحدهما فضل على الأخرى كان الحكم للشعر ظاهراً في التسمية : لأن كل مظلوم أحسن من كل مثور من جنسه في معترف العادة ، فالدر — وبه يشبه اللفظ — إذا كان مثوراً لم يؤمن عليه ولم ينتفع به في الباب الذي كسب له وآنخت من أجله، وكذلك اللفظ إذا كان مثوراً تبدد في الأسماع ، فإذا أخذ سلك الوزن وعقد القافية تألفت أشناته وأزدوجت فرائده ^(١) .

وهذا كلام ضعيف لا يتناسب مع عقل مثقف كعقل ابن رشيق ، لانه اذا صح أن يشبه الشعر بالعقد المنظوم فانه لا يصح أن يشبه النثر بالدر المنثور : لأن النثر منظوم أيضاً ، والكاتب يؤلف بين الكلمات ويزاوج بين الألفاظ بنفس الدقة التي يعنى بها ناظم العقد ، واللؤلؤ المنثور له قيمته دائماً ، لأن اللؤلؤة هي في قيمتها ونفاسها ، ولن يضيرها أن تسقط من بين حبات العقد وأن تقع حيث يشاء الإفعال . أما اللفظة فتفقد قيمتها الأدبية وهي مفردة إذ كان سحرها يرجع الى موقعها من التركيب بلا فرق بين الشعر والنثر . وقد نص عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز على أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلم مفردة ، وإنما تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ ، وذكر أننا نرى الكلمة تروق وتؤنس في موضع ، ثم نراها تنقل وتوحش في موضع آخر ، وأننا قد نرى رجلين أستمعلا كلنا بأعيانها ثم نرى هذا قد فرع السكك ، ونرى ذاك قد لصق بالحضيض ^(٢) .

٩ — على أنه يخيل الى أن تقديم الثعالبي للنثر كان أثراً لغرض شخصي ، فلا يبعد أن يكون خوارزمشاه الذي قدم اليه "نثر النظم وحل الشعر" كان من هواه أن يقدم النثر على الشعر إشاراً لبعض الكتاب ، أو حقداً على بعض الشعراء . وهذا الذي نقوله ليس بغريب من كتاب ذلك العصر ، فعهدى بهم يصورون الحقائق حسبما توحى الأهواء ، حتى أننا نجد ابن رشيق الذي فضل الشعر على النثر يقول : "ولم أجد بهذا الرد وأورد هذه الحجة لولا أن السيد أبقاه الله

قد جمع النوعين ، وحاز الفضيلتين ، فهما نقطتان من بحره ، ونوارتان من زهرده^(١) فهذه الفقرة صريحة في أن أحكامه تتأثر بأهواء من يعاشر من الرؤساء .

١٠ - وأبو هلال العسكري أكثر دقة من الثعالبي في الكلام على الشعر والنثر ، فعنده أن الرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية ، وقد يتشاكلان أيضا من جهة الألفاظ والفواصل ، فالفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب في السهولة والعذوبة ، وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل ، ولا فرق بينهما إلا أن الخطبة يشافه بها ، والرسالة يكتب بها ، والرسالة تجعل خطبة ، والخطبة تجعل رسالة ، في أيسر كلفة ، ولا يتعبها مثل ذلك في الشعر من سرعة قلبه وإحالة إلى الرسائل إلا بتكلف ، وكذلك الرسالة والخطبة لا يجعلان شعرا إلا بمشقة^(٢) .

١١ - هذا فهم أبي هلال للنثر والشعر من الوجهة الفنية ، أما من الوجهة الاجتماعية فالنثر في رأيه عليه مدار السلطان ، والشعر يغلب عليه الزور والبهتان ، وليس يراد من الشاعر إلا حسن الكلام ، أما الصدق فيطلب من الأنبياء^(٣) .

وفضل الشعر على النثر - عند أبي هلال - يرجع إلى استفاضته في الناس ، وبعد سيره في الآفاق ، وإلى تأثيره في الأعراض والأنساب ، وإلى أنه ليس شيء يقوم مقامه في المجالس الحافلة ، إلا شاهد الجامعة ، وإلى أن مجالس الظرفاء والأدباء لا تطيب ولا تؤنس

(١) ص ٦ العمدة . (٢) ص ١٠٢ - وهذا صريح في أن نقاد العرب يفهمون أن الرسائل والخطب فن واحد أرفنان متقاربان يقابلهما الشعر ، فالكلام ينقسم إلى قسمين منظوم ومثور ، والمنثور منه الخطب والرسائل . وقد عرض الفلقشندي للتعليق على كلمة أبي هلال في صبح الأعشى - ج ١ ص ٢٢٦ - فقال : "إن الخطب جزء من أجزاء الكتابة ونوع من أنواعها يحتاج إلى العناية في صدور بعض المكاتبات وفي البيعات والعهود والتقاليد والتفاوض وكمبار التواقيع والمناشير" . ومن هذا يتبين أن المصنف مرسىه تكلف شغلا حين زعم أن الكلام ينقسم إلى ثلاثة أصول أساسية : هي النظم والنثر والخطب ، ليصح له أن يترك بأن الجاهليين عرفوا فن الشعر وفن الخطابة ولم يعرفوا فن النثر . والمعقول أن الذي يحسن إعداد الخطبة يحسن بسم إنشاء الرسالة . وقد بقي صدى خطباء الجاهلية لأن الخطب كانت لا تلقى عادة إلا في المواسم أو عند كبريات الحوادث . أما الرسائل فكانت تنقل من قبيلة إلى قبيلة على أبدي الرسل وكانت في الأغلب مما يكتمه المرسلون . (٣) انظر الصناعتين ص ١٠٣

إلا بإنشاد الأشعار، وإلى أن الشعر أصلح للألحان التي هي أهنى للذات، ولا تنبأ صنعها إلا على كل منظوم من الشعر فهو لما بمنزلة المادة القابلة لصورها الشريفة^(١).

قال أبو حلال : ومن صفات الشعر التي يختص بها دون غيره أن الإنسان إذا أراد مدح نفسه فأنشأ رسالة في ذلك أو عمل خطبة فيه جاء في غاية القباحة، وإن عمل في ذلك أبياتا من الشعر احتيل. ومن ذلك أن صاحب الرياسة والأبهة لو خطب بذكر عشيق له ووصف وجده به وحنينه إليه وشهرته في حبه وبكاه من أجله لآسئ^٢ من ذلك وتقص به فيه، ولو قال في ذلك شعرا لكان حسنا^(٢).

١٢ - وهذا كلام يحتمل التقص، فإن مدح الرجل نفسه، إن جرى مجرى الدفاع والمفارقة، صح وقوعه في النثر، وشواهد ذلك كثيرة من خطب الخلفاء والولاة ورسائلهم، فليست خطب علي بن أبي طالب في جملتها إلا إشادة بشرفه وتبويها بقربه من الرسول. أما الفخر الذي يجري مجرى الزهو والخيلاء فهو مردود في الشعر والنثر. وإن كان الشعر أصاح الفنين للتغنى بكرم الأعراق وشرف الأحساب.

أما الغزل فمن الحق أن الشعر أولى به، لأن الغزل غناء، والشعر أقرب إلى الاثنين والرين، ولكنا لانجد بدا من الإشارة إلى أن من الكتاب من اتخذ النثر أداة تشبيها فوق تشبيه موقع القبول، وفي رسالة الجاحظ إلى إبراهيم بن المذبر ورسالة اسحاق بن^(٣) هشيم إلى علي بن هشام وما نقله صاحب زهر الآداب في الجزء الأول والثالث من وصف النساء والغلمان ورسائل الشوق دليل على أن النثر يصلح أيضا للعاني الغرامية. ولا^(٤) من تشويق المجال أمام الكتاب بمثل ذلك الاصطلاح، ولكن هيئات أن تتجوز لأدبية أو الاجتماعية من أنقال التقاليد التي تسيطر على الذوق، وتجعل مقياس القبح والحسن تابعا لما ألف الجمهور من ملابس الحياة.

(٢) ص ٦٧ ج ٦ باقوت ١

(٢) ص ١٠١

(١) ص ١٠٣

(٤) ص ٢١٩ ج ٢ باقوت ٠

١٣ — بعد هذا البيان أحب أن أدون رأيي في الفرق بين منزلة الشعر ومنزلة النثر وهو رأى لم أَسبق اليه : رأى أن الموضوعات هى التى تحدّد نوع الصياغة ، فليس ينبغي أن يفترض أن الشعر صالح لكل موضوع ، ولا أن النثر صالح لكل موضوع ، فهناك مواطن للقول لا يصلح فيها غير النثر ، ومواطن أخرى لا يصلح فيها غير الشعر . والبلغ الموقّف هو الذى يفهم سياسة الفطرة في مثل هذه الشؤون . ففى بعض الأحوال يكون الإفصاح بالشعر نوعا من العى ، كما يكون أحيانا أسمى أنواع البيان . وقد أذكر أننى كنت أحاور المسيو مرسيه في تطوّر السجع فأخرج رسائل الجاحظ وفيها هذه العبارة :

”إن معاوية مع تخلفه عن مراتب أهل السابقة أملى كتابا الى رجل فقال فيه : لهُ أهون من ذرة ، أو كلب من كلاب الحرة) ثم قال : اخ (من كلاب الحرة) واكتب (من الكلاب) كأنه كره اتصال الكلام والمزاوجة وما أشبه السجع ، ورأى أنه ليس في موضعه“^(١) وكان المسيو مرسيه يظن أن في هذه العبارة دلالة على أنهم كانوا إذ ذاك لا يستحبون الكلام المسجوع ، فوجهت نظره الى أن لهذه العبارة معنى آخر: ذلك أن السجع فن رقيق ، لا يصلح في مثل ذلك المقام وهو مقام تهديد ووعيد .

وفهم الظروف وما تقتضيه من شعر أو نثر هو أساس التوفيق عند من يفرض عليهم القول . فكم موطن يظهر فيه الشعر غريبا ، وكَم موطن تظهر فيه الرسائل والخطب وكأنها بعيدة عما يجب أن يقال . ولو تتبعنا آثار الكتاب الذين منحوا موهبة الشعر لرأيناهم ينجحون إلى القريض في مواضع لا يغنى فيها النثر شيئا . فبدع الزمان يمضى في رسائله ومقاماته ناثرا ، ثم ينتقل إلى الشعر بقاء حياء يرى الشعر أقرب إلى ما يريد . وقد رأينا عبد العزيز بن يوسف يرسل صاحب بن عباد خطابا ناثرا ثم يميل إلى النظم ولا يفوته أن يعلل ذلك الميل فيقول : ”ابتدأت أطال الله بقاء مولاي صاحب بكتّابي هذا وفي نفسى إتمامه نثرا ، فالطبعي إلى النظم ، وأملى خاطري يدي منه ما كتبت ، ونعم المعرب عن الضمير مضمار القريض“^(٢) .

١٤ - قلنا إن الموضوعات هى التى تحدّد نوع الصياغة فلنعد إلى ذلك بكلمة حاسمة فنقول : إذا كان موضوع القول متصلا بالمشاعر والعواطف والقلوب كان الشعر أوجب لأن لفته أقدر على التأثير والإمتاع ، وإذا كان الموضوع متصلا بأعمال العقل والفهم والادراك كان النثر أوجب ، لأن لفته أقدر على الشرح والإيضاح والإفهام والتبيين والإقناع ، ومن أجل ذلك نرى الفقهاء واللغويين والنحويين ورجال العلوم الصرفة كالفلكيين والرياضيين لا يمجيدون الشعر إلا قليلا ، لأن اتجاهاتهم العقلية تصرفهم عن تلقى الوحي والإلهام إذ كان الشعر فى صميمه ينفر من النفوس المعقدة ويأنس بالنفوس الصافية التى تسيطر عليها القوة أو الوداعة وتغلب على أصحابها الثورة أو السكون ، ولا يفهمون من العالم إلا جوانبه الأخاذة التى تصرخ بالعظمة البالغة أو ترمى بالقلب فى سدير الحب وفننة الجمال .

١٥ - ونعود فندكر أن كتاب القرن الرابع كان يغلب عليهم الشعر ، فكانوا يلجأون إلى القريض فى المواطن التى لا يحسن فيها غير القريض . وحرص كتاب القرن الرابع على إجادة الشعر يدل على مغالاتهم فى الصنعة فإن الشعر أدخل فى الفن من النثر . ولكن ليس معنى هذا أنهم كانوا جميعا من الشعراء المتفوقين . كلا ! فإن عبد العزيز بن يوسف الذى كان يقرنه صاحب إلى الصابى لم يكن جيد الشعر ، والقطع التى وصلت إلينا من شعره باردة الأنفاس ، والتوحيدى أثر عنه شعر قليل ، وهو مع قلته ضعيف . وهناك كتاب كان شعرهم أجود من نثرهم وكانوا من المبرزين فى الصناعتين ، منهم أبو العلاء المعرى صاحب اللزوميات وسقط الزند وهما من دواوين الشعر الممتازة فى اللغة العربية ، وصاحب رسالة الغفران التى تعدّ من من آيات النثر العربى ، ومنهم الشريف الرضى وهو من شعراء النثر العربى ، وينسب إليه جزء كبير من نهج البلاغة ، ومنهم أبو عامر بن شهيد صاحب الأندلس وشعرائها وهو من أفراد المجيدين فى المنظوم والمنثور ، والشعر عليه أغلب .

أما الكتاب الذين غلب عليهم النثر وكان مع ذلك شعر جيد فهم عديدون منهم على ابن عبد العزيز الجرجانى ، وأبو بكر الخوارزمى ، وأبو الفضل بن العميد ، وأبو اسحق الصابى ،

و بديع الزمان الحمدانى، وأبو اسحق الحصرى^(١)، وأبو الفرج البهاء، وهؤلاء كانوا يجيدون الشعر
إجادة تامة فى موضوعات لا يحسن فيها غير القريض .

١٦ — ولندكر نماذج من شعر هؤلاء الكتاب لندل على تفوقهم فى الصناعتين تفوقا
يجعل مترلهم فى النثر الفنى أعلى وأرفع، إذ كان النثر عند هؤلاء فنا خالصا لا يفضله الشعر
بغير القوافى والأوزان .

فمن ذلك قول ابن العميد فى معشوقه وقد فُصد :

ويح الطبيب الذى جست يداه يدك ما كان أجهله فيما قد أعتمدك
بأى شئ تراه كان معتذرا من مسه بحديد مؤلم جسدك
لو أن الحاظه كانت مباضعه ثم أنتحاك بها من رقة فصدك

وقال الصاحب بن عباد فى رجل كثير الشرب بطئ السكر :

يقال لماذا ليس يسكر بعد ما توالى عليه من نداماه قرقف
فقل سبيل الخمر أن تنقص الحجا فان لم تجد عقلا فماذا تحيّف

وقال بديع الزمان فى طبائع الناس :

كذلك الناس خداع إلى جانب خداع

يعيشون مع الذئب ويبيكون مع الراعى

١٧ — والقلقشندى من الذين رجحوا النثر على الشعر : فقد ذكر فى كتابه (صبح
الأعشى) أن الشعر وإن كانت له فضيلة تخصه من حيث تفرد به باعتدال أقسامه وتوازن
أجزائه ، وتساوى قوافيه ، مع طولها ، على تعاقب الأزمان ، وتداوله على ألسنة الرواة لسهولة
حفظه ، وجمال إنشاده يجالس الملوك ، فإن النثر أرفع منه درجة ، وأعلى رتبة ، وأشرف مقاما ،
وأحسن نظاما^(٢) .

(١) الحصرى مقل فى كتابه وشعره ، ولكن الفقرات التى تنفق له أحيانا فى (زهر الآداب) تنم عن ذوق فى الانشاء .
وأهيمه بأدب القرن الرابع هو الذى أوحى اليه فكرة تأليف هذا الكتاب . (٢) صبح الأعشى ص ٥٨ ج ١

والنظام الذى يظهر حسنه فى النثر غير واضح، ولكن القلقشندى يفسره فيذكر أن الشعر محصور فى وزن وقافيه يحتاج الشاعر معهما الى زيادة الألفاظ والتقديم فيها والتأخير، وقصر الممدود، ومد المقصود، وصرف ما لا ينصرف، ومنع ما ينصرف من الصرف، الى غير ذلك مما تلجئ إليه ضرورة الشعر فتكون معانيه تابعة لألفاظه، والكلام المنشور لا يحتاج فيه الى شيء من ذلك فتكون ألفاظه تابعة لمعانيه .

وتفسير القلقشندى لرأيه غير كاف ولا سديد، فان الشعر الذى نوازن بينه وبين النثر ليس هو الشعر الذى تكون معانيه تابعة لألفاظه، وإنما هو الشعر المحكم الذى تكون فيه الألفاظ دائماً تبعاً للمعاني، والنظم الجيد يفرض ذلك فى الشعر والنثر على السواء .

ومما تنبه له القلقشندى خطر الموضوعات التى يعرض لها النثر حيث يراه مبنيًا "على مصالح الأمة وقوام الرعية" لما يشتمل عليه من مكاتبات الملوك وسراة الناس فى مهمات الدين وصالح الحال، وما يلحق بذلك من ولايات السيوف وأرباب الأقلام^(١) .

ونقل القلقشندى عن "مواد البيان" أن العرب كانت أحست بانحطاط^{بشيء} تنبه الشعر عن الكلام المنشور، كما حكى أن امرأة القيس بن جهم أبوه بقتله حين^{ساعة} يترجم فى مجلس شرابه بقوله :

إسقى حجرا على علاته من كُميت لونها لون^(٢) الخلق

وما روى أن النابغة الجعدى كان سيذا فى قومه لا يقطن^{بشيء} من أمرادونه وأن قول الشعر ناقصه وحط رتبته^(٣) .

ونحن نرى مسألة أمرئ القيس تحتاج الى^{بشيء}، أما مسألة النابغة الجعدى فصحيحة من حيث دلالتها على بعض التقاليد الاجتماعية . وقد تحدثت مرة مع الأستاذ ابراهيم مصطفى

(١) ص ٥٩ (٢) الكُميت الخمر فى لونها^{بشيء} وهى حمرة فى سواد، والعلق بالتحريك الدم الشديد الحمرة .

(٣) ص ٦٠ و ٦١

في مثل هذا الموضوع وكما نتكلم عن شخصية الأستاذ محمد نجيب الغرابي باشا ، وكان الأستاذ ابراهيم مصطفى يرى أن اهتمام الغرابي باشا بقرض الشعر يحط من قيمته كزعيم سياسي ، ولم أفلح في إقناع صديقي ابراهيم بأن الشعر قد يكون من مميزات كبار الرجال^(١) .

١٨ - وخلاصة هذا الفصل أن التأليف في نقد النثر كان قليلا بالإضافة الى التأليف في نقد الشعر، ويرجع ذلك الى أن القدماء كانوا يرون الشعر أرفع فنون الجمال ، أما النثر فكان في نظرهم أداة من أدوات التعبير عن الأغراض العلمية والسياسية والدينية ، ولذلك كانوا حين ينقدونه يتوجهون في الأغلب الى ما فيه من معان وأغراض قبل أن يعنوا بالنظر في أساليب الإنشاء ، ظنا منهم أن الدقة لا تطلب إلا من الشعراء .

١٩ - ونحن نرى أن الوقت حان للعناية بالنثر ونقده وإحلاله المحل الأول من جهود الباحثين والناقدين ، فإن النثر اليوم هو صاحب السلطان في المشرق والمغرب ، والكتّاب يحتلون اليوم مكانة يصعب أن يتسامى اليها الشعراء ، لأن النثر هو الأداة الطبيعية لنشر الآراء والمذاهب والعقائد ، وزماننا مجنون بالسرعة في كل شيء ، والشعر - كفن دقيق مثقل بالقوافي والأوزان - غير خليق بتقديم ما تحتاج إليه العقول صباح مساء من ألوان الغذاء العقلي والوجداني ، وهو في حين يجود يظل مقصورا على بعض النوازع القلبية والنفسية التي لا تستريح اليها الجماهير إلا في خيول الفراغ . وليس معنى هذا أن الشعر دالت دولته ، لا ، فانه لا تزال لدينا جوانب وجدانية تنتسب الى التغنى بالشعر البليغ ، لأن الطبيعة لا تزال تتألق في خلق دواعي الشعر ، ولا يزال في الدين نجوم تتألق ، وأزهار تفتتح ، ولا تزال الأرض تذلل خدوها لمن يمشي عليها من أسراب الظباء .

(١) وقد تصاولت مرة مع الأستاذ عبد العزيز البشري^{مما} ما كنت أثرته في جريدة البلاغ عن شرح نهج البردة فقال الأستاذ وهو غاضب : « إن أبي أجل قدرا من أن يشرح^{معدة} لشاعر » وهذا شاهد جديد على فهم العلماء لقيمة الشعر . وقديما زعموا أن الشافعي قال :

وإنما نريد أن نقدر النثر حق قدره، وأن نبين مناهجه ومذاهبه ممثلة في كتاب القرن الرابع،
لأنه في رأينا أول عصر في اللغة العربية أراد فيه الكتاب أن يستبدوا بمعاني الشعراء وألفاظهم
وتعابيرهم، وأن يروضوا القلم الطليق على التحليق في جميع الأجواء .

٢٠ — ولعلم الناظر في كتابنا هذا أن أول ما يهمننا هو المعاني والأغراض، وليست
الألفاظ والتعابير إلا وسائل لتجلية المعاني وكشفها وتوضيحها بحيث يستطيع القارئ أن يشارك
الكاتب في حسه وشعوره، وذوقه ووجدانه، وضلاله وهده . ومن أجل هذا آهتمننا اهتماما
بالغا بتحليل آراء الكتاب ومذاهبهم الاجتماعية، واتجاهاتهم العقلية، وثوراتهم النفسية
والوجدانية، ولم نشترط من حيث الصورة إلا أن يكون الكاتب كاتباً (écrivain) أي رجلاً
قديراً على تلوين أفكاره وخواطره تلويهاً يستهوى العقول والألباب، فليس كل مفصّل عن
غرضه بقادر على جذبنا إليه، وإنما يستميلنا الكتاب الفنانون الذين يجمعون بين جودة المعنى
وجمال الأداء .

الباب الأول

تَطَوُّرُ النَّزْلِ الْفَنِّي

أَمِنْ عَصْرِ السُّبْحَةِ إِلَى الْقُرُونِ الْوَالِدَةِ

١ - النثر الجاهلي

١ - هل كان للعرب ترفني في عصور الجاهلية؟ وهل كانوا يفصحون عن أغراضهم بغير الشعر والخطب والأمثال؟

لقد اتفق مؤرخو اللغة العربية وآدابها كما اتفق مؤرخو الإسلام على أن العرب لم يكن لهم وجود أدبي ولا سياسي قبل عصر النبوة، وأن الإسلام هو الذي أحياهم بعد موت ونهبهم بعد خمول.

هذا الاتفاق يرجع إلى أصليين : فهو عند مؤرخي الإسلام من المسلمين تأييد لزرعة دينية يراد بها إثبات أن الإسلام هو الذي خلق العرب خلفا وأنشأهم إنشاء : فنقلهم من الظلمات إلى النور، ومن العدم إلى الوجود . وهو عند مؤرخي اللغة العربية وآدابها يرجع إلى الشك في كثير من النصوص الأدبية التي أثرت عن العرب قبل الإسلام من خطب وأسجاع وأمثال.

٢ - وقد ذكر الأستاذ خليل مطران وهو يحاور الدكتور محمد هيكل في الجامعة المصرية سنة ١٩٢٨ أن أشار إلى أن مجموعة الأدب التي أثرت عن الجاهليين لم تكن تزيد عن كراس، وأنها على ضآلتها كانت مهمة في تثقيف الأدباء لذلك العهد أمثال علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب . وهذا خطأ من الأستاذ مطران فإن الثقافة التي ظهر أثرها في خطباء العرب لعهد النبوة كانت تشهد بوجود مجموعات مهمة جيدة من الشعر والنثر والخطب والأمثال .

٣ - وهناك رأى مثقل بأوزار النثر الضلال وهو رأى المسيو مرسيه ومن شايعة كالديكتور طه حسين . وذلك الرأى يقضى أن العرب في الجاهلية كانوا يعيشون عيشة أولية (Primitif) والحياة الأولية لا توجب النثر . لأنه لغة العقل وقد تسمح بالشعر لأنه لغة العاطفة والخيال . وهذا الرأى أعلنه المسيو مرسيه في المحاضرة التي أفتتح بها دروسه

في مدرسة اللغات الشرقية في باريس منذ أعوام، ثم أذاعه مطبوعاً في كراس خاص^(١). وقد اختطف الدكتور طه حسين هذا الرأي وأذاعه في دروسه بالجامعة المصرية ثم أثبتته في كتاب (المجمل) الذي أشترك في وضعه للدارس الثانوية^(٢). وكان ينتظر أن يتنبه المسيو مرسيه وشايعه الدكتور طه حسين إلى أن العصر الذي سمي به بالأولية عند العرب هو القرن الخامس للميلاد. وفي ذلك العصر كان النثر الفني موجوداً عند أكثر الأمم التي جاورت العرب أو عرفوها كالفرس والهنود والمصريين واليونان، وليس بمعقول أن يكون لتلك الأمم ثرفي قبل الميلاد بأكثر من خمسة قرون ثم لا يكون للعرب ثرفي بعد الميلاد بحسبة قرون، كأن العرب أنفردوا في التاريخ القديم بالتخلف في ميادين العقل والمنطق والخيال.

والمسيو مرسيه يؤمن بوجود الخطب في العصر الجاهلي، وينكر إنكاراً مطلقاً أن يكون هناك ثرفي كالذي يابجأ إليه الرجل لإذاعة فكرة، أو دفع شبهة، أو إيضاح مشكلة. وفاته وفات أشياءه أن القرآن يشير إلى أنه كانت هناك كتب دينية وأدبية لم يطلع عليها النبي عليه السلام حتى يثبهم بأنه تلقى القرآن مما نُقل إليه من علوم الأولين وما كنت ومن قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا لأرتاب المبطلون^(٣).

وكانت حجة المسيو مرسيه التي واجهني بها في صيف سنة ١٩٢٧ أنه لو كانت هناك مؤلفات نثرية لدونت وحفظت ونقلت إلينا كلها أو بعضها كما هو الشأن آثار الهند والفرس والروم. وقد أجبته يومذاك بأن فقدان تلك الآثار لا يكفي لإنكار ما كان لها نصيب من الوجود. على أن في القرآن الكفاية وهو أثر جاهلي كما سنبينه في قليل.

٤ — وخلاصة ما أراد أنه كان للعرب قبل الاسلام ثرفي يتناسب مع صفاء أذهانهم، وسلامة طباعهم، ولكنه ضاع لأسباب أهمها شح الأمية، وقلة التدوين، وبعد ذلك النثر عن الحياة الجديدة التي جاء بها الاسلام ودون القرآن.

(١) يمكن الرجوع الى نص هذه المحاضرة في

(Revue Africaine—Nos 330 & 331 (1er & 2e trimestres 1927)

(٢) المجمل ص ١٥ و ١٦ (٣) القصص.

وما نقله الرواة من النصوص لا يكفى لتعيين أساليب النثر فى العصر الجاهلى ، وبيان الاتجاهات العقلية التى كان يرمى اليها الكاتبون إذ ذاك ، ودور على قلته مما وضع فى العصر الأموى وصدر العصر العباسى لأغراض دينية وسياسية ، وهو لهذا لا يعين مدرسة نثرية ، ولا مذهباً اجتماعياً ، ولا رأياً عاماً ، وإنما يعين أذواق واضعيه ، ومذاهبهم السياسية ، واتجاهاتهم الدينية .

ومن أمثلة ذلك حديث خنافر الحميرى ، وهو منقول عن ابن الكلبي ، ومثبت فى الجزء الأول من الأمالى ^(١) : وهو حديث مختلف وضع بعد الاسلام . وقد أضفته إلى النثر المنسوب إلى العصر الجاهلى مع أنه قيل — على فرض صحته — فى عصر النبوة : لأننى أدخل تلك الفترة فى الجاهلية ، إذ لم يكن الاسلام أستطاع أن يحو الآثار التى سبقته فى الشعر والكتابة وأن يبدع مناهج جديدة للانشاء والتفكير تغاير مذاهب الجاهليين .

والذى وضع هذا الحديث أراد أن يثبت رسالة النبي إلى الجن ، وهى مسألة لا نعرض لها برفض أو قبول ، وإنما نقرر أن واضعها قصد إلى هذه الغاية مستعيناً فى سبيل الوصول إليها بمحاكاة الله ^{تعالى} اليمنية ، فذكر "الزخبيخ" و"المهوب" بدل النار ، و"الواهر" بدل الساكن و"الجمتين" بدل العينين ، ليقع فى روع القارئ صحة الرواية ، مع أنه يبعد أن تكون اللغة اليمنية فى ذلك الحين شديدة القرب من اللغة العدنانية بحيث لا تختلفها إلا فى بعض الألفاظ . وكل ما يمكن أنه الأصله من مثل هذا الحديث هو أطمثنان الرواة إلى أن لغة الكهان كانت مسجوعة ، وأنه كان من المؤلف أن يتبع النثر بشئ من الشعر . ولهذا قيمته فى تصور حالة النثر الفنى فى العصر الجاهلى . إن لم يصل بنا إلى تحديد ما كان عليه من قوة أو ضعف ووضوح أو غموض .

٥ — والحكم الذى أجريناه على حديث خنافر هو الحكم الذى نقضى به فى تقدير خطبة قس بن ساعدة الإيادى ، وهى الخطبة التى زعم الرواة أنه تنبأ فيها بظهور الرسول ، وهى بلا

شك خطبة وضعت لإيham الجمهور أن نبوة محمد كانت مما يجرى على ألسنة الخطباء الموفقين من أصحاب الحكمة في عهد الجاهلية . وهي كذلك خطبة مسجوعة ختمت بقطعة من النثر على نمط الحديث المنسوب إلى خنافر بن التوأم الحميري .

٦ - ومن أهم ما نسب إلى العصر الجاهلي من آيات النثر الفني خطب وفود العرب عند كسرى . وهي خطب طويلة فصيحة مثبتة في الجزء الأول من العقد الفريد . وأنا أرى أن هذه الخطب منجولة وضعها الرواة بعد الاسلام لأغراض سياسية ، حين أرادوا أن يثبتوا فضل العرب في الجاهلية ، وأنهم كانوا قادرين على مقاومة الفرس بالسيف واللسان . وأكبر الظن أنها وضعت في العصر الإسلامي ، فإن لغتها تشابه تمام المشابهة للغة التي كتبت بها مشاورة المهدي لأهل بيته في بغداد سنة ١٧٠ .^(١) ويكفي أن يكون الباحث إلى نصوص تلك الخطب وهاته المشاورة ليقنع بأن التشابه بين الأثرين . وفاته واضح من حيث الألفاظ والتعابير والأسلوب . وتدلنا خطب الوافدين على طمعا النبي عليه تصور العرب بعد الاسلام لما كان عليه أسلافهم من المنعة وقوة الجانب ومن قبله من يفهم به من الثورة على كسرى والتأهب لمقاومته والخروج على سلطانه صورة لشمال العرب وعاداتهم وأخلاقهم وطباعهم ، وتفسير لما أخذ من أنه لو كانت هناك في بعض الأوضاع الاجتماعية .

ويؤيد ما ذهب إليه من أنها كتبت بعد الاسلام أننا نجد لكاتبها كان لها نصيب من موضوعا في لغة تماثل تمام المماثلة لغة أولئك الخطباء ، مما يثبت بعد قليل .

ما جرى في تلك الوفادة . ولست نستطيع إثبات أن ذلك كان شرفي يتناسب مع صفاء أذهانهم ، به كيف كان النعمان ينظم ديوان التحرير في قصره .^(٢) شيوخ الأمية ، وقلة التدوين ، وبعد ذلك النثر

(١) ديوان القرآن

(١) ص ١٠١-١٠٦ ج ١

(٢) هذا لا يمنع أنه كان في قصر النعمان ديوان للأدباء

على مجازاة من يتصلون بهم من الفرس والروم في التحليل

س ، القصص .

(Revue Africaine—Nos 330 & 331 (1er d. 2e

نظموا دواوين الرسائل ، وأعدوا لكل فن من فنون الكتابة رجالا إخصائيين ، ولذلك نجد مشاورة المهدي لأهل بيته مثلا ختمت بهذه العبارة :

”وكتب فى شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ببغداد“

٧ — والذى قلناه فى خطب الوفود يمكن أن نقوله فى أكثر القصص والمحاورات التى نسبت إلى أهل الجاهلية ، وتكلف واضعوها أن ينشئوا لها من الشعر وأن يضيفوا إليها من الأمثال ما يتناسب مع الغرض الذى وضعت له والظرف الذى قيلت فيه .

والنتيجة أننا لا نستطيع أن نعطى النثر الفنى فى العصر الجاهلى لونا نظمتن إليه . لأن أكثر ما نسب إلى الجاهليين غير صحيح . ومؤرخو الآداب مطمئنون إلى أن الشعر بقى منه أضعاف وأن ينفى من النثر : لأن الشعر موزون مقفى يسهل حفظه ، ولأن أكثره قيل فى حوادث (١) والذى أعدت على ترديده ، ولأن التدوين كان قليلا جدا فلم يحفظ به من النثر إلا اليسير . لها برفض و إليها بحكاية الرفض كله كالدكتور طه حسين .

والمجتمعات بدرع الجاهلى مهددا بمثل هذا الرفض مع اتفاق الباحثين على أنه كان وحده موضع اليمين فى ذلك الحين والناشرين ، فكيف يمكن الاطمئنان إلى صحة ما نسب إلى الجاهليين من وكل ما يمكن أنه كانت قليلة ، ومع أن من خطباء الإسلام نفسه من ضاعت آثارهم كانت مسجوعة ، وأنه كان ردة مستفيضة جدا مثل سبحان وغيره من الخطباء الذين حدثنا عنهم حالة النثر الفنى فى العصر الجاهلى . أصول الآداب .

ووضوح أو غموض .

٥ — والحكم الذى أجريناه على حديثه يستقيم مع ذلك ما نراه من أنه كان للعرب نثر قس بن ساعدة الإيادى ، وهى الخطبة التى زعم

تدعى به العرب من جيد المنشور أكثر مما تكلمت به من جيد

فليعلم القارئ ان لدينا شاهدا من شواهد النثر الجاهلي يصح الاعتماد عليه وهو القرآن .

ولا ينبغي الاندهاش من عد القرآن أثرا جاهليا ، فانه من صور العصر الجاهلي : إذ جاء بلغته وتصويراته وتقاليده وتعاييره ، وهو — بالرغم مما أجمع عليه المسلمون من تفرد بصفتها أدبية لم تكن معروفة في ظنهم عند العرب — يعطينا صورة للنثر الجاهلي ، وإن لم يمكن الحكم بأن هذه الصورة كانت مماثلة تمام المماثلة للصور النثرية عند غير النبي من الكتاب والخطباء .

وقد قدمت هذا الشاهد للمسيو مرسية الذي يرى أن النثر الفني يتبدى بآثاره المقتض ، فأخذ يبحث عن مخرج ولكنه لم يبتدأ الى الآن . أما الدكتور طه حسين فقد أحتدى الى مخرج لطيف ، وذلك إعلانه أخيرا في دروسه بالجامعة المصرية أن القرآن لا هو شعر ولا هو نثر ، وإنما هو قرآن ^(١) .

وقد بلغتني عنه هذه الكلمة وأنا في باريس ، فحسبته يمزح ، والمزاح مما يباح فيها فلما عدت راجعته فوجدته يصح على أن الكلام ينقسم الى ثلاثة أقسام : شعر ونثر وقرآن . وقد حسب الدكتور طه أنه ينبو بهذا التأويل ! وكان الظن به أن يؤيدنا فيما رأيناه من عدم النثر الفني عند العرب ، وأن لا يستكثر علينا أن ننقض بعض ما يرى المستشرقون ، أنه لهم يرون بلا حق أن العرب لم تكن لهم ذاتية أدبية ، وإنما أخذوا طرائق النثر الفني عن الفرس ، الآكل واليونان ^(٢) .

(١) وهي متابعة غير دقيقة للمسيو مرسية الذي يرى أن القرآن ليس حليفاً بل هو نثر ويقول :

On est donc fondé à insérer à la langue du Coran le nom de prose au sens plein et strict du mot.

وذنب القرآن عند المسيو مرسية أنه في الأغلب مسجوع وموزون ، ولا يخرج من قيد إلا ليع في قيد ، ولو صح رأى المسيو مرسية لأنكرنا أن يكون في آثاره من جبال القرن الرابع والخامس ما هو حليق بأن يسمى نثرا : لأن أغلب كلام أولئك مسجوع وموزون .

(٢) الدكتور طه لا يتقف عند العصر الجاهلي في نثره ، فقد صرح في إحدى محاضراته بالجامعة الأمريكية — مارس سنة ١٩٣٣ — أن القرن الأول بعد الهجرة لم يكن فيه نثر يعتد به ولم تكن للكتاب أهمية اجتماعية . وإنما كان الشأن للذم والشعر . وسيرى القارئ ان هذا رأى قليل الحفظ من الصواب .

٩ — القرآن شاهد من شواهد النثر الفنى ، ولو كره المكابرون ، فأين نضعه من عهود النثر فى اللغة العربية ؟ أنضعه فى العهد الإسلامى ؟ وكيف والإسلام لم يكن موجودا قبل القرآن حتى يغير أوضاع التعابير والأساليب !

فلا مفتر إذن من الاعتراف بأن القرآن يعطى صورة صحيحة من النثر الفنى لعهد الجاهلية ، لأنه نزل لهداية أولئك الجاهلين ، وهم لا يخاطبون بغير ما يفهمون . والنبي جاء لإرشاد قومه وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر فى الحدود التى رسمها الدين الحنيف ، ولم يكن القرآن إلا أداة لنشر تلك الرسالة الكريمة التى أعزت العرب بعد ذل ، وهدتهم بعد ضلال .

وفى القرآن نص صريح على أن الرسول لا يرسل ((إلا بلسان قومه ليبين لهم)) . وتلك إشارة ^{توضح} بها لمن لا يكفهم المنطق ، وإلا فكيف يعقل أن يحدث النبي قومه بما ينبو عن أذواقهم وأفهامهم ، وهو رجل مسئول لا يستطيع أن يقصد الى الإغراب فى الألفاظ والتعابير ، أو قو^د اللغة على الالتواء عما ألف العرب من طرائق البيان .

إنه لو ا^دلح أن اللغات يتميز بعضها عن بعض بشيئين اثنين : اللفظ والتعبير . وقد تتحد طائفة من الألفاظ فى بعض اللغات كما يقع ذلك فى العربية والتركية والفارسية والعبرية والهندية . ثم لا يقال أن وحدة الألفاظ تقتضى وحدة اللغات ، لأن سر اللغة هو فى طريقة الأداء لا فى أعيان الألفاظ ، ومن هنا صح لك أن تنظر فى صفحة من كتاب تركى فتجد ثلاثة أخصاسها مفردات عربية ثم لا يغنيك ذلك فى فهم ما أفصح عنه الكاتب من المعانى والأغراض .

وقد نزل القرآن بلغة العرب ففهموه ^{بصدق} فهم ، ووصل الى قرارة نفوس المؤمنين فلاءها روحا ويقينا ، وأستثار الدفائن من صدور المشركين فأعلنوا ما فى قلوبهم من غيظ وما فى رءوسهم من عناد . أفكان شئ من ذلك يقع لو نزل القرآن بأساليب لا يفقهها أهل الجاهلية ؟

١٠ — القرآن ليس بشعر ، لأنه خال من القوافى والأوزان ، وهذا موضع اتفاق .

ولكن أيمكن القول بأنه ليس بنثر أيضا كما يتوهم الدكتور طه حسين ؟ وليت شعري لمن يقال هذا الكلام ! أيقال لرجال الدين ؟ وكيف وهذه مسألة لغوية لا دينية ، وليس في أصول الدين ما يقهرنا على القول بما لم يقل به أحد من علماء اللغات ؟ أيقال لمؤرخي اللغة العربية ؟ وكيف وهم متفقون على أن القرآن كلام منشور وإن تفرد ببعض الخصائص والمميزات . أيقال إن الكتاب العزيز لا هو شعر ولا هو نثر وإنما هو قرآن لتصدق أوهام من يقولون بأن العرب لم يكن لهم نثر فني قبل الإسلام ، لأن النثر الفني لغة العقل ، وأولئك قوم كانوا يحيون حياة أولية لا تبيح لأمثالهم غير التغنى بعواطف الأطفال ؟

إذا كانت ميزة النثر الفني أنه أداة لشرح الحقائق التي توحى بها العقول ، فمن ذا الذي يستطيع أن ينكر أن القرآن عرض لكثير من المعضلات العقلية والاجتماعية والروحية التي كانت تغزو أئسدة العرب في الجاهلية ؟ أو من ذا الذي يرتاب في أنه خاطب بالشعر باسم العقل لا باسم الخيال ؟

ومن موجبات الغلط عند الدكتور طه حسين أنه يرجع كلمة قرآن إلى أصلها في اللغة السريانية ، فهي هناك معناها الجهر ، وهو يؤكد أنه لذلك كان المسلمون في الصدر الأول يجهرون بتلاوة القرآن .

وهذا منطق لا قيمة له ، وكان يصح لو أن القرآن كان مجموعة من الأشيد ومزامير يرتلها المسلمون في أعقاب الصلوات ، وكيف والقرآن لم يكن مملأ من التسيبحات والتهللات كما هو العهد بكثير من الكتب الدينية ، وإنما نزل لإبلاغ عادية المشركين ونقض أوهام النصارى واليهود ، وإن كان هذا لا يمنع أنه استعمل في سور قصيرة مسجوعة صالحة للتلاوة في سبيل الدعاء والابتهاال .

١١ - وأنا مع هذا أقرر أن القرآن - بالرغم من وضوح لغته وقربها أشد القرب من الآثار الأدبية لعهد الاسلام - أثرا أدبيا يختلف بعض الاختلاف عن الآثار التي جاءت بعده ، ويتفرد بالصفات الآتية :

(أولا) خلقه من الشعر الموزون خلوا تاما ، بخلاف ما كان قبله وبعده من النثر :

فقد كان يمزج غالبا بأبيات من الشعر تأتي في أثناء الرسائل ، وقد تكون فاتحة أو خاتمة .

(ثانيا) نظام الآيات الذي يسمح في الغالب بوقف كامل يستريح عنده نفس القارئ ،

وهو نظام يخالف نظام النثر المرسل ونظام السجع الذي أثر عن الجاهليين وشاع بعد الإسلام .

(ثالثا) ضرب الأمثال وسوق القصص . وهي طريقة لم تعرف إلا قليلا في الآثار

الأدبية لتلك العصور . والقرآن يستبجح تكرار القصة الواحدة كلما دعت مناسبة ، في تصرف

قد يكون قليلا في كثير من الأحيان .

رابعا - الابتداء بالفاظ غير مفهومة مثل الم ، حم ، طسم ، إلر ، ص ، ن ، ق .

إلى آخر تلك الفواتح التي اختلف في تأويلها المفسرون ، والتي لم يتهجد أحد إلى المراد منها^(١)

بالتحجيد ، وهذا النمط من الابتداء لم نجده في النصوص الأدبية الجاهلية ولا الإسلامية .

(١) كنت أتحدث عن فوائح السور مع صديق وأستاذي المسيو بلانشو (Blanchot) فعرض على تأويلا جديرا

بالدرس والتأمل ، وفي رأيه أن الحروف (الم . الر . حم . طسم) هي كالحروف (A O I) التي توجد في بعض

المواطن من (Chansons de geste) فهي ليست إلا (Neumes) أي إشارات وبيانات موسيقية يتبعها المرتلون

وقد كانت الرسيف القديمة بسيطة يشار إلى ألحانها بحرف أو حرفين أو ثلاثة ، وكان ذلك كافيا لتوجيه المعنى

أو المرتل إلى الصوت المقصود .

وفي الكنائس المسيحية بأوروبا ، حيث لا تزال تحفظ تقاليد الغناء الجريجوري (Le chant grégorien) وفي

أثيوبيا مثلا ، يوجد في طلائع موسيقى مشابه لذلك : فان رئيس المرتلين يبدأ الصوت بالحروف التي تذكر (الم) في القرآن

أو (A O I) في نشيدة الألبان .

ويؤيد رأي المسيو بلانشو أن (الم) تتعلق هكذا عند الترتيل : (ألف . لام . ميم) فهي ليست رمزا كتابيا ،

ولكنها رموز صوتية .

ومن المحتمل أن تكون تقاليد الترتيل في القرآن سارت في طريق كان معروفا عند أهل الجاهلية . ومن الواضح أن

القرآن لم يكن من همه أن يخالف الجاهليين ، كل شيء حتى في الأصوات الموسيقية : فليس بمستبعد أن تكون فوائح

السور إشارات صوتية لتوجيه الترتيل ، وأن تكون . لعدة لبعض ترانيم الجاهليين .

ونحن مع اعتدائنا بقيمة هذا الرأي نرى من أسباب ضعفه أن المفسرين لم يعطوه ما يستحق من العناية ، مع تطوعهم

بعرض كثير من الفروض . ولأنه كان معروفا في الصدر الأول لما تعرض لثل هذا الإغفال .

ومن يدرى فاعل دراسة أصول الموسيقى في الكنائس المسيحية والشامية في العهد الذي سبق الإسلام تعود على هذا

الرأي بشيء من التوضيح والتحديد . وإلى أن تظهر هذه الدراسة نقف أمام هذا الرأي بين الشك واليقين .

حامسا — يظهر أن القرآن يُنظم نظماً غنائياً، وأن ترتيله كان ملحوظاً في أوضاعه النثرية، بدليل أن كثيراً من الآيات ينتهي قبل أن ينتهي المعنى المطلوب . وترتيل القرآن والتغنى به كان معروفاً في صدر الإسلام، ولكننا لا نعرف كيف كانت قوانين التغنى به من الوجهة الموسيقية . لذلك ندهش حين نرى في سورة المدثر مثلاً أن الآية الحادية والثلاثين تزيد عن الآية الثلاثين والثانية والثلاثين أكثر من عشرين مرة . ولا حلّ لهذا الإشكال إلا ما نلهمحه في الآيات الطوال من الإشارات التي تليح الوقف القصير . على أن في هذا نفسه دلالة على أن المعنى هو الأساس في نظم القرآن ، وأن الغناء لا يقع إلا نافلة في صياغة الآيات .

سادسا — لا يلتزم القرآن السجع، فقد نجد سوراً قصيرة مسجوعة، وقد نجد صحناً مسجوعة من السور البكر . ولكن ذلك لا يطرد فيه . وكثيراً ما ينتقل من السجع إلى الكلام المرسل . وأكثر ما يكون ذلك حين يُعنى بالمشاكل الدينية والاجتماعية التي لا يراد بها مخاطبة القلوب حتى توضع وضعاً موسيقياً، وإنما يراد بها مخاطبة العقول ودعوتها إلى ترك بعض درجات عليه من بعض أوضاع الاجتماع .

سابعا — يتبدى القرآن السور بالبسملة، وهي سمة إسلامية أريد بها مخالفة ما كان عليه المشركون . وقد أراد فريق من الفقهاء أن يتخذوها فاتحة للرسائل والرسائل فوجدوا لذلك حديثاً يقول "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر" .

١٢ — وهذه الخصائص ليست كل شيء في متن القرآن، فهناك مميزات يختلف بها بعض السور عن بعض، وهناك فروق دقيقة تميز بها أساليب السور المدنية من السور المكية . ولكنه لا يمكن الفصل فيما تميز به أسلوب القرآن في جملة مميزات جوهرياً إلا إذا ظفرنا بنصوص كافية من نصوص النثر الذي عاصر القرآن أو سبقه بنحو جيل .

وهناك ميزة خطيرة للقرآن من الوجهة المعنوية : تلك تصويره للحقائق الأدبية والاجتماعية والدينية التي كان يعرفها العرب قبيل الإسلام، وتصويره لبعض ما كان يعرف العرب عن

أسلافهم الأولين ، وبعض ما سمعوا به من أخبار الأمم الأجنبية التى سامها ملوكها الخسف وسوء العذاب .

١٢ — واختلاصة أن القرآن نثر ، وأنه دليل على أن العرب كان عندهم ترفنى قبل الاسلام ، فكان لهم بذلك وجود أدبى متين قبل أن يتصلوا بالفرس واليونان .

وفى هذا قضاء على أوهام من زعموا أن أول كاتب فى اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسى الأصل^(١) ؛ وأن العرب لم يكونوا يعرفون من النثر غير الخطب والأشجاع والأمثال .

(١) هو رأى المسيو مرسيه وتابعه الدكتور طه حسين فى بحث نشره فى المقتطف ثم أعاد نشره فى كتابه عن (شوقى وحافظ) .

٢ - نشأة النثر الفني

حل الزخرف عنصر أصيل في اللغة العربية ؟ — الصور الفنية في القرآن — وجوب الاهتمام بدراس عصر النبوة —
خطب الرسول والخلفاء — نشأة العلوم العربية — الحياة السياسية والأدبية في عصر النبوة — آثار المعارض من
المشركين واليهود — كيف ضاعت آثار أولئك المعارضين — كيف ضاع أكثر ما ترك النبي وأصحابه من الآثار
الأدبية — ضياع الأدب الجاهلي — رأى ابن فارس في قدم النحو والعروض — رأى في قدم علم البديع

١ — بلنا أن النثر الفني وجد عند العرب في الجاهلية . وهو يفرض نوعا من الزخرف
يهتم به علماء البلاغة . فلننظر أكان ذلك الزخرف في طبيعة اللغة العربية ، أم وصل إليها من
الخارج حين اتصل العرب بالفرس واليونان .

يرى المسيو مرسيه أن الزخرف الفني وصل إلى العرب من الفرس . وكان الدكتور
طه حسين يشايه في ذلك ، ثم تغير بجنادة فزعم أنه وصل إلى العرب من اليونان . وكانت حجته
وحجة المسيو مرسيه أن المولعين بالزخرف من كتاب اللغة العربية أكثرهم من الأرس المستعربين .
وهذه مدرسة قديمة يرجع عهدها إلى رينان (Renan) ، وهي ترى أن الحكم بأن المدنية
العربية غريبة عن العرب ؛ وأن العرب مدينون في علومهم وفلسفتهم وفنونهم وآدابهم إلى
الفرس واليونان . والدكتور طه حسين متأثر بهذه المدرسة إلى حد بعيد : فهو يقول بأن
البلاغة العربية أخذت حرفيا عن البلاغة اليونانية حتى في الشواهد والصور والتعابير . وأذكر
أنه أوصاني بالرجوع إلى تاريخ الآداب الفارسية لأعرف بالضبط من هم الكتاب الفرس
الذين أوحوا إلى كتاب العرب فنون البديع كالسجع والتورية والطباق والجناس .

(١) إشارة إلى آراء مناقضة أعلنها الدكتور طه في سنة ١٩٢٨ و ١٩٢٩ (٢) قال ذلك في محاضرة
ألقاها في مسرح حديقة الأزيكية في ربيع سنة ١٩٢٩ ثم أمتنه في البحث الذي تشرع كتاب (نقد النثر) لتقديمه بن
جعفر (راجع نقد النثر ص ١٤) .

٢ — وأنا لا أنكر أن العرب تأثروا بالفرس فى حياتهم الأدبية، فان من الطبيعى أن تدخل فى اللغة والعقول عناصر جديدة بسبب المعاشرة والاعترا ب والاطلاع على آداب الناس فى مختلف الأقطار . فكل أمة فى الأرض تتأثر حضارتها وآدابها وفنونها بالنماذج الجديدة التى تصل إليها عن طريق المعارض الدولية، وعن طريق السياحات وتبادل الآراء والأفكار فى العلوم والفنون والآداب .

ولكنى — مع هذا — أقرر أن الزخرف عنصر أصيل فى اللغة العربية . وعندى لذلك شاهد لا يمحذ وهو القرآن .

٣ — أليس القرآن آية فنية؟ بلى، فلننظر إذن أهو كتاب طبيعى أم هو كتاب مملوء بالزخرف والصنعة المحكمة التى تدل على أنه أنزل على قوم يعرفون ما هو الكلام الجيد وما هو الأسلوب الحسن . وإننا لنرى المؤلفين فى علوم البلاغة من رجال القرن الثالث والرابع والخامس يرجعون إلى القرآن فىأخذون منه الشواهد المتنوعة التى قد يعز وجودها أحيانا فى الشعر والنثر عند الكتاب المتأخرين .

وأنا لا أعصر حتى الآن باحثا زجع فى تدوين الصور الفنية للنثر إلى القرآن وأهتم ببيان الجدة والروعة التى يحتوينا ذلك الكتاب الفذ، فمن الواجب أن يترك الباحثون ذلك الميدان الذى أولعوا به ليرى فيه وهو عصر الدولة العباسية، وأن يجعلوا ميدان النضال عصر النبوة نفسه، وأن يتحدثوا عما هى الصلات الأدبية والاجتماعية التى وصلت إلى العرب من الخارج فأعطت ثمرهم تلك القوة وذلك الزخرف اللذين نراهما مجسمين فى القرآن . هنالك نعرف بالبحث أكان القرآن صورة عبقرية أم تقليدية . ولكن مثل هذا العمل فى رأى خطر على الباحثين المسلمين فى الوقت الحاضر : لأن رأى العام فى مصر والشرق الإسلامى لا يسمح بدرس القرآن درسا تحليليا يبين ما فيه من العناصر العربية الصميمة والعناصر الدخيلة . والمستشرقون أيضا لا يهتمون بمثل هذا البحث لأن أكثرهم مقتنع بأن العرب لم يكن لهم وجود أدبى قبل الإسلام، والعرب بعد الإسلام فى رأيهم متأثرون بالفرس والروم . كائن العرب

لم يكن لهم من طبيعتهم الصافية ، وعقولهم القويّة ، وأذواقهم السليمة ، ما يكفى لأن تكون لهم اتجاهات فلسفية وأدبية وفنية تغلب عليها صبغة العبقريّة أكثر مما تغلب نزعة المحاكاة .

٤ — ولنفرض جدلاً أن المسلمين المعاصرين يسمعون لكاتب مثلى بمعالجة هذا البحث وأن المستشرقين كذلك آهتّموا به فستظل المسألة في رأي معقّدة صعبة الحل : لأنه لا يمكن الوصول الى يقين في تحديد العناصر الأدبية التي يحتويها القرآن إلا اذا أمكن الوصول الى مجموعة كبيرة من النثر الفنى عند العرب قبل الاسلام تمثل من ماضيه نحو ثلاثة قرون ، فانه يمكن حينذاك أن يقال بالتحديد ما هي الصفات الأصليّة في النثر العربى ، وهل القرآن يحاكيها محاكاة تامة ، أم هو فنٌّ من الكلام جديد .

ومفهوم أنه من المستحيل في الوقت الحاضر الوصول الى نماذج أدبية تمثل من الأدب العربى ثلاثة قرون أو قرنين قبل الاسلام ، وإذن بقى القرآن وحده يتقدّم الينا كل يوم على أنه صورة فنية مفردة لا نعرف لها شبيها موثوقا به قبل الاسلام كما يعتقد المسلمون . وانلطب والصايا والرسائل التي نقلت الينا على أنها جاهلية هي موضوع شك ، وهي فرض صحتها منسوبة الى القرن الذى يباشر الاسلام . ولا يمكن معرفة طبيعة لغة من ينسبها لعدد قليل من النصوص وجد في مدّة قليلة لا تزيد عن نصف قرن من الزمان .

٥ — ونحن مع هذه الحيرة لا نستطيع الفرار من الاقتناع بأن القرآن أثر عربى صرف ، لأن الرسول الذى تلقاه وبلغه عربى ، ولأنه نشأ في بيئة عربية ، وإن كان عربى مبين ، وليس أمامنا أى دليل على أنه متأثر تأثراً محسوساً بأدب أخرى أجنبية ، وإن كان هذا ممكناً ، لأن العرب قبل الاسلام كانوا على اتصال قليل أو كثير بمن جاورهم من الأمم ، وكانت لهم مع جيرانهم الأقربين والأبعدين علاقات تجارية . وهذا كله لا يفيد غير الظن وهو لا يغنى عن اليقين .

أفاستطيع بعد هذا البيان أن أقول من جديد : إن صور النثر العربى لا ينبغي البحث عن أصولها في القرن الثانى والثالث ، وإنما ينبغي الرجوع اليها في القرآن ، وإذن لا يصح الحكم

بأن الزخرف الفنى فى النثر العربى جاء عن طريق الفرس ، وإنما هو طابع أصيل فى اللغة العربية تطوّر مع الزمن وأخذ لونا بعد لون وانتقل من حال الى حال . وإن كان هذا لا يمنع أن تكون صلات العرب بالفرس زادت فى قوّة هذا التطوّر وأضافت إليه قوّة جديدة خيلت إلى الباحثين أن النثر العربى مدين للفرس فى تطوره ونموّه . وهذا يفسر جانباً من أسباب التطوّر ولكنه لا يرجعها إلى سبب واحد هو العلة الأولى كما ظن كثير من المستشرقين .

٦ — والخواص الفنية الموجودة فى القرآن توجد كذلك فى الآثار الأدبية التى عاصرتها كالأحاديث النبوية وخطب الخلفاء والولاة والقواد الذين شهدوا عصر النبوة أو جاءوا بعده بقليل . ففى خطبة الوداع للنبي عليه السلام وكتب عمر بن الخطاب وخطب على وزياد والمجّاج ربيع أدبية تقارب الروح السائد فى القرآن .

٧ — يمكن الحكم بأن اللغة الأدبية التى سبقت الاسلام لم تكن تخالف كثيراً لغة القرآن لأنّ اللغة الكبرى الذى ينقل اللغة من أسلوب إلى أسلوب ومن روح إلى روح لا يتم فى خمسين سنة مثلاً . وإنما يتطلب مدة طويلة . خصوصاً فى أمة بدوية محافظة قليلة الاختراع والتبديل فى لغتها وأسلوبها . ولكن هذا محض افتراض إلى أن توجد نصوص كافية موثوق بها تعيّن أن لغة القرآن كانت موجودة بروحها وأسلوبها ووضعها قبل الاسلام بقرن أو قرنين .

٨ — بعد هذا ينبغى أن ننظر فى نشأة العلوم العربية كالنحو والبلاغة والعروض . وهى أيضاً فى رأى قديمة لا يصح الحكم بأنها نشأت كلها بعد الاسلام فى القرن الأول والثانى كما يظن مؤرخو الآداب العربية . لأنه لا يعقل أن يظهر كتاب كالقرآن فى أهميته وبلاغته بين قوم لم يفكروا فى الفصاحة والعروض والنقد وطرائق التعبير . وظهور كتاب كالقرآن فى أى لغة يدل على أنها تعدت طور الطفولة منذ أزمان . واللغة حين تصل إلى عهد القوة

والفتوة لا تخلو من باحثين يهتمون بتقيد ما يعرض للأساليب من القوة والضعف والوضوح والغموض^(١).

والدكتور طه حسين يرى أن البلاغة نشأت في عهد متأخر حين اشتدت الخصومة بين علماء الكلام، والناظر في رأيه أول من أهتم بالبلاغة اهتماما جديا. وأنا أرى أن نشأة البلاغة قديمة سبقت القرآن وتطورت من بعده. ولكن ذلك كان يجري ببساطة وسهولة لا توقع في الزخرف، ومن أجل ذلك لاحظ مؤرخو الآداب أن بشارا هو أول من كلف بالبديع في شعره، وتبعه في ذلك مسلم بن الوليد وأبو نواس، وأن أبا تمام تأثر مسلما، وأولئك من شعراء القرن الثاني، فهل نشأ البديع في يوم وليلة، أم كان موجودا وتطور على السنة أولئك الشعراء؟

هـ — ولتقيد هنا أن القرآن في بلاغته إنما كان يخاطب قوما يفهمونه ويتبرقونه. وفهم القرآن وتذوقه لا يمكن أن يقع اتفاقا وبلا استعداد، بل لابد من أن تكون عند الجماهير التي سمعته وتأثرت به وأعنتت دينه ثقافة أدبية خاصة. وأنا لا أفترض، هذه الثقافة كانت كالثقافة التي ظفر بها العرب بعد الإسلام. ولكنها على كل حال كانت تتناسب قليلا أو كثيرا مع ما في القرآن من فصاحة وعمق. وهذا الذي أقوله يحملنا على الشك في التقاليد التي جرى عليها الباحثون من أن العرب كانوا أمتين بدرجة خطيرة وأنهم لذلك لم يحفظوا عن طريق الكتابة شيئا يستحق الذكر من قصائدهم وخطبهم ورسائلهم. بل أنا أذهب أبعد من ذلك فأقرر أن الإسلام كان تاجا لنهضة علمية وأدبية وسياسية وأخلاقية واجتماعية وفلسفية

(١) يذكر أبو هلال في كتاب الصاعين — ص ٣٥١ — أن أكرم بن صبيح كان إذا كاتب ملوك الجاهلية يقول لكتابه: (إفصلوا بين كل متقضى معنى، وصلوا إذا كان الكلام معجوبا بعضه بعض) وأن الحارث بن شمر التساني كان يقول لكتابه المرقش: (إذا نزع بك الكلام إلى الابتداء بغير ما أنت فيه فافصل بينه وبين تبعته من الأنطاط، فإني إن مذقت أناظك بغير ما يحسن أن تمذق فمرت القلوب عن وعيا وملها الأسماع واستقلتها الرواة). وفي أمثال هذه الكلمات دليل على أن الرواة نقلوا عن الجاهلين أحكاما في صناعة الكلام. وفي ذلك ما يصلح للاستئناس به في هذا الموضوع. وليس من شأني صحة هذه النصوص فهي على كل حال صورة لفهم نقاد العرب لبعض ما كان عليه أهل الجاهلية.

فى الحدود التى كان يستطيعها العرب ، لأنه لا يمكن رجلا فردا مثل النبى محمد عليه السلام أن ينقل أمة كاملة من العدم الى الوجود ومن الظلمات الى النور ومن العبودية الى السيادة القاهرة ، كل هذا لا يمكن أن يقع من دون أن تكون تلك الأمة قد آستعدت فى أعماقها وفى ضمائرها وفى عقولها بحيث آستطاع رجل واحد أن يكون منها أمة متحدة وكانت قبائل متفرقة ، وأن ينظم علومها وآدابها بحيث تستطيع أن تفرض سيادتها وتجاربها وعلومها على أجزاء مهمة من آسيا وأفريقيا وأوروبا فى زمن وجيز . ولو كان يكفى أن يكون الانسان نيا ليفعل ما فعله النبى محمد لما رأينا أنبياء أخفقوا ولم يصلوا : لأن أمهم لم تكن صالحة للبعث والنهوض .

١٠ - بل إنى لأذهب أبعد من ذلك فأقرر أن الحركة الأدبية والسياسية والاجتماعية فى عهد النبي لم تصوّر الى الآن بصورتها الحقيقية : فهذا رجل غير أمة كاملة فى عشرين عاما ولقيت دعوة لآلاف المصاعب . أفيمكن حقا الاقتناع بأنه لم يقل أكثر من عشر خطب ، وأن أنصاره لم يألوا من الخطب والرسائل إلا ما نقله عنهم الطبرى وغيره من المؤرخين ؟ وأين إذن المعارضة الشديدة التى قامت فى وجهه وأضطرتة الى الهجرة ؟ وأين ألسنة اليهود والعرب والأشراف من قريش ؟

افيعقل أن تمر حركة كهذه من دون أن تهب فى وجه صاحبها ألسنة الخطباء وأقلام الكتاب وشياطين الشعراء ؟

وهل تسمح طبيعة الوجود بأن رجلا كمحمد يقضى أسماره بين خواصه ، وأيامه فى ميادين الحروب ، من غير أن تكون له ولرجاله مساجلات قوية يتناولون فيها حجج خصومهم نقدا وتحليلا ويعرضون فيها للسياسة العامة بآراء لها من القيمة ما شهدنا آثاره فى الرسالة الإسلامية ؟

وهل يعقل كذلك أن يصبر رجال الوثنية والنصارى واليهود على التهم المختلفة يلقيها عليهم النبي وأصحابه من دون أن يقابلوا الشر بالشر والعدوان بالعدوان فيطيلوا القول فى النفع

عن دياناتهم والقدح فى الديانة الجديدة التى تهاجمهم فى عقور دارهم ، وتدعوهم إلى تحطيم أصنامهم وترك أحبارهم ورجبانهم؟ هل يعقل أن يمز ذلك كله من دون أن يكون لهؤلاء ألف خطبة وألف رسالة ، وألف قصيدة؟

١١ - أضيف إلى ذلك أن الحركة الإسلامية لم يعرف فيها من الخطباء والشعراء إلا عدد قليل لا يتناسب مع خطورة ذلك الموقف ، أفكان حقا أن الاسلام لم يقم إلا على أكثاف ذلك العدد القليل؟

إن الحياة العقلية فى عهد النبىؐ لم تنقل إلينا بصورتها الحقيقية ، ويرجع ضياع صورتها فى رأيى إلى سببين :

أولا - ضياع آثار حزب المعارضة معقول ، لأنه أنهزم ولم يعد فى الإمكان تدوين الرسائل الجارحة والخطب المقذعة والرسائل اللذاعة التى هوجم بها النبىؐ وأنصاره ، خصوصا إذا لاحظنا أن الذين نقلوا آثار ذلك العصر كلهم من المسلمين الذين يرون فى الإثم والخرج أن يعيدوا الشتائم والقذائف التى رُمى بها النبىؐ وجُرح بها الاسلام ، ولما نيت آثار حزب المعارضة لاستطعننا أن نفهم إلى أى حد كان خصوم النبىؐ يفهمون آراءه فى جماعية والمنزلية ، ولرأينا كذلك صورة من الأدب الذى كان يستبج مهاجمة النبىؐ ورسالته فى عنف وإقذاع .

ثانيا - ضياع آثار النبىؐ وأصحابه معقول أيضا فقد شعر المسلمون بأن واقعة اليمامة أضاعت جمهور الحفاظ بحيث أصبح القرآن نفسه مهتدا بالضياع ، ولولا ما فعله أبو بكر وعمر لتبدد القرآن وعدنا لا نجد منه إلا شذرات مختلفة لا تطمئن إليها النفس كما هو الحال فى الأحاديث التى دوت أخيرا ، بعد إذ مات الحفاظ الأولون .

١٢ - وإذا كانت الظروف المختلفة لم تسمح للعرب بأن يدونوا آثار ذلك العصر بطريقة منظمة فإنه لا يصح لنا أن نستنتج أنه لم تكن لهم حياة أدبية قوية تصور ميولهم وأذواقهم وعواطفهم ومشاعرهم وكفرهم وإيمانهم ووفاءهم وغدرهم ، إلى آخر الألو ان النفسية التى يقتضيها عصر التحول والانتقال فى جميع الأمم بلا استثناء .

وانما ينبغي أن نعتقد أنه كان لهم أدب قوى متين يقرب في روحه وأسلوبه من روح القرآن وأسلوبه : فان البيئة واحدة واللغة واحدة والعصر واحد ، ولم يكن محمد إلا بشرا أُمم هداية قومه كما صرح القرآن غير مرة ، لا سيما إذا تذكرنا أن القرآن نفسه وصف العرب في عدة مواطن بأنهم أهل فصاحة وجدل وخصومة وعناد ، ولم تكن فصاحتهم صمتا ، ولا جادلهم سكوتا ، ولا خصومتهم فرارا ، ولا عنادهم أنهما ، ولكنهم بالفعل قابلوا القول بالقول والسيف بالسيف نحو ثلث قرن إلى أن انتصر الإسلام ، ولم تبق من آثار خصومه غير ذكريات الجدل والحروب .

١٣ - والواقع أن تسمية ذلك العصر بالجاهلي تسمية دينية صرفة ، فان العرب لم يصفوا ذلك العصر بالجهل إلا فيما يختص بالمعتقدات الدينية . ولكنهم فيما يرجع الى الأدب كانوا يحسونه من أرق العصور ، وكانوا يتأثرون شعراء وخطباء وحكام في كثير من أبواب القول^(١)

وقد أسد بك العرب المسلمون بأهداب الأدب الجاهلي وعدوه وحده المرجع في ضبط أساليب اللغة العربية . ولم يتخذوا شواهد من الشعر الإسلامي إلا في الحدود التي حسبوها قريبة أشد القرب من النزعة الجاهلية ، فكان الشعراء لذلك يجتهدون في تذوق الأدب الجاهلي وفي رياضة أنفسهم على محاكاته والصدور عن وحيه وأخيلته وتعايره وألفاظه . وقد نفق ذلك الأدب نفاقا عظيما حتى رأينا من الرواة من يصنع القصائد والخطب والأمثال في لغة جاهلية لبيعها في الأسواق وفي قصور الأمراء والوزراء والخلفاء . فكان مثل ذلك الشعر الجاهلي مثل الآثار المصرية التي يخلقها التجار خلقا لبيعوها للأغنياء من عشاق العاديات . وقد نشأ عن

(١) ومن الخير أن ننبه القارئ الى أن العصر الجاهلي لا يتلأأمانا في بواديه ، فان البوادي العربية كانت ولا تزال بعيدة من الفنون الأدبية التي تعتمد على العقل والمنطق . وانما تقصد الحواضر العربية لعهد الجاهلية ، وتلك الحواضر كان فيها شعر وثرو قصص لأن هذه الفنون توجد حيث توجد الحضارة . والمدائن الكبيرة في العصر الجاهلي كانت فيها حضارة تتمثل في مظاهر مادية من المنازل والقصور ، ومظاهر معنوية من الملك والجاه والمال ، وهذه تلك توجب ثروة من الترف العقل والوجداني . والنثر الفني مظهر من ترف العقل والوجدان .

هذا فن من النقد يبرع فيه الأقدمون، فكان منهم من يهتم بتمييز الأدب الجاهلي الصحيح من الأدب الجاهلي المصنوع، نكايه بالرواة الملقين، أو حبا في تصفية الأدب الجاهلي من الريف المدخول.

وفي ذلك مقنع لمن يحب أن يطمئن إلى أن العصر الجاهلي لم يوصم بالجهل إلا فيما يختص بالدين. أما في الأدب فكان عصر نور وعرفان، كما تشهد آثار القدماء.

١٤ — هناك ناس يعتقدون أن الشعر الجاهلي منحول وهناك أفراد ينكرون أن يكون العرب الجاهليون عرفوا من الأدب شيئا آخر غير الشعر والأمثال، وأحب أن أبين أنه لا تعارض بين القول بنفى ذلك الأدب والقول بإثباته: فانا من الذين يرون أنه كان هناك أدب جاهلي واسع النطاق، وأنه كان للعرب الجاهليين ألسنة فصيحة وعقول ناضجة وآراء حكيمة قادرة على قيادة تلك الجماهير الحية التي تفرقت في الحواضر العربية. يقولون: وأين آثار ذلك الأدب الجاهلي؟

وأجيب بأن ذلك الأدب قد صاع أكثره حتى يصعب أن نتخذ منه أداة لوصف ما كان عليه الجاهليون من أنظمة أدبية وسياسية واجتماعية ودينية.

وهنا يتسم المسكرون قائلين: ومن يدرينا أنه كان هناك أدب ضاع!

وعند هذه المفاجأة نجد الحواب: لأن الأدب الجاهلي لم يضع إلا عند المتأخرين، أما المتقدمون من رجال القرن الأول والثاني والثالث فقد عرفوه وتدارسوه. فمن ذا الذي يستطيع أن ينكر أن المجموعة الشعرية التي جمعها المفضل الضبي في القرن الثاني مجموعة صحيحة؟ ومن ذا الذي يستطيع أن ينكر أن تلك المجموعة تدل على أنه كان هناك شعر جاهلي كثير جدا اختيرت منه المفضليات؟

١٥ — أضيف. إلى هذا أن من رجال الأدب الموثوق بهم من جمع كتباً كثيرة من آثار

العصر الجاهلي، وأن تلك الكتب قد ضاعت أصولها ضياعاً تاماً، وفي ذلك ما يشعروا بأن المتأخرين فقدوا ذخائر كثيرة من أصول الأدب القديم.

إننا نعرف أن أبا تمام جمع كتاب الحماسة من مكتبة أحد الأمراء ، والجمع هنا معناه التخير، ونعرف كذلك أن ديوان الحماسة يشتمل على مختارات نفيسة من الأدب الجاهلى . فهل نجد من يدلنا على مصادر أخرى لأكثر ما أختاره أبو تمام غير ديوان الحماسة ؟

فإن لم توجد تلك المصادر فلن يكون معنى هذا أن أبا تمام خلق ديوان الحماسة خلقا ، ولكن معناه أن الحياة كتبت لذلك الديوان . وليس أبو تمام وحده هو الذى عنى باختيار الشعر القديم فهناك مؤلفون عديدون آهتموا بذلك النوع من الاختيار ثم ضاعت مختاراتهم ولم يبق إلا ذكرها فى كتب التراجم . ومع هذا فمن الغرور أن نحكم على قيمة الأدب الجاهلى بما قرأناه منه فمن ذلك الأدب مجموعات قيمة جدا لم يكتب عليها الفناء وغفل عن استغلالها أكثر الباحثين . وفى دار الكتب المصرية مخطوطات لم يفكر أحد فى الانتفاع بها ، مع أن دار الكتب المصرية من المكاتب الفقيرة التى جمعت ذخائرها اتفاقا ومصادفة بدون أن يكون عند من يمسها فكرة الاستقصاء . وفى مكاتب اسبانيا والمغرب آثار جليلة للأدب الجاهلى لم يستغلها أحد ، ولعلها لو فُهرست ونظمت ودرست لكشفت لنا نواحى مجهولة من الأدب القديم ... ولكن أين من ينتظر نتيجة البحث ؟ إن المتأدين عندنا يحكون على الغائب بلا بيئة ولا شهود !

١٦ — أنا أقول بأن الأدب الجاهلى لم يضع إلا عند المتأخرين ، أما المتقدمون فكانوا يعرفونه ويروونه ويتجرون به فى الأسواق الأدبية وعلى أبواب الملوك .

ولكنى مع هذا أقرر أن هناك شطرا من الأدب الجاهلى قبره المسلمون عمدا فى القرن الأول ، وإلى القارئ البيان :

كانت الحياة الجاهلية تختلف عن الحياة الإسلامية اختلافا شديدا . ففى الأعوام التى سبقت الإسلام كانت فى الجزيرة عادات وتقاليد وأوضاع لها ألوان وثنية أو نصرانية أو يهودية ، فلما جاء الإسلام تبدلت تلك التقاليد وصار من اللائق تناسى ما يمسها من الأدب الجاهلى وصفا أو شرحا أو تعليلا . ورأى العرب المسلمون أن فى ذلك الأدب جوانب خطيرة يجب

إسقاطها والقضاء عليها صونا للوحدة الإسلامية . وليس في هذا شيء منكراً ، لأن الأدب يتصل أكثره بحياة الناس وسيرهم وأخبارهم وأخلاقهم من شمائل مرضية أو طباع ذميمة ، وفي حياته حياة لما وصف أو شرح أو علل من الأخلاق والسجاي والمعتقدات . وقد يتفق أن يكون في العرب المسلمين من تناول شعراء الجاهلية وكتّابهم وخطبائهم بالقدح والثلب والتحقير ، وقد يتفق كذلك أن تكون هناك قبائل تهاجت وتحاربت في الجاهلية ثم ألّف بينها الإسلام . أفيكون من الخزم أن يعود الرواة إلى ذلك الأدب فيرووه ويحيوه وفيه إثارة لما سكن وهدأ من قديم الأحقاد ؟

١٧ - إن العرب في الصدر الأول من الإسلام تأسوا عامدين أبواباً كثيرة من الأدب الذي كان محفوظاً قبيل الإسلام صيانة للوحدة الإسلامية من عبث الأهواء . وليس هذا الذي نقوله مجرّد افتراض : ففى التاريخ الإسلامى شواهد كثيرة تقنعنا بأن الخلفاء الراشدين كانوا يتشائمون من رواية الأدب الجاهلى . وهم بالطبع لا يتشاءمون ، لا من الأدب الذى يصوّر ما كان عند الجاهليين من ترات وعداوات وحزازات . وهم فيما عدا ذلك كانوا يدعون الى رواية الشعر وحفظه لأنه كما قال عمر بن الخطاب ديوان العرب . والذى تقضى به فى الشعر هو نفس ما تقضى به فى الرسائل والخطب والاشجاع . فمن عسى أن يكون ذلك المسلم الذى يستبجح رواية خطب الكهان ورسائلهم وأجتماعهم وهى تفيض بالروح الوثنية ؟ ومن عسى أن يكون ذلك المسلم الذى يروى ما أثير عن النصارى واليهود قبيل الإسلام ، فى حين أن الدين الجديد كان يروضهم على تناسى جميع الآداب التى تنافى أدب القرآن ^(١) .

(١) نستطيع فهم ذلك بصورة أوضح إذا تذكرنا الأدب المصرى قبل الحرب العالمية التى تارت سنة ١٩١٤ فإن رسائل الشيخ عبد العريش شاولى ضد الألفاظ ورسائله فى مهاجمة سعد باشا رطلول ، وقصائد حافظ بك إبراهيم فى حادثة دشواى والمطالب التى طرقت بها عن إبراهيم بك الملباوى ، كل ذلك لا تتمك روائته اليوم : لأن فيه إثارة لعداوة التى كانت بين المسلمين والأقباط . وفيه تحقير للناس رضى عنهم الجمهور . وقد كتبت مرة رسالة عن الأدب المصرى قبل الحرب دأبت أن تنشرها جريدة (البلاغ) فرأيت ذلك اقتناعاً بصحة هذا المثال . ومن هذا الباب ما وقع بعد وفاة سعد باشا فقد جمع كاتبه الخاص محمد إبراهيم الجيزى خطبه السياسية ونشرها كاملة فكتب رئيس تحرير جريدة السياسة

١٨ — من أجل هذا كله أستبعد أن يكون العرب ظلوا خالي الذهن من العلوم الأدبية الى أن اتصلوا بالفرس والروم . وإذا كان المستشرقون ومن لف لفهم من أدباء مصر يستكثرون أن يكون أبو الأسود الدؤلى هو أول من فكر فى النحو ويرجحون أن يكون النحو أثرا من اتصال العرب بالسريان والروم ، فانا أستقل أن يكون أبو الأسود أول من فكر فى النحو ، وأرى من المضحك أن يظن أن العرب لم يتنبهوا الى وقوع اللحن فى لغتهم إلا بعد الاسلام ، وأن اتصال العرب بالأعاجم هو الذى رماهم باللحن ، كأن لغة العرب يدع من اللغات لا يلحقها تغير ولا تبدل . وذلك رأى واضح البطلان . وانما أرجح أن يكون العرب فى جاهليتهم عرفوا النحو وعرفوا غيره من العلوم الأدبية . ألسنا نرى القرآن يجرى ^{نظم} نمط واحد فى أوضاعه النحوية لا يختلف فى ذلك إلا باختلاف روايته من القبائل المختلفة ؟ ^(١) و لغة القرآن هى لغة قريش ، وهى التى تهمننا ، فإذا كنا نجهل الى الآن كيف تطورت وكيف نشأت ^{لومها وفنونها} ، فمن الأمانة العلمية أن نقف على الأقل محايدين وأن لا نجزم برأى ^{استنقضه الأيام} .

وهذا الذى أقوله أنا مستعد لتحمل تبعته والدفاع عنه ، وأرجو أن يكون له أثر فى فهم البيئة القديمة التى نزل فيها القرآن ، والتى تستحق أن تدرس من جديد درسا علميا يكشف اللثام عن ذلك العصر الذى سموه خطأ عصر الجهل ، وهو فى رأى أهل لأن يسمى عهد معرفة ونور .

١٩ — على أننى وقفت على نص مهم يدل على أن من نقاد العرب من أرتاب فى نشأة العلوم اللغوية ، إذ رأيت ابن فارس يلاحظ فى قصيدة الخطيئة التى أولها :

مقالا بين فيه أن فى نشر خطب سعد باشا كاملة خطرا على ائتلاف الأحزاب ، لأن فى المجموعة التى نشرها الجزيرى خطبا جارحة فى مهاجمة ثروت باشا ، وكان من أصدقاء حزب الأحرار الدستوريين . ولا ينس القارئ أننا اليوم أشد تسامحا مما كان عليه العرب فى صدر الاسلام ، لما نكرهه نحن كان عندهم إماما وفوقا .

(١) عدم اختلاف الأوضاع النحوية لا يدل على أن العرب لذلك العهد كانوا عرفوا النحو ، ولكنه دليل على أن اللغة كانت موحدة فى طرائق التعبير ، وهذا كاف للاقتناع بأنهم كانوا فكروا فى بطلها بقواعد النحو وأصول البيان ،

شأقتك أظعان ليد لي دون ناظرة بواكر

أن قوافيها كلها عند الترنم والإعراب تجي مرفوعة ، ولولا علم الخطيئة بالرفع لاختلف إعرابها لأن تساويها في حركة واحدة اتفاقاً من غير قصد لا يكون ، وهذا برهان على فهم الخطيئة لقواعد النحو والعروض ^(١) .

وكذلك يرى ابن فارس أن معرفة القدماء من الصحابة بكتابة المصحف على النحو الذي يعلمه النحويون في ذوات الواو والياء والهمزة والمد والقصر تدل على فهمهم لأصول اللغة وقواعد الكتابة ^(٢) . وهو على الجملة يرى أن العلوم العربية كانت معروفة قبل الاسلام .

٢ - والذي قضى به ابن فارس في نشأة النحو والعروض هو الذي تقضى به نحن في نشأة البديع ، بل نشأة البديع أظهر وأوضح ، فإن القرآن سجل مظهراً من مظاهر الزخرف والسجع ، فهو إذن كان موجوداً قبل الاسلام ، وليس السجع فقط هو الذي بيده القرآن ، بل أكثر الفنون البديعية أخذت شواهداً من آيات القرآن .

ونتيجة ما سلف أن العرب في جاهليتهم أهتموا بالنثر الفني اهتماماً ظهر أثره وعرفت خواصه في خطب الخطباء ورسائل الكتاب ، ولكن ما عرف عن العرب من إهمال التقيد والتدوين لشيوع الأمية فيهم أضعاف علينا معرفة من اهتموا اهتماماً جدياً بتدوين البديع ، فكان من ذلك أن شاع الاعتقاد بأن ابن المعتز هو أول الكاتبين في هذا الفن الجميل ^(٣) .

(١) الصاحبى ص ٩ (٢) الصاحبى ص ١١ (٣) جاء في زهر الآداب (ص ١١٤ ج ٤) مانصه :

”قال أبو بكر الصولي : اجتمعت مع جماعة من الشعراء عند أبي العباس عبد الله بن المعتز وكان يتحقق بعلم البديع تحقّقاً ينصر دعواه فيه لسان مذاكراته : فلم يبق مسلك من مسالك الشعراء إلا سلك بنا شعباً من شعبه ، وأرانا أحسن ما قيل في باب“ .

فالمسألة إذن هي أن ابن المعتز كان يدعى التفوق في علم البديع . فعلم البديع كان معروفاً . ومن الصعب أن تقبل سكوت كتاب العرب وأدبائهم نحو قرنين عن هذا الفن حتى يجي . هذا الأمر المترف فيؤلف فيه .

ومافلهاء في ابن المعتز قوله في قدامة بن جعفر الذي عده من أوائل المؤلفين في البديع . وفي حديث خنفر الحميري — المنبث في الأمالى ص ١٣٣ ج ١ — وصف القرآن بأنه ”ليس بالشعر المؤلف ، ولا السجع المتكلف“ وهذا الحديث موضوع بلا شك ، ولكن فيه إشارة الى أنه كان مفهومًا عند الرواة أن الناس لعهد النبوة كانوا يميزون بين السجع المطلوب ، والسجع المصنوع . والسجع من فنون البديع .

٣ - النثر الفني في العصر الإسلامي *

١ - جاء الإسلام فأيقظ العرب وأثار ما سكن من نشاطهم وحياتهم وجبب إليهم القوة والجاه والملك، فأنطلقت ألسنتهم، وظهر فيهم الكتاب والخطباء والشعراء . وكان من دواعي ذبوع البلاغة عندهم حاجتهم إلى الدفاع عن صدق النبوة، ثم اشتجار الفتن بينهم : فتن التحزب والاختلاف والانقسام التي كانت أهم باعث على شيوع الكتابة والخطابة في تلك الأمة التي توارت في الصحراء زمنا غير قليل . وأول مظهر لقوة الخطابة والكتابة هو التنافس الشديد الذي قام بسبب الخلافة، فقد كان كل حزب من المهاجرين والأنصار يدعو لنفسه سرا وعلانية عن طريق الخطب والرسائل والمجادلات التي كانت تشور في المجالس والمساجد والأسواق . ثم كانت الفتنة بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان فظهرت حاجة الفريقين إلى البلاغة وأشدت الرغبة في نشر الدعوة في الأمصار الإسلامية . ولم يكن حظ هذه النهضة الأدبية كحظ النهضة التي سبقتها في الجاهلية، لأن العرب شرعوا يتحضرون ويسلكون سبيل الأمم المتمدنة في التدوين ، فكان من أثر ذلك أن حفظت آثار الكتاب والخطباء بحيث يستطيع الباحث أن يعين مظاهر النثر وخواصه في عصر بني أمية وصدر عصر بني العباس .

٢ - وأول ما ينبغي إثباته من خواص النثر هو عمقه وقوته بفضل تأثره بالآداب الأجنبية التي عرفها العرب حين أنبثوا بفضل الإسلام في الممالك التي فتحوها واكتسبوا بالمعايشة والمصاهرة روحا جديدا ظهر أثره في الخطب والرسائل والمحاورات ، حتى يمكن أن يقال : إن الفتح والملك أعطاهم من قوة الملاحظة ودقة التفكير ما لم يكن يعطيهم القرآن وحده

(*) هذا الفصل ليس إلا نظرة سريعة إلى مذاهب النثر في العصر الإسلامي يمكن القارئ من تصور الجهود التي سبقت القرن الرابع، وكل جزء من هذا الفصل يحتاج إلى درس مفطور . ولكنا وقفنا عند حدود الإشارة لأن الفصل برمه نوع من التمهيد . رآهم ما يحتاجه هو الكلام عن السجع، وسنفرده بفصل خاص .

لو ظلوا محصورين في أرجاء الجزيرة العربية^(١). ولا عبرة بما عرف عن فريق من العرب من الحرص على تربية أبنائهم تربية عربية صرفة، فإن هذا لم يكن يراد به صرف الشباب العربي عن فهم المذنبات الأجنبية، وإنما كان يراد به حمايته من العجمة التي كانت تعيب الأرستوقراطية العربية، وتجعل صاحبها موضع السخرية بين معاصريه.

٣ - ومن خواص الكتاب عدم التأني في البدء والختم فقد كانت الجاهلية تكتب في أول كتبها «باسمك اللهم» ثم تكتب من فلان إلى فلان، ويمضون في الغرض، وكان النبي يفتتح كتبه بالسلسلة ثم يقول: من محمد رسول الله إلى فلان، ويتبدى صدورها غالباً بالسلام عليكم، أو السلام على من أتبع الهدى ويتثنى بالتحميد بعد السلام فيقول: إني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، ويتخلص من صدر الكتاب إلى المقصود تارة بآما بعد وأخرى بغيرها، وكان يختتمها في الأكثر بالسلام عليكم ورحمة الله، أو السلام على من أتبع الهدى^(٢).

٤ - والذي يهمنا تقييده في هذا الفصل هو المنهج العام الذي جرى عليه الثغر في ذلك العصر، ويظهر مما أطلعنا عليه أن مسألة الإيجاز والإطناب كانت تجري في الغالب على مقتضى

(١) ليس معنى هذا أن تنكر أثر القرآن في إحياء البلاغة العربية، لا، نحن نؤمن بأن القرآن كان من أقوى العوامل على النشاط الأدبي، وزاد مصدر الدراسات الأدبية والنوعية والتجوية التي ازدهرت في الحضارة الإسلامية. وحسب التاري أن يذكر أن عمل علماء اللغة والنحو والصرف والبيان كان دعوة إلى غاية: هي الإيمان بأعجاز القرآن. ولم ينت أثره عند إحياء العلوم الأدبية. وإنما أثره يرايد في أساليب الكتاب والخطباء حتى لوحظ أن ابن نباتة الخطيب كان يسلك في أثره سلك الأساليب القرآنية وحتى دؤن المتقدمون أن الروح القرآني كان يظهر على لسان الصابي وعلى سنان قلبه اللبغ، من المجازة أن نوافق المسبوسيه حين يقول في أكار أثر القرآن في الثقفة:

L'influence du livre saint sur le développement de la plus ancienne prose littéraire arabe est infiniment moins considérable qu'on ne serait tenté de la croire (Revue Africaine 1^{re} & 2^e trimestres 1927. P. 19).

ولا قيمة لما أشار إليه المسبوسيه عتب كمنه هذه من أن العرب كانوا يجنبون محاكاة القرآن، فإن ذلك لا يتأتى تأثرهم به وتأثيره فيهم، فإن هناك عدوى روحية تمس القلب والعقل وتصنع الآثار الأدبية بصيغة ما يقرأ المرء أو يسمع وإن تكلف الحرب وحسب نفسه بمنجاة من المحاكاة والتقليد.

(٢) راجع خطاب النبي محمد ركب أبي بكر لسلمين يهده إلى عمر بالخلافة وخطاب عثمان إلى علي يستنجد به من ١٢٨ و ١٢٩ من كتاب الرسيط.

الحال فكان الكاتب يوجز تارة ويطنب أخرى وفقا للظروف التى يكتب فيها رسالته ، وكان من الخطباء من يطيل ، وكان منهم من يوجز ، ولا يرجعون فى ذلك الى قاعدة غير المناسبات التى توجب الكلام ، فتقضى مرة بالاطناب وتقضى حيناً بالايجاز . وسبحان وائل الذى عرف بالتطويل وبأنه كان يخطب أحيانا نصف يوم أثرت عنه الخطب القصيرة الموجزة . وذلك يدل على أن الفطرة كانت غالبية على ذلك العصر وأن القاعدة المطردة لم تكن شيئا آخر غير مراعاة الظروف .

ورسائل على بن أبى طالب وخطبه ووصاياه وعهوده الى ولاته تجرى على هذا النمط ، فهو يطيل حين يكتب عهدا يبين فيه ما يجب على الحاكم فى سياسة القطر الذى يراه ، ويوجز حين يكتب الى بعض خواصه فى شأن معين لا يقتضى التطويل ^(١) .

هـ - غير أنه لا يمكن الحكم بأن الكتاب والخطباء كانوا جميعا موفقين فى ترك الفضول ، بل يظهر أنه فى أوائل العصر العباسى وقع اضطراب فى تقدير الظروف والمناسبات وفهم أقدار المخاطبين ، فاننا نجد ابن قتيبة يدعو فى مقدمة كتابه أدب الكاتب الى وضع الألفاظ على قدر الكاتب والمكتوب اليه بحيث لا يعطى الكاتب خسيس الناس رفيع الكلام ولا رفيع الناس وضعيع الكلام ، ونراه يلاحظ أن الكتاب لا يفرقون بين من يكتب اليه "أنا فعلت ذلك" ومن يكتب اليه "نحن فعلنا ذلك" ^(٢) .

وقد ساعدنا ابن قتيبة على تحديد النمط الذى ساد فى العصر الاسلامى حيث ناقش كلمة أبرويز فى الايجاز "وأجمع الكثير مما تريد فى القليل مما تقول" فبين أن الايجاز ليس محمودا فى كل موضع ، ولا يختار فى كل كتاب ، بل لكل مقام مقال ، وأنه لو كان الايجاز محمودا فى كل الأحوال لجرى عليه القرآن ، ولكنه لم يفعل ذلك ، بل أطال تارة للتوكيد ، وحذف تارة للايجاز ، وكرر تارة للإفهام ، ثم أندفع ابن قتيبة فذكر أنه ليس يجوز لمن قام مقاماً فى تحضيض على حرب أو حمالة بدم أو صلح بين عشائراً أن يقلل الكلام ويختصره ، ولا لمن

كتب إلى عامة في فتح أو استصلاح أن يوجزه وأنه لو كتب كاتب إلى أهل بلد في الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان حين بلغه عنه تلكه في بيعته: "أما بعد فإني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت ، والسلام".

لم يعمل هذا الكلام في انفسها عمله في نفس مروان، ولكن الصواب أن يطيل ويكرر ويعيد ويبدئ، ويحذر وينذر.

وقد توهم الأستاذ أحمد الزيات أن كلمة ابن قتيبة هذه دليل على أن النثر في الصدر الأول كان موسوماً بالايحاز وأبى ابن قتيبة دعا أهل ذلك العصر إلى عدم الاكتفاء بما كان يكتفى به أمثال يزيد بن الوليد. وهذا خطأ في الاستنتاج فإن ابن قتيبة ذكر أن القرآن كان يطيل ويكرر حسب مقتضى الظروف. والقرآن أساس المنهج الكتابي لذلك العصر بلا شك. والذي لا يمكن نكرانه أنه حصل تطور في النثر في العصور الإسلامية الأولى ، ولكنه كان تطوراً بطيئاً لم تظهر آثاره إلا في طرائق التعبير عن الشؤون الخاصة بتدبير الملك ومخاطبة الخلفاء ، وهذا التطور متأثر باتصال العرب بالفرس ، فقد كان هؤلاء تقاليد ملكية رغب العرب في محاكاتها حين أطلعوا على ما عندهم من الفنون والآداب.

(١) أدب الكاتب ص ١٦ و ١٧ (٢) تاريخ الأدب العربي ص ١٢٥

(٣) المعروف أن عبد الحميد بن يحيى هو أول من نقل تقاليد الفرس إلى الكتابة العربية (راجع الصاعين ص ٥١) ومعنى هذا أنه كتب بحرف تاليف كنية أضف إليها عبد الحميد زيادات فنية في الفواحي واختوام. فهو لم يشئ ما جديداً ، ولكنه أصلح قديماً. وهذا يؤيد رأينا في نشأة النثر الفني ، فهو فن قديم عرفه العرب في الجاهلية ، وتم نصجه في العصر الاسلامي .

ومن طريق ما يحسن تقييده أن المستشرق كرواير تابور في شخصية عبد الحميد بن يحيى فلم يهتموا به اهتماماً يذكر في دائرة المعارف الإسلامية ، ورأى الدكتور طه حسين أن يقدم فرعم أن شخصية عبد الحميد شخصية خرافية كشيء أمروئ القيس !! ونحن نأمن أن ثبت أن الجاحظ ذكره في كتبه ، بهالكا هذا التحدي ، وعدنا إلى كتب الجاحظ نألمها أحبار عبد الحميد . رأينا الجاحظ يتحدث عنه في رسائله وكتبه غير مرة ، وأقبلنا على الدكتور طه نجده نتيجة البحث ، ماداً فتحدثت إلى تلاميذه بأن عبد الحميد بن يحيى كان يعرف اليونانية !! ثم أثبت ذلك في بحث قدمه إلى مؤتمر =

٦ — ويهتما فوق ما تقدم أن ننص على أن النثر فى العصر الإسلامى لم يؤخذ عليه التزام السجع، وإنما كان يقع السجع حين يقع بسيطا مقبولا لا تكلف فيه، ولا نكاد نجد فى القرن الأول والثانى وأوائل الثالث كتابا يتخذ السجع طابعا ملازما لنثره، خصوصا الكتاب المشاهير الذين أغنوا تلك العهود بأدبهم كأبن المقفع وعبد الحميد بن يحيى. والسجع فى الأصل حلية يزدان بها النثر، وهى مقبولة ما دامت تجرى فى حدود الاعتدال والقصد، كما وقع فى القرآن، فإن القرآن يسجع أحيانا ولكنه لا يلتزم السجع، لذلك نجا من التكلف والابتذال. والصنعة التى أثرت عن ذلك العصر تدل على أن الكتاب كانوا يفهمون أن الكتابة فن له قواعد وأصول، وأن الكاتب يجب أن يصفى كتابته من أوشاب الخطأ والضعف، لذلك رأينا واصل بن عطاء مثلا يتجنب الرأى فى خطبه إذ كان ألثغ، بالرغم من أن هذا الحرف كثير الدوران فى الكلام^(١). وتجنب مثل هذا الحرف من باحث كبير مثل واصل يتكلم ويخطب بلا انقطاع يدل على أن إجادة النثر أصبحت مقصودة عند كتاب ذلك العصر وخطبائه، ومثل هذا القصد كاف للدلالة على فهم أولئك الناس لأهمية الإتقان.

٧ — والذى يتأمل آثار ذلك العصر يرى اهتمام الكتاب والخطباء ببسط المعانى وتأكيدها بتكرير الجمل المتقاربة فى مغزاها ومدلولها. وهذا يعطينا فكرة واضحة عن تصور الكتاب والخطباء لنفسية من يرأسلونهم أو يخاطبونهم. وهذا التكرير الذى أشير إليه ليس كالتكرير الذى سأنكره فيما بعد على كتاب القرن الرابع، وإنما هو تكرير خفيف مقبول يؤكد المعنى ولا يشغله كالذى وقع فى رسالة الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز:

”وَأَذْكُرُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَوْتَ وَمَا بَعْدَهُ وَقَلَّةَ أَشْيَاعِكَ عِنْدَهُ وَأَنْصَارِكَ عَلَيْهِ، فَتُرَوِّدُ لَهُ وَمَا بَعْدَهُ مِنَ الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ. وَأَعْلَمُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ لَكَ مِثْرًا غَيْرَ مِثْرِكَ الَّذِي أَنْتَ بِهِ

= المستشرقين... ويظهر أن الدكتور طه نسي أن يحدث تلاميذه وقراءه عن دله على مكان عبد الحميد فى كتب الجاحظ. فليسمح لنا أن نحفظ لأنفسنا هذا الحق، ورحم الله ابن الروى إذ قال:

وعزير على مدحى لنفسى غير أنى جشمته للدلالة
وهو عيب يكاد يسقط فيه كل حر يريد يظهر حاله

يطول فيه ثوائك، ويفارقك أحباؤك، يسهونك في قعره فريدا وحيدا، فتروذ له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه^(١) .

وهذا التكرير قد يزيد عند بعض الكتاب ولكنه يظل مقبولا أيضا كالذي وقع في مشاورة المهدي لأهل بيته في مثل هذه التعابير :

”أيها المهدي ! إن في كل أمر غاية ، ولكل قوم صناعة آستفرغت رأيهم وآستفرقت أشغالهم وآستنفدت أعمارهم ، وذهبوا بها وذهبت بهم ، وعرفوا بها وعرفت بهم ، ولهذا الأمور التي جعلتنا فيها غاية وطلبت معوتنا عليها أقوامٌ من أبناء الحروب وساسة الأمور وقادة الجنود، وفرسان المزاخر وإخوان التجارب وأبطال الوقائع الذين رشحتهم سجالها وفياتهم ظلالها وقرمتهم بواجدها ، فلو عجمت ما قبلهم وكشفت ما عندهم لوجدت نظائر تؤيد أمرك، وتجارب توافق نظرك ، وأحاديث تقوى قلبك ، فأما نحن معاشر عمالك وأصحاب دواوينك خسنٌ بنا وكثيرٌ منا أن نقوم بثقل ما ملتنا من عملك ، وآستودعنا من أمانتك ، وشغلتنا به من إمضاء عدلك ، وإنفاذ حكمك ، وإظهار حقك^(٢) “ .

وقد ساع هذا الأسلوب في القرن الثاني والثالث ، واتخذ الجاحظ خاصة أسلوبا مختارا لا يحيد عنه ، يظهر ذلك في مقدمة كتبه مثل البيان والتبيين والحيوان ، وفي رسائله الأدبية والاجتماعية . وفي رأي أن الجاحظ وصل إلى درجة الغلو والإملا ، ولولا أنه كان يخطط في كتابته بين الجحد والهزل والحلو والمر لآتصرف الناس عنه ، ولكنه كان رجلا عالما بطباع الناس وغرائزهم فاستطاع بذلك أن يتلقى أهواءهم وأذواقهم وأن ينسجهم برقة دعابته وحلاوة استطراده إسرآفه في أسلوبه وتطويله الذي عرف به واضطر للدفاع عنه في مقدمة كتاب الحيوان .

٨ — ومن مظاهر الصنعة في ذلك العصر تعمد الخيال ، وتلك صفة نجدها عند أكثر

الكتاب والخطباء ، فتجد الججاج مثلا يقول :

”يا أهل الكوفة ! إني لأرى رءوسنا قد أينعت وحان قطافها، وإني لأصاحبها، وكأني أنظر إلى الدماء تترقق بين العائم واللقى“ .

ويقول :

”إن أمير المؤمنين — أطل الله بقاءه! — كبّ كئاته بين يديه فعجم عيدانها فوجدني أمراً عوداً وأصلبها عموداً ، فرماكم بى ، لأنكم طالما أوضعتم فى الفتنة ، وأضطجعتم فى مراقد الضلال ... أما والله لألحونكم لحو العصا ، ولأعصبنكم عصب السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل^(١)“ .

ويثار الخيال فى النثر ظاهر فى خطب على بن أبى طالب وزياد ورسائل عبد الحميد^(٢)، وحكم الواعظين والنساک فى تلك الأيام، ومنشورات الخوارج التى داجموا بها الخلفاء . وهذا الأسلوب مظهر من مظاهر الفن لا ينبغى تجاهله عند تقرير الخواص التى أمتاز بها النثر فى ذلك الحين .

هذه المظاهر الفنية التى طبع بها النثر فى عصر بنى أمية وصدر دولة بنى العباس كانت مقدمة لنوع من الاسراف فى الزخرف أفسد النثر فيما بعد ، وأثقله بألوان من السجع والأزدواج .

(١) البيان والتبيين ص ١٦٤ و ١٦٥ ج ٢ (٢) أظهر أثر لعبد الحميد بن يحيى هو رسائله التى وجهها إلى الكتاب يوصيهم فيها بحفظ الكرامة واحترام المهنة ومواساة الزملاء — راجع صبح الأعشى ص ٨٥ — ٨٩ ج ١

٤ - أطوار السجع

١ - لهذا البحث أهمية عظيمة . وقد جمعنا له مذكرات عديدة تصلح مادة لكتيب خاص . ثم رأينا إجمالاً في هذا الفصل ^(١) . وترجع أهمية هذا البحث الى مايجب من تبديد الشبهة التي تأصلت في أنفس كثير من الباحثين الذين يظنون أن الترام السجع لم يقع إلا في القرن الرابع . فقد حدثني المسيو مرسيه مرة أنه وجد كتاباً لمؤلف قديم اسمه الأخضري ، وأن المؤلف منسوب الى القرن الثالث . ويصرّ المسيو مرسيه على ضمه الى رجال القرن الرابع : لأنه يلتزم السجع . وأستطرد المسيو مرسيه فذكر أنه عرض هذه المسألة على الدكتور طه حسين فوافقه على استبعاد أن يكون من رجال القرن الثالث من يلتزم السجع . وفي هذا الفصل تُبدّد أمثال هذه الشبهات ، ويعرف القارئ أن السجع حلقة قديمة أُولع بها الكتاب والخطباء قبل القرن الرابع بأجيال ، وأنه لا يكفى أن يكون الكتاب مسجوعاً ليُطرد من حظيرة القرن الثالث كما حكم ولیم مرسيه وطه حسين ^(٢) .

٢ - ولنذكر أولاً أن السجع من مميزات البلاغة الفطرية : فهو في أكثر اللغات يجرى بأطراد في الحكم والأمثال . ويمكن الحكم بأن أمثال العامة تقع غالباً مسجوعة ، وقد يجنى السجع على المعنى أحياناً في تعابير القطريين من أهل البادية والريف ، وفي ذلك دلالة على أن المحسنات اللفظية مما يقصده العوام ، وليست مما ينفرد به الخواص . والقارئ يستطيع بسهولة أن يجمع عشرين مثلاً في لحظة واحدة من أسجاع العامة فيما سار على ألسنتهم من مختلف

(١) عرضنا لهذا الموضوع في الأصل الفرنسي ، ثم عدنا وفصلناه بعض التفصيل في المقدمة الفرنسية التي نشرناها مع (الرسالة العذراء) . (٢) من الانصاف أن نذكر أن رأى هذين الباحثين قد تغير في كثير من موضوعات الدر الفنى بعد الأبحاث الحديثة التي قدّمتها الى السوربون ومدرسة اللغات الشرقية في باريس .

الحكم والأمثال^(١) . ولو رجع القارئ الى احدى اللغات الأوروبية ، كالفرنسية مثلاً ، لوجد السجع يجرى بأطراد في هذا الضرب من القول ، مثل :

(Qui va à la chasse, perd sa place)

ومثل :

(Qui se ressemble, s'assemble)

ومثل :

La nuit, tous les chats sont gris

وكالمثل السائر :

Vouloir, c'est pouvoir

وما جمعه الرواة من خطب الجاهليين أكثره مسجوع ، نكتبة قس بن ساعدة الإيادى وخطبة النابغة الذبياني^(٢) . ومع أننا نرتاب في صحة تلك الخطب فأننا نرى في وضعها مسجوعة — على فرض صحة الوضع — دليلاً على أن الرواة كانوا يفهمون أن السجع من طبيعة البلاغة الجاهلية ، وفهم الرواة له قيمته : لأنهم أقرب منا بمراحل طويلة الى ذلك العهد ، ولأنهم كانوا يملكون من أصول الأدب الجاهلى الصحيح ما يمكنهم من الحكم على طرائق أهله في التعبير .

٣ — ولو تركنا المشكوك فيه من الآثار الجاهلية ، وعدنا الى نص جاهلى لاريب فيه وهو القرآن لرأينا السجع إحدى سماته الأساسية . والقرآن نثر جاهلى ، كما أوضحنا ذلك من قبل ، والسجع فيه يجرى على طريقة جاهلية حين يخاطب القلب والوجدان . ولا ينكر متعنت

(١) أسياع العامة كثيرة ، ومن طريفها ما جرى في وصف الشهور المصرية مثل : ” ياك ، صباحك مساك “ يريدون وصفه بقصر النهار . و ” برمها ، روح الغيط وهات “ لأن برمها موسم ظهور البقول . و ” برمودة ، دق العموده “ لأنه موسم الحصاد والدرس ، درس القمح والقول والشعير . ويقولون في موعد انصرام الشتاء ” اذا اخضر التوت البرد يموت “ ، ومن فكاهاتهم : ” عيشك كريس يا خالتى ! من سوء بحتى ، يا بنت اختى ! “ وأذكر بمناسبة السجع في الشهور المصرية أن هناك سجعاً يماثله عند عوام الفرنسيين مثل :

En Avril, n'enlève pas un fil

ومثل :

En Mai, fais ce qu'il te plait

(٢) تجد هذه الخطبة في ص ٣٨ من مجموعة التحفة البية .

أن القرآن وَضَعَ للصلوات والدعوات ومواقف الشاء والخوف والرجاء سورا مسجوعة تماثل ما كان يترنمه المتدينون من النصارى واليهود والوثنيين . ولا ننس أن الوثنية كانت ديناً يؤمن به أهلها في طاعة وخشوع، وكانت لهم طقوس في هياكلهم . وكانت تلك الطقوس تؤدى على نحو قريب مما كان يفعل أهل الكتاب من النصارى واليهود . والقرآن وضع لأهله صلوات وترنيمات تقرب في صيغتها الفنية مما كان لأهل الكتاب من صلوات وترنيمات . والفرق بين الملتين يرجع الى المعاني ويكاد ينعدم فيما يتعلق بالصور والأشكال . ولودخلت كنيسة في باريس ورأيت كيف تتلى الدعوات بعد الصلاة لتذكرت الصورة التي تتلى بها الدعوات بعد الصلاة في مساجد القاهرة : ذلك بأن الديانات الثلاث الاسلام والنصرانية واليهودية ترجع الى منهج واحد هو الجزيرة العربية . فاللون الدينى واحد ، وصورة الأداء تكاد تكون واحدة ، فلا تحسب أن القرآن غير مناهج الناس في يوم وليلة ، وتذكر أنه لم يشأ إلا أن يصلح من عقائد من دعاهم الى الله وأن يروضهم على فكرة واحدة هي التوحيد .

ومعنى هذا أن القرآن يسجع لأن السجع كان فنا من فنون القول والدعاء عند الجاهلية ، والصلوات بطبيعتها تحتاج الى لون من الفن يمثل في السجع . لأن فيه استجابة للموسيقا الوجدانية في قلوب المتبتلين . واليك أمثلة من سجع القرآن .

”وكم أرسلنا من نبي في الأولين . وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون . فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين . ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم . الذى جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون . والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشربنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون . والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استؤيتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وانا الى ربنا لمنقلبون“ .^(١)

”والسابقون السابقون، أولئك المقربون . في جنات النعيم . ثلثة من الأولين . وقليل من الآخرين . على سرر موضونة . متكئين عليها متقابلين . يطوف عليهم ولدان مخلدون .^(١) بأكواب وأباريق وكأس من معين . لا يصدعون عنها ولا ينزفون . وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون . وحور عِين . كأمثال اللؤلؤ المكنون . جزاء بما كانوا يعملون . لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيماً ، إلا قيلاً سلاماً سلاماً . وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين . في سدر مخضود، وطلح منضود، وظل ممدود، وماء مسكوب، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة وفرش مرفوعة^(٢)“ .

وعند ملاحظة سجع القرآن نراه يتخلف بقاء في بعض الأحيان : كأن تكون القافية نونية فتجيء في وسط السياق فاصلة ميمية . وفي هذا برهان على أن المعنى هو الأصل ، وأن السجع لا يراد به مطلق التوافق في الحرف ، وإنما يقصد به التاجين والتنغيم ، لأن تغيير الحرف مع بقاء الوزن لا يغير من الرنة الموسيقية^(٣) .

٤ — وفي الأحاديث النبوية سجع مقصود، خلافا لما ظن المسيو ماسينيون^(٤)، ومن أمثلته :

”أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلُّوا الأرحام، وصلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام“ .

ونقل الغزالي في باب الاستعاذات المأثورة عن الرسول :

”اللهم إني أعوذ بك من طمع يهدى الى طبع، ومن طمع في غير مطعم، ومن طمع حيث لا مطعم . اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، ودعاء لا يسمع ، ونفس لا تشبع . وأعوذ بك من الجوع ، فانه بثس الضجيع ، ومن الخيانة، فانه بثست البطانة، ومن الكسل والبخل والجبن ومن الهرم ومن أن أرذ الى أرذل العمر“^(٥) .

(١) موضونة : منسوجة بقضبان من الذهب والجواهر . (٢) سورة الواقعة . (٣) الباقلافي

ينفى ورود السجع في القرآن وقد نقضنا رأيه من الأساس . راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب ص ٧٧ — ٨١

(٤) في ملاحظاته التي أبداهها يوم مناقشته الرسالة في السوربون . (٥) إحياء علوم الدين ج ١ ص ٣٣٠

ولنقيد أن السجع لا يطرّد في الحديث كما لا يطرّد في القرآن، فهو حلية تقصد، ولكنها لا تلتزم، لما في التزامها في قهر المعاني على متابعة الألفاظ .

وقد نجد في الأحاديث عبارات تجرى مجرى السجع من حيث مراعاة الوزن وإن لم تراعى فيها القافية، كقوله عليه السلام :

”اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، وتجمع بها شملتي، وتلم بها شعبي، وترد بها ألفتى، وتصلح بها ديني، وتحفظ بها غائبي، وترفع بها شاهدي، وتركي بها عملي، وتبيض بها وجهي، وتلهمني بها رشدي، وتعصمني بها من كل سوء“^(١) .

وهذا النوع من ”الوزن“ قريب من السجع من حيث بناء الجملة، وسنعود إليه بعد قليل .

• — ولو مضينا نستقرئ خطب الصحابة والخلفاء الراشدين لرأينا السجع يلتزم في كثير

من الأحيان . والى القارئ خطبة منسوبة الى علي بن أبي طالب :

”دار بالبلاء محفوفة، وبالغدر معروفة، لا تدوم أحوالها، ولا يسلم نزاهها، أحوال مختلفة، وتارات متصرفة، العيش فيها مذموم، والأمان فيها معدوم . وانما أهلها فيها أغراض مستهدفة : ترميهم بسهامها، وتفتنهم بجمامها . وأعلموا عباد الله أنكم وما أتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى قبلكم من كان أطول منكم أعمارا، وأعمر ديارا، وأبعد آثارا، أصبحت أصواتهم هامة، ورياحهم راكدة، وأجسادهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية : فاستبدلوا بالقصور المشيدة، والنفارق المهددة، الصخور والأشجار المسندة، والقبور^(٢) اللاطئة الملمدة . التي قد بنى بالخراب فئاؤها، وشيد بالتراب بناؤها، فحلها مقرب، وساكنها مغرب، بين أهل محلة موحشين، وأهل فراغ متشاغلين ، لا يستأنسون بالأوطان ولا يتواصلون تواصل الخيران، على ما بينهم من قرب الجوار، ودق الديار، وكيف يكون بينهم تراور وقد طحنهم بكلكلة البلى، وأكثتهم الجنادل والثرى، وكأن قد صرتم الى ما صاروا

اليه، وارتبهنكم ذلك المضجع، وضمكم ذلك المستودع، فكيف بكم لوتناحت بكم الأمور، وبعثرت القبور^(١) .

وقد أراد المسيو ديمومبين (Demombynes) أن يغض من قيمة ما نسب الى علي بن أبي طالب من خطب ورسائل، استنادا الى ما شاع منذ أزمان من أن الشريف الرضى هو واضع كتاب (نهج البلاغة) أما نحن فتتخفظ في هذه المسألة كل التحفظ؛ لأن الجاحظ يتحدثنا أن خطب علي وعمر وعثمان كانت محفوظة في مجموعات^(٢). ومعنى هذا أن خطب علي كانت معروفة قبل الشريف الرضى . والذين نسبوا نهج البلاغة إلى الرضى يحتجون بأنه وضعها لأغراض شيعية، فلم لا نقول من جانبنا بأن تهمة الوضع جاءت لتأييد خصوم الحملات الشيعية^(٣) ؟ .

ولوفرضنا أن أمثال ما أستشهدنا به من خطب علي ليس له فان ذلك لا يمنع أن السجع كان من مزايا ذلك الخطيب، لأن من يقلد خطيبا يحرص على تمثيل مذهبه في الأداء والأسلوب . وقد رأينا التوحيدى يخترع حديث السقيفة ويرى من الفن أن ينطق الصحابة بكلام مسجوع، لأنه كان يعرف اغتهم كذلك، فيقول على لسان عمر وهو يخاطب أبا عبيدة: "قل لعل: الرقاد محلمة، والهوى مقحمة، وما منا إلا له مقام معلوم، وحق مشاع أو مقسوم، ونبا ظاهر أو مكتوم، وأن أكيس الكيس من منح الشارد تألفا، وقارب البعيد تلفا، ووزن كل شيء بميزانه، ولم يخلط خبره بعيانه، . . ما هذه الخنزوانة التي في فراش رأسك؟ ما هذا الشجا المعترض في مدارج أنفاسك؟ ما هذه القذاة التي تغشت ناظرك؟ وما هذه الوحرة التي أكلت شراسيفك؟ وما هذا الذى لبست بسببه جلد النمر، وأشمملت عليه بالشحناء والنكر... الخ"^(٤) .

(١) نهج البلاغة ص ٤٨١ — ٤٨٣ (٢) البيان ج ١ ص ١٤٧ (٣) الواقع أن اتهام الشريف الرضى بوضع (نهج البلاغة) قديم وقد أشار اليه ابن أبي الحديد في شرحه ثم أفاض في نقض ذلك الاتهام. راجع ص ٥٤٦ من المجلد الثانى . (٤) صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٢

ومن دقة المحاكاة ما رأينا التوحيدى يحرص عليه في حديث السقيفة من التماسح في الترام، السجّع في بعض الفقرات ليوافق المنهج الذى عرف في نظم القرآن والحديث وخطب الصحابة والخلفاء الراشدين .

٦ — فإذا تخطينا عصر النبوة وصدر الاسلام إلى العصر الأموى رأينا الخطباء كذلك يسجّعون، ورأينا مثلاً هشام بن عبد الملك يقول :^(١)

”وإننا نعرف الحق إذا نزل، وبكره الإسراف والبخل، وما نعطى تبذيراً، وما نمنع تقتيراً. وما نحن إلا خزان الله في بلاده، وأمانؤه على عبادته، فإن أذن أعطينا، وإذامنع أبينا، ولو كان كل قائل يصدق، وكل سائل يستحق، ما جبهنا قائلاً، ولا رددنا سائلاً“ .^(٢)

روى هذا الكلام على أنه مرتجل في الرد على خطيب وفد أهل الحجاز . وفي روايته كذلك دليل على أنهم كانوا يفهمون أن الكلام يقع مسجوعاً حين يحتفل به القائلون .

وقد أثر عن الخلفاء والقواد كلام مسجوع في مواطن لا ينتظر فيها تأنيق في التعبير، كأن يكون الكلام جوامعاً على سؤال . من ذلك ما روى أن يقال بن شعبة دخل على هشام وأراد أن يقبل يده فقال : لا يفعل هذا من العرب إلا هُلُوع ؛ ولا من العجم إلا خَضُوع . وقالت امرأة لأبى مسلم : ناولنى يدك أقبليها فقد نذرت . فقال : عليك بالهجر الأسود تصيبين أبحراً، وتقضين نذراً .^(٣)

(١) ولا ننس أن نشير إلى أن لغة الزهاد والسالك في العصر الأيو كانت في الألب مسجوعة، ومن شواهد ذلك قول الحسن البصري يوصى عمر بن عبد العزيز :

”وأكرياً أمير المؤمنين إذا بعث ما في القصور، وحصل ما في الصدور .. وأنت في مهل، قبل حلول الأجل، راقطاع الأمل، لا تتحكم في عباد الله بحكم الخطايا، ولا تسلك بهم سبيل الطالين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين، لأنهم لا يرقون في مؤن إلا ولا ذمة، فتو، أو زارك، وأوزار مع أوزارك، وتحمل أنفالك وأنثالا مع أنفالك، ولا يعرك الذين يعملون عما فيه بؤسك، وبأكلون الطيبات من دنياهم بأذهاب طيباتك في آخرتك“ .
راجع هاية الأرب ص ٢٨ ج ٦ (٢) صبح الأعشى ج ١ ص ٢٦٥ (٣) (محاضرات الأنصاف)

وكان المسيو مرسيه (Marçais) يظن أن الناس بدأوا يكرهون السجع في العصر الأموي . وكانت حجتة ما حدث الجاحظ أن معاوية أملى كتابا الى رجل فقال فيه : "لأهون على من ذرة ، أو كلب من كلاب الحرة" ثم قال لكتابه : "أع من كلاب الحرة . واكتب : من الكلاب" كأنه كره اتصال الكلام والمزاوجة وما أشبه السجع ، ورأى أنه ليس في موضعه ^(١) .

وقد راجعنا المسيو مرسيه في هذا وأبنا له أن معاوية تحامى السجع في هذا الموطن لأنه فن يشعر بأن الكاتب هادئ النفس ، وهو لا يصلح لمقام التهديد والوعيد .

والمعروف عن ابن المقفع أنه لا يلتزم السجع ، وبالعصر المسيو مرسيه فحدثني في أحد أيام سبتمبر سنة ١٩٢٩ أنه لا يعرفه على الإطلاق ، ولو أنه استقصى أخباره لرآه يذكر أن من البلاغة "ما يكون سجعاً وخطباً ، ومنها ما يكون رسائل" ^(٢) "فأبى المقفع يقرر أن السجع فن من القول يقابل الشعر والرسائل ولعله يريد به الأمثال ، وإن كان قرنه بالخطب يفهمنا أنه يقصد به الخطب المسجوعة . ولا سيما إذا لاحظنا أن الحصري يذكر أن بشار بن برد كان "سجعاً خطيباً" ^(٣) وأن المختار بن أبي عبيد كانت له "سجاع يصنعها ، وألفاظ يتدعها ، ويزعم أنها تنزل عليه ، وتوحى إليه" ^(٤) وفي هذه العبارة ما يذكر بأن الإلهامات الدينية ، حتى المفتراة ، كانت تنتظر صورة مسجوعة ، لأن السجع كان من تقاليد الكهان ، وكان الكهان حملة راية الدين في عصر الجاهلية .

٧ — ولو حللنا أساليب المشاهير من كتاب العصر الأموي لرينا كتاباتهم "موزونة" على طريقة السجع ، وإن لم تلتزم فيها القافية ، وأنظر قول عبد الحميد بن يحيى :

(١) رسائل الجاحظ ص ١٥٥ (٢) ص ٦٤ ج ١ البيان والتبيين — وهذا الذي رواه الجاحظ عن فهم ابن المقفع لقيمة السجع وعده باباً من البلاغة كاف في الرد على من يشك في نسب كتاب الى ابن المقفع بسبب ما يقع فيه من تعدد السجع أحيانا كما فعل مؤلف ضحى الاسلام — ص ٢١٥ ج ١ — حين ارتاب في أحد كتب ابن المقفع .

(٣) زهر الآداب ج ٢ ص ١٢١ — ولناحظ أن «سجاعاً» رواها الحصري بالسين المهملة . ووصف الجاحظ في الجزء الثالث من البيان ص ٩٦ مسجلة بأنه كان «سجاعاً خطيباً وبارع اللسان جواداً» فأثبت «سجاعاً» بالسين المعجمة . و«سجاعاً» و«سجاعاً» وردتا مقرونتين الى «خطيباً» ونحن نرجح أن التحريف وقع في كتاب الجاحظ .

(٤) زهر الآداب ج ٢ ص ٥١

”ثم إياك أن يفاض عندك بشيء من الفكاحات والحكايات والمزاح والمضاحك التي التي يستخف بها أهل البطالة ويتسرع نحوها ذوو الجهالة، ويحذ فيها أهل الحسد مقالا لعب يرفعونه، ولطعن في حق يحدونه، مع ما في ذلك من نقص الرأى، ودرن العرض، وهدم الشرف، وتأثيل الغفلة، وقوة طباع السوء الكامنة في بني آدم كيون النار في الحجر الصلب، فإذا قدح لاح شرره، ولهب وميضه، ووقد تضرمه . وليست في أحد أقوى سطوة، وأظهر توقدا، وأعلى كمونا، وأسرع إليه بالغيث منها الى من كان في سنك من أغفال الرجال^(١)“ .

وفي مثل هذا النثر حرية ظاهرة، ولكن بناء الجمل مطبوع بطابع السجع في كثير من الفقرات . ورويت لعبد الحميد أسجاع كقوله : ”الناس أخياف مختلفون ، وأصناف متباينون، فمنهم علق مضغة لا يباع، ومنهم غل مظنة لا يتباع“^(٢) .

وإن المقفع أكثر كتاب العصر الأموي حرية في صوغ الجملة، ولكن يتفق له أحيانا أن يرصع كلامه على منهج الوزن في السجع فيقول مثلا :

”وليس كل ذى نصيب من اللب بمستوجب أن يسمى في ذوى الألباب ... فمن رام أن يحل نفسه لذلك الأسم والوصف أهلا فليأخذ له عتاده، وليعد له طول أيامه، وليؤثره على أهوائه، فإنه قد رام أمرا جسيما لا يصلح على الغفلة، ولا يدرك بالمعجزة، ولا يصير على الأثرة“ .

وما نسميه الوزن نريده به توافق الفواصل الذي يتحصل به هدوء النفس عند تلاوة الكلام المرصوف .

٨ - ومما يعين ميل الأذواق العربية الى إثارة السجع غلبة هذا الفن على أكثر ما أثر في الاعراب . حدث الأصمعي أنه سمع أعرابيا يذكر قومه فقال :

”كانوا إذا اصطفوا تحت القتام، ومطرت بينهم السهام، يشربون الحمام . وإذا تصالحوا بالسيف، فغرت فاهها الختوف“^(٣) .

وعذلت أعرابية أباهما في إتلاف ماله بالجلود فقالت :

”حبس المال، أنفع للعيال، من بذل الوجه في السؤال، فقد قل النوال، وكثر البخال، وقد أتلقت الطارف والتلاد، وبقيت تطلب ما في أيدي العباد، ومن لم يحفظ ما ينفعه، أوشك أن يسعى فيما يضره“^(١).

وقال بعض الأعراب :

”نالنا وسمى“^(٢)، وخلفه ولي“^(٣)، فالأرض كأنها وشى عبقري، ثم أتتنا غيوم جراد، بمناجل حداد، نغربت البلاد، وأهلكت العباد، فسبحان من يهلك القوى الأكل، بالضعيف المأكول“^(٤).

ووعظ أعرابي رجلا وهو يقول :

”ويحك ! إن فلانا وإن ضحك إليك، فانه يضحك منك، ولئن أظهر الشفقة عليك، إن عقابه لتسرى إليك . فان لم تتخذ عدوا في علانيتك، فلا تجعله صديقا في سريرتك“^(٥).

ودخل اعرابي على خالد بن عبد الله القسري فقال :

”أصلح الله الأمير ! شيخ كبير، حدثه إليك بارية العظام، ومؤرثة الأسقام، ومطولة الأعوام، فذهبت أمواله، وذعدت آباله^(٦)، وتغيرت أحواله . فان رأى الأمير أن يجبره بفضله وينعشه بسجله، ويرده إلى أهله“^(٧).

والسجع في كلام الأعراب كثير جدا فلا نشغل أنفسنا بالتدليل على كثرتة، ولنذكر أن هناك أحاديث كثيرة وضعت على ألسنة الأعراب وآهت المضاعون بصوغها مسجوعه لتسهل نسبتها إليهم، وسنعود إليها عند الكلام عن آبن دريد .

(١) زهر الآداب ج ٤ ص ١٤٢ (٢) الرسمى : المطر الأول . (٣) الولي : المطر الثاني .

(٤) زهر الأدب ج ٤ ص ١٤٣ : (٥) زهر الأدب ج ٣ ص ٢٥٦ (٦) ذعدت : فرقت .

(٧) أمالي القالي ج ٢ ص ٤٩ .

٩ — وهناك فن من القول التزم فيه السجع على نمط كلام الأعراب وهو وصايا الآباء للأبناء . وهو فن قديم عرفه أهل الجاهلية ، ومن شواهد في العصر الاسلامي قول عبد الله بن شداد :

” أى بنى . لا ترهذن فى معروف ، فان الدهر ذو صروف ، والأيام ذات نواثب ، على الشاهد والغائب ، فكم من راغب قد كان مرغوبا اليه ، وطالب أصبح مطلوبا ما لديه ... وإن سمعت كلمة من حاسد ، فكن كأنك لست بالشاهد ... وإن غلبت يوما على المال ، فلا تدع الحيلة على حال : فان الكريم يحتال ، والدنى عيال ، وكن أحسن ما تكون فى الظاهر حالا ، أقل ما تكون فى الباطن ^(١) ” .

وقال علقمة بن ليلى لابنه :

” يا بنى ، إذا نزلت بك إلى حبة الرجال حاجة فاصحب من إن صحبته زانك ، وإن خدمته صانك ، وإن أصابتك خصاصة مانك ، وإن قلت صدق قولك ، وإن صلت شدّ صولك ، وإن مددت يدك بفضل مدحا ، وإن رأى منك حسنة عدها ، وإن سألته أعطاك ، وإن سكبت عنه آبتدك ، وإن نزلت بك إحدى الملمات آساك ، من لا تأتيك منه البوائق ، ولا تختلف عليك منه الطرائق ، ولا يخذلك عند الحقائق ، وإن حاول حويلا أمرك ، وإن تنازعتا منفسا ^(٢) آترك ” .

١٠ — وزعماء الوافدين على الخلفاء يؤثرون السجع كأن الخطب نوع من القصيد . قال عبد الملك بن سروان وقد دخل عليه العجاج ” يا عجاج ! بلغنى أنك لا تقدر على الهجاء ، فقال يا أمير المؤمنين ! من قدر على تشيد الأبنية ، أمكنه إنحراب الأخبية ” .

قال : فما يمنعك من ذلك ؟ قال : إن لنا عزرا يمنعنا من أن نُظلم ، وإن لنا حلما يمنعنا من أن نَظلم ، فعلام الهجاء ؟ فقال : لكلماتك أشعر من شعرك . فأتى لك عزر يمنعك من أن تُظلم ؟

قال : الأدب البارع، والفهم الناصع . قال : فما الحلم الذى يمنعك من أن تظلم ؟ فقال :
الأدب المستطرف والطبع التالذ^(١) .

وروى أن على بن أبى طالب أرسل الى معاوية بالشام كتابا صحبة صعصعة بن صوحان
فساربه حتى أتى دمشق فأتى باب معاوية فقال لآذنه : استأذن لرسول أمير المؤمنين على بن
أبى طالب ، وبالباب جماعة من بنى أمية ، فأخذته النعال والأيدى لقوله "أمير المؤمنين"
وكرث عليه الجلبة ، فاتصل ذلك بمعاوية فأذن له فدخل عليه فقال : السلام عليك يا بن
أبى سفيان . هذا كتاب أمير المؤمنين . فقال معاوية : أما إنه لو كانت الرسل تُقتل فى جاهلية
أو إسلام لقتلتك ! ثم اعترضه معاوية فى الكلام وأراد أن يستخبره ليعرف طبعاً أو تكلفاً ، فقال
له ممن الرجل ؟ فأجاب : من نزار قال : وما نزار ؟ قال : كان إذا غزا الخو^(٢)ش ، وإذا آنصرف
انكمش ، وإذا لقي اقترش . قال : فمن أى أولاده أنت ؟ قال : من ربيعة . قال : وما ربيعة ؟
قال : كان يغزو بالخيـل ، ويغير بالليل ، ويحود بالنيل . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من
أمهر ، قال : وما أمهر ؟ قال : كان إذا طلب أفضى ، وإذا أدرك أرضى ، وإذا آب أنضى .
قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من جديلة . قال : وما جديلة ؟ قال : كان يطيل النجاد ،
ويعد الجياد ، ويحيد الجلال^(٣)د . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من دعى . قال : وما
دعى ؟ قال : كان ناراً ساطعاً ، وشراً قاطعاً ، وخيراً نافعاً . قال فمن أى ولده أنت ؟ قال :
من أفصى . قال : وما أفصى ؟ قال : كان ينزل القارات ، ويكثر الغارات ، ويحى
الجارات . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من عبد القيس . قال وما عبد القيس ؟ قال : أبطال
زادة ، حجاجة سادة ، صناديد قادة . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من أفصى . قال :

(١) الأمالى ج ٢ ص ٤٩ . (٢) انخوش : أسرع ، ومثلها انكمش . (٣) رواية صبح الأعشى
تصف جديلة بأنه « كان فى الحرب سيفاً قاطعاً ، وفى المكرمات غيثاً نافعاً » وفى اللقاء لها ساطعاً » وبين رواية صبح
الأعشى والأمالى خلاف ملهوس ، وهو دليل على التصرف فى أصل هذا الحديث . وقد اعتمدنا على رواية الأمالى
ص ٢٣٠ و ٢٣١ ج ٢

(١)
وما أفضى؟ قال : كانت رماحهم مُشرعة ، وقدورهم مترعة ، وجفانهم مفرغة . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من لُكَيْز . قال : وما لُكَيْز ؟ قال : كان يباشر القتال ، ويعانق الأبطال ، ويبدد الأموال . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من عِجَل . قال : وما عِجَل ؟ قال الليوث الضراغمة ، الملوك التهاقمة ، القروم القشاعمة . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من كعب . قال : وما كعب ؟ قال كان يسعر الحرب ، ويحيد الضرب ، ويكشف الكرب . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من مالك . قال : وما مالك ؟ قال : هو الهام للهام ، والقمقام للقمقام .

فقال معاوية رحمة الله : ما تركت لهذا الحى من قريش شيئا ! قال : بل تركت لهم أكثره وأحبه ! قال : وما تركت لهم ؟ قال : تركت لهم الوبور والمدرد ، والأبيض والأصفر ، والأصفا والمشعر ، والقبة والمفخر ، والسرير والمنبر ، والملك الى المحشر .

قال معاوية : أما والله لقد كان يسوءنى أن أراك أسيرا .

فقال صعصعة : وأنا والله لقد كان يسوءنى أن أراك أميرا ! « .

تلك رواية الأمالى . أما رواية صبح الأعشى فقصيرة وتختتم هكذا بالسؤال عن عبد القيس :

فمن أى أولاده أنت ؟ قال : من عبد القيس . قال وما كان عبد القيس ؟ قال : كان حسنا أبيض وهابا ، يقدم لضيفه ما وجد ، ولا يسأل عما فقد ، كثير المرق ، طيب العرق .
(٢)
يقوم للناس مقام الغيث من السماء .

ولنلاحظ أن هذا الحوار يشتمل فى سياقه على ثلاث قواف فى كل جواب ، ويطول فى الجواب الأخير لأنه بيت القصيد . ومن الواضح أن هذه الصنعة تعسر على الارتجال ، فمن المرجح أن يكون هذا الحوار لحقه شىء من الترتيب ، ولا سيما إذا تذكرنا أنه منسوب

(١) هى كذلك بالعين المعجمة فى الأصل ، وهو خارج على السجع وإن لم يخرج على الموازنة ، ولعل الصواب « مفرعة » بالعين المهملة ، يريد وصف الجفان بالامتلاء . والمادة تسمح بذلك . وليلاحظ القارئ أن (أفضى) ذكر مرتين فى هذه الرواية ، ولعل هناك خطأ فى الوضع . (٢) صبح الأعشى ص ٢٥٥ ج ١٠ .

الى خطيب كان مضرب المثل في البيان المطول وهو ابن صوحان، فلا يبعد أن يكون نظمه
نظماً جديداً بعد خروجه من قصر معاوية بن أبي سفيان^(١).

وهنا أيضا لا نحتاج الى كثير من الشواهد : لأن السجع في حضرة الخلفاء والأمراء والوزراء كان من الذبوع بحيث لا يحتاج في إثباته الى تدليل .

١١ - ومن طريف ما هدانا اليه الاستقراء أن السجع كان وسيلة من وسائل المجتدين والعفاة ، فهو عندهم فن من الفول كالقصيد يتقربون به الى قلوب الأغنياء^(٢) . وتحت أيدينا شواهد بعضها خشن متوعر ، وبعضها سهل مقبول ، وهى فى جملتها تنبئنا بأن السجع كان يزيد الكلام رونقا وبهاء ، وينظم قائله فى سلك أهل البيان .

قال صاحب الأملی : "حدثنا أبو بكر رحمه الله . قال أخبرنا أبو حاتم . قال أخبرنا أبو زيد قال : بينا أنا في المسجد الحرام اذ وقف علينا أعرابي فقال : يا مسلمون ! إن الحمد لله والصلاة على نبيه . انى أمرؤ من أهل هذا الملقاط ^(٣) الشرقى المواصى ^(٤) أسياف تهامة . عكفت ^(٦) علينا سنون ^(٧) محش ^(٨) فاجتبت الذرى ، وهشمت العرى ، وجحشت النجم ، وأعجت البهم ، وهمت

(١) هذا النمط من الأجوبة المسجوعة كثير جدا فيما نقله الرواة ، وجزء منه منسوب الى نساء شهيرات . ويمكن الحكم بأن هذا النوع يمثل أدبا قائما بذاته يجد القارىء مواد متفرقة في كتب الأخبار والأقاصيص . وفن المقامات الذى ظهر ظهورا قويا في القرن الرابع متأثر بهذه الأحاديث ، فالمقامة حديث مطول يرتكز على الحوار ويلتزم فيه السجع ، ويفترض عند بطل المقامة ذكاء مماثل للذكاء الذى يظهر في أحاديث الأعراب والوافدين على الخلفاء .

(٢) يؤيد هذا قول أبي العلاء المعرى في رسالة المنيع :

”وقد كان فيما مضى قوم جعلوا الرسائل ، كالوسائل ، وتزينوا بالجمع ، تزين المحول بالرجع“ راجع لفول البلاغة ص ٢٠٠ (٣) الملطاط : كل شقير نهر أو واد . (٤) المواصي والمواصل واحد ، يقال تواصى النبت اذا اتصل بعضه ببعض . (٥) الأسياف جمع سيف بكسر السين وهو ساحل البحر . (٦) عكفت : أقامت : (٧) محش جمع محوش وهى التى تحش الكلا أى تحرقه . (٨) اجتبت : افتتحت من الجب وهو القطع . (٩) هشت : كبرت . (١٠) العرى جمع عروة وهى هنا القطعة من الشجر لا يزال باقيا على الجذع . (١١) جمشت : احتلقت . (١٢) النجم ما ينجم من النبت ولم يستقل على ساق . (١٣) أجمت : صيرتها عجايا . والعجمى المهزول من سوء الغذاء . (١٤) همت : أذابت .

الشحم ، والتجبت اللحم ، وأحجبت العظم ، وغادرت التراب مورا ، والماء غورا ، والناس^(٤)
أوزاعا ، والنبط قعاعا ، والضهل جراعاً ، والمقام جمعاً ، يصيحنا الهاوى ، ويطرقنا العاوى ،^(١٠)
خرجت لا أتلفع بوصيدة ، ولا أتقوت هبيدة ، فالبخصات وقعة ، والركبات زلعة ، والأطراف^(١٤)
قفعة ، والجسم مساهم ، والنظر مدرهم ، أعشو وأعطش ، وأضحى فأخفش ، أسهل ظالعا ،^(٢٠)
وأحرن راکما ، فهل من أمر ميم ، أوداع بخير ؟ وقاكم الله سطوة القادرة ، ومملكة الكاهر ،^(٢٣)
وسوء الموارد ، وفصوص المصادر^(٢٤) .

وهذا النوع من الكلام كثير أيضا . فلا نشغل أنفسنا بإيراد الشواهد . ولنذكر أننا
نفترض أن بدیع الزمان آتبس هذا المنهج في مقاماته ، فإن صاحبه أبا الفتح الاسكندري
يسأل الناس في المساجد والأسواق على هذا المنوال . وهذه الطريقة في الاستجداء لا تزال
معروفة : ففي مصانيف القرى المصرية وأسواقها يشهد الأغنياء أفواجا من السائلين يتوسلون
اليهم برقي من الكلام المسجوع : بعضه في المدح وبعضه في الدعاء .
ولنقيد أيضا أن ما روى في سجع العقاة يرجع الى باين : باب تغلب فيه الصنعة حتى لتبيل
النفس لنسبته الى صانعي الأخبار والأقاصيص ، كالكلمة التي قلناها آنفا ، فإن أغلب الظن
أنها من وضع بعض اللغويين .

(١) التجبت اللحم : عرقته عن العظم . (٢) أحجبت العظم عوجيته فصيرته كالحنجن . (٣) المور : الذي
يدهب ويمضي . (٤) النور : الغائر . (٥) أوزاع : فسرق . (٦) النبط الماء الذي يستخرج من
البئر أو ما تحفر والقعاع الماء المالح المر . (٧) الضهل القليل من الماء ، والجزع أشد المياه مرارة .
(٨) الحجعاع : الذي لا يطمئن من قعد عليه . (٩) الهاوى : الجراد . (١٠) العاوى : الدب .
(١١) الوصيدة : كل مسجوع . (١٢) الهبيدة : حب الخنظل . (١٣) البخصات جمع بخصة وهي لحم
باطن القدم ، والوقمة من قولهم وقع الرجل اذا اشتكى لحم باطن قدمه . (١٤) زلعة : مثققة . (١٥) قفعة :
مقفعة وهي التي تقبضت ويشت . (١٦) مساهم : مدر . (١٧) المدرم : الضعيف البصر الذي
ضعف بصره من جوع أو مرض . (١٨) أعشو : أنظر ، فأعطش أى أصير عطشا ، وأعطش ضعف في البصر .
(١٩) الخفش : فساد في الجفون . (٢٠) يقول : اذا مشيت في السهول طلعت أى عجزت . (٢١) أى اذا
علا الحرن ركب وكبا لوجهه . (٢٢) المير : العطية . (٢٣) القاهر والكاهر واحد ، وقرأ بعضهم
« فاما اليم فلا تكهر » . (٢٤) راجع هذه القطعة وشرحها في الأمالى ج ١ ص ١١٣ — ١١٦ طبع بولاق .

وباب تغلب عليه الفطرة كالأشباع التي يفيض بها المعتفون حين تقع بينهم وبين من يسألونهم مراجعة أو ملاحظة . من ذلك ما روى أن أعرابيا وقف يسأل فعبث به فقي فقال : ممن أنت ؟ فقال الأعرابي : من صعصعة . فقال الفتي : من أيهم ؟ فقال : إن كنت أردت عاطفة القرابة فليكفك هذا المقدار من المعرفة : فليس مقامي مقام مجادلة ولا مفاخرة . وأنا أقول : فإن لم أكن من هاماتهم ، فلست من أعجازهم . فقال الفتي : ما رويت من فضيلتك إلا النقص في حسبك . فامتعض الأعرابي لذلك . بفعل الفتي يعتذر ويخلط المزحل والدعابة باعتذاره ، وأطال الكلام ، فقال له الأعرابي : ” يا هذا إنك منذ اليوم آذيتني بمزحك ، وقطعتني عن مسألتني بكلامك واعتذارك ، وإنك لتكشف عن جهلك بكلامك ما كان السكوت يستره من أمرك . ويحك ! إن الجاهل إن مزح أسخط ، وإن اعتذر أفرط ، وإن حدث أسقط ، وإن قدر تسلط ، وإن عزم على أمر تورط ، وإن جلس مجلس الوقار تبسط . أعوذ بالله منك ، ومن حال أضطرتني إلى مثلك ! “^(١)

ووقف أعرابي على قوم فتمعوه فقال :

” اللهم أشغلنا بذكرك ، وأعذنا من سخطك ، وأولجنا إلى عفوك ، فقد ضلّ خلقك برزقك ، فلا تشغلنا بما عندهم عن طلب ما عندك ، وآتنا من الدنيا القنعان . وإن كان كثيرها يسخطك ، فلا خير فيما يسخطك “^(٢)

(١) زهر الآداب ص ٢٤٧ و ٢٤٨ ج ٢ (٢) القنعان : القناعة . (٣) البيان والبيان ج ٣ ص ٢٢٤ — وبمناسبة هذا الدعاء نذكر أن الأعراب رويت لهم دعوات كثيرة مسجوعة ، منها قول أحدهم عشية عرفة : ” اللهم إن هذه العشية من عشايا منحتك ، وأحد أيام زلفتك ... أتسك الضوامر من الفج العميق ، فجابت إليك المهارق من شعب المضيق ، ترجو مالا خلف له من وعدك ، ولا مترّك له من عظيم أجره ، أبرزت إليك وجوهها المصونة ، صابرة على لقع السائم ، وبرد ليل التائم ، ليدركوا بذلك رضوانك “ ثم قال : « الهى ! إن كنت مددت يدى إليك داعيا ، فظالما كفتني ساهيا ، نعمتت تظاهرها على عند القفلة “ فكيف أياس منها عند الرجعة ... فهب لي ، يارب ، الصلاح في الولد ، والأمن في البلد ، وعافني من شر الحسد ، ومن شر الدهر النكد » راجع الأمالى ص ٣٢٣ ج ٢

ولا يغض من قيمة هذه الأشباع أن يظن أنها موضوعة ، فقد أشرنا غير مرة إلى أن الواضعين يراعون الذوق المعروف عند اختراع الأحاديث .

وأظرف ما قرأت في سؤال الأعراب هذه الكلمات :

« أين الوجود الصباح ، والعقول الصباح ، والألسن الفصاح ، والأنساب الصراح ، والمكارم الرياح ، والصدور الفساح . تعيذني من مقامى هذا^(١) » .

١٢ - وأصرح من كل ما سلف في إثبات السجع ما قاله عبد الصمد بن الفضل بن

عيسى الرقاتي وقد سئل : « لم تؤثر السجع على المنشور وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن ؟ » فأجاب : « إن كلامي لو كنت لا أمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك . ولكني أريد الغائب والحاضر ، والراهن والغابر ، فالحفظ اليه أسرع ، والآذن لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتيديد وقلة التفلت ، وما تكلمت به العرب من جيد المنشور أكثر مما تكلمت به من جيد المورور ، فلم يحفظ من المنشور عشرة ، ولا ضاع من الموزون عشرة^(٢) » .

وهو جواب صريح الدلالة على أن الكلام المسجوع كان ينظر اليه نظرة تقدير وإعجاب ، وأنه خليف بأن يحفظ ويروى ، وأن الكلام المنشور انخلى من الوزن والقافية يراد به في الأغلب إقناع المخاطبين . أما التفكير في الحاضرين والغائبين فيوجب كلاما مصنوعا يستأهل البقاء ، وكانت الصنعة أظهر ما تكون في القوافي والأوزان .

وفي هذا الكلام أيضا دلالة صريحة على أن الشر المرسل لم يحفظ منه إلا قليل . أما النثر المسجوع فحفظ معظمه بفضل الوزن والقافية^(٣) . والأمر كذلك ، فيما نظن ، في سائر اللغات : لأنه يرجع إلى طبيعة يتساوى فيها جميع الناس .

(١) البيان ص ٢٢٢ ج ٣ (٢) البيان ص ١٥٨ ج ١ - وعبد الصمد هذا من رجال القرن الثاني وله كلام طريف مع شبيب بن شبة يحده القاري . في الصاعتر (ص ٣٥٠) وسيرده ذكر في كلام الملاحظ بعد صفحات من هذا الفصل في الدفاع عن السجع . (٣) كفة الرقاشي تدل على أن النثر الموزون لم يضع عشرة ، فالشعر من باب أولى لم يضع منه إلا قليل ، أى أن معظمه كان موجودا عند أهل القرن الثاني .

ولنشرنا إلى خطأ وقع فيه صاحب (الريحان والريمان) فياقله عنه القلقشندي في صبح الأعشى - ج ١ ص ٢١٠ - إذ قال : « إن ما تكلمت به العرب من أهل المد والوبر من جيد المنشور ومزدوج الكلام أكثر مما تكلمت به من الموزون إلا أنه لم يحفظ من المنشور عشرة ولا ضاع من الموزون عشرة » ثم مضى في أن المنشور هو الخطب وأن الموزون هو الشعر . وأما كان هذا خطأ لأنه استمد على كفة الرقاشي وأساء فهمها ، فإن كفة الرقاشي كانت جوابا على من سأله كيف يترك الكلام المرسل ويؤثر الكلام المسجوع . ولانتمس أن المنشور والمزدوج من ضرب النثر الفني . فصاحب «الريحان والريمان» على هذا أخطأ مرتين حيث فهم كلام الرقاشي على غير وجهه وحيث ظن أن المنشور والمزدوج مقصور على كلام الخطباء .

١٣ — عرفنا إلى الآن أن السجع كان كثيرا فى الجاهلية، وكان يغلب على النثر فى عصر النبوة، ثم أخذ سلطانه يضعف قليلا فى العصر الأموى، وإن حرص عليه القصاص والخطباء وناقلو أحاديث الأعراب، فلنذكر الآن أنه عاد يسترد قوته فى أواخر القرن الثانى وبدأنا نرى رسائل يكاد يلتزم فيها السجع . كقول كثوم بن عمرو العتابة فى مخاطبة صديق^(١) :

”أما بعد — أطل الله بقاءك وجعله يمتد بك الى رضوانه فى الجنة — فانك كنت عندنا روضة من رياض الكرم تبتجج النفوس بها ، وتستريح القلوب إليها، وكنا نعفيها من النجعة : استئتما زهرتها ، وشفقة على خضرتها ، وأدخارا لثمرتها، حتى أصابتنا سنة كانت عندى قطعة من سنى يوسف ، وأشد علينا كلبها، وغابت قطتها، وكذبنا غيومها، وأخلفتنا بروقها، وفقدنا صالح الإخوان فيها، فانتجمتك وأنا بانتجاعى إياك شديد الشفقة عليك . مع علمى بأنك موضع الرائد، وأنت تغطى عين الحاسد . والله أعلم أنى ما أعدك إلا فى حومة الأهل . وأعلم أن الكريم اذا آستحيا من إعطاء القليل ، ولم يمكنه الكثير، لم يعرف جوده، ولم تظهر همته“.

والعتابة لا يقف عند السجع، بل يكلف أحيانا بالبديع ، وهو أدخل فى الصنعة من السجع، وأنظر قوله لمالك بن طوق :

”أيها الأمير ! إن عشيرك من أحسن عشرك، وإن ابن عمك من عمك غيره ، وإن قريبك من قرب منك نفعه، وإن أحب الناس إليك، من كان أخفهم ثقلا عليك“^(٢) .

١٤ — فاذا جاء القرن الثالث رأينا السجع يظهر فى الكتابة وفى التأليف، ورأينا أبا العيلاء، مثلا، يؤلف كتابا فى ذم أحمد بن الخصيب يحكى فيه أن جماعة من الفضلاء اجتمعوا فى مجلس وكل منهم يكره آبن الخصيب لما كان فيه من القدامة والجهالة والتغفل، فتجادبوا أطراف الملح فى ذمه فقال أحدهم — وهنا يبدأ الشاهد — : كان جهله غاصرا لعقله ، وسفهه قاهرا لحلمه . وقال آخر : لو كان دابة لتقاعس فى عنائه، وحرن فى ميدانه . وقال

(١) الأمالى ج ٢ ص ١٣٦ (٢) ياقوت ح ٦ ص ٢١٤ وانظر (الصناعتين) ص ٢٥٢

آخر : كنت اذا وقع لفظه في سمى ، أحسست التقصان في عقلى . وقال بعض كتابه : كنت
أرى قلم ابن الخصيب ، يكتب بما لا يصيب ، ولو نطق لنطق بنوك عجيب .
وأظهر من هذا في إقامة الشاهد قول ابن المعتز يمدح سر من رأى ويصف خرابها ويذم
بغداد :

”كثبت من بلدة قد أنهض الله سكانها ، وأقعد حيطانها : فشاهد اليأس فيها ينطق
وحبل الرجاء فيها يقصر ، فكأن عمرانها يطوى وخرابها ينشر ، وقد تمزقت بأهلها الديار ، فما
يجب فيها حق جوار ، فما لها تصف للعيون الشكوى ، وتشير إلى ذم الدنيا ، على أنها وإن
جفيت معشوقة السكنى ، رجية المثوى ، كوكبا يقظان ، وجوها عريان ، وحصباؤها جوهر ،
ونسيمها معطر ، وترابها أذفر ، ويومها غداة وليها سحر ، وطعامها خبز ، وشرابها مرى ،
لا بكذمتكم الوسحة الساء ، الومدة الماء والهواء ، جوها غبار ، وأرضها خبار ، وماؤها طين ،
وترابها سرجين ، وحيطانها نزوز ، وتشربنها تموز ، فكم في تسمها من محترق ، وفي ظلها من
غرق . ضيقة الديار ، وسيئة الجوار ، أهلها ذئاب ، وكلامهم سباب ، وسائلهم محروم ، وما لهم
مكتوم : لا يجوز إغفائه ، ولا يحل خناقه . حشوشهم مسابل ، وطرقهم مزابل ، وحيطانهم
أخصاص ، وبيوتهم أقفاص ، ولكل مكروه أجل ، وللبقاع دول ، والدهر يسير بالمقيم ، ويمزج
البؤس بالنعيم“ .

ولابن المعتز من كلمة ثانية يغلب عليها السجع والأزدواج :

”لا يزال الاخوان يسافرون في المودة حتى يبلغوا الشقة ، فاذا بلغوا ألقوا عصا التسيار ،
وأطمأنت بهم الدار ، وأقبلت وفود النصائح ، وأمنت خبايا الضمائر ، فخالوا عقد التحفظ ،
ونزعوا ملابس التخلق“ .

وقال من كلمة ثالثة :

”سار في جيوش عليهم أودية السيوف ، وأقصية الحديد ، وكأن رماحهم قرون الوعول ،

وكان دروعهم زبد السيول ، على خيل تأكل الأرض بجوافرها ، وتمدّ بالنقع سرادقها ،
قد نشرت فى وجوهها غرر كأنها صحائف الرق ، وأمسكها تحجيل كأنه أسورة اللجين ، وقترت
عذرا كأنها الشنف ، لتلقف الأعداء أوائله ، ولم تنهض أواخره ، قد صب عليهم وقار الصبر
وهبت معهم ريح النصر^(١) .

وفى هذه الشواهد الثلاثة لكاتب واحد ما يدل على أن التزام السجع لم يغلب غلبة
مطلقة ، كما سنرى عند كتاب القرن الرابع ، وإنما هى طلائع لهجوم السجع نراها عند كتاب
القرن الثالث من حين إلى حين ، والفنون الأدبية لا تخلق مرة واحدة ، أولا تبعث مرة
واحدة ، ولكنها تأخذ فى الظهور والانتشار على نحو ما تفعل تبشير الصباح .

١٥ — ومن أظهر الدلائل على ذبوع بدعة السجع فى القرن الثالث ما رأيناه من حرص
ابن داود على وضع عناوين الفصول مسجوعة فى كتاب الزهرة ، وفى هذا أصدق شاهد على
أن السجع عاد فنا يؤلف ويستطاب . وإلى القارئ نماذج من تلك العناوين :

” من كثرت لحظاته ، دامت حسراته — العقل عند الهوى أسير ، والشوق عليهما
أمير — من تداوى بدائه ، لم يصل الى شفائه — ليس بلبيب ، من لم يصف ما به لطيب —
إذا صح الظفر ، وقعت الغير — التذلل للحيب ، من شيم الأديب — من طال سروره ،
قصر شهوره — من كان ظريفا ، فليكن عفيفا — سوء الظن ، من شدة الضن — من
منع من كثير الوصال ، قنع بقليل النوال — بعد القلوب على قرب المزار ، أشد من بعد الديار
من الديار — ما عتب من اغفر ، ولا أذنب من اعتذر — إذا ظهر الغدر ، سهل الهجر —
من راعه الفراق ، ملكه الاشتياق — ما خلق الفراق ، إلا لتعذيب العشاق — من غاب
قرينه ، كثر حنينه — من قدم هواه ، قوى أساه “ .

وأرى فى هذا الشاهد مقنعا لمن يتوهمون أن التزام السجع نشأ فجأة فى القرن الرابع ،
ففى هذا الشاهد وحده دليل على أن من الممكن أن نرى كتابا مسجوعا لرجل من كتاب القرن

الدلائل يدون أن يكون في ذلك ما يحلنا على زحزحته إلى خطيرة القرن الرابع؛ كما فعل بعض الناس^(١).

ولقد دنا أن السجع في عناوين فصول الكتاب الذي شرعه ابن داود — وقد يكون سبق إليه — هو أصل السجع في عناوين الكتب، وهو فن يجده المطالع في العصور التالية، حتى لتجد عهودا بالكثير يطرد فيها السجع في العناوين. ومن أغرب ما رأيته أن كتاب (من غاب عنه المطرب) للثعالبي كتب كاتبه على أصله ما نصه :

”كان ينبغي للأولف رحم الله أن يلحق اسم هذا الكتاب بلفظة وهو أن يقول : كتاب المعرب. فيمن غاب عنه المطرب“.

وكانت عناوين الرسائل الخاصة بوضع أحيانا مسجوعة، ومن أقربها إلى الفكاهة هذا العنوان : ”إلى المخالف الشاق، السيء الأخلاق، الظاهر النفاق، محمد بن إسحاق“^(٢).

وقد سرى هذا الفن إلى عصرنا الحاضر مع ما أفرطنا في الدعوة إلى ترك السجع : فلا مبر شكيب أرسلان كتاب حديث جدا نشره أولا في جريدة التورى واسمه :

”الارتسامات اللطاف، في حاطر الحاج إلى أقدس مطاف“^(٣).

١٦ — وقد حذا حذو ابن داود في سجع فصول الكتاب مؤلف آخر عاش في النصف الثاني من القرن الثالث وعاش صدرا من القرن الرابع وهو محمد بن أحمد بن إسحاق المعروف بالوشاء، وإلى القارئ نماذج من سجعه في عناوين الفصول :

(١) جاء في كتاب (ضحى الإسلام) للأستاذ أحمد أمير ما نصه : ”ونحن نعلم أن هذا العصر — عصر الجاحظ — لم يتكلف فيه سجع، ولم تولف فيه كتب مسجوعة كلها. وإن تكلف فيه سجع ففقرة أو فقرتان، أما كتاب كله سجع فهذا ما لا يعرف في هذا العصر“ راجع ص ٢٢٦ ج ١

ودراستنا لأطوار السجع تقتضي أن حكم الأستاذ غير صحيح، وأنه لا ماع أن توجد في القرون الثالث مؤلفات مسجوعة، لأن السجع بدأ يكثر في هذا القرن حتى في لغة التأليف كما في الفقرات التي نقلناها عن أبي العبيد، ولأن القرن الرابع كثرت فيه المؤلفات المسجوعة ثم شاعت بدنة السجع في التأليف في القرن الخامس. ومن المعقول أن يكون لطلعيان السجع في التأليف بواكير ظهرت في القرن الثالث. (٢) ياقوت ص ٢٥٢ ح ٦ (٣) وأظرف من هذا ما يصنع المستشرقون في عناوين ما يطبعون من المصنفات : فقد سمي فلوكل كتابه في فهرس الألفاظ القرآنية : ”نجوم المرقان. في أطراف القرآن“

”باب النهى عن مازحة الأخلاء، والنهى عن مفاكهة الأوداء — باب الحث على صحة الاخوان، والإغراء على مودة الخلان، والرغبة فى أهل الصلاح والإيمان — باب ما جاء فى قبح خلف المواعيد، وما يباحق صاحبه من اللوم والتفنيذ — باب الحث على كتمان السر، والترغيب فى حفظ ما حنت عليه ضلوع الصدر — باب مسائل عنه أهل الصدق، من تمام خلات العشق — باب صفة ذم القيان، ونفوذ حيلتهن فى الفتیان — باب زى الظراف، فى التكمك والنعال والخفاف — باب زيهم المخصوص، فى الخواتيم والفصوص^(١) —“ .

والقارئ يرى هذا السجع فى العناوين أقل جودة من سجع ابن داود .

وأهم من هذا وأدل على الغرض ما رأينا من إيثار هذا المؤلف للسجع فى كثير من مواد كتاب ”الموشى“ وفى هذا دليل واضح على أن السجع دخل فى لغة التأليف عند كتاب القرن الثالث . وانظر قوله فى وصف الأديب :

”لحقيق على الأديب أن يخزن لسانه عن نطقه، ولا يرسله فى غير حقه، وأن ينطق بعلم، وينصت بحلم، ولا يعجل فى الجواب، ولا يهجم على الخطاب، وإن رأى أحدا هو أعلم منه، نصت لاستماع الفائدة عنه، وتحذر من الزلل والسقط، وتحفظ من العيوب والغلط، ولم يتكلم فيما لا يعلم، ولم ينظر فيما لا يفهم، فانه ربما أخرجه ذلك الى الانقطاع والاضطراب، وكان فيه نقصه عند ذوى الألباب^(٢)“ .

وحدثنا هذا المؤلف عما كان ينقش على الخواتم والفصوص فرأيناه أسجعا فى أسجاع !

فما كان ينقشه أهل الحزم على خواتيمهم :

”القناعة، خير من الضراعة — التقال، خير من التذلل — السلامة، خير من الندامة — بادر الفرصة، قبل أن تكون النصبة — الهرب، قبل الطلب — الفرار، قبل الحصار — الرجوع، قبل الوقوع^(٣) —“ .

ومما كان ينتشه أهل الهوى على الفصوص :

”الحين، خير من البين — القبر، أفسح من الهجر — الموت، خير من الفوت —
كأس الهجر، أمر من الصبر — طول الجفاء، يكدر الصفاء — آفة الحبيب، نظر الرقيب —
الهوى، ثوب الضنى — ذهب العراق، بحيلة العشاق“^(١).

فهذا ”الجو“ من الكلف بالسجع في الرسائل والمؤلفات وأحاديث الناس كان تمهيدا لما
سنراه من التزام السجع في القرن الرابع . ولا ننس أن أكثر ما كان يكتب في الغزل والوصف
والهجاء وقع في الأكثر مسجوعا، كأن السجع هو الفن الملائم لموضوعات التي كانت في الأصل
مما يتحدث عنه الشعراء، والسجع فيه خواص من الشعر، أظهرها الوزن والتقفية، وإن كان
يحتاج إلى رياضة نفسية تبعد بعض البعد عن الرياضة التي يوجهها القريض .

ولا ينبغي أن نستبعد — كما استبعد الأستاذ أحمد أمين — أن توجد مؤلفات مسجوعة
في القرن الثالث، فإن عصرنا الحاضر ينكر السجع على المؤلفين أشد الإنكار، ويراها ضربا
من التكلف المحقوت، ومع هذا وجدت في عصرنا مؤلفات مسجوعة مثل (صهاريج اللؤلؤ)
(حديث عيسى بن هشام) وأبواب من (ليلى سطيج) ولا يزال عندنا كتاب مطبوعون على
السجع، لا يتحامونه إلا كارهين، ليسا يروا الذوق الحديث . ومن هذا يتبين أن الصبغة الفنية
التي تغلب في بعض العصور لا تسود سيادة مطلقة وإنما تعيش بجانبها مذاهب تناقضها بعض
المناقضة وترفع رأسها في غير خوف ولا إشفاق . ولولا ما صنعت الصحافة في رياضة الكتاب
المعاصرين على تجنب السجع والطباق والجناس لبقيت من البديع فنون تسيطر على أكثر الكتاب.

١٧ — ولناخذ في محاولة أخرى جزيلة النفع، وهي درس آراء علماء البيان الذين
تكلموا عن السجع، ففي كلامهم تحديد لأهمية السجع في البلاغة العربية . ولنبداً باللاحظ،
وهو كاتب لا يسجع إلا قليلا، ولكنه يرى السجع من خصائص لغة العرب . وأنظر قوله
في الرد على الشعوبية :

”ونحن — أبقاك الله ! — إذا آدعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المشور والأشجاع، ومن المزدوج وما لا يزدوج^(١)، فنعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صدق من الديباجة الكريمة والرونق العجيب، والسبك والنحت الذى لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم فى البيان أن يقول مثل ذلك إلا فى اليسير والبذ القليل^(٢)“.

وزاه يخص الأشجاع بأبواب من كتابه (البيان والتبيين) فيتخير من بدائعها فرائد بعضها تليد وبعضها طريف، فيقول :

قال عمر بن ذر : (والله المستعان على السنة تصف، وقلوب تعرف، وأعمال تخاف) ولما مدح عتبية بن مرداس عبد الله بن عباس قال : (لا أعطى من يعصى الرحمن، ويطيع الشيطان، ويقول البهتان) وفى الحديث الماثور : (يقول العبد : مالى ! وإنما لك من مالك ما أكلت فأفنت، أو أعطيت فأمضيت، أو لبست فألبيت) ووصف أعرابى رجلا فقال : (صغير القدر، قصير الشبر، ضيق الصدر، لئيم النجر،^(٣) عظيم الكبر، كثير الفخر) وسأل بعض الأمراء رسولا قدم من جهة السند : كيف رأيتم البلاد ؟ فقال : (ماؤها وشل، ولصها بطل، وتمرها دقل،^(٤) إن كثر الجند بها جاعوا، وإن قلوا بها ضاعوا) ونظر رجل من العبّاد الى باب بعض الملوك فقال : (باب جديد، وموت عتيد، ونزع شديد، وسفر بعيد) وقيل لبعض العرب : أى شئ تمنى وأى شئ أحب اليك ؟ فقال : (لواء منشور، والجلوس على السرير، والسلام عليك أيها الأمير !) وقيل لآخر — وصلى ركعتين وأطال فيهما وقد كان أمر بقتله — :

(١) المزدوج فى كلام الجاحظ باب من السجع فانا نراه فى كتاب البيان يعقد بابا المزدوج الكلام — ص ٨٥ و ٩٥ ج ٢ — يستشهد فيه بأمثال هذه الكلمات : ” اللهم علمه الحساب والكتاب، وقه العذاب “ وقال رجل من بنى أسد لشيخ مات ابنه : ” اصبر، أبا أمامة، فانه فرط أفرطه، وخير قدّمته، وذخر أدخرته “ فقال مجيبا له : ” ولد دفته، وتكل تعجاته، وغيب وندته “ وكان مالك بن الأخطال قد بعثه أبوه يسمع شعر جرير والفرزدق فسأله أبوه عنهما فقال : ” جرير يفرف من بحر، والفرزدق ينجت من صخر “.

وسرى أن علماء البديع لا يشترطون القافية فى المزدوج، وبها يتم السجع، وإنما يشترطون أن تتفق الكلمات فى الوزن مثل ” المستقيم “ و ” المستبين “ . (٢) ص ١٢ ج ٣ من البيان والتبيين .

(٣) النجر : الأصل . (٤) الدقل : أردأ النمر .

من الموت ؟ فقال : (إن أبزع فقد أرى كفها منشورا ، وسيفا مشهورا ، وقبرا مشهورا) .

وعقد الجاحظ وصلا آخر للأشجاع جاء فيه :

ومن الأشجاع قول أيوب بن القريّة وقد كان دعى للكلام فخبس عليه القول : (قد طال السمير ، وسقط التمر ، وأشدت المطر ، فماذا ينتظر ؟) فأجابه قتي بن عبد القيس : (قد طال الأرق ، وسقط الشفق ، وكثر اللثق ، فلينطق من نطق) .

ولم يقف الجاحظ عند رواية الحيد من الأشجاع ؛ بل أضاف الى ذلك الدفاع عنها ومناقشة من كرهوها ، فحدث أنه قيل لعبد الصمد بن الفضل : فقد قيل للذي قال : " يا رسول الله ، أرايت من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ، أليس مثل ذلك يُطل " فقال رسول الله " أجبك كسجج الجاهلية " ؟ فقال عبد الصمد : لو أن هذا المتكلم لم يرد إلا إقامة الوزن لما كان عليه بأس . ولكنه عسى أن يكون أراد إبطالا لحق قشادق في كلامه . وقال غير عبد الصمد : وجدنا الشعر من القصيد والرجز قد سمعه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وآستحسنه وأمر به شعراءه ، وعامة أصحاب رسول الله قد قالوا شعرا ، قليلا كان ذلك أم كثيرا ، وسمعوا وآستنشدوا ، فالسجج والمزدوج دون القصيد والرجز ، فكيف يحل ما هو أكثر ويحرم ما هو أقل .

قال الجاحظ : وكان الذي كره الأشجاع بعينها — وإن كانت دون الشعر في التكلف والصنعة — أن كهان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون إليهم ويدعون الكهانة وأن مع كل واحد منهم ريثا من الجن مثل (حاذى جهية) ومثل (شق) و (سطيج) و (عنزي سامة) وأشباههم كانوا يتكهنون ويحكمون بالأشجاع ، كقولهم (والأرض والسماء ، والعقاب والصقعاء ، واقعة ببقعاء) ، لقد نفر المجد بنى العشراء ، للجد والسناء وهذا الباب كثير . ألا ترى

(١) البيان ج ١ ص ١٥٧ (٢) اللثق : البدي . (٣) البيان ج ١ ص ١٦٣ . (٤) البيان ج ١ ص ١٥٨ (٥) الصقعاء : الشمس . (٦) البقاء : السنة المجدية .

أن ضمرة بن ضمرة وهرم بن قطبة والأقرع بن حابس ونفيل بن عبد العزى كانوا يحكون وينفرون بالأسجاع وكذلك ربيعة بن حذار . قالوا : فوقع النهى في ذلك لقرب عهدهم بالجاهلية ولبقيتهما فيهم وفي صدور كثير منهم . فلما زالت العلة زال التحريم .^(١)

ثم قال الجاحظ : وقد كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين فتكون في تلك الخطب أسجاع كثيرة فلم ينهوا منهم أحدا . وكان الفضل بن عيسى الرقاشى سجاعا في قصصه وكان عمرو بن عبيد وهشام بن حسان وأبان بن أبى عياش يأتون مجلسه .^(١)

١٨ — ونستخلص من كلام الجاحظ ثلاث حقائق : الأولى أن السجع عنصر كريم في بلاغة العرب ، الثانية أن ناسا من أهل القرن الأول والثانى كرهوا السجع لأنه كان يذكّر بأساليب الكهان ، الثالثة أن جمهور الخطباء والقصاص والوعاظ كان يسجع ، وأن الخلفاء لم ينكروا على أحد أن يتكلم بين أيديهم بكلام مسجوع .

ومن الواضح أن شبهة من كرهوا السجع ساقطة : لأن القرآن سجع . وما نظن الرسول تجنب أساليب الكهان ، فان الكهان لم يخلقوا السجع ، وإنما كان حلية قديمة في اللغة العربية وكانت قوية الصلاحية لمن يخاطب القلوب . وكذلك أنتفع بها القسيسون والكهان في الجاهلية ، وقبلها القرآن ، وآثرها النبي وأصحابه ، وظلت أثيرة لدى خطباء المساجد إلى اليوم . وهى في الواقع أساس البلاغة عند رجال الدين .

١٩ — ومن الباحثين الذين فصلوا في مسألة السجع الخفاجى في كتابه "سر الفصاحة"^(٢) وقد تكلم عن السجع في غير موضع ، وحدثنا " أن السجع الواقع موقعه كثير لمن طلبه"^(٣) ونقل نموذجا من سجع الأحنف بن قيس ، وخطأ الرمانى في قوله إن السجع عيب والفواصل بلاغة على الاطلاق ، لأن الرمانى إن أراد بالسجع ما يكون تابعا للمعنى وكأنه غير مقصود فذلك بلاغة والفواصل مثله ، وإن كان يريد بالسجع ما تقع المعانى تابعة له وهو

(١) البيان ج ١ ص ١٥٩ (٢) كتاب مخطوط منه نسختان بدار الكتب المصرية رقم ٤٣٩ و ٤٤٢ : بلاغة .

(٣) سر الفصاحة ص ٩٢

مقصود متكلف فذلك عيب، والفوصل مثله . وكما يعرض التكلف في السجع عند طلب تماثل الحروف كذلك يعرض في الفواصل عند طلب تقارب الحروف . وقال :

”أخض أن الذي دعا أصحابنا إلى تسمية كل ما في القرآن فواصل ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعاً رغبتم في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروى عن الكهنة وغيرهم . فإما الحقيقة فما ذكرناه : لأنه لا فرق بين مشاركة القرآن لغيره من الكلام في كونه مسجوعاً وبين مشاركة جميعه في كونه عرضاً وصوتاً وحروفاً وكلاماً وعربياً ومؤلفاً ... ولا فرق بين الفواصل التي تتماثل حروفها في المقاطع وبين السجع . فإن قال قائل : إذا كان عندكم أن السجع محمود فهلاً ورد القرآن كله مسجوعاً ؟ وما الوجه في ورود بعضه مسجوعاً وبعضه غير مسجوع ؟ قيل إن القرآن أنزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعاداتهم وكان الفصيح من كلامهم لا يكون كله مسجوعاً لما في ذلك من أمارات التكلف والاستكراه والتصنع سيما فيما يطول من الكلام . فلم يرد مسجوعاً جرياً به على عرفهم في الطبقة العالية من كلامهم^(١)“ .

وأشار الخفاجي إلى جماعة من زعماء الكتاب في القرن الثاني والثالث فيبين أن السجع فيما وقف عليه من كلامهم قليل . ”لكنهم لا يكادون يناون بالمناسبة بين الألفاظ في الفصول والمقاطع إلا في اليسير من المواضع“ .

ومعنى هذا أن الذين لم يلتزموا السجع من كتاب القرن الثاني والثالث كانوا يحرصون على ألوان من الفن في كتاباتهم . وتلك الألوان الفنية ظاهرة كل الظهور لمن يقرأ آثار أولئك الكتاب .

ولنضف إلى ما أسلفناه من رأى الخفاجي أنه وإن كان يميل إلى إثبات السجع حين يوجبه المعنى والغرض فانه يكره أن تجعل الرسالة كلها مسجوعة على حرف واحد : ”لأن في ذلك تعريضاً للتكرار وميلاً إلى التكلف“^(١) .

٢٠ — ولنوجه نظر القارئ الى حقيقتين فى كلام الخفاجى : أولا هما حكمه بأن القرآن " أنزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعاداتهم " فان لهذه الحقيقة عندنا أهمية خاصة إذ كانت تؤيد رأينا فى أن القرآن من جنس كلام العرب وعلى أساليبهم ، ولا يمتاز إلا بقوة المعنى وقوة الروح . وثانيتهما حكمه بأن الفصحى من كلام العرب لا يكون كله مسجوعا لما فى ذلك من أمارات التكلف ، فقد رأينا شواهد ذلك فى كلام الرسول وخطب الصحابة والخلفاء والقواد والوزراء . وأكثر ما رأيناه ينخرط فى سلك قول قطرى بن الفجاءة فى وصف الدنيا :

" من أقل منها أستكثر مما يؤمنه ، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه ، ويطيل حزنه ، ويبكى عينه . كم واثق بها قد فجعته ، وذى حلم تنبه اليها قد صرعته ، وذى آحتيال فيها قد خدعته وكم ذى أبهة فيها قد صيرته حقيرا ، وذى نخوة قد ردتة ذليلا ، ومن ذى تاج قد كبتة لليدين والفم ! سلطانها دول ، وعيشها رنق ، وعذبها أجاج ، وحلوها صبر ، وغذاؤها سمام ، وأسبابها رمام ، وقطافها سلع ، حيها بعرض موت ، وصحيحها بعرض سقم ، ومنيعها بعرض آهتضام ، ملكها مسلوب ، وعزيزها مغلوب ، وسليمها منكوب ، وجارها محروب ، مع أن وراء ذلك سكرات الموت ، وهول المطلع ، والوقوف بين يدي الحكم العدل ^(١) " .

وقول خطيب من آل صوحان يعارض عبد الملك وقد أغلظ القول :

" مهلا مهلا يا بنى مروان ! تأمرون ولا تأتمرون ، وتنهون ولا تنتهون ، وتعظون ولا تنعظون !! أفنقتدى بسيرتكم فى أنفسكم ، أم نطيع أمركم بالسنتكم ؟ فان قلتم : اقتدوا بسيرتنا . فأتى وكيف ؟ وما الحجة وما المصير الى الله ؟ أفنقتدى بسيرة الظلمة الفسقة الجورة الخونة ، الذين اتخذوا مال الله دولا ، وعبيده خولا ؟ وإن قلتم اسمعوا نصيحتنا ، وأطيعوا أمرنا ، فكيف ينصح لغيره من يغش نفسه ؟ أم كيف تجب الطاعة لمن لم تثبت عند الله عدالته ؟ وإن قلتم : خذوا الحكمة من حيث وجدتموها ، وأقبلوا العظة ممن سمعتموها ، فعلام وليناكم أمرنا ، وحكمناكم فى دماتنا وأموالنا ؟ أما علمتم أن فىنا من هو أنطق منكم باللغات ، وأفصح

بالعظاات؟ فتخلوا عنها، وأطلقوا عقابها، وخلوا سبيلها، ينتدب إليها آل رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين شردتهم في البساده، ومن قمتهم في كل واد، بل تثبت في أيديكم لا تقتضاه المدة، وبلوغ المهلة، وعظم الحنة. إن لكل قائم قدرا لا يعدوه، ويوما لا يخطوه، وكتابا بعده يتلوه“.

ففي هذا الشاهد والذي قبله جميع مقبول جدا، ولكنه لا يلتزم، وإنما يريد من فترة الى فترة بلا قاق ولا التواء. وقد يكون الشاهد الثاني من وضع بعض العاويين: لأن راويه يذكر أن الخطيب “الشمس فلم يوجد“ ومن العسير أن يحفظ كلام القاه صاحبه في فورة غضب وفي مقارعة ملك ثم لاذ بالفرار. ولكن القارئ مرجو أن يتذكر ما أسلفناه من قبل من أن الرواة كانوا — حين يضعون كلاما — يجتهدون في محاكاة لغة العصور التي ينسبون إليها ما يضعون من خطب وأحاديث^(١).

٢١ — ومن دافعوا عن السجع أبو هلال العسكري في كتاب (المصنعاتين) وينتاز أبو هلال في كتابه بالحرص على رد أصول المحسنات البديعية الى القرآن، ومن أمثلة ذلك ما رواه من الشواهد في باب (التجنيس) من مثل:

”وأسلمت مع سليمان — فأقم وجهك للمدين التيم — تتقارب فيه القلوب والأبصار — والثفت الساق بالساق، الى ربك يومئذ المساق — وجهت وجهي للماذى فطر السجوات والأرض — ثم كلى من كل الثمرات“^(٢) وعرض أبو هلال للشاهد الذي عرض له الرقائبي فيما نل الجاحظ. ووقف عند قوله عليه السلام ”أصبحنا كسجع الكهان“ وعلى الاستنكار بما عرف في سجع الكهان من التكلف. ثم قال: ”ولو كرهه عليه الصلاة والسلام لكونه

(١) ومن السجع المتبول عند خطباء القرن الأول قول زياد:

”إن للشيطان مليئا، وللإنسان مليئا، فمن سقمت سريرته، حمت مقربته، ومن وضعه ذنبه، رفعه صليبه، ومن لم تبعه العافية، لم تنق منه الطليعة“ ومن سبقته بأدوة فده، سبق بدنه بسفك دمه، إلى أنه: ”ثم لا أنظر، وأبصر، ثم لا أنذر“ صبح الأعشى ص ٢٢٠ ج ١ (٢) ص ٢٥١

سجعا لقال : أسجعا ؟ ثم سكت . وكيف يذمه ويكرهه وإذا سلم من التكلف وبرئ من التعسف لم يكن في جميع صنوف الكلام أحسن منه“^(١) .

ويحدثنا أبو هلال أن النبي كان ربما غير الكلمة عن وجهها للموازنة بين الألفاظ وإتباع الكلمة أخواتها كقوله : “أعيذه من الهامة والسامة ، وكل عين لامة“ وإنما أراد ؟ ملامة . وقوله عليه السلام : “ارجعن مأزورات ، غير مأجورات“ وإنما أراد : موزورات ، من الوزر ، فقال (مأزورات) لمكان (مأجورات) قصدا للتوازن وصحة التسجييع^(٢) .

٢٢ — وشدد أبو هلال في الحرص على الازدواج . وهو فن ظاهر في كلام من لا يلتزمون السجع من أقطاب القرن الأول والثاني والثالث ، ومن أمثلة الازدواج قول بعضهم : “أصبر على حر اللقاء ، ومضض النزال ، وشدة المصاع ، ومداومة المراس“^(٣) . فلو قال : (على حر الحرب ، ومضض المنازلة) لبطل رونق التوازن^(٤) .

(١) ص ٢٠٠ (٢) الموازنة التي عنى بها أبو هلال كانت مما عرّص له الحريري في (درة الفواص) وكلام الحريري هناك أظهر في الدلالة على أن الموازنة فن أصيل في العربية تغير به الكلمات من وضع إلى وضع رغبة في الوزن : فهم يقولون (حدث وقدم) فيضمون الدال من (حدث) لوزن (قدم) فإذا أفردوها فتحوا الدال ، ويقولون “الفسايا والعشايا“ إذا قرنوا بينهما فان أفردوا (الغدايا) ردها إلى أصلها فقالوا الغدوات . ويقولون (هناى الشيء ومرأى) فان أفردوا (مرأى) قالوا أمرأى . وقالوا : “فعلت به ما ساء وناءه“ فان أفردوا قالوا (أناءه) وقالوا في الشجاع الذي لا يزايل مكانه “أهيس أليس“ والأصل في الأهيس الأروس لاشتقاقه من هاس يهوس إذا دق فعدلوا به إلى الياء ليوافق لفظة (أليس) وفي الحديث من “حمننا أورفنا فليقتصر“ أى من خدمنا أو أطعمنا . وكان الأصل أتمحننا فأتبع حمننا رفا . ويروى في قضايا على أنه قضى في القارصة والقامصة والواقصة بالدية ، والواقصة هي الموقوصة وإنما قال الواقصة للموازنة مع القارصة والقامصة . وأنشد القراء :

هناك أخبية ولاج أبوبة

بجمع باب على أبوبة ليزاوج لفظة أخبية (راجع درة الفواص ص ٣٠ و ٣١ وراجع الشرح ص ٧٩ - ٨٣) والازدواج كثير الوقوع في اللغة العربية وله شواهد عديدة ، فلنكتف بهذه الأمثلة في الدلالة على ذوق العرب في هندسة الألفاظ والتعابير . ومن طريف التوافق أن اللغة العامية تسائر اللغة الفصيحة في هذا الباب . سمعت مرة تليدة تقول وهي تتلبل : “النجوح زى السقوط“ نقلت “النجاح“ إلى “النجوح“ لوازن “السقوط“ وأحسب أن ذلك جرى على لسانها بدون أن تقصد إليه ، لأن حاسة الموازنة بين الكلمات تأصلت عند الناطقين بالضاد .

وقد يتفق السجع والازدواج مثل :

”حتى صار تعريضك تصريحاً ، وتعرضك تصحيحاً“ .

فالتعريض والتعريض سجع ، والتصریح والتصحیح سجع آخر : فهو سجع في سجع .

قال أبو هلال : وهذا الجنس إذا سلم من الاستكراه فهو أحسن وجوه السجع .^(١)

ويحدثنا أبو هلال أن العرب فتنوا بالسجع حتى استعملوه في منظوم كلامهم ، وصار ذلك الجنس من الكلام منظوماً في منظوم وسجماً في سجع ، وهذا النوع من الشعر اسمه ”المرصع“ ومن أمثلته :

فتور القيام قطيع الكلا م يفتر عن ذى غروب خصر

وقول كعب بن زهير :

* هيفاء مقبلةً عجزاء مدبرة *

وقول أوس :

* جُشًا حناجرها علما مشافرها *

وقول النمر :

* من صوب سارية عُلَّت بغادية *

وقول تأبط شرا :

حمال أولية شهاد أندية هباط أدوية جواب آفاق

وقول الأَفْوَه الأَزْدِي :

* سود غدائرها بلج محاجرها *

وقول عامر بن الطفيل :

ولكنني أحمى حماها ، وأتقى أذاها ، وأرمى من رماها بمنكب

وقد ارتقى أبو هلال بالترصيع الى العصر الجاهلي وصدر الإسلام فدلنا على أنه فن قديم

انْتَرَعَ من النثر وأضيف الى الشعر رغبة في وفرة الأتغام والألحان .

٢٣ - ومن أظهر من أحتموا بالكلام عن السجع صاحب (المثل السائر) وهو يمتاز عن سبقوه الى الدفاع عن السجع بأنه عاش فى عصر كان أهله جميعا يسجعون^(١). وهو يهتم خصوم السجع بالعجز عن أن يأتوا به "وإلا فلو كان مذموما لما ورد فى القرآن الكريم فإنه قد أتى منه بالكثير حتى أنه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة كسورة الرحمن وسورة القمر وغيرها. وبالجملة فلم تخل منه سورة من السور"^(٢) ثم سرد أمثلة من الآيات المسجوعة. وانتقل الى الحديث فذكر شواهد من سجع الرسول. ثم تحدث عن نهى النبي عن سجع الكهان بمثل ما تحدث به صاحب الصناعتين ثم قال :

"وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأَصْلَ فِي السَّجْعِ إِنَّمَا هُوَ الْإِعْتِدَالُ فِي مَقَاطِعِ الْكَلَامِ ، وَالْإِعْتِدَالُ مَطْلُوبٌ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ، وَالنَّفْسُ تَمِيلُ إِلَيْهِ بِالطَّبِيعِ ، وَمَعَ هَذَا فَلَيْسَ الْوُقُوفُ فِي السَّجْعِ عِنْدَ الْإِعْتِدَالِ فَقَطْ وَلَا عِنْدَ تَوَاطُؤِ الْفَوَاصِلِ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ ، إِذْ لَوْ كَانَ ذَلِكَ هُوَ الْمُرَادُ مِنَ السَّجْعِ لَكَانَ كُلُّ أَدِيبٍ مِنَ الْأَدِبَاءِ سَجَاعًا ، وَمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَلَوْ شَدَا شَيْثًا يَسِيرًا مِنَ الْأَدَبِ إِلَّا وَيَكُنُّهُ أَنْ يُؤَلِّفَ أَلْفَاظًا مَسْجُوعَةً وَيَأْتِي بِهَا فِي كَلَامٍ ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْأَلْفَاظُ الْمَسْجُوعَةُ حُلُوةً حَادَّةً طَنَانَةً رَنَانَةً ، لَا غَثَّةٌ وَلَا بَارِدَةٌ . وَأَعْنَى بِقَوْلِي غَثَّةٌ وَبَارِدَةٌ أَنَّ صَاحِبَهَا يَصْرِفُ نَظْرَهُ إِلَى السَّجْعِ نَفْسَهُ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى مَفْرَدَاتِ الْأَلْفَاظِ الْمَسْجُوعَةِ وَمَا يَشْتَرِطُ لَهَا مِنَ الْحَسَنِ ، وَلَا إِلَى تَرْكِيبِهَا وَمَا يَشْتَرِطُ لَهُ مِنَ الْحَسَنِ ، وَهُوَ فِي الَّذِي يَأْتِي بِهِ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْمَسْجُوعَةِ كَمَنْ يَنْقُشُ أَثْوَابًا مِنَ الْكَرْسَفِ أَوْ يَنْظُمُ عَقْدًا مِنَ الْخَرْفِ الْمَلْقُونِ . وَهَذَا مَقَامُ تَزَلُّعِهِ عَنْهُ الْأَقْدَامُ وَلَا يَسْتَطِيعُهُ إِلَّا الْوَاحِدُ مِنْ أَرْبَابِ هَذَا الْفَنِّ بَعْدَ الْوَاحِدِ . وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَ أَرْبَابُهُ قَلِيلًا . فَإِذَا صَنَفَى الْكَلَامَ الْمَسْجُوعَ مِنَ الْغَثَاثَةِ وَالْبَرْدِ فَإِنَّ وَرَاءَ ذَلِكَ مَطْلُوبًا آخَرَ : وَهُوَ أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ فِيهِ تَابِعًا لِلْمَعْنَى لَا أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى فِيهِ تَابِعًا لِلْفَرْقِ ، فَانْهَ يَجِئُ عِنْدَ ذَلِكَ كُظَاهِرُ مَمْوَهٍ ، عَلَى بَاطِنٍ مَمْوَهٍ ، وَيَكُونُ مِثْلُهُ كَعَمْدٍ مِنْ ذَهَبٍ ، عَلَى نَصْلِ مِنْ خَشَبٍ"^(٣).

(١) ولد ابن الأثير سنة ٥٥٨ هـ وتوفي سنة ٦٣٧ هـ وهو نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني . وأبناء

الأثير ثلاثة : مؤرخ ومحدث وأديب ، وهو صاحب المثل السائر . (٢) المثل السائر ص ١١٤

(٣) المثل السائر ص ١١٦ و ١١٧

وقد افترض ابن الأثير أن يقال : إذا كان السجع أعلى درجات الكلام فكان ينبغي أن يأتي القرآن كله مسجوعا ، وليس الأمر كذلك ، بل منه المسجوع وغير المسجوع .
وقال في الجواب : ” إن أكثر القرآن مسجوع حتى إن السورة لتأتي كلها مسجوعة .
وما منع أن يأتي القرآن كله مسجوعا إلا أنه سلك به مسلك الإيجاز والاختصار . والسجع لا يؤتى في كل موضع من الكلام على حد الإيجاز والاختصار ، فترك استعماله في جميع القرآن لهذا السبب “ ثم قال : ” وههنا وجه آخر هو أقوى من الأول ولذلك ثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع ، وإنما تضمن القرآن غير المسجوع لأن ورود غير المسجوع معجزا أبلغ في باب الإعجاز “ .

ومعنى هذا أن السجع بعض أسرار الإعجاز عند ابن الأثير .

٢٤ — وحدّثنا في مكان آخر أنه تصفح القرآن فوجده ” لا يكاد يخرج منه شيء عن السجع والموازنة “ والواقع أن الموازنة كثيرة في القرآن ، مثل : ﴿ وآتيناهما الكتاب المستبين ، وهديناهما الصراط المستقيم ﴾ فالمستبين والمستقيم على وزن واحد . وكذلك قوله تعالى في سورة مريم عليها السلام : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا ، كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ، ألم ترأنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزرا ، فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا ﴾ . فالعز والضد على وزن واحد ، والأز والعد على وزن واحد .

٢٥ — وكلام ابن الأثير يؤيد ما آتينا إليه في أثناء هذا الفصل من أن بناء الجملة لم يخرج في جوهره عن السجع طوال القرن الثاني والثالث . والقرن الثالث نسميه صديقتنا الأستاذ أحمد أمين (عصر الجاحظ) وينفى عنه السجع ، مع أن الجاحظ يسجع ولا يخرج من السجع إلا إلى الأزواج ، ومن كلامه في وصف إفك الحاسد :

(١) ص ١١٨ هذا وقد عرض ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة إلى مناقشة من أنكروا السجع على ابن أبي طالب وبين أن كثيرا من كلام الرسول مسجوع ، وعرض لسجع الكهان بكلام قريب مما ذكره الجاحظ والمسيكى وابن الأثير — راجع شرح ابن أبي الحديد ج ١ ص ٤١ و ٤٢ ثم راجع ما كتبه عن الموازنة في ص ٢٧٣ من المجلد الأول . (٢) المثل السائر ص ١٧٠

” وإن كان المحسود عالماً قال مبتدع، ولرأيه متبع، حاطب ليل، وتابع نيل، لا يدري ما حمل، قد ترك العمل، وأقبل على الخيل، وقد أقبل وجوه الناس إليه، وما أحقهم إذ مالوا عليه، فقبحه الله من عالم ما أعظم بليته، وأقل رعيته، وأسوأ طعمته، وإن كان المحسود ذا دين قال : متصنع يغزو ليوصي إليه، ويحج ليثنى عليه، ويقرأ في المسجد ليزوجه جاره آبتنه، ويحضر الجنائز لتعرف شهرته ^(١) “ .

وأنظر قوله فى مقدمة الجزء الثانى من البيان والتبيين :

” ولكنا أحببنا أن نصدر هذا الجزء بكلام من كلام رسول رب العالمين، والسلف المتقدمين، والجللة من التابعين، الذين كانوا مصابيح الظلام، وقادة هذا الأنام، وملح الأرض، وحلى الدنيا، والنجوم التى لا يضل معها السارى، والمنار الذى يرجع إليه الباغى، والحزب الذى كثر الله به القليل، وأعز به الدليل، وزاد الكثير فى عدده، والعزى فى ارتفاع قدره . وهم الذين جلّوا بكلامهم الأبصار العليقة، وشحذوا بمنطقهم الأذهان الكليّة، فنبهوا القلوب من رقدتها، ونقلوها من سوء عادتها، وشفوها من داء القسوة، وغباوة الغفلة، ودأبوا من العى الفاضح، ونهبوا الطريق الواضح ... الخ “ .

وهذا يدلنا على أن الجاحظ لا يهمل السجع إلا حين يسوقه أطراد القول فى لغة التأليف، ولكنه حين يحتفل بالكتابة يسجع ويزاوج، كأن لغة النثر الفنى تنتظر ملاكا من السجع ^(٢) والازدواج .

٢٦ — وقدامة بن جعفر — من كتاب القرن الرابع — يرى السجع من أوصاف البلاغة، على شرط أن يكون فى موضعه وعند سماح القريحة به، وأن يكون فى بعض الكلام

(١) معنى هذا أن حضور الجنائز للشهرة كان من عيوب الناس فى القرن الثالث . وهو اليوم لا يزال كذلك !!

(٢) للجاحظ رسائل اخوانية التزم فيها السجع ستجد منها نموذجاً عند الكلام على القزل المنشور فى الباب الثانى من

هذا الكتاب ص ١٥١ ج ١

(٣) اهتم قدامة بالكلام عن القد والبلاغة وألف فى ذلك (نقد النثر) و (نقد الشعر) و (جواهر الأنفاظ) ومن أحكامه التى تهمنى ما قضى به من أن المنشور (ليس يخلو من أن يكون خطابة أو رسالة أو احتجاجاً أو حديثاً) ص ٨٢ من (نقد النثر) . وهذا يؤيد ما أشرنا إليه من قبل فى هامش صفحة ٢٣

لا في جميعه " فإن السجع في الكلام كمثل القافية في الشعر ، وإن كانت القافية غير مستغنى عنها والسجع مستغنى عنه ، فأما أن يلزمه الإنسان في جميع قوله ورسائله وخطبه ومناقلاته فذلك جهلٌ من فاعله ، وعيٌّ من فاعله " وتحدث قدامة عما كره الرسول من السجع بمثل ما تحدث الجاحظ وأبو دلال وآبن الأثير ثم قال : " وإنما أنكر صلى الله عليه وسلم ذلك لأنه أتى بكلامه مسجوعا كله وتكلف فيه السجع تكلف الكهان . وأما إذا أتى به في بعض كلامه ومنطقه ولم تكن القوافي مختلفة متكلفة ، ولا متمحلة مستكرهة ، وكان ذلك على سبيله الإنسان وطبعه ، فهو غير منكرو ولا مكروه ، بل قد أتى في الحديث : " ويقول العبد مالى مالى ، وماله من ماله إلا ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فأمضى " .

ثم عرض لأهل عصره ، وهم رجال القرن الرابع ، فقال :

ومما تكلم به أهل هذا العصر فأتى بالسجع فيه مجودا ، ومن الاستكراه بعيدا ، قوله : " والحمد لله الذى ذخر المنة لك ، وأخرها حتى كانت منك ، فلم يسبقك أحد الى الاحسان إالى " ، ولم يحاضك أحد فى الانعام على ، ولم تنقسم الأيادى شكرى فهو لك عتيد ، ولم تخلق المنن وجهى فهو لك مصون جديد ، ولم يزل ذمى مضاعا حتى رعيته ، وحتى مبخوسا حتى قضيته ، ورفعت من نظرى بعد أنخفاضه ، وبسطت من أملى بعد أنقباضه ، فليس أعتد يدا إلا لك ، ولا منة إلا منك ، ولا أوجه رغبى إلا إليك ، ولا أتكلم فى أمرى بعد الله إلا عليك ، فصانك الله عن شكر من سواه ، كما صنتنى عن شكر من سواك " .

ثم قال :

ومما يباين هذا مما وضع فى غير موضعه قول صديق لنا فى فصل من رقعة له : " ورزقتى عدلك ، وصرف عني خذلك " . وقوله أيضا : " ولقد جلت عندى بابن فلان المصيبة ، وعظمت الشعيبة " . وقول آخر فى صدر رقعة : " أطل الله بقاءك لى خصيصا ، ولأودائك فيصوصا " — الى أن قال :

ولو كان لزوم السجع فى القول والإغراب فيه وفى اللفظ هما البلاغة لكان الله عز وجل أولى باستعمالها فى كلامه الذى هو أفضل الكلام ، ولكان النبي صلى الله عليه وسلم والأئمة

المهديون قد آستعملوهما ولزموا سبيلهما وسلكوا طريقهما . فأما ولسنا واجدين فيما فى أيدينا من كلامهم استعمال السجع والغريب إلا فى المواضع اليسيرة فهم أولى بأن يقتدى بهم ، ويحتذى بمنهجهم ممن قد نبت فى هذا الوقت من هؤلاء الذين ليس معهم من البلاغة إلا ادعائها ، ولا من الخطابة إلا التحلى باسمها ^(١) .

٢٧ — وقد لا حظنا أن الكتاب كانوا يسجعون ويزاوجون حين يترجمون ، لأن الترجمة القوية لونٌ من الإنشاء توجب ما يوجبها الكلام المبكر من قوة الرصف ، والتأنق فى الصوغ . وقد حدثوا أنه قيل لبرزجمر : أى الاكتساب أفضل ؟ فقال : (العلم والأدب كتران لا ينفدان ، وسراجان لا يطفآن ، وحلتان لا تبليان ، من نالها أصاب الرشاد ، وعرف طريق المعاد ، وعاش رفيعا بين العباد) ^(١) وقيل لكسرى : أى الملوك أفضل ؟ فأجاب : ” الذى إذا حاورته وجدته عليا ، وإذا خبرته وجدته حكيما ، وإذا غضب كان حليما ، وإذا ظفر كان كريما ، وإذا استئجج منح جسيا ، وإذا وعد وفى وإن كان الوعد عظيما ، وإذا شكى اليه وجد رجيا ” ^(٢) .

فهذه فقر نقلت عن الفارسية وروعى فيها السجع ، وسنرى فى الجزء الثانى من هذا الكتاب فقرات منقولة عن اليونانية وروعى فيها السجع ، ونقلت صحائف من لغات أخرى وروعى فيها السجع ، من ذلك ما حدث ابن قتيبة بسنده أن يوسف عليه السلام لما لبث فى السجن سبع سنين أرسل الله عز وجل اليه جبريل عليه السلام بالبشارة بخروجه فقال له : أتعرفنى أيها الصديق ؟ قال له يوسف : أرى صورة طاهرة وروحا طيبا لا يشبه أرواح الخاطئين . قال جبريل : أنا الروح الأمين ، ورسول رب العالمين . قال يوسف : فما أدخلك مداخل المذنبين ، وأنت سيد المرسلين ، ورأس المقربين ؟ قال جبريل : أو لم تعلم أيها الصديق أن الله يطهر البيوت بطهر التبيين ، وأن البقعة التى يحلون بها هى أطهر الأرضين ،

(١) راجع ص ٩٣ — ٩٥ من كتاب (شد النثر) .

(٢) زهر الآداب ص ١٨٩ ج ٢ (٣) ص ١١٧ و ١١٨

وأنة قد طهر بك السجن وما حوله يا ابن الطاهرين ! قال يوسف : كيف تشبهنى بالصالحين وتسمينى بأسماء الصّديقين ، وتعذنى مع آبائى المخلصين ، وأنا أسير بين هؤلاء المجرمين ؟ قال جبريل : لم يكلم قلبك الجزع ، ولم يغير خلقك البلاء ، ولم يتعاضمك السجن ، ولم تطأ فراش سيدك ، ولم ينسك ملاء الدنيا بلاء الآخرة ، ولم تنسك نفسك أباك ، ولا أبوك ربك ، وهذا الزمان الذى يفك الله به عتوك ، ويعتق به رقك ، ويبين للناس فيه حكمتك ، ويصدق رؤياك وينصفك من ظلمك ، ويجمع اليك أحبتك^(١) .

ولسا نريد أن تثبت أن كل ما ترجم روعى فيه السجع والازدواج ، لا ، ولكنا نقول إن فريقا من المترجمين جرى على الطبع المكتسب بطول الألفة فى مذاهب الانشاء فسجع وزاوج فيما نقل الى العربية من اللغات الأجنبية . وفى هذا تأييد لما حاولنا إثباته فى هذا الفصل من غلبة السجع والازدواج على سواد المنشئين .

٢٨ — أما بعد فقد أسهبنا فى هذا الفصل إسهابا نحشى أن ينتهى الى الإملال . ولكنه فصل ضرورى جدا فى بناء هذا الكتاب . ذلك بأن السجع صار خصيصة أساسية عند كتاب القرن الرابع ، ومن الناس من ظن أنه كان كذلك لأن كتاب ذلك العهد أسرفوا فى آتهاب المحسنات اللفظية من اللغة الفارسية ، فأردنا أن تثبت أن السجع كان حلقة أصيلة فى اللغة العربية ، وأنه أخذ أطوارا مختلفة حتى وصل الى القرن الرابع .

وسنرى بعد قليل أن السر فى إقبال كتاب القرن الرابع على السجع يرجع الى حرصهم على اتهاب طرائق الشعراء فى المعانى والأساليب .

ونعذ القارئ أن يتوهم أننا كتبنا هذا الفصل للدعوة الى إيتار السجع . لا ، فنحن نرى السجع قيذا يعطل حركة الفكر والعقل فى كثير من الأحيان ، ونراه يبعد لغة العرب من أن تصير لغة مدنية تعبر عن جميع الشئون فى طلاقة وحرية ، بحيث لا يصدها سجع ، ولا يحدها ازدواج . وسيرى المتأمل حين يجاوز القرن الرابع — الذى سلم فيه السجع من آصار التكلف

المقوت — أن لغة الرسائل والتأليف وقعت تحت نيرٍ من السجع ثقيل ، حتى وجدنا السجع يلتمز في موضوعات بعيدة عن الأدب . وكان الأدب هو الذى يوحى بالتأنق والاقتنان .

وإذا كان كتاب العصر الحاضر قد أنصرفوا انصرافا تاما عن السجع فإن ذلك منشؤه أنهم ملأوا هذا الزخرف ، وضجروا منه ، ورأوه علامة على فقر الكاتب وعجزه عن الظفر بالحلية الجوهرية : حلية المعنى الرائع والغرض النبيل .

ولا ينس القارئ أننا نؤدى في هذه الدراسة مهمة المؤرخ : فليس من شأننا أن نقبَّح أو نحسن فنا من طرائق البيان ، وإنما نرسم العهود الأدبية رسما واضحا قد يظهر عليه التشيع في بعض الأحيان ، وما بنا أن نتشيع ، ولكن الحرص على إتقان الصورة التاريخية قد يظهرنا متشيعين من حيث لا نريد .

ونحن في العصر الحاضر نهرب من السجع والمزاوجة عامدين ، حتى في المواطن التي يفرض فيها المعنى أن نسجع أو نزواج ، وليس خطؤنا في هذا بأقل من خطأ من يحنون على المعنى بالترام السجع . ولكل عصر آفته : فالتأنق المغرب آفة ، والتحرر المسرف آفة ، والصواب أن تكون السيادة للمعنى وأن يكون له السلطان المطلق في فرض ما توجهه الألوان النفسية من مختلف الصور والأساليب ^(١) .

(١) من أجل ما قرأنا في الدفاع عن السجع قول ابن أبي الحديد في الرد على من يرون السجع بابا من التكلف : « المذموم هو التكلف الذى تظهر سماجته وثقله للسامعين ، فأما التكلف المستحسن فأى عيب فيه ؟ ألا ترى أن الشعر نفسه لا بد فيه من تكلف إقامة الوزن ، وليس لطاعن أن يطلع فيه بذلك » راجع شرح نهج البلاغة ص ٤٢ ج ١ وفى هذا المعنى قال شوقي طيب الله ثراه :

« كل موضع للشعر الرصين محل السجع ، وكل قرار لموسيقاه قرار كذلك للسجع ، فأنما يوضع السجع النابغ فيما يصلح مواضع للشعر الرصين : من حكمة تختزع ، أو مثل يضرب ، أو وصف يساق ، وربما وشيت به الطوال من رسائل الأدب الخالص ، ورصعت به القصائد من فقر البيان المحض . وقد ظلم العربية رجال قبحوا السجع وعدوه عيبا فيها ، وخطئوا الجليل المنفرد بالقبیح المردول منه يوضع عنوانا للكتاب ، أو دلالة على باب ، أو حشوا في رسائل السياسة ، أوثرثرة في المقالات العلمية . فيأنشء العربية إن افتمك سرية مثرية ولن يصيرها غائب ينكر حلاوة الفواصل في الكتاب الكريم ، ولا سجع الجمام في الحديث الشريف ، ولا كل مأثور خالد من كلام السلف الصالح » .

(أسواق الذهب ص ١٠٩) .

الباب الثاني

خصائص السيرة الفقهية

في القرن الرابع الهجري

١ - خصائص نثرية

١ - نريد أن نبين في هذا الباب بعض خصائص النثر الفني في القرن الرابع ، ونحب مع هذا أن نوجه نظر القارئ الى أنه من المتعذر أن نطمئن الى أن هناك خصائص يتفرد بها ذلك العصر ، فقد رأى القارئ كيف تطورت الفنون النثرية من عهد النبوة الى العهد الذي ندرسه في هذا الكتاب ، ورأى كذلك أننا موقنون بأن النثر لعهد النبوة نفسه لم يخلق خلقا ، وإنما نشأ وتطور في عدة أجيال .

٢ - وكل ما يمكن الاطمئنان اليه في تقدير الخصائص النثرية لهذا العهد هو بروز العناصر الفنية التي ظهرت تباعثها منذ القرن الأول ، فليس في القرن الرابع خصائص جديدة كل الجدة ، ولكن فيه خصائص كانت تلمح عند كتاب القرن الاول والثاني والثالث ، ثم ظهرت واضحة قوية على أقلام الفحول المبدعين أمثال ابن العميد والخوارزمي وبديع الزمان .

٣ - وأولى هذه الخصائص إشار البديع ، فقد كان الكتاب السابقون يميلون الى المحسنات البديعية ولكن في غير إسراف ، فلما جاء كتاب القرن الرابع قصدوا اليها قصدا ، وأسرفوا في توشية الكتابة بفنون التورية والموازنة والمطابقة والجناس .

وآية ذلك أن مؤلفي البلاغة في القرن الثالث ما كانوا يحرصون كل الحرص على المحسنات اللفظية ، بل كانوا يلمون بها إلمامة خفيفة ، فلما جاء مؤلفو البلاغة في القرن الرابع حرصوا عليها أشد الحرص حتى آستطاع أحدهم أن يقول :

وقد أُلِّف للألفاظ غير كتاب فقيل : "أصلح الفاسد ، وضم النشر ، وسد الثلم ، وأسا الكلام" فوزن أصلح الفاسد مخالف لوزن ضم النشر ، وكذلك سد وأسا . ولو قيل : "أصلح

الفاسد، وألف الشارد، وأصلح ما فسد، وقوم الأود، أو قيل "صلح فاسده، ورجع شارده" لكان في استقامة الوزن واتساق السجع عوض من تباين اللفظ وتنافي المعنى والسجع^(١).

٤ — ويمكن تحديد ما أختص به النثر في القرن الرابع بالصفات الاتية :

أولاً — التزام السجع في جميع الرسائل، حتى الرسائل المطولة التي يراد بها تقييد مناظرة أو شرح مسألة كالذي وقع فيها كتبه بديع الزمان الهمداني عن المناظرة التي كانت بينه وبين أبي بكر الخوارزمي^(٢)، وكالرسالة التي كتبها الخوارزمي إلى الشيعة بنيسابور^(٣). وكان الكتاب قبل ذلك يسجعون، ولكنهم لم يكونوا يلتزمون السجع في جميع الموضوعات، ومن كتاب هذا العصر من جانب التزام السجع كالشريف الرضي وأبي حيان التوحيدي، ولكنهم كانوا يعودون إليه من حين إلى حين.

ثانياً — الحرص على تضمين الرسائل أطياب الشعر ومختار الأمثال. فن الكتاب من يبدأ رسالته ببيت أو بيتين يتقدم بهما كلامه كما كان يفتح الأولون رسائلهم بحمد الله والصلوة على نبيه، ومنهم من يختم الرسائل بالشعر كما كان يختمها المتقدمون بعبارة « والسلام على من اتبع الهدى » أو « والسلام عليكم ورحمة الله » وهم مع ذلك يتخيرون من الأشعار والأمثال ما يحلون به تضاعيف الرسائل، يذكرون اسم الشاعر تارة ويقلونه أخرى، والخوارزمي يحرص على تعيين اسم الشاعر وإن كان لا يلتزم ذلك.

وفي رسائل البديع الهمداني رسالة رصعها بالشعر لم أجدها نظيراً عند غيره إذ يقول :

« أنا لقرب الأستاذ أطال الله بقاءه :

”كما طرب النشوان مالت به الخمر“

ومن الارتياح للقائه :

”كما انتفض العصفور بلله القطر“

(١) راجع مقدمة جواهر الألفاظ لقدامة بن جعفر . (٢) راجع رسائل بديع الزمان ص ٣٨

(٣) راجع رسائل الخوارزمي ص ١٢٥

ومن الأمتزاج بولائه :

”كما التقت الصبء والبارد العذب“

ومن الابتهاج بمرآه :

”كما أهتر تحت البارح الغصن الرطب“^(١)

وهذا النمط جميل ، ويدل فوق جماله على معرفة الكاتب بأسرار الشعر البليغ ، ولكن الكتاب لم يلتزمه بالرغم من إسرافهم في الصنعة لأنه متعب يضطر الكاتب الى الإكثار من البحث عن الشطرات المناسبة ، خصوصا اذا راعى القافية كما زواج البديع بين الرء والباء .

ثالثا — ألفت كتاب القرن الرابع الكتابية في بعض الموضوعات التي كانت خاصة بالشعر كالغزل والمديح والهجاء والفخر والوصف ، وذلك لأنهم نقلوا الى النثر محاسن الشعر من الاستعارة والتشبيه والخيال . والنثر اذا أخذ خصائص الشعر أصبح أقدر منه على الوصف لخلقه من قيد الوزن والقافية . وكذلك أصبح النثر في القرن الرابع أداة لتقييد الخواطر النفسية ، والملاحظات الفنية ، بحيث يرى القارئ من جمال الصنعة ودقة الأسلوب ما يغنيه عن التفكير في قصائد الشعراء الذين سبقهم هؤلاء الكتاب الى تصيد ما يقضى به العقل ، أو يوحى به القلب ، أو يشير اليه الخيال .

ولو بحثنا في الشعر العربي عن قصيدة في الهجاء لما وجدنا ما يساوى ما قاله البديع الحمداني في ذم أحد القضاة :

”وهذا الحيرى رجل سفلة طلب الرياسة بغير تحصيل آلتها ، وأعجله حصول الأمانة عن تحمل أدواتها :

والكلب أحسن حالة وهو النهاية في الخساسة

ممن تصدّر للزيا سة قبل إبان الرياسة

فولى المظالم وهو لا يعلم أسرارها ، وحمل الأمانة وهو لا يعلم مقدارها ، والأمانة عند الفاسق ، خفيفة المحمل على العاتق ، تشفق منها الجبال ، وتحمها الجبال ، فقبحه الله من

حاكم لا شاهد أعدل عنده من السلة والجام ، يدلى بهما الى الحكام ، ولا منزكى أصدق لديه من الصُّفر، ترقص على الظفر، ولا وثيقة أحب اليه من غمزات الخصوم ، على الكيس المختوم ، ولا وكيل أوقع بواقفه من خبيثة الذيل ، وجمال الليل ، ولا كفيل أعز عليه من المنديل والطبق ، في وقى النسق والفاق ، ولا حكومة أبغض اليه من حكومة المجلس ، ولا خصومة أوحش لديه من خصومة المفلس . ثم الويل للفقير إذا ظلم ، فما يغنيه موقف الحكم ، إلا بالقتل من الظلم ، ولا يجيره مجلس القضاء ، إلا بالنار من الرضاء . وأقسم لو أن اليتيم وقع بين أنياب الأسود ، بل الحيات السود ، لكانت سلامته منهما أحسن من سلامته إذا وقع بين غيابات هذا القاضي وأقاربه . وما ظن القاضي يقوم يحملون الأمانة على متونهم ، وياكلون النار في بطونهم ، حتى تغلظ قصراتهم من مال اليتامى ، وتسمن أكفاهم من مال الأيامى ؟ وما ظنك بدار عمارتها خراب الدور ، وعطلة القدور ، وخلاء البيوت ، من الكسوة والقوت ؟ وما قولك في رجل يعادى الله في الفلس ، ويبيع الدين بالثمن البخس ، وفي حاكم يبرز في ظاهر أهل الست ، وباطن أصحاب السبت ، فعليه الظلم البحت ، وأكله الحرام السيح ؟ وما رأيك في سوس لا يقع إلا في صوف الأيتام ، وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام ، ولص لا ينقب إلا خزنة الأوقاف ، وكردى لا يغير إلا على الضعاف ، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود ، ومحارب لا يئب مال الله إلا بين العهود والشهود ؟ وما زلت أبغض حال القضاة طبعاً وجبلاً ، حتى أبغضتهم ديناً وملة ، وألعنهم درجة ، حتى لعنتهم قرابة ، بما شاهدت من هذا الحيرى وقاسيت ، وعانيت من خبطه وخطبه ما عانيت ” .

وهذه الرسالة ليست إلا قصيدة مثورة . وهذا النمط من الكلام لم يكن كثير الوقوع قبل القرن الرابع ، وهو أسلوب من أساليب الهجاء يكثر في نثر بدیع همدان .

ومن أظرف ما كتبه رسالته التي بعث بها الى شاب كتب اليه بعد أن عزل عن ولاية حسنة يستميل فؤاده ، وهى رسالة مشهورة عارضها كثير من الكتاب ، وأنظر كيف يقول :

« وردت رقعتك — أطال الله بقاءك! — فأعرتها طرف التعزز، ومددت إليها يد التعزز، وجمعت عنها ذيل التعزز، فلم تند على كبدي، ولم تحظ بناظري ويدي، وخطبت من مودتي ما لم أجذك لها كفوًا، وطلبت من عسرتي ما لم أرك لها رضى، وقلت: هذا الذى رفع عنا أجفان طرفه، وشال بشعرات أنفه، وتاه بحسن قدمه، وزها بورده، ولم يسقنا من نوبته، ولم نسربضوئه. والآن اذ نسخ الدهر آية حسنه، وأقام مائد غصنه، وفنأ غرب عجبته، وكف زهو زهره، وانتصر لنا منه بشعرات كسفت هلاله، وأكسفت باله، ومسخت جماله، وغيّرت حاله، وكدرت شرعته، جاء يستقي من جرفنا جرفًا، ويفرف من طيبنا غرفًا، فهلا يا أبا المفضل مهلا.

أرغبت فينا إذ علا لك الشعر في حدّ قمل
ونحرجت عن حدّ الظبا ءِ وصرت في حدّ الإبل
الآن تطلب عسرتي عد للعداوة يا نجمل

وتناسيت أيامك إذ تكلمنا نزا، وتلحظنا شزرا، وتجالس من حضر، ونسترق إليك النظر، ونهزل لكلامك، ونهش لسلامك.

ومن لك بالعين التى كان مدهً اليك بها فى سالف الدهر يُنظرُ

أيام كنت تمايل، والأعضاء تنزائل، وتغناج، والأجساد تتفاج، وتلتفت، والأكباد تتفتت، وتخطر وترفل، والوجد بها يعلو ويسفل، وتدبر وتقبل، فتمنى وتخبّل، وتصعد وتعرض، فتضنى وتمرض،

وتبسم عن ألى كأن منورا تخلل حرّ الرمل غض له ندى

فأقصر الآن، فانه سوق كسد، ومتاع فسد، ودولة عرضت، وأيام آنقضت،

وعهد تفاق مضى وخطب كساد نزل

وخذ كأن لم يكن وخط كأن لم يزل

ويوم صار أمس ، وحسرة بقيت في النفس ، وثمر غاض مأوه فلا يرتف ، وريق خدع
فلا ينشف ، وتمايل لا يعجب ، وثمن لا يطرب ، ومقلة لا تجرح الحاظيا ، وشفة لا تفتن
ألفاظها . نختام تدل وإلام ؟ ولم نحتمل وعلام ؟ وأن أن تدعن الآن ! وقد بلغني ما أنت
متعاطيه من تمويه يجوز بعد العشاء في النسق ، وتشبيه يقتضج عند ذوى البصر ، وإفنانك
لذلك الشعرات حفا وحصا ، وإتباعك لها تنفا وقصا ، وسيكفينا الدهر مؤونة الانكار
عليك ، بما يزف من بنات الشعر وأمواله اليك ! فأما ما استأذنت رأيي فيه من الاختلاف الى
يجلسي فما أقل نشاطي بك ، وأضيق بساطي علك ، وأتبع قلبي منك ، وأشد استغنائى عن
حضورك ! فإن حصرت فئت كغش نروض عليه الحلم ، وتتعلم به الصبر ، وتتكلف فيه
الاحتمال ، ونفسي منه الجفن على قذى ، ويطوى منه الصدر على أذى ، ونجعله للعيون تأديا ،
والقلوب تأييا .

”مايك يا أبا الفضل تعاض من الرغبة عما رغبة فينا ، ومن ذلك التدل علينا تذلالنا
ومن ذلك التعالى تبصبصنا . ومن ذلك التعالى ترخصنا ، وما بال الدهر أبداك من التزايد
تقصا ، ومن التسحب على الإخوان تقصصا ؟ ! ولئن اعتضت عن ذلك الذهاب رجوعا ،
لقد اعتضنا عن هذا النزاع نزوعا ، فأما برملت وجلبك ، ماق حبلك على غاربك ، لا أوثر قربك
ولا أئده سربك . ولو أحبت أن أوجعت لقلت :

ما يفعل الله باليهود ولا يعاد ولا تمود
ولا يفرعون إذ عصا ما يفعل الشعر بالحدود^(١)

رابعا — عدم التقيد بصيغة خاصة في بداية الكتب ، فقد كان القدماء يحرصون على
الابتداء بحمد الله والصلاة على نبيه ، بعد عبارة من فلان الى فلان التي كثرت ورودها في القرن
الأول ، ولكن كتاب هذا العصر أخذوا يمحرون على فطرتهم في تخير البدايات ، فمنهم من يتدئ

(١) رسائل يدع الزمان ص ٨٤ ٨٨ وقد سارصها عبد الوهاب بن حرم برسالة طرفة (الدخيرة ص ٦٦ ج ١) .

(١) بيت من الشعر أو بحكمة مأثورة أو مثل معروف، أو قصة صغيرة، ثم يدخل في الموضوع .
ومنهم من يكتب في الموضوع مباشرة من غير أن يتقدمه بشيء ، وهم في ذلك كله يجرون على
خطة مقبولة، ولا يراعون القواعد إلا اذا خاطبوا الوزراء أو الأمراء أو الملوك ، فعند ذلك
يسدون بالعبارات المملوءة بالمجاملة والرفق كقول البديع في بداية خطاب كتبه الى الوزير
أبي نصر الميكالى :

” قد عرف الشيخ الجليل آتسأى بعبوديته، ولو عرفت مكانا بعد العبودية لبلغته
معاه “ (٣)

وبديع الزمان بالرغم مما درج عليه من البساطة في بداية الكتب يبالغ في مخاطبة الرؤساء
مبالغة مملوءة تظهر في الجمل الدعائية التي يختص بها من يكتب اليهم ، وكذلك يفعل أبو بكر
الخوارزمي، والصابي، وآبن عباد . ومن أمثلة ذلك ما كتبه ابن العميد الى عضد الدولة
يهينه بولدين :

” أطال الله بقاء الأمير الأجل عضد الدولة — دام عزه وتأهيدته، وعلوه وتمهيدته ،
وبسطته وتوطيده، وظاهر له من كل خير مزيده “ (٤)

على أنه لا تزال بقية من البدء بحمد الله والصلاة على نبيه تجرى في رسائل الخوارزمي يجدها
القارئ في عدة مواطن كقوله يخاطب ابن عباد :

” كتابي الى الوزير وأنا على بعد الدار سالم في جملته ، مستظهر على الامام بدولته، والحمد لله
على سلامي في سلامته، وصلى الله على سيدنا محمد وعترته “ (٥)

وكذلك قوله في كتابه الى كاتب خوارزم شاه :

” كتابي وأنا بين محنة قد أدبرت، ونعمة قد أقبلت، وولى قد ملك، وعدوق قد هلك ،
والحمد لله الذي أبلى ثم أبلى فأنعم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الأكرمين “ (٦)

(١) راجع رسائل الخوارزمي . (٢) انظر ص ١٢٢ من رسائل بديع الزمان . (٣) رسائل البديع
ص ٣٤٤ (٤) زهر الآداب ج ٤ ص ١٨٠ (٥) رسائل الخوارزمي ص ١٥٢
(٦) رسائل الخوارزمي ص ٢٠١

وهذه الفقرات ليست بداية خالصة بحمد الله والصلاة على نبيه، وإنما هي عبارات أُريدَ

بها مراعاة التقاليد الدينية .

أما ختام الرسائل فقد درج أكثرهم في الأغلب على الاكتفاء بعبارة "والسلام" وهي اختصار لكلمة "والسلام عليكم ورحمة الله" التي كانت تختتم بها الرسائل غالباً في القرن الأول .

هـ — ونعيد ما قلناه من أن هذه الخواص التي آمنتاز بها الكتابة في القرن الرابع

لم تنشأ في يوم وليلة حتى صارت من سمات هذا القرن، وإنما هي صفات نثرية تطورت على مدى القرون التي سبقت هذا القرن، ثم ظهرت فيه ظهوراً قوياً لأن كتابه أرادوا متعمدين أن تكون لهم شخصية فنية تظهر في تجسيم ما كان أسلافهم يشيرون إليه من أنواع المحسنات اللفظية والمعنوية، فالسجع مثلاً لم يخلق في القرن الرابع وإنما هو حلية قديمة الترمها كتاب هذا العصر، وكذلك تضمين الرسائل أبياتاً من الشعر ليس بجديد، فقد وجد منه شيء في خطاب عثمان بن عفان الذي كتبه إلى عليّ يستنجد به، وفي بعض خطب علي بن أبي طالب أبيات من الشعر وردت لتأييد ما كان يقوله في مدافعة خصومه . وأنا أرتاب في صحة خطاب عثمان، ولكن مع ذلك دليل على أنه كان مفهوماً أن تضمين النثر شواهد من الشعر كان من التقاليد التي درج عليها المتقدمون . ومثل هذا يقال في أخذ النثر لبعض أغراض الشعر، فقد كانت للتقدمين جولات فنية في النثر لا تقل في طرافة موضوعاتها ورقة حواشيها عن الشعر، ولكن كتاب القرن الرابع ظهوروا في هذه الناحية ظهوراً جعلها من خواصهم من حيث الغرض والأسلوب .

٢ - السجع والازدواج

١ - بيدنا في فصل سلف أطوار السجع في النثر الفني ، ورأى القارئ كيف كان كتاب القرن الأول والثاني والثالث يتنقلون بين لونين من الصياغة الفنية : هما السجع والازدواج . فلنذكر الآن أن التزام السجع صار من خصائص النثر الفني في القرن الرابع ، وأن كتابه لا يتحررون من السجع إلا الى فن قريب منه هو الازدواج ، ولم يخرج من كتاب هذا العصر الى الحرية في الصياغة الفنية إلا عدد قليل .

٢ - وكتاب هذا العصر ينقسمون الى ثلاث طوائف : طائفة تاتزم السجع التزاما مطلقا ولا تخرج عنه إلا في قليل من الأحيان ، ومن أشهر هذه الطائفة بديع الزمان والحوارزمي والتمالي والصابي والميكالي وابن عباد وابن دريد وابن نباتة وابن وشمكير ، وطائفة تؤثر الازدواج وتسجع من حين الى حين ، وعلى رأسهم ابن العميد والتوحيدي والآمدي والرضي والباقلاني والعسكري والحامتي وابن شهيد . وطائفة تؤثر الحرية في الصياغة الفنية فلا تسجع ولا تراوج إلا قليلا ، ومن هؤلاء ابن مسكويه والمرزباني وابن فارس والجرجاني والأصفهاني والتنونجي وأحمد بن يوسف المصري .

٣ - والطائفة الأولى لا تترك السجع في جد ولا هزل . وقد رأيت أن أفتح رسائل بديع الزمان وأن أنقل منها شيئا بدون بحث ولا تخير ، فلما فتح الكتاب على هذه الحال رأيت الكاتب يقول :

” عافاك الله ! مثل الانسان ، في الإحسان ، مثل الأشجار ، في الإثمار ، سبيل من أت بالحسنة ، أن يرفه الى السنة ، وأنا كما ذكرت لا أملك عضوين من جسدي ، وهما فؤادي

(١) ومع ذلك رأينا للتمالي صفحات في كتاب (ثمار القلوب) تمثل النثر المرسل أبجل تمثيل حتى كدنا نحسبه لرجل آخر غير مؤلف اليتيمة وسحر البلاغة ، وقد تعذب لغة التمالي وتسلس في ذلك الكتاب فتذكرا بالمطامع المنع من أساليب البيان .

ويدي، أما التفراد فيعلق بالفود، وأما اليد فتولع بالهود، ولكن هذا الخلق النفيس، لا يساعده الكيس، وهذا الطبع الكريم، ليس يحمله الغريم، ولا قرابة بين الأدب، والذهب... والأدب لا يمكن سرده في قصعة، ولا صرفه في ثمن سلعة، ولى مع الأدب نادرة، جهدت في هذه الأيام بالطباخ، أن يطبخ لونا من جسية الشاخ، فلم يفعل، وبالقصا، أن يسمع أدب الكتاب، فلم يقبل، واحتيج في البيت، الى شيء من الزيت، فأنشدت شيئا من شعر الكيت، ألفا ومائتي بيت، فلم يفرن، ولو وقعت أرجوزة العجاج، في توابل السكاج، ماعدتها عندي، ولكن ليست تقع، فما أصنع؟ فان كنت تحسب اختلافك الى، إفضالا على، فراحتي، أن لا تطرق ساحتي، وفرجي، أن لا تجي، والسلام^(١).

ولأفعل مثل هذا مع الخوارزمي. ولقد فتحت ديوان رسائله عنوا رأيته يقول:

”أما الآن، وقد كان ماكان، فاني أرى للشيخ أن يلبس للدهر ثوبا من الصبر ثخيناً، ويولى حوادثه ركة من التماسك ركياء، وأن تجدد الأيام حرا، وأن تصفيه الحوادث اذا ذاقته مرّاً، وأن يدارى مع ذلك سلطانه، ويصغر بلسانه إساءته ويكبر إحسانه، ويروض لسانه في الخلوة على شكره، لئلا ييجح به في الجلوة انى غيره، فانما أيام المحنة موج من تطاطأ له تحطاه، ومن وقف على طريقه أرداه، ومن قابل أيام الإديار بوجهه صدمته، ومن قاتل عساكر الإقبال في أيام كرها هزيمته، ومن طالب السلطان بالنصفة طلب عسيرا، ومن حاسب على قليل من العنت لقي كثيرا^(٢)“.

٤ — وما يؤيد إشار هذا الفريق للسجع أن نرى المؤلفين منهم يهتمون بجمع ما يجري من الفقرات المسجوعة مجرى الأمثال، وقد صنع هذا الثعالبي غير مرة في كتابه (يتيمة الدهر) فاختار مثلاً للصاحب بن عباد:

”من نبت لجمه على الحرام، لم يحصده غير الحسام — من لم يهزه يسير الإشارة، لم ينفعه كثير العبارة — الشمس قد تغيب ثم تشرق، والروض قد يذبل ثم يورق — الضمائر الصالح،

(١) رسائل بدیع الزمان ص ٢٢١ و ٢٢٢ وقد كتبت هذه الرقعة الى «مستعج عاوده مرارا» .

(٢) رسائل الخوارزمي ص ٩٨

أبلغ من الألسنة الفصاح — متن السيف لين، ولكن حده خشن، ومتن الحية أئين، ولكن ناهيا أخشن — عقد المنن فى الرقاب، لا يبلغ إلا بركوب الصعاب — بعض الحلم مذلة، وبعض الاستقامة منزلة — إنجاز الوعد، من دلائل المجد، وأعتراض المطل، من أمارات البخل، وتأخير الإسعاف، من قرائن الإخلاف — بعض الوعد كنقع الشراب، وبعضه كطمع السراب — قد يبلغ الكلام، حيث تقصر السهام — ربما كان الامساك عن الاطالة، أبلغ فى الابانة والدلالة — إن نفع القول الجميل، وإلا نفع السيف الصقيل — تلقى الاحسان بالبحود، تعريض النعم للشرود — قد يقوى الضعيف، ويصحو التزيف، ويستقيم المائد، ويستيقظ الهاجد — قد يصلى البرئ بالسقيم، ويؤخذ البر بالائيم — ما كل طالب حق يعطاه ولا كل شائم مزن يسقاه^(١).

٥ — واذا نظرنا فى نثر ابن العميد وجدنا الحرية غالبية عليه، ولكننا نراه يلتزم السجع أحيانا كأن يقول :

”أنا أشكو إليك — جعلنى الله فداك! — دهرنا خؤونا غدورا، وزماننا خدوعا غرورا، لا يمنح ما يمنح إلا ريث ما ينتزع، ولا يبقى فيما يهب إلا ريث ما يرتجع، يبدو خيره لمعائهم ينقطع، ويحلو ماؤه جُرعا ثم يمتنع، وكانت منه شيمة مألوفة، وسجية معروفة، أن يشفع ما يبرمه بقرب انتقاض، ويهدى لما يبسطه وشك أنقباض، وكنا نلبسه على ما شرط، وإن حاف منه وقسط، ونرضى على الرغم بحكمه، ونستئم بقصده وظلمه، ونعقد من أسباب المسرة أن لا ييئى محذوره مصمما بلا أنفراج، ولا يأتى مكروهه صرفا بلا مزاج، ونتعلل بما نختلسه من غفلاته، ونسترقه من ساعاته... أن^(٢)“.

٦ — والتوحيدى يمزج بين السجع والمزاوجة — كما كان يفعل الجاحظ الذى آرتضاه إماما فى حياته العقلية والأدبية — ولندكر مثالا من نثره الذى يعد من أبلغ النماذج فى اللغة

العربية ، وليكن ما كتبه في سبب القبض على أبي الفتح بن العميد فإنه من أروع آيات
 البيان^(١) .

ولما مات ركن الدولة سنة ٣٦٦ اجتمع ذو الكفائتين أبو الفتح وعلى بن كامه أحد
 أمراء الديلم والأعيان ، وتعاهدا وتوثقا وتحالفا وبذل كل واحد منهما الاخلاص لصاحبه
 في المودة في السر والعلانية ، والذب والتوقير ، عند الصغير والكبير ، واجتهدا في الإيمان
 القامسة ، والعقود الموثقة ، ودبرا أمر الجيش ، ووعدا الأولياء وردا النافر ، وربكا الخطر
 الحاضر ، وعانقا الخطب العاقر ، وباشر كل ذلك أبو الفتح خاصة بجهد من نفسه ، وصرامة
 من رأيه ، وجودة فكره ، وصحة بینه ، وتوفيق ربه . فلما ورد مؤيد الدولة الري من أصبهان
 وصادف الأمر متسقا ، ولحق كل فتح مرتقا ، بما تقدم من الحزم فيه ، ونفذ من الرأي
 الصائب عنده . أنكر الزيادة الموجبة للجند فكرها ، ودمدم بذكرها ، فقال له أبو الفتح : بها
 نظمت لك الملك وحفظت لك الدولة ، وصنت الحريم ، فان خالفت هذه الزيادة دواك
 فأسقطها : فاليد الطولى لك . وكان ابن عباد قد ورد وحطبه رطب ، وتورده بارد ، وأمره
 غير نافذ . هذا في الظاهر . فأما في الباطن فكان يخلو بصاحبه ويوثبه على أبي الفتح بما
 يحسد السبيل اليه من الطعن والتدح فأحس بذلك ابن العميد فألب الأولياء على ابن عباد حتى كثر
 الشغب . وعظم الخطب ، وهم يقتله ، وقال للأمر : ليس من حق كفايتي في الدولة وقد
 انتكحت حبليها وقويت أطماع المفسدين فيها ، أن أسام الحسف ، والأحرار لا يصبرون

(١) آتوا أن تقدم هذا الشاهد على طوله لأنه مثال للكتابة القوية التي تمثل صفات الرجال وأحقادهم أشع تمثيل ،
 روى هذا الشاهد تظهير براعة الكاتب في سرد الحوادث بطريقة أخاذة بحدس طبيعية ، على حين يلبس اللفظ فيها آثار الصنعة
 الخفية والتكلف المدفون . وفي احتفال التوحيدى بهذه الصورة دليل على أنه كان يجتهد في مكافحة خصومه عن طريق
 سرد التاريخ . فان لم يثب القارىء خطر ما في هذا الشاهد من الدسائس فليقرأ ما كتبناه عن التوحيدى والصاحب
 في باب « الرسائل واليهود » بالجزء الثانى من هذا الكتاب .

وأبو الفتح بن العميد هو ابن الكاتب المبدع أبي الفضل بن العميد ، وكان شابا أدبيا ناصع البيان ، ولكنه لم يرزق
 ما رزق أبوه من أصالة الرأي ورجاحة العقل ، وكان يلبسه من شر ما قاسى أبوه من هوم الحياة .

على نظرات الذل ، وغمزات الهوان . فقال له فى الجواب : كلامك مسموع ، ورضاك متبوع ، فما الذى يبرد فورتك عنه ؟ قال ينصرف الى اصفهان موفورا ، فوالله لو طالبتة منصفاً برفع الحساب لما نظر فيه ليعرقن جبينه ، ولئن أحس الأولياء ، الذين أصطنعهم بمالى وأفضالى ، بكلامه فى أمرى ، وسعيه فى فساد حالى ليكون هلاكه على أيديهم أسرع من البرق اذا خطف ، ومن المزن اذا نطف . فقال له : لا مخالف لرأيك ، والنظر لك ، والزمام بيدك . وتلطف آبن عباد فى خلال ذلك لأبى الفتح وقال له : أنا أنظم منك إليك ، وأتمهل بك عليك ، وهذا الاستيحاش سهل الزوال : إذا تألفت الشارد من حاملك ، وعطفت على الشائع من كرمك ، ولئى ديوان الانشاء وأستخدمنى فيه ، ورتبى بين يديك ، وأحضرنى بين أمرك ونهيك ، وسمنى برضاك ، فانى صنيعة والدك ، وأخذنى بهذا صنيعة لك ، وليس يجمل أن تكثر على ما بنى ذلك الرئيس فتهدمه وتتقضه . ومتى أجبته الى هذا ، وآمنتى ، فانى أكون خادمك بحضرتك ، وكاتباً يطلب الزلفة عندك ، فى صغير أمرك وكبيره ، وفى هذا إطفاء للنائرة التى قد ثارت بسوء ظنك وتصديقك أعدائى على ، فقال فى الجواب : والله لا تجاورنى فى بلد السرير ، وبحضرة التدبير ، وخلوة الأمير ، ولا يكون لك أذن على ، ولا عين عندى ، وليس لك منى رضى الا بالعود الى مكانك من أصفهان ، والسلو عما تحدث به نفسك . فخرج آبن عباد من الرى ، على صورة قبيحة متنكراً بالليل ، وذلك أنه خاف الفتك والغيلة ، وبلغ اصفهان وألقى عصاه بها ، ونفسه تغلى ، وصدره يقور ، والخوف شامل ، والوسواس غالب . وهم أبو الفتح بانفاذ من يطالبه ، ويؤذيه ويهينه ، ويعسفه ، فأحس هو بالأمر . فحدثنى أبو النجم قال : عمل على ركوب المفازة الى نيسابور ما ضاق عطنه ، واختلف على نفسه ظنه ، وإنه لفى هذا وما أشبهه حتى بلغهم أن خراسان قد أزمعت الدلوف إليهم وتشاورت فى الإطلال عليهم . فقال الأمير لأبى الفتح : ما رأى وقد نمت إلينا ما تعلم من طمع خراسان فى هذه الدولة ، بعد موت ركن الدولة ؟ فقال أبو الفتح : ليس رأى إلى ولا إليك ، ولا الهمة على ولا عليك ، فهنا من

يقول لك أنت خليفتي ويقول لى أنت كاتب خليفتي . يدبر هذا بالمال والرجال وهو الملك
عضد الدولة أخوك، قال فاكتب إليه وأشعره، وأشع ما قد منينا به وأشهره ، وسله يداوى
هذا الداء . فكتب أبو الفتح وتلطف فصدر فى الجواب ، إن هذا لأمر عجاب ، رجل مات
وخلف مالا، وله ابن ، فلم يحل اليه من إرثه شىء زوياً عنه ، واستثنارا دونه ، ثم يخاطب بأن
يغرم شيئا آخر من عنده ، قد كسبه بيجهده ، وجمعه بسعيه وكدحه ، هذا والله حديث لم نسمع
بمثله ، ولئن استفتى الفقهاء فى هذا لم يكن عندهم منه بته إلا التعجب والاستطراف ، ورحمة
هذا الوارث المظلوم من وجهين أحدهما أنه حرم ماله بحق الإرث ، والآخر أنه يطالب باخراج
ما ليس عليه ، وإن شاء حاكت كل من سام هذا الى من يرضى به . فلما سمع مؤيد الدولة هذا ،
قال لأبى الفتح : ما ترى ؟ قال قد قلت ، وليس لى قول سواد ، هذا الرجل هو الملك والمدير ،
والمال كله له ، والبلاد بلاده ، والجند جنده ، والكل له ، والأسم والجلالة عنده ، وليس
ههما إرث قد زوى عنه ، ولا مال آسؤثر به دونه ، والنادرة لا وجه لها فى أمر الجد ، وفيما
لا تعلق له باللب . أما خراسان فكانت منذ عشرين سنة تطالبنا بالمال ، وتمددنا بالمسير
والحرب ، ونحن صرة نحارب ، ومرة نسالم ، وفى خلال ذلك نفرق المال بعد المال ، على
وجوه مختلفة ، فأحسب أن ركن الدولة حى باق ، هل كان له إلا أن يدبر بماله ورجاله ،
وذخائره وكنوزه ، أفليس هذا الحكم لازما ، لمن قام مقامه ، وجلس مجلسه ، وألقى اليه زمام
الملك ، وأصدر عند كل رأى ؟ وهل علينا إلا الخدمة ، والنصرة ، والمناححة ، وكل ماسهل وصعب
كما كان عليه ذلك بالأمس ، من جهة الماضى ، فقال مؤيد الدولة : إن الخطب فى هذا أراه
يطول ، والكلام يتردد ، والمناظرة تروى ، والفريضة تعول ، والفرصة تفوت ، والعدو يستمكن ،
وأرى فى الوقت أن نذكر وجهها لئال ، حتى نحتج به ، ثم نستمد فى الثانى منه ، ونرضى الجند
فى الحال ، ونتحزم فى الأمر ، ونظهر المرامة والشكيمة ، بالاهتمام والاستعداد ، حتى يطير الخبر
الى خراسان يجدنا واجتهادنا ، وحزمنا واعتمادنا ، فيكون ذلك مكسرة لقلوبهم ، وحسما لأطعامهم ،
وباعثا على تجديده القول فى الصلح ورد الحال الى العادة المؤلوفة . فقال : نسأل الله بركة

هذا الأمر فقد نشأت منه رائحة منكزة، ما أعرف لئال وجهها ، أما أنا فقد خرجت من جميع ما عندى مرة، بما خدمت به الماضى تبرعا حدثان موت أبى ومرة بما طالبنى به سرا وأوعدننى بالعزل والاستخفاف من أجله ، ومرة بما غرمت فى المسير الى العراق ، فى نصرة الدولة ، وهذه وجوه استنفدت قلى وكثرى ، وأتت على ظاهرى وباطنى . وقد غرمت الى هذه الغاية ما إن ذكرته كنت كأنى ممتن على أولياء نعمتى ، وإن سكت كنت كالمتهم عند من يتوقع عثرى ، فهذا هذا ، وأما أموال النواحى ، فأحسن أحوالنا فيها أنا نرجئها فى نواحىها مع النفقة الواسعة فى الوظائف والمهمات التى تتوبنا . وأما العامة فلا أحوج الله اليها ، ولا كانت دولة لاتثبت إلا بها ، وبأوساخ أموالها ! فقال مؤيد الدولة ، وكان ملقنا هذا ابن كامه وهو صاحب الذخائر والكنوز والجبال والحصون وبيده بلاد وقد جمع هذا كله فى دولتنا ، وحازه من مملكتنا وأيامنا وبدولتنا وهو محتوم ما فض مذ كان . ما تقول فيه ؟ قال : مالى فيه كلام . فان بنى وبينه عهدا ما أخيس به ، ولو ذهبى نفسى ! فقال : اطلب منه القرض . قال : إنه يستوحش ويراه بابا من الغضاضة ، وقدر القرض لا يبلغ قدر الحاجة . فان الحاجة ماسة الى خمسمائة ألف دينار على التقريب ، ونفسه أنفع لنا ، وأرد علينا ، وأحصن لنا ، والينا من موقع ذلك المال وبعد رأيه وتديره وأسمه وصيته فوق المطلوب منه . قال : وإذ ليس ههنا وجه فليس بأس بأن يطالع الملك بهذا رأى ليكون نتيجه من ثم قال : أنا لا أكتب بهذا فانه غدر . قال : يا هذا فأنت كاتبى وصاحب سرى والزام فى جميع أمرى ، ولا سبيل الى إخراج هذا الحديث الى أحد من خلق الله . فان أنت لم تتول حازه وقازه ، وغثه وسمينه ، ومحبوبه ومكروهه ، فمن ؟ قال : يا أيها الأمير ! لا تسمى الخيانة ! فانى قد أعطيته عهدا يذر الديار بلاقع ، ومع اليوم غد ، ولعن الله عاجلة تفسد الآجلة ! قال : انى لست أسومك أن تقبض عليه ، أو أن تسيء اليه ، أشرب هذا المعنى الى الملك عضد الدولة وخلاك ذم ! فان رأى الصواب فيه تولاه دونك ، وإن ضرب عنه أعضنا رأيا غير ما رأيناه ،

وأنت على حالك لا تزل عنها ولا تبدلي، وإنما الذى يجب عليك فى هذا الوقت بين يدي
كتب حرفين أنه لاوجه لهذا المسال إلا من جهة فلان ، ولست أتولى مخاطبته عليه ولا
مطالبته به . وفاد له بالعهد، وثباتا على اليمين، وجريا على الواجب، ولا أقل من أن تجيب
الى هذا القدر ، وليس فيه شيء مما يدل على النكث والخلاف والتبديل . وما زال هذا
وشبهه يتردد بينهما حتى أخذ خطه بهذا على أن يصدره الى أخيه عضد الدولة بفارس .
ولها حصل هذا الخط عنده وجنّ عليه الليل أحضر ابن كامه وقال له : أما عندك حديث
هذا الخنث فيما أشار به على الملك فى بابك وأورده عليه فى حقك وأمرك وإطاعه فى مالك
وتفك وتكثيره عنده ما تحت يدك وناحيتك ؟ فقال ابن كامه هذا الفتى يرتفع عن
هذا الحديث ولعل عدوا قد كاده به وبني وبينه مالا منفذ للسحر فيه ولا مساع لظن
سوء به . قال ما قلت لك إلا بعد أن حققت ما قلت . ودع هذا كله فى الريح هذا كتابه
الى الملك بما عرفك وخطه بيده فيه . قال على بن كامه أنا أعرف الخط ولكن هاتوا كتابي
فأحضر كتابه الختمى فشهد أن الخط خطه فقال على بن كامه عن سمجته وخرج من مسكنه
وقال ما طمنت بعد الأيمان المغالطة التى بيننا أنه يستجير مثل هذا . قال الأمير أيها الرجل
إما أطارك الملك على سر هذا الغلام فيك لتعرف فساد ضميره لك وما هو عليه من هنات أخر
وأفات هى أكبر فإيه هو الذى حرك من بخراسان وكاتب صاحب جرجان وألقى الى أخينا
بهذان - يعنى نحر الدولة - أخبرنا وهو عين لبختيار ههنا . وقد اعتقد أنه يعمل
فى تحصيل هذه البلاد ويكون وزيرا بالعراق فقد ذاق من بغداد مالا يخرج من ضرره ،
إلا بترع نفسه ، وكان أبو نصر المجوسى قد قدم من عند الملك عضد الدولة وهو يقتل الحبل
ويهرم ، ويهاب مرة ويقدم ، وكان الحديث قد يئى لبلى وأهتم به قبل وقته بزمان ،
فقال على بن كامه : فما رأى الآن ؟ قال : لا أرى أمثلا من طاعة الملك فى القبض عليه ،
وقد كنا على ذلك قادرين ، ولكن كرهنا أن يظن بنا أنا هجمنا على ناصحنا ، ومريب نعمتنا ،
وناشئ دولتنا ، فهدنا عنك العذر ، وأوضحنا لك الأمر . قال : فأنا أكفيكوه !

ثم قبض عليه وكان منه ما كان، وأستدعى ابن عباد من أصفهان، وولى الوزارة ودبرها برأى وثيق، وجد رتيق“ .

٧ — وعند تأمل هذه الرسالة نجد التوحيدى يمضى على الفطرة فى الإنشاء، ثم يسجع ويوازن من سطر الى سطر حين يطيب له ذلك . والى القارئ ما ورد فى هذه الرسالة من الأسجاع .

”ردا النافر، وربكا الخطر الحاضر، وعانقا الخطب العاقر“ .

”صادف الأمر متسقا، ولحق كل فتق مرتقا“ .

”كلامك مسموع، ورضاك متبوع“ .

”ليكونن هلاكه على أيديهم أسرع من البرق اذا خطف، ومن المزن اذا نطف“ .

”والله لا تجاورنى فى حضرة السرير، وبحضرة التدبير، وخلوة الأمير“ .

”ليس رأى إلى ولا إليك، ولا ألهم على ولا عليك“ .

”لست أسومك أن تقبض عليه، أو أن تسئ إليه“ .

”ذاق من بغداد مالا يخرج من ضرسه، إلا بنزع نفسه“ .

”ولى الوزارة ودبرها برأى وثيق، وجد رتيق“ .

وما وقع فى هذه الرسالة من المزاوجة واضح يدركه القارئ بأيسر مراجعة .

٨ — والشريف الرضى يسلك هذا المسلك فيسجع قليلا، ويزاوج كثيرا، وهو كاتب

فحل لم تبق لنا من ثره بقايا كافية لتعيين مذهبه فى أساليب الإنشاء . والى القارئ فقرات من مقدمة (نهج البلاغة) الذى دؤن فيه خطب الامام على رضى الله عنه :

«أما بعد حمد الله الذى جعل الحمد نمنا لنعمائه، ومعاذا فى بلائه ... فانى كنت فى عنقوان

السن، وغضاضة الغصن، ابتدأت بتأليف كتاب فى محاسن الأئمة عليهم السلام يشتمل على محاسن أخبارهم، وجواهر كلامهم، حدانى عليه غرض ذكرته فى صدر الكتاب ... وعاق

عن إتمام بقية الكتاب محاجزات الزمان، ومماطلات الأيام ... ومن عجائبه عليه السلام أن كلامه

الوارد في الزهد والمواعظ ، والتذكير والزواجر ، اذا تأمله المتأمل ، وفكره المتفكر ، وخلع من قلبه أنه كلام مثله ممن عظم قدره ، ونفذ أمره ، وأحاط بالرقاب ملكه ، لم يعترضه الشك في أنه من كلام من لاحظ له في غير الزهادة ، ولا شغل له بغير العبادة ، قد قبع في كسر بيت ، أو أقطع في سفع جبل ، لا يسمع الاحس ، ولا يرى إلا نفسه ، ولا يكاد يوقن بأنه كلام من يتنفس في الحرب مصننا سيقه : فيقط الرقاب ، ويقتل الأبطال ، ويعود به ينطف دما ، ويقطر مهجا ، وهو مع تلك الحال زاهد الزهاد ، وبذل الأبدال» .^(١)

٩ — وأحمد بن عبد ربه لا تظهر آثار قلمه الا في المقدمات القصيرة التي يمهدها لأبواب^(٢) العقد الفريد ، وهو في تلك المقدمات لا يلتزم السجع ، ولكنه لا يكاد يخل بالأزدواج .

١٠ — أما الطائفة الأخيرة فتكتب في حرية وطلاقة ، وإن لم تخل آثارها الثرية من السجع والمزاوجة ، ومن أشهر هؤلاء أبو الفرج الأصفهاني الذي يرسل في بعض فقرات (الأغاني) ترسلها سهلا مقبولا لا يجمع فيه ولا أزدواج ، وابن مسكويه الذي ينطلق الى غرضه انطلاق السهم الى رميته ، والتونجي الذي رقت على أسلحة قلمه لغة القصص المسلسل ، وأحمد بن يوسف المصري الذي دون متاهداته في لغة لا تعسد في جمالها الا على دقة المعنى وصفاء الأسلوب .

وأهم كتاب هذا التريق إخوان الصفاء الذين دونوا ما عُرِف لعبيدهم من الآراء والمذاهب في أسلوب طلق خال في جملة من التمنع والرخف والغموض .

(١) كان الشريف الرضي حديرا من بعد له فصل في هذا الكتاب ، ولكن الشرع غلب عليه ، وضاعت جملة ثروته ، ولست من المهتمين ان ما قيل من أن أكثر تجميع أبيات من فيض قلبه ، بالرغم من قدم هذه الشبهة ودواجها في أسواق المستشرقين .

(٢) كلام ابن عسدره في الترتيل ، وسداه فتمتد به فصلا في هذا الكتاب ، ولكن تمهيداته لأبواب العقد الفريد جملة متممة ، وفيها دلالة على أن قلبه كان حرا من قيود المحسنات البلاغية ، بالرغم من غلبتها على كتاب المشرق والمغرب نذاك العهد .

ويمكن القول بأن كتاب المذاهب والاراء هم أخلص الناس من أوضار الصنعة بين كتاب القرن الرابع ، لأن حرية الفكر تفرص حرية القول ، والكاتب المفكر فى شغل بفكره العميق عن تلمس أسباب التزيق والتحويل .

١١ - وليتبين القارئ الفرق بين كاتب يتأنق كالنوحيدى وكاتب يترسل كابن مسكويه نعرض نموذجا مما قصه صاحب تجارب الأمم عن أبى نصر كاتب عضد الدولة إذ قال :

”كان بالقصر جماعة من الغلمان تحمل اليهم مشاهراتهم من الخزانة بالحضرة ، فلما كان فى آخر شهر قد بقى منه ثلاثة أيام استدعانى وقال لى : تقدم الى الخازن فى بيت المال بأن يزن كذا وكذا ألف درهم ويسلمها الى أبى عبد الله بن سعدان ليحملها الى نقيب الغلمان بالقصر . فقلت : السمع والطاعة . فأنسيت ذلك وسألنى عنه بعد أربعة أيام فاعتذرت بالنسيان فخاطبني بأغلظ خطاب ، فقلت : أمس كان استهلال الشهر ، والساعة تحمل المادة . وما ههنا ما يوجب شغل القلب بهذا الأمر . فقال : المصيبة بما لا تعلم ما فى فعلك من الغلط أكثر منها فيما استعملته من التفريط ! ألا تعلم أنا اذا أطلقنا لهؤلاء الغلمان ما لهم وقد بقى فى الشهر يوم كان الفضل لنا عليهم ، واذا آنقضى الشهر واستهل الآخر حضروا عند عارضهم فاذكروه فيعدهم ، ثم يحضرونه فى اليوم الثانى فيعتذر اليهم ، ثم فى الثالث فتسقط فى اقتضائه ومطالبته ألسنتهم ، فتضيع المنة ، وتحصل الجراءة ، ونكون الى الخسارة أقرب منا الى الربح ؟“ (١)

والقارئ حين يوازن بين الخبر المطول الذى نقلناه عن التوحيدى وبين هذا الخبر القصير الذى نقلناه عن ابن مسكويه لا يمتري فى أن التوحيدى كان خليقا بأن يجعل من هذا الخبر القصير قصة طويلة يبدئ فيها ويعيد .

ولكن هذا اليسر فى رواية الخبر لم يمنع ابن مسكويه من التأنيق فى التعليق عليه إذ قال : ”ولعل عضد الدولة نظر فى هذا الوقت الى ما وجد فى سيرة المعتصم رضوان الله عليه . وهل ينكر لى هاشم أن يقتدى بأقوالهم ، أو يتأدى بأفعالهم ، وهم الأصديقون أقوالا ،

والأكرمون أنعالا، والأشرفون أنسابا، جبال الخلوم، وبحار العلوم، وأعلام الهدى، وساسة الدين والدنيا، وفرسان الحروب والمحاضر، وأملالك الأسرة والمنابر، الى مكارمهم يتنهي الكرم، وبما أثرهم تجلي الظلم، المعتصم بينهم المعتصم“ .

ويمكن المضي في استقراء الفصول الجيدة مما كتب ابن مسكويه في التاريخ : فهو يسرد الأخبار في يسر ملبوس ثم يعقب عليها بتأنيق مقبول . وأنظر قوله في خواص الملوك : “ومن حسن سياسة الملوك أن يجعلوا خاصتهم كل مهذب الأفعال، محمود الخصال، موصوفاً بالخير والفعل، معروفاً بالصلاح والعدل، فإن الملك لا تخالطه العامة ولا أكثر الجند، وإنما يرون خواصه : فإن كانت طرائقهم سديدة، وأفعالهم رتيبة، عظمت هيبة الملك في نفس من يبعد عنه، لاستقامة طريقة من يقرب منه ... وإذا كان خواص الملك ممن يُقدح فيهم، وتذكر مساوئهم، قلت الهيبة في النفوس، فأظهر الجند استقلالاً لأمره، ثم صار الاضمار بنجوى بينهم، ثم زادت الحيرة فصارت النجوى إعلاناً، فعند ذلك تقع المجاهرة، وترتفع المراقبة، ويتحكمون عليه تحكماً الأمر لا المأمور، والقاهر لا المقهور^(١)“ .

١٢ — ومن أحرار الأساليب بين كتاب القرن الرابع إخوان الصفاء — وفي رسائلهم

فقرات تمتاز بوضوح المعاني وبسطها، من ذلك قول أحدهم في وصف الرسول : “قال النمر للأسد : ما تلك الخصال التي ذكرت، أيها الملك، أنها يجب أن تكون في الرسول؟ بينما لنا . قال الملك : نعم . أولها يحتاج أن يكون رجلاً عاقلاً حسن الأخلاق، بليغ الكلام، فصيح اللسان، جيد البيان، حافظاً لما يسمع، محترفاً فيما يجب ويقول، مؤدياً للأمانة، حسن العهد، مراعياً للحقوق، كتوما للسرى، قليل الفضول في الكلام، لا يقول من رأيه شيئاً غير ما قيل له، إلا ما يرى فيه صلاح المرسل، ولا يكون شرهاً، ولا يكون حريصاً إذا رأى كرامة عند المرسل إليه مال إلى جيبه وخان مرسله وأستوطن البلد لطيب عيشه هناك، أو كرامة يجدها أو شهوة ينالها هناك، بل يكون ناصحاً لمرسله وإخوانه وأهل بلده وأبناء جنسه، ويبلغ الرسالة ويرجع بسرعة إلى مرسله فيعرفه جميع ما جرى من أوله

الى آخره ، ولا يخاف فى شىء منه فى تبليغ رسالته مخافة من مكروه يناله : فانه ليس على الرسول إلا البلاغ^(١) .

وهذه القطعة تصور المعنى الذى وضعت له تصويرا صحيحا ، ولكن الزعة العامة تغلب عليها ، وينقصها ما يسميه علماء النقد " قوة الأسر " وهذا المأخذ تجده أئى سرحت بصرك فى رسائل اخوان الصفاء ، فهم يقدمون اليك الموضوعات الفلسفية والأخلاقية والاجتماعية فى أسلوب يغلب عليه الانحلال . ولعل السر فى ذلك يرجع الى انعدام الشخصية : فالكاتب يعبر عن روح إخوانه وكأنه يلخص آراءهم ، ولو كان يعبر عن نزعاته الذاتية لرجونا أن تكون حماسه أقوى وروحه أظهر ، وعند ذلك تستطيع إغواء عقله ووجدانه فيصطبغ أسلوبه بالوان الخيال . وسترى فى الجزء الثانى من هذا الكتاب^(٢) كلاما كثيرا عن الأسلوب ، وسترى أنه يتكون من عنصرين : المعنى والروح ، فاذا وجد المعنى وحده كانت الكتابة علمية . وإذا أضيف اليه الروح كانت الكتابة أدبية . وذلك ما نعينه بالنثر الفنى .

١٣ - ولك أن تنظريا كتب الفارابى أو ما كتب ابن حزم فى الفلسفة لترى كيف تكون الكتابة العلمية التى يراد بها تقرير الحقائق ، وشرح المذاهب ، وعرض البراهين ، فهى كتابة خالية من السجع والأزدواج ، الا فى أحوال قليلة ، والكاتب مشغول بسرد الحقائق لا تنمى الإنشاء . وهذه الكتابة صالحة كل الصلاحية للموضوعات العلمية والفلسفية ، وليس خلوها من الفن الا دليلا على توفيق الكاتب ، فليس كل موضوع بصالح للزخرف والتهويل . وقد يكون من إخليل أن نذكر الفرق بين كاتبين يشتغلان بالموضوعات الفلسفية ويختلفان فى الأسلوب ، فيكتب أحدهما كتابة علمية ، ويكتب ثانيهما كتابة أدبية ، كالفارابى والتوحيدى والفرق بين مثل هذين الرجلين أن الأول كان مفكرا قبل أن يكون كاتباً ، والثانى كان كاتباً قبل أن يكون مفكراً : فلمبا كتب الأول عجز عن التلوين والترتين ، ولما كتب الثانى وثى الفكرة بفنون من التصاوير والتهويل ، والأول أبقى فى عالم الفكر ، والثانى أخذ فى عالم البيان ، وكلا الأسلوبين ضرورى فى حياة العلوم والآداب .

(١)

٣ - تصوير الحياة العقلية

١ - ان الكتّاب المشاهير الذين تولوا قيادة النثر الثنى في القرن الرابع قد آهتوا آهتاما عظيما بتصوير الحياة العقلية والأدبية والوجدانية التي شملت ذلك العصر؛ فمن الخطأ أن يظن أنهم وقفوا عند زخرفة الألفاظ والتعابير ولم يشتركوا في الأزمات العقلية والمجادلات الحزبية والدينية في الحدود التي سمحت بها قوتهم الأدبية. وسيرى القارئ كيف شغلوا بالبلاغة ودراسة الشعر والنثر، فلننظر هنا كيف شغلوا بما كان يحرق لعهدهم من الفتن السياسية والاجتماعية. من ذلك أننا نجد أثر قوة الحزب الشيعي ممثلة في رسائل بدیع الزمان ورسائل الخوارزمي وفي المنتطفات التي جمعها صاحب زهر الآداب عما قيل في آل البيت مدحا وثناء مما يدل على أن الشيعة كانت لهم قوة صاخبة في ذلك العصر. وربما كانت رسالة الخوارزمي التي بعثها إلى الشيعة بنيسابور لما قصدهم إليها محمد بن إبراهيم تمثل مأساة الشيعة أصدق تمثيل، ولننظر كيف يقول :

”وأتم ونحن - أصلحنا الله وإياكم ! - عصابة لم يرض الله لنا ثواب العاجل، فأعد لنا ثواب الآجل، وقسمنا قسمين قسما مات شهيدا، وقسما عاش طريدا، فالحي يحسد الميت على ما صار إليه، ولا يرغب بنفسه عما جرى إليه. قال أمير المؤمنين ويعسوب الدين عليه السلام: ”الحسن إلى شيعتنا أسرع من المساء إلى الحدور“ وهذه مقالة أسست على المحن وولد أهلها في طالع المزاهر والفتن، فحياة أهلها نقص، وقلوبهم حشوها غصص، والأيام عليهم متحاملة والدنيا عليهم مائلة، فإذا كنا شيعة أئمتنا في الفرائض والسنن، ومتبعي آثارهم في كل قببح وحسن، فينبغي أن نتبع آثارهم في المحن : فصعبت سيدتنا فاطمة صلوات الله عليها وعلى آله

(١) هذا الفصل القصير لا ينبغي من مراجعة القدر المقتصر في باب (الآراء والمذاهب) بجزء الثاني. ويمكن القول بأن الأدب في كل عصر صورة تحية العقلية، غير أن قوة الحيوية في كتب القرن الرابع ميزتهم بطابع خاص.

ميراث أيها — صلوات الله عليه وعلى آله — يوم السقيفة ، وأخر أمير المؤمنين عن الخلافة ،
وسم الحسن رضى الله عنه سرا ، وقتل أخوه كرم الله وجهه جهرا ، وصلب زيد بن علي
بالكاسية ، وقطع رأس زيد بن علي فى المعركة ، وقتل ابنه محمد وإبراهيم على يد عيسى بن
موسى العباسى ، ومات موسى بن جعفر فى حبس هارون . وسم على بن موسى بيد المأمون ،
وهزم إدريس بفتح حتى وقع الى الأندلس فريدا ومات عيسى بن زيد طريدا شريدا “ انخ

وفى هذه الرسالة تفاصيل مزعجة عما لقيه العلويون من المحن والمصائب يتلقونها صابرين
من خصومهم الذين أصروا على إبادتهم من الوجود ، والذي يقرؤها كاملة فى رسائل الخوارزمي
يدرك جيدا كيف كانت العصبية للشيعنة قوية حادة فى ذلك العصر ، وكيف تشبعت عقول
بعض الكتاب بالمعانى البديعة فى محاوراتهم العقلية ، فمن الرائع حقا أن يقرر الخوارزمي أن
على بن أبى طالب شتم على المنابر ألف شهر فما شك أنصاره فى وصيته ، وأن النبي محمدا كذب
بضع عشرة سنة فما آتهموه فى نبوته ، وأن إبليس عاش مدة تزيد على العدد فلم يرتابوا فى لعنته .
وفى رأي أن مثل تلك الرسالة يوضح كثيرا مما غمض من تاريخ الأئمة الإسلامية فان
الكتاب الذين ينتسبون الى أحزاب يدافعون عنها قد تتاح لهم فرص كثيرة تبصرهم بما خفى
من تاريخ من يناصرونهم ومن يعادونهم وإن كانوا متهمين فى مدح من يرضون عنه وذم من
يخرجون عليه .

٢ — ويجانب الجدل العنيف الذى كان ينشب كل يوم بين العلويين والعباسيين
والعداوات التى كانت تقوى وتشتد كلما أثيرت ذكرى الخلافة والخلفاء ونراها ممثلة فى الآثار
النثرية فى ذلك العهد ، كانت تقوم فتنة أخرى هى الخلاف بين العرب والعجم وأنقسام الأدباء
الى فريقين فريق يفضل العرب وآخر يفضل العجم ، وهى فتنة قديمة شبت منذ كان للوالى
وأنصار الفرس أطماع فى دولة الخلافة ، وظلت تزداد وتقوى بفضل الجهود المتصلة التى كان
يبدؤها الوزراء الفارسيون لكبح النفوذ العربى راجين أن ينتقل إليهم النفوذ الادبى والسياسى
والمادى جميعا .

ولبديع الزمان الممذاني رسالة جيدة تمثل تلك المناوشات يميل فيها الى تفضيل العرب على العجم وعلى سائر الأمم إذ كانوا في رأيه أوفى وأشجع وأعلم وأحلم وامت لم يكونوا أحسن ملابس وأنعم مطاعم، ويرى أن فضل العرب لا ينكره إلا وحق وأن الله قدم ملك العجم ليجتج عليها وأخر ملك العرب ليجتج بها، وأن العجم ماملكت حتى تواصلت، والعرب ما ملكت إلا حين تصاولت، وأن العجم ما تواصلت إلا بأسا من نفوسها، وأن العرب ما تصاولت إلا لما في رءوسها من الذخوة، وهذا طبيعي فلا تكاد السباع تأتلف كما لا تكاد البهائم تختلف. ثم يمضي بديع الزمان فيتحدث عن أعياد الفرس وعبادتهم للنار وهو في ذلك يسخر منهم ويفضل العرب عليهم .

٣ — والذي يهمنا من ذلك كله هو تقرير ما يمثلته النثر في ذلك العهد من الشقاق الذي كان يثور بين العرب والفرس من حين إلى حين، أما حجج بديع الزمان في تفضيل العرب على الفرس وتنجح خصومه في تفضيل الفرس على العرب فتلك أشياء لا يهمنا تحقيقها الآن . وذلك الخلاف له قيمته في تقدير الحيوية التي كانت يحسها رجال الأدب لذلك العهد فقد كانوا يمثلون طوائفهم ودولهم بذلك الدفاع الذي كان يفيض حياة وقوة، وكان يحتوي أحيانا على مباحث جيدة في بيان الفضائل النفسية والاجتماعية والأدبية التي تمتاز بها الأمم والشعوب .

٤ — وما يتصل بتصوير الحياة العقلية طريقة أولئك الكتاب في شرح حقائق الحياة . ويظهر أنهم كانوا يميلون الى الصراحة المطلقة فيما يختص بنعيم العقل والحواس، فما كانوا يخفون أغراضهم بالرمز والاشارة وإنما كانوا يصرحون بما يحبون الخوض فيه، فكان من ذلك أن أكثروا من الرسائل في تهادى الخمر وأن وصفوا مجالس الشراب واللهو وصفا مغريا لا يترك هفوات الشباب ولا جرائم السكر بدون تصوير، وعرضوا للجمال الحسى في الغلمان فوصفوه وصفا جارحا لا تكاذ نسيغه اليوم، فقد حذف الشيخ محمد عبده طائفة من مقامات بديع الزمان لما فيها من الصراحة المفرطة في تصوير الشهوات . وللبغاء الشاعر رسالة جميلة

في وصف ليلة أنس ذكرها الثعالبي في الجزء الأول من اليتيمة لا يقرأها القارئ بدون أن يدهش من حب أولئك الكتاب لتصوير لذات الحياة . وما نحب أن نطيل في بيان هذه النقطة لأن لها مكانا غير هذا . وإنما نقتر أن الذي يراجع آثار الكتاب في ذلك العصر يقتنع بأنهم لم يكونوا في الأغلب رجال حشمة ووقار، وإنما كانوا يفضلون الصراحة العابثة فيما يقولون وما يعملون^(١) .

٥ — ومن أهم الجوانب التي تمثل الحياة العقلية في ذلك العصر الخصومات العنيفة التي قامت بين الكتاب ، فقد كانت بينهم مناوشات ومجادلات نشأت من أطعاهم في الحياة المادية ، وكانوا يمثلون غالبا طوائف من الأفكار الدينية والحزبية يقومون في الدفاع عنها بما تقوم به الجرائد المغرضة في العصر الحاضر ، وكان لهم من القوة ما كان للشعراء ، فلم يكن بد من أن يتنافس أصحاب الملك في تقريبيهم ، ولم يكن بد كذلك من أن يتنافس هؤلاء في الاستئثار بالخطوة عند الوزراء والرؤساء والملوك .

(١) وقد رأينا بعد البحث أنهم يؤثرون الأدب الضريح ، فيحدثون عن الهبات والعورات في عبارات صريحة لا تسترها كناية ولا تلوج ، وأكرهم يمزج الجدل بالهزل في أساليب مكشوفة يفرمها الطبع في بعض الأحيان . ولا نملك هنا إيراد الشواهد ، لأن الذوق في عصرنا يأبى ذلك . وحسبنا أن نشير الى ما كتبه الثعالبي عن بعض العورات فقد شعر بشئ قليل من الحرج اضطره الى أن يعتذر بهذه الكلمات :

”ذكر الأعضاء لا يؤثم ، وإنما الاثم في ذكرها عند شتم الأعراض وقول الرث في أكل لحوم الناس وقذف المحصنات“ ثمار القلوب ص ١٨٠

وهذه مشكلة قديمة في اللغة العربية ، فقد تحدث ابن قتيبة في مقدمة عيون الأخبار عن هذا الأسلوب في التعبير ودافع عنه في حاشية بكلام طويل نكتفي منه بالأسطر الآتية :

”واعلم أنك ان كنت مستغنيا — عن المزاح — بنفسك فان عيرك ممن يترخص فيما شددت فيه محتاج اليه . وان الكتاب لم يعمل لك دون غيرك فنبأ على ظاهر محبتك ، ولو وقع فيه توقي المتزمين لذهب شطريهائه ، وشطريهائه ، ولأعرض عنه من أحيينا أن يقبل اليك معك . وإنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين . وإذا مر بك حديث فيه إفصاح بذكر عورة أو فرج أو وصف فاحشة فلا يحملنك الخشوع أو التواضع على أن تصبر خدك ، وتعرض بوجهك ، فان أسماء الأعضاء لا تؤثم ، وإنما المأثم في شتم الأعراض وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب“ .

راجع مقدمة عيون الأخبار .

وفي الرسالة التي كتبها يرمي الزيدان إلى أي تصويرين المراد أن فقرات مرة تمثل ما كان عليه
 كتاب ذات العصر من النظم في المناصب الرسمية ومن ضعف الخلق عند الغنى، ومن اتبل
 عند الفقر، إلى "تسيم أيام مدونة"، أوقات الخشونة، وأزمات العذوبة، ساعات الصعوبة،
 وقد كانوا كما قال: "ما تسعت دورهم إلا ضاقت صدورهم، ولا أوقدت نارهم إلا انطفأت
 نورهم - ولا زد منهم إلا تنقص معرفتهم، ولا ورمت أكاسيمهم إلا ورمت أنوفهم،
 ولا صلحت حوائجهم إلا فسدت أعمالهم، ولا فسر حاجتهم إلا ضاقت مديهم، ولا لانت
 برودهم إلا صابت خمولهم" وفي تلك الحقائق الشديدة، وحدث "مسائل الملعونة" التي
 كانت تتعزين كتاب دليل على جنسهم في حب الحياة وفيهم لها فيها ما ديا يتناسب مع
 تلك معتقوت غنية في خبرت في فقرهم ورؤسهم وبنحائهم. ومن المثل أن تظل قوة
 الحقد ويطغى القوة، وندرة العذوبة في كل شعرة من أسمت الغلبة على كل كتاب، فمن
 اندور أن نجدهم كآبة كريهة يعطف على زملائه ويحبهم خير ويحتجهم السداد. وقد بين
 فؤوت همد غفيرة عبد خيم بن يحيى - وكان رجلا نبلا - فكتب وصيته المعروفة
 بعروب. كتاب إلى تيمون ونبيه، الحفدة، وفي ألاما تبحث ذلك الشئ من جديد فلا نجد
 كاتب في أنه "عربي يحب الأخيه، يحب نفسه، يحب لظن أن سبواب العبقرية يوحى
 بالنظم ويستبدد بفضل ولا يستدر بجلده".

٢ - ولهم خصومة في وقعت بين كتاب ذات العصر خصومة الحمدا في
 ونحور زمي وخصومة توحيدى وصاحب بن عباد.

ثم خصومة الحمدا في ونحور زمي فترجع إلى رغبة الحمدا في الظهور وطبعه في الانفراد
 بالسمرة، ولهم قصور هذا خصومة رسالة حمدا في كتبها الحمدا في وصف المظاهرة
 التي قامت بينه وبين نحور زمي. وفي رسالة مفرضة مدونة بالتحامل والتهافت، وليس فيها
 أفكار جديدة تجعل خصومة الزميين خصومة بين اثنين، إنما هي محاورات لفظية تدل على

غلبة الزخرف وتمكنه من السيطرة على عقول أهل ذلك الجيل . ولو أن الخوارزمى دَوَّن بدوره تلك المناظرة لرأينا وجهين فى بسط ذلك الحادث الأدبى وآستطعنا أن نستخلص من مقابلة النصين نفس الرجلين ، ولكن الحمدانى تكلم وحده فعرفنا فقط مبلغ زهوه وكبريائه وطمعه فى قهر كاتب كان يومئذ على رأس الكاتبتين .

أما خصومة التوحيدى لأبن عباد فترجع فيما ذكر كتاب التراجم الى سبب مادى ، وذلك أن التوحيدى رغب فى مال ابن عباد وجاهه فضاى عنه صدر هذا ، فكتب التوحيدى كتابه « مثالب الوزيرين » وهو كتاب جارح كشف به عورات ابن العميد وابن عباد . ثم عاد إليهما بالتجريح أيضا فى كتابه « الإمتاع والمؤانسة » وأسلوبه فى الهجاء أسلوب خطر فظيع إذ يخلق من الحوادث والإشارات وينطقهما برسائل ومقطوعات تهوى بهما الى الحضيض . ويعدُّ التوحيدى من الوجهة الفنية رجلا خصب الذهن ، غنى اللغة ، وافر المحصول ، قوى الخيال .

وقد تنبه المتأدبون الى تحامل التوحيدى وإسرافه فى التعصب ضدّ ذينك الوزيرين وشاع الاعتقاد بأن كتابه مثالب الوزيرين كتاب مشؤم لا يملكه أحد إلا انعكست أحواله ، ويذكر ابن خلكان أنه جرب هذا وجربه من يثق به ! فاذا صح هذا الوهم كان التوحيدى قد عوقب على بغيه وظلمه وأفترائه : فقد أنطق الصاحب بن عباد بعبارات منجّلة يندى لها وجه القارئ ويفتر منها الطبع والذوق ، وإن كانت نظمت فى أسلوب شائق خلاب .

٤ - الفكاهات

١ - ليست الفكاهات النثرية مما آبتكره كتاب القرن الرابع ، ولكنها ظهرت فيه ظهورا واضحا ، وصارت فنا واضح الرسوم ، بحيث يمكن الحكم بأن الكتاب كانوا يقصدون إليها قصدا ، ويتنافسون في تزويرها وتجييرها . ومن أشهرهم في هذا الباب بدیع الزمان ، وقد كتب في الفكاهة عدّة مقامات ، منها المقامة السامية التي أنطق فيها « زوج الاثنين » أمام قاضي الشام ، وكانت إحداها تدعى صداقا ، والأخرى تلتمس طلاقا .

القاضي : ما تقول في الملتمة صداقها ؟

الزوج : أعز الله القاضي ! صدان عن ما ذا ؟ وأنا غريب من أهل الأسكندرية ، فوالله ما أثقلت لي وتدا ، ولا أتعبت لي كداه ، ولا عمرت خرابا ، ولا ملأت جرابا .

القاضي : إلك تبططها !

الزوج : نعم ! لكنّ في غير بارد ، ونديا غير ناهد ، وبطنا غير والد ، وعينا غير واجد ، ورقيقا غير رقيق ، وطريقا غير ضيق .

القاضي - للمرأة - : ما نقولين ؟

المراة : أيد الله القاضي ! هو أكذب من أمه ، وأكث في اللؤم من حيله ، وأفسد عشرة من أسفله . والله لقد صادفت من فمه صقرا ، ومن يده صخرا ، ومن صدره سم خياط ، لا يرتخ بغيراط ، ولقد زفت إليه بدنا كالدياج ، ووجها كالسراج ، وعينا كعين النعاج ، ونديا كحق العاج ، وبطنا كظهر الهملاج ، وحشئ ضيق الرناج ، خشن المنهاج ، حار المزاج ، صعب العلاج ، ولكن كيف ألد ، وهو لا ينجز ما وعده ؟ وكيف ينجز ولا يجده ؟ وهو يجتهد ، لو لم يخنه الوتد !

القاضي : أيها الرجل ، قد رمتك بالعنة !

الزوج — وقد مال الى المرأة محتداً — :

ألم أجعل تسعينك ثلاثين ؟ ألم أعرك في ليلة عشرين ، حتى أسقطت الجنين ؟

المرأة : إشهد أيها القاضي على هذا الإقرار !

الزوج : خدعتني يا دَفَار !

٢ — والمقامة المضيرية من أنضر ما كتب في الفكاهات ، وأنظر كيف يتحدث عيسى

ابن هشام :

”كنت بالبصرة ومعى أبو الفتح الاسكندري رجل الفصاحة والبلاغة ، وحضرنا معه دعوة بعض التجار ، فقدمت لنا مضيرة تثنى على الحضارة ، وتؤذن بالسلامة ، وتشهد لمعاوية رضى الله عنه بالإمامة ، في قصعة يزل عنها الطرف ، ويموج فيها الظرف ، فلما أخذت في الخوان مكانها ، ومن القلوب أوطانها ، قام أبو الفتح الاسكندري يلعنها وصاحبها ، ويمقتها وآكلها ، ويثلبها وطابخها . وظنناه يمزح ، فاذا الأمر بالضد ، وإذا المزح عين الجدد ، وتحنى عن الخوان ، وترك مساعدة الإخوان ، ورفعناها فارتفعت معها القلوب ، وسافرت خلفها العيون ، وتحلّبت لها الأفواه ، وتامظت لها الشفاه ، وآنقذت لها الأكباد ، ومضى في أثرها الفؤاد^(١) .

ولكننا ساعدناه على هجرها ، وسألناه عن أمرها ، فقال :

قصتي معها أطول من مصيبتى فيها ، ولو حدثكم بها لما أمنت المقت ، وإضاعة الوقت . قلنا هات .

فقال :

دعاني بعض التجار إلى مضيرة وأنا ببغداد ، ولزمني ملازمة الغريم ، والكلب لأصحاب الرقيم ، إلى أن أجبته إليها . وقتنا ، فجعل طول الطريق يثنى على زوجته ، ويفديها بمهجته ، ويصف حذقها في صنعتها ، وتأنقها في طببخها ، ويقول :

(١) للتأري أن يلاحظ الفكاهة في هذا الموطن .

يا مولاي، لو رأيتها، والخرقة في آستها، وهي تدور في الدور، من التنور إلى القدور، ومن القدور إلى التنور، تنفث فيها النار، وتقد بيسديها الأبرار، ولو رأيت الدخان وقد غبر في ذلك الوجه الجميل، وأثرفي ذلك الخلد الصقيل، لرأيت منظرا تحار فيه العيون، وأنا أعشقها لأنها تعشقي، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليته، وأن يسعد بظيعته، ولا سيما إذا كانت من طيبته، وهي ابنة عمي لحا طيبتها طيقتي، ومدينتها مدينتي، وعمومتها عمومتی، وأرومتها أرومتی، لكنها أوسع مني خلقا، وأحسن خلقا .
وصدعني بصفات زوجته، حتى آتيتها إلى محلته، ثم قال :

يا مولاي ! ترى هذه المحلة ؟ هي أشرف محال بغداد ، يتنافس الأخيار في نزولها ، ويتغاير الكبار على حلولها ، ثم لا يسكنها غير التجار ، وإنما المرء بالجار ، وداري في السطة^(١) من قلاذتها ، والنقطة من دائرتها .

كم تقدر يا مولاي أنفق على كل دار منها ؟
قله تخميناً ، إن لم تعرفه يقيناً .

أبو الفتح : الكثير !

التاجر : يا سبحان الله ! ما أكبر هذا الغلط ! تقول الكثير فقط ؟
(وتنفس الصعداء ، وقال سبحان من يعلم الأتساء !)

قال أبو الفتح : وآتيتها إلى داره .

التاجر : هذه داري . كم تقدر يا مولاي أنفقت على هذه الطاقة ، أنفقت والله عليها فوق الطاقة ، ووراء النافقة . كيف ترى صنعها وشكلها ، أرايت بالله مثلها ؟ أنظر الى دقائق الصنعة فيها ، وتأمل حسن تعريجها فكأنما خط بالبركار . وأنظر الى حذق النجار في صنعة هذا الباب ، اتخذته من كم ؟ قل .

(١) السطة : الوسطة ، وهي كلمة يكثر ورودها في كلام بديع الزمان في مثل هذا المعنى فقد جاء في المقامة سحانية مانصه :

« انبت من دائرة البلد الى نقطتها ، ومن قلادة السوق الى سطلها » .

أبو الفتح : ومن أين أعلم ؟

التاجر : هو ساج من قطعة واحدة ، لا مأروض ولا عفن ، اذا حرك أت ، واذا نقر طاق . من آتخذه يا سيدى ؟
أبو الفتح : ؟

التاجر : اتخذه أبو اسحق بن محمد البصرى ، وهو والله رجل نظيف الأنواب ، بصير بصنعة الأبواب ، خفيف اليد فى العمل . لله در ذلك الرجل ! بجاتى لا آستعنت إلا به على مثله . وهذه الحلقة ؟ تراها ؟ اشتريتها فى سوق الطرائف من عمران الطرائفى بثلاثة دنانير معزية . وكم فيها ياسيدى من الشبه ؟ فيها ستة أرطال ، وهى تدور بلولب فى الباب ، بالله دورها ، ثم آنقرها وأبصرها ، وبجاتى عليك لا آشتريت الخلق إلا منه ، فليس يبيع إلا الأعلاق .
قال أبو الفتح : ثم قرع الباب ودخلنا الدهليز وقال :

التاجر : عمرك الله يا دار ، ولا خربك يا جدار ، فما أمتن حيطانك ، وأوثق بنيانك ، وأقوى أساسك ! تأمل بالله معارجها ، وتبين دواخلها وخوارجها ، وسلى كيف حصلتها ، وكى من حيلة آحتلتها ، حتى عقدتها ؟
أبو الفتح : ؟

التاجر : كان لى جار يكنى أبا سليمان يسكن هذه المحلة ، وله من المال ما لا يسعه الخزن ، ومن الصامت ما لا يحصره الوزن . مات رحمه الله وخلف خلفا أئلفه بين الخمر والزمر ومزقه بين النرد والقمر ، وأشفت أن يسوقه قائد الاضطرار ، إلى بيع الدار ، فيبيعها فى أثناء الضجر ، أو يجعلها عرضة للخطر ، ثم أراها ، وقد فاتنى شراها ، فأقطع عليها حشرات ، إلى يوم المات ، فعمدت إلى أبواب لا تنص تجارتها ، فحملتها اليه ، وعرضتها عليه ، وسأوته على أن يشتريها نسيئة ، والمذبر يحب النسيئة عطية ، والمتخلف يعتدها هدية ، وسألته وثيقة بأصل المال ففعل ، وعقدها لى ، ثم تغافلت عن اقتضائه ، حتى كادت حاشية حالة ترق ، فأتيته ، فاقتضيته ، وأستميانى فأنظرته ، وألتبس غيرها من الثياب فأحضرته ، وسألته أن يجعل داره

رهينة لدى، ووثيقة في يدي، ففعل، ثم درجته بالمعاملات إلى بيعها فحصلت لي بمجد صاعد، وبجنت مساعد، وقوة ساعد، ورب ساع لقاعد! وأنا بمجد الله محدود في مثل هذه الأحوال، وحسبك يا مولاي أني كنت منذ ليل نائما في البيت مع من فيه إذ قُرع علينا الباب، فقلت من الطارق المتتاب، فاذا امرأة معها عقد لآل، في جلد ماء ورقة آل، تعرضه للبيع، فأخذته منها إخذة خلس، وأستريته بثمن بخس، وسيكون له نفع ظاهر، وريح وافر، بعون الله تعالى.

وانما حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة جدى في التجارة، والسعادة تنبئ الماء من الجسارة، الله أكبر! لا ينبئك أصدق من نفسك، ولا أقرب من أمسك، اشتريت هذا الحصر في المناداة، وقد أخرج من دور آل الفرات، وقت المصادرات، وزمن الغارات، وكنت أطلب مثله منذ الزمن الأطون فلا أجده، والدهر حُبلى ليس يُدرى ما يلد، ثم اتفق أنى حضرت باب الطاق، وهذا يعرض في الأسواق، فوزنت فيه كذا وكذا ديناراً. تأمل بالله دقته ولينه وصحته ولونه، فهو عظيم القدر، لا يقع مثله الا في الندر، وإن كنت سمعت بأبى عثمان الحصري فهو عمله، له آبن يخلفه الآن في حانوته، لا يوجد أعلق الحصر إلا عمده، فبجياتى لا اشتريت الحصر الا من دكانه، فالمؤمن ناصح لاخوانه، لا سيما من تحزم بخوانه.

الى هنا يتصور القارى ضيق أبى الفتح وهو ينتظر طعام المضيرة.

ولكن التاجر يستأنف الحديث فيقول:

”ونعود الى حديث المضيرة، فقد حان وقت الظهيرة“.

يا غلام! الطست والماء.

أبو الفتح — فى سره — الله أكبر! ربما قرب الفرج، وسهل المخرج.

(ويتقدم الغلام بالماء).

التاجر: ترى هذا الغلام؟ إنه رومى الأصل، عراقى النشء، تقدم يا غلام وأحسر عن رأسك، وشمر عن ساقك، وأنض عن ذراعك، وأقتر عن أسنانك، وأقبل وأدبر .
(ويفعل الغلام ذلك) .

التاجر: بالله من اشتراه؟

أبو الفتح: ؟

التاجر: اشتراه والله أبو العباس، من النخاس، ضع الطست وهات الابريق .

(يضع الغلام الابريق ويأخذه التاجر فيقلبه ويدير فيه النظر ثم يتقره) .

التاجر: أنظر الى هذا الشبه كأنه جذوة اللهب، أوقطع الذهب، شبه الشام وصنع العراق، ليس من خُلقان الأعلاق، قد عرف دور الملوك . تأمل حسنه وسلنى: متى أشتريته؟
أبو الفتح: ؟

التاجر: أشتريته والله عام المجاعة، وأدخرته لهذه الساعة، يا غلام الابريق .
(يقدم الغلام الابريق فيأخذه التاجر ويقلبه) .

التاجر: وأنبوه منه، لا يصلح هذا الابريق الا لهذا الطست، ولا يصلح هذا الطست الا مع هذا الدست، ولا يصلح هذا الدست الا فى هذا البيت، ولا يجمل هذا البيت إلا مع هذا الضيف، أرسل الماء يا غلام، فقد حان وقت الطعام .
(ويصب الغلام الماء فيتأمله التاجر ويقول:) .

التاجر: ترى هذا الماء؟ ما أصفاه! أزرق كعين السنور، وصاف كقضب البلور، استقى من الفرات، وآستعمل بعبد البيات، بقاء كاسان الشمعة، فى صفاء الدمعة، وليس الشأن فى السقاء، الشأن فى الإناء، لا يدلك على نظافة أسبابه، أصدق من نظافة شرابه ... وهذا المنديل؟ سلنى عن قصته فهو نسج جرجان، وعمل أترجان، وقع الى فاشتريته، فاتخذت بعضه أمرأتى سراويلًا، واتخذتُ بعضه منديلا، دخل فى سراويلها عشرون ذراعا، وأتترعت

من يدها هذا التدر انترعا ، وأسلمته الى المطرز حتى صنعه كما تراه ، وطرزه ثم رددته من السوق ، وخزنته في الصندوق ، وأذنته للطراف ، من الأضياف ... يا غلام ! الخوان ، فقد طال الزمان ، والقصاع ، فقد طال المصاع ، والطعام ، فقد كثر الكلام .

(ويأتى الغلام بالخوان فيقلبه التاجر وينقره ببنانه ويعجمه بأسنانه) .

التاجر : عمر الله بغداد ! فما أجود متاعها ، وأظرف صناعها ، تأمل بالله هذا الخوان وأنظر الى عرض متنه ، وخفة وزنه ، وصلاية عوده ، وحسن شكله .

أبو الفتح — وقد ضاق صدره — :

هذا الشكل ، فتي الأكل ؟

التاجر : عجل يا غلام ، لكن الخوان قوائمه منه .

أبو الفتح — وقد جاشت نفسه — :

بقي الخبز وآلاته ، والخبز وصفاته . والخنطة أين أشتريت أصلا ، وكيف اكرت لها حملا ، وفي أي رحي حُصن ، وإجانة عُن ، وفي أي تنور سجر ، وخباز استؤجر ؟ .

ربّي الحطب ، من أين آحُطِب ، ومتى جلب ، وكيف صفف ، حتى جفف ، وحبس حتى ياس ؟ ؟

وبقي الخباز ووصفه ، والتلميد ونعته ، والدقيق ومدحه ، والخمير وشرحه ، والملح وملاحته . وبقيت السكرجات من آتخذها ، وكيف آتخذها ، ومن آستعملها ، ومن عملها ؟ ؟
والخل كيف آتقى عبه ، أو آشترى رطبه ، وكيف صهرجت معصرته ، وآستخلص لبه ، وكيف فُيرجبه ، ولم يساوى دند ؟

وبقي البقل كيف آحتيل له حتى قطف ، وفي أي مبقلة رصف ، وكيف تؤنق حتى نظف ؟
وبقيت المضيرة ، كيف آشترى لحمها ، ووفى تحميا ، ونصبت قدرها ، وأبجت نارها ، ودقت أوزارها ، حتى أجيد طبخها ، وعقد مرقها ؟ وهذا خطب يطم ، وأمر لا يتم !

(ويقوم أبو الفتح) .

التاجر : أين تريد ؟

أبو الفتح : حاجة أقضيها !

التاجر : يا مولاي ! تريد كنيفا يزرى بربيعي الأمير، وخريف الوزير، قد جُصَّص أعلاه، وصُهِجَ أسفله، وسَطَّحَ سقفه، وفرشت بالمرمر أرضه، يزل عن حائطه الذر فلا يقلق، ويمشي على أرضه الذباب فيزلق، عليه بابٌ غير أنه من خليط ساج وعاج، مزدوجين أحسن أزواج، يتمنى الضيف أن يأكل فيه .

أبو الفتح : كل أنت من هذا الجراب، لم يكن الكنيف في الحساب !

(ويمضي أبو الفتح فيقول) .

ونحرت نحو الباب، وأسرعت في الذهاب، وجعلت أعدو وهو يتبعني ويصيح (يا أبا الفتح، المضيرة، يا أبا الفتح) وظن الصبيان المضيرة لقبا فصاحوا صياحه، ورميت أحدهم بحجر، من فرط الضجر، فلقى رجل الحجر بعامته، فغاص في هامته، فأخذت من النعال بما قدم وحدث، ومن الصنع بما طاب وخبث، وحشرت الى الحبس، فأقمت عامين في ذلك النحس، فنذرت أن لا آكل مضيرة ما عشت، فهل أنا في ذا يا آل همدان ظالم ؟

قال عيسى بن هشام :

فقبلنا عذره، ونذرنا نذره، وقلنا : قديما جنت المضيرة على الأحرار، وقدمت الأراذل على الاختيار !

٣ — ومن الفكاهات التي صيغت صياغة فنية ما كتبه أبو الخطاب الصابي في صفة حمل أهده اليه أبو العباس بن سابور :

« وصلت رقعتك ففضضتها عن خط مشرق، ولفظ موق، وعبارة مصيبة، ومعان غريبة، وآتساع في البلاغة يعجز عنه عبد الحميد في كتابته، وسبحان في خطابته، وتصرف بين جد أمضى من القدر، وهزل أرق من نسيم السحر، وتقلب في وجوه الخطاب، الجامع

للصواب ، إلا أن الفعل قصر عن القول : لأنك ذكرت حملا ، جعلته بصفتك جملا ، فكان المعيدى الذى تسمع به ولا أن تراه . وحضر فرأيت كبتا متقادما الميلاد ، من نتاج قوم عاد ، قد أفتته الدحور ، وتعاقبت عليه العصور ، فظنته أحد الزوجين اللذين جعلهما نوح فى سفينه ، وحفظ بهما جنس الغنم لذريته ، صغر عن الكبر ، ولطف عن القدم ، فبانت دماسته ، وتقاصرت قامته ، وعاد ناحلا ضئيلا ، باليا هزيعا ، بادی السقام ، عارى العظام ، جامعا للعياب ، مشتملا على المثالب ، يعجب العاقل من حلول الحياة به ، وتأنى الحركة فيه ، لأنه عظم مجلّد ، وصوف ملبد ، لا يجيد فوق عظامه سلبا ، ولا تلقى يدك منه الا خشبا . لو ألقى الى السبع لأباه ، ولو طرح للذئب لعافه وقلاه ، قد طال للكلأ فقهه ، وبعد بالمرعى عهده ، لم ير القت إلا نائما ، ولا عرف الشجير إلا حالما . وقد خيرتني بين أن أقنيه فيكون فيه غنى الدهر ، أو أذبحه فيكون فيه خصب الرجل ، فملت إلى أسبقائه لما تعرف من محبتي فى التوفير ، ورغبتي للتشهير ، وجمعى للولد ، وآدخارى للعند ، فلم أجد فيه مستمعا للبقاء ، ولا مدفعا للبقاء . لأنه ليس بأنثى فتحمل ، ولا بفتى فينسل . ولا بصحيح فيرى ، ولا بسليم فيبقى ، فملت الى التئانى من رأيك ، وعولت على الآخر من قولك ، وقلت : أذبحه فيكون وظيفة للعيال ، راقيمه رطباً مقام قديد الغزال ، فأنشدنى وقد أضمرت النار ، وحدت الشفار ، وشمر الجزار :

أعيدها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وقال : ما الفائد لك فى ذبحي ، وأنا لم يبق منى إلا نفس خافت ، ومقلة إنسانها باهت ، لست بذى لحم فأصلح للأكل ، لأن الدهر قد أكل لحمي ، ولا جلدى يصلح للدباغ لأن الأيام قد مزقت أدمي ، ولا لى صوف يصلح للغزل لأن الحوادث قد حصت وبرى !! نان أردتني للوقود فكف بعرايق من نارى ، ولن تنى حرارة جمرى بريح قنارى ! فلم يسبق إلا أن تطلبني بذحل ، أو يبنى وينك دم ! فوجدته صادقا فى مقالته ، ناصحا فى مشورته ، ولم أعلم من أى أمریه أعجب ؟ أمن مما طلته الدهر بالبقاء ؟ أم صبره على الضر والملاؤء ؟

أم قدرتك عليه مع إعواز مثله ، أم تأهلك الصديق به مع خسارة قدره ! ويا ليت شعري إذ كنت وإليك سوق الغنم ، وأمرك ينفذ في الضأن والمعز ، وكل كبش سمين ، وحمل بطين ، مجلوب إليك ، مقصور عليك ، تقول فيه قولا فلا ترد ، وتريده فلا تصد ، وكانت هديتك هذا الذي كأنه ناشر من القبور ، أو قائم عند النفخ في الصور ، فما كنت مهديا لو أنك رجل من عرض الكتاب ، كأبي علي وأبي الخطاب ، ما كنت تهدي إلاكلبا أجرب ، أو قردا أحذب ! !^(١) .

٤ — وكتب أبو إسحاق الصابي يعزى أبا بكر بن قريعة عن ثور أبيض جلس للعزاء عليه تراقعا وتحامقا .

”التعزية على المفقود — أطل الله بقاء القاضي ! — إنما تكون بحسب محله من فاقده ، من غير أن تراعى قيمته ، ولا قدره ، ولا ذاته ، ولا عينه ، إذ كان الغرض منها تبريد الغلة ، وإخماد اللوعة ، وتسكين الزفرة ، وتنفيس الكربة ، فرب ولد عاق ، وأخ مشاق ، وذو رحم أصبح لها قاطعا ، وقريب قوم قد قلدهم عارا ، وناط بهم شنارا ، فلا لوم في ترك التعزية عنه ، وأحر بها أن تكون تهينة بالراحة منه . ورب مال صامت غير ناطق ، قد كان صاحبه به مستظهرا ، وله مستثمرا ، فالفجيعة به إذا فقد موضوعة موضعها ، والتعزية عنه واقعة منه موقعها . وقد بلغني أن القاضي أصيب بشور كان له بفلس للعزاء عنه شاكيا ، وأجهش عليه باكيا ، وللندم عليه والها ، وحكى عنه حكايات في التأين له ، وإقامة الندبة عليه ، وتعدد ما كان من فضائل البقر التي تفرقت في غيره ، واجتمعت فيه وحده ، فكان كما قال أبو نواس ، في مثله من الناس :

ليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد

لأنه يركب الأرض مغمورة ، ويشيرها مزروعة ، ويدور في الدواليب ساقيا ، وفي الأرحاء طاحنا ، ويحمل الغلات مستقلا ، والأثقال مستخفا ، فلا يؤوده عظيم ، ولا يعجزه جسيم ، ولا يجرى في الحائط مع شقيقه ، ولا في الطريق مع رفيقه ، إلا كان جلدا لا يسبق ، ومبرزا

لا يَلْحَقُ، وفائتاً لا ينال شأوه وغايته، ولا يبلغ مداه ونهايته . ويشهد الله أن مأساه ساءنى، وما أله ألتنى . ولم يحز عندى فى حق وده، استصغار خطب جل عنده فأرضه وأرقه، وأمرضه وأقلقته ؛ فكتبت هذه الرقعة فأصابها من الجوى فى مصابه هذا بقدر ما أظهر من إكباره إياه، وأبان من إعظامه له ، وأسأل الله تعالى أن يخصه من المعوضة بأفضل ما خص به البشر، عن البقر ، وأن يفرد هذه البهيمة العجاء بأثرة من الثواب ، يضيفها الى المكلفين من ذوى الأبواب، فانها وان لم تكن منهم، فقد استحققت أن لا تفرد عنهم، بأن مس القاضى سبها، وصار اليه منتسبها ، حتى إذا أنجز الله ما وعده من تمحيص سياهم، وتضعيف حسانتهم، والإيفاء بهم الى الجنة التى رضىها لهم داراً، وجعلها لجماعتهم قراراً، وأورد القاضى أيدى الله تعالى موارد أهل العيم، مع أهل الصراط المستقيم ، جاء ثورته هذا مجنوب معه، مسحوح له به ! وكما أن الجنة لا يدخلها الخبث، ولا يكون من أهلها الحدث ، ولكنه عرق يجرى من أعراضهم ؛ كذلك يجعل الله ثور القاضى مركباً من العنبر الشجرى ، وماء الورد الجورى، فيكون له جونة عطرونور ! وليس ذلك بمستبعد ولا مستنكر، ولا مستعجب ولا متعذر، إذ كانت قدرته بذلك محيطه، ومواعيده لأمثاله ضامنة، بما أعهده الله فى الجنة لعباده الصادقين، وأوليائه الصالحين، من شهوات أنفسهم، وملذات أعينهم، ما هو منحة من غامر فضله، وفائض كرمه، عاقبه ذلك مع صالح مساعيه، ومحمود شيمه، وقلبي بمعرفة خبره — أدام الله عزه ! — فيما أدرعه من شعار الصبر، واحتفظ به من إثارة الأجر، ورفع اليه من السكون لأمر الله تعالى فى الذى طرقه ، والشكر له فيما أزعجه وأقلقته، فليعرفنى القاضى من ذلك ما أكون ضارباً معه بسهم المساعدة عليه، وآخذاً بقسط المشاركة فيه ^(١) .

٥ — ومن أطرف ما كتب على طريق الهزل والفكاهة "عهد التطفل" وهو عهد أنشأه أبو إسحاق الصابى على لسان طفيل اسمه (عليكا) كان يقع على مائدة معين الدولة بن بويه . والظريف فى هذا العهد أنه يجرى على نمط العهود السلطانية فيبدأ بعرض خصائص المهود إليه، ويعين المهمات التى كتب من أجلها العهد فيقول :

”هَذَا مَا عَمِدَ بِهِ عَلَىٰ بَنِ أَحْمَدَ الْمَعْرُوفَ بِعَلِيكَآ إِلَىٰ عَلَىٰ بَنِ عَرَسِ الْمَوْصِلِ ، حِينَ اسْتَخْلَفَهُ عَلَىٰ إِحْيَاءِ سُنَّتِهِ ، وَاسْتِنَابِهِ فِي حِفْظِ رَسُومِهِ ، مِنْ التَّطْفُلِ عَلَىٰ أَهْلِ مَدِينَةِ السَّلَامِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا مِنْ أَرْبَاضِهَا وَأَكْثَافِهَا ، وَيَجْرَىٰ مَعَهَا فِي سَوَادِهَا وَأَطْرَافِهَا ، لِمَا تَوَسَّمَهُ فِيهِ مِنْ قَلَةِ الْحَيَاءِ ، وَشِدَّةِ اللَّقَاءِ ، وَكَثْرَةِ اللَّقْمِ ، وَجُودَةِ الْهَضْمِ ، وَرَأَاهُ أَهْلًا لَهُ مِنْ سَدِّ مَكَانِهِ ... “ .

ثم يأخذ الأمر بالجد فيقول :

”أَمْرُهُ بِتَقْوَىٰ اللَّهِ الَّتِي هِيَ الْجَانِبُ الْعَزِيزُ ، وَالْحَرْزُ الْحَرِيزُ ، وَالرَّكْنُ الْمَنِيعُ ، وَالطُّودُ الرَّفِيعُ ، وَالْعَصْمَةُ الْكَالِئَةُ ، وَالْجَنَّةُ الْوَاقِيَةُ ، وَالزَّادُ النَّافِعُ يَوْمَ الْمَعَادِ ... وَأَنْ سَتَشْعُرُ خِفَّتَهُ فِي سِرِّهِ وَجَهْرِهِ ، وَيَرَاقِبُهُ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ ... “ .

وبعد كلام طويل فى هذه النصائح الجدية ينتقل إلى صدر الموضوع فيقول :

”وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَأَمَّلَ أَسْمَ التَّطْفِيلِ وَمَعْنَاهُ ، وَيَعْرِفَ مَغْزَاهُ وَمَنْحَاهُ ... فَانْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ قَدْ اسْتَقْبَحَهُ مِنْ فِعْلِهِ ، وَكَرِهَهُ لِمَنْ اسْتَعْمَلَهُ ، وَنَسَبَهُ فِيهِ إِلَى الشَّرِّ وَالنَّهْمِ ، وَحَمَلَهُ مِنْهُ عَلَى التَّفْهِ وَالْقَرَمِ ، فَفَهِمْ مَنْ غَلَطَ فِي اسْتِدْلَالِهِ ، فَأَسَاءَ فِي مَقَالِهِ ، وَمَنْهُمْ مَنْ شَخَّ عَلَى مَالِهِ ، فِدَافَعَ عَنْهُ بِأَحْتِيَالِهِ ، وَكُلَّ الْفَرِيقَيْنِ مَذْمُومٌ ، وَجَمِيعُهُمَا مَلُومٌ ، وَمَنْهُمْ الطَّائِفَةُ الَّتِي تَرَى فِيهَا شَرَكَةَ الْعَنَانِ ، فَهِيَ تَنْتَدِلُهُ إِذَا كَانَ لَهَا ، وَتَنْتَدِلِي عَلَيْهِ إِذَا كَانَ لغيرِهَا ، وَتَرَى أَنَّ الْمُنَّةَ فِي الْمَطْعَمِ لِلْهَاجِمِ الْآكِلِ ، وَفِي الْمَشْرَبِ لِلْوَارِدِ الْوَاعِلِ ، وَهِيَ أَحَقُّ بِالْحُرِّيَةِ ، وَأَخْلَقُ بِالْخَيْرِيَةِ ... وَقَدْ عُرِفَتْ بِالتَّطْفِيلِ ، وَلَا عَارَ فِيهِ عِنْدَ ذَوِي التَّحْصِيلِ ، لِأَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الطَّقْلِ وَهُوَ وَقْتُ الْمَسَاءِ ، وَأَوَانُ الْعِشَاءِ ، فَلَمَّا كَثُرَ اسْتُعْمَلُ فِي صَدْرِ النَّهَارِ وَعَجِزَهُ ، وَأَوَّلُهُ وَآخِرُهُ ، كَمَا قِيلَ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ : قَمَرَانِ وَأَحَدُهُمَا الْقَمَرُ ، وَلَأَبَى بَكَرٍ وَعُمَرُ : الْعِمْرَانِ وَأَحَدُهُمَا عَمْرٌ ، وَقَدْ سَبَقَ إِمَامُنَا (بَيَانٌ) ^(١) رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ سَبْقًا أَوْجِبَ لَهُ خُلُودُ الذِّكْرِ ، فَهُوَ بَاقٍ بَقَاءَ الدَّهْرِ ، وَمُتَجَدِّدٌ فِي كُلِّ عَصْرِ ، وَمَا نَعْرِفُ أَحَدًا نَالًا مِنَ الدُّنْيَا حِظًّا مِنْ حِظِّهَا فَبَقِيَ لَهُ مِنْهُ أَثَرٌ يَخْلُقُهُ وَصِيَّتٌ يَسْتَبْدُّ بِهِ

(١) لا نذكر أنا اطلعنا على شىء من نوادر (بيان) هذا ، ولكن يظهر أنه كان من الشخصيات المشهورة بالتفطن فى الأزمان الماضية .

إلا هو وحده ، فبيان رضوان الله عليه يذكر بتطفيه كما تذكر الملوك بسيرها ، فمن بلغ إلى نهايته ، أوجرى إلى غايته ، سعد بغضارة عيشه في يومه ، ونباحة ذكره في غده . جعلنا الله جميعا من السابقين إلى مداه ، والمذكورين كذ كراد ! ” .

ويقول فيمن يجب أن يغشاهم المتطفلون :

” وأمره أن يعتمد موائد الكبراء والعظماء بغزايه ، وشمط الأمراء والوزراء بسرياه ، فانه يظفر منها بالغنيمة الباردة ، ويصل عليها إلى الغريبة النادرة ، وإذا استقراها وجد فيها من طوائف الألوان ، المائدة للسان ، وبدائع الطعوم ، السائفة في الحلقوم ، مالا يجده عند غيرهم . ولا يناله إلا لبيهم ، لحذى صناعتهم ، وجودة أدواتهم ، وآثر ياح علمهم ، وكثرة ذات بينهم ، والله يوفر من ذلك حظا ، ويستد نحوه لخطئا ، ويوضح عليه دليلنا ، ويهمل إليه سبيلنا ” .

ويقول في أخلاق الموسرين من التجار :

” وأمره أن يعرض لموسرى التجار ، ومجهزى الأمصار ، من وكيرة الدار ، والعرس والإعداد ، فانهم يوسعون على نفوسهم في النواثب ، بحسب تنسيقهم عليها في الراتب ، وربما صبروا على تطفيل المتطنلين ، وأغضوا على تجههم الواعلين ، لينجذوا بذلك في مجالسهم الرذلة ، ويمتدو في مكارم أخلاقهم السذلة ، ويقول قائلهم الباج باتساع طعامه ، المباهى بكثرة طعامه : إننى كنت أرى الرجود الغريزة فأطعمها ، والأيدى الممتدة فأماؤها . وهذه طائفة لم ترد بما فعلته الكرم والسعة ، وإنما أرادت المتى والسعة ، فإذا أهدى الأريب الى طرائقها وصل إلى بفتته من إعلان قضيتها ، وفاز بمراده من ذخائر حسنيتها ، إن شاء الله ” .

ويقول فيما يجب على المتطفل من مصادقة المدبرين والطباخين والحمالين :

” وأمره أن يصادق قهارة الدور ومدبريها ، ويرافق وكلاء المطابخ وحمالها ، فانهم يملكون من أصحابهم أزقة مطاعمهم ومشاربهم ، ويضعونها بحيث يحبون من أهل موداتهم .

(١) تأمل الفكاهة في عبارة (رضوان الله عليه) . (٢) الكيرة طعام يعمل ابتهاجا بالفراغ من بناء البيت .

(٣) الاعتذار : الختان ، وهو أيضا تقديم معام الختان . (٤) التهامة جمع قهرمان وهو رئيس الخدمة المنزلية .

ومعارفهم . وإذا عُدَّت هذه الطائفة أحدا من الناس خليلا من خلانها ، واتخذته أخا من إخوانها ، سعد بمرافقتها ، ووصل إلى محابه من جهاتها ، ومآربه في جنباتها “ .

وأوصاه بعد ذلك أن يتعهد الأسواق ليتوسم من يتهاون لإقامة الولائم . ونصحه بأن ينصب الأرصاد على منازل المغنين والمغنيات ، وأمره أن يتجنب مجامع العوام المقلين ، ومحافل الرعاع المقترين ، لأن التطفيل على المعوزين إجحاف ، وفيه إضرار بمروءة المتطفلين ! ثم قال في سياسة الأكل :

”وأمره أن يحزر الخوان إذا وضع ، والطعام إذا نقل ، حتى يعرف بالحدس والتقريب ، والبحث والتنقيب ، عدد الألوان في الكثرة والقلة ، وآفتانها في الطيب واللذذ ، فيقدر لنفسه أن يشبع مع آخرها ، وينتهي منها عند آتائها ، ولا يفوته النصيب من كثيرها وقليلها ، ولا يخطئه الحظ من دقيقها وجليلها ، ومتى أحس بقلة الطعام ، وعجزه عن الأقوام ، أمعن في أوله إمعان الكيس في سعيه ، الرشيد في أمره ، المأني لبطنه ، من كل حار وبارد ، وخيث وطيب ، فإنه إذا فعل ذلك سلم من عواقب الأغمار الذين يكفون تطرفا ، ويُقلّون تأدبا ، ويظنون أن المادة تبلغهم في آخر أمرهم ، وتنتهي بهم إلى غاية سعيهم ، فلا يلبثوا أن ينجلوا نجلة الوائب ، وينقلبوا بحسرة الحائب . أعاذنا الله من مثل مقامهم ، وعصمنا من شقاء جدودهم ، إن شاء الله ! “

ثم قال يوصيه بأحتمال الضيم في سبيل البطن :

”وأمره أن يروض نفسه ، ويغالط حسه ، ويضرب عن كثير مما يباحقه صفحا ، ويطوى دونه كشحا ، ويستحسن الصمم عن الفحشاء ، وإن أئته اللكرة في حلقه ، صبر عليها في الوصول إلى حقه ، وإن وقعت به الصفعة في راسه ، صبر عليها لموقع أضراره ، وإن لقيه لاق بالهفاء ، قابله باللطف والصفاء ، اذ كان قد وجَّح الأبواب ، وخالط الأسباب ، وجلس مع الحضور ، وأمتزج بالجمهور ، فلا بد أن يلقاه المنكر لأمره ، ويمر به المستغرب لوجهه ، فإن كان حرا حيا أمسك وتذم ، وإن كان فظا غليظا همهم وتكلم ، وتجنب عند ذلك الخاشنة ، وآستعمل مع المخاطب له الملاينة ، ليبرد غيظه ، ويقل حده ، ويكف غريبه ، ويأمن شغبه ، ثم اذا طال

المدى تكررت الألفاظ عليه فعرف، وأنست النفوس به فآلف، ونال من الحال المجتمع عليها،
منال من حشم وسئل الذهاب إليها .

وقد بلغنا أن رجلا من العصابة كان ذا فهم ودراية، وعقل وحصافة، طفل على ولية،
لرجل ذى حال عظيمة، فرمقته فيها من القوم العيون، وصرفت بهم فيه الظنون، فقال له
قائل منهم : من تكون أعزك الله ؟ فقال : أنا أول من دعى الى هذا الحق ، فقيل له :
وكيف ذاك ونحن لا نعرفك ؟ فقال : اذا رأيت صاحب الدار عرفنى وعرفته نفسى . فبغى
به اليه . فلما رآه بدأه بأن قال له : هل قلت لطباخك أن يصنع طعاما زائدا على عدد
الحاضرين، ومقدار حاجة المدعوين ؟ قال : نعم ! قال : فانما تلك الزيادة لى ولا مثالى .
وبها يستطيعون ان جرى محراى ، وهى رزق لنا أنزله الله على يدك وبك . فقال له : كرامة
ورحبا، وأخذوا وقربا ! والله لا جلست إلا مع طية الناس ووجوه الجلساء ، إذ أطرفت
فى قربك ، وتفننت فى فعالك . فليكن ذلك الرجل إماما يقتدى به، إن شاء الله ! “
وأوصاه بعد ذلك أن يكثر من تعاهد الأشياء المقوية للعدة المشهية للطعام “فانها عماد
أمره وقوامه، وبها انتظامه والتمامة” إذ كانت تعين على حضور دعوتين، وتهض المتطفل
لأن يأكل فى اليوم الواحد أكلتين !

وختم عهد التطفل بهذا اختتام الطريف :

”هذا عهد عليك بن أحمد اليك، وحبته لك وعليك، لم يالك فيه إرشادا وتوقيفا، وتهذيبا
وتتقيفا، وستا رتبصيرا، وحقا وتذكيرا، فكن بأوامره مؤتمرا، وبزواجره مزدرجا، ولرسومه
متبعا، وبمحفظها مصطنعا، إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته“ .

٦ — وذوق الفكاهه يغلب على كتاب القرن الرابع، ولكن المهم فى هذا الفصل أن

يعرف القارى أنهم كانوا يعمدون الى هذا الفن . وعهد التطفل الذى لخصناه يدل أوضح
الدلالة على أن الفكاهه صارت فنا من فنون القول . وكان بودننا أن نكثر من الشواهد، ولكن
هذا الباب فى جملته لا يراد منه الا عرض النواحي البارزة فى الأساليب والأغراض .

٥ - النسيب

١ - النسيب من الموضوعات التي أحتكرها الشعر عند العرب . وتلك نزعة طبيعية : فإن النسيب والغزل من أرق ألحان الغناء ، وذلك يفرض أن تؤدى تلك المعانى فى كلام مقفى موزون . ولم نجد فى المجموعات الأدبية مختارات نثرية فى النسيب ، لأن مصنفى المجموعات كانوا يفهمون أن الغزل لا يخرج عن الأنفاس الشعرية .

غير أننا نجد فى النثر لأقدم عهوده نماذج غزلية ، كالذى وقع فى القرآن وصفا للخور والولدان . نحو :

”وَحُورٌ عَيْنٌ ، كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ“^(١)

ونحو :

”ويطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأَكوابٍ وأباريق ، وكأس من معين“ .

وكما جاء فى سورة الواقعة :

﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً : فَجَلَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ، عُرْبًا أَتْرَابًا﴾^(٢) .

فهذه كلها أوصاف تدخل فى باب النسيب . ونسب الى إحدى النساء حديث فى وصف الرسول هو أيضا نسيب لأنها تكلمت عن أوصافه الحسية التى تعين أنه إنسان جميل ، ووصف الجمال من ألوان النسيب .

٢ - ثم جاء القصص الغرامى الذى شاع فى عصر بنى أمية وأول عصر بنى العباس .

(١) الخور جمع حوراء من الحور بالتحريك وهو أن يشند بياض العين وسواد سوادها وتستدير حدقتها وترق جفونها . والعين جمع عباء وهى سوداء العين فى سعة . (٢) العرب جمع عرب وهى العاشقة لزوجها أو المتحبة إليه .

وهو قصص كثير تجدد أطايبه مبعثرة في كتب الأدب هنا وهناك ، وفيه فقرات من الغزل الصرف تؤدي ما يزيد به الشعر من ملاح الأوصاف . وإلى القارئ شاهدا من تلك الأفاصيص :

” خرج أناس من بنى حنيفة يتزهون إلى جبل لهم ، فبصر قتي منهم يقال له عباس بجارية فهو إليها ، وقال لأصحابه : والله لا أنصرف حتى أرسل إليها ، فطلبوا إليه أن يكف وأن ينصرف معهم فأبى ، وأقبل يرسل الجارية حتى وقع في نفسها ، فأقبل في ليلة إضحائه مسكبا قوسه وهي بين إخوتها نائمة ، فأيقظها فقالت : أنصرف ، وإلا أيقظت إخواني فقتلوك . فقال : والله للوت أيسر مما أنا فيه . ولكن الله على إن أعطيتني يدك حتى أضعها على فؤادي أن أنصرف . فأمكنته من يدها ، فوضعها على فؤاده ثم أنصرف . فلما كان من القابلة أتاها وهي في مثل حالها ، فقالت له مثل مقالتهما ، ورد عليها وقال : إن أمكنتني من شفيتك أرسلتهما أنصرفت ثم لا أعود إليك . فأمكنته من شفيتها فرشفهما ثم أنصرف . فوقع في قلبها منه مثل النار . ونذره الحى فقالوا : ما لهذا الفاسق في هذا الجبل ! انهضوا بنا إليه حتى نخرجه منه . فأرسلت إليه : إن القوم يأتونك الليلة فاحذر . فلما أمسى قعد على مرقب ومعه قوسه وأسمحه . وأصاب الحى من آخر النهار مطراً وندى فلهوا عنه ، فلما كان في آخر الليل وذهب السحاب وطلع القمر خرجت وهي تريده وقد أصابها الطل فذشرت تسمرها وأعجبت نفسها ومعها جارية من الحى ، فقالت : هل لك في عباس ؟ فخرجتا تمسيان ، ونظر إليهما وهو على المرقب فظن أنهما ممن يطلبه ، فرمى بهما فخطأ قلب الجارية ففلقه ! وصاحت الأخرى فأنحدر من الجبل وإذا هو بالجارية في دمها فقال :

نعب الغراب بما كرهت ولا إزالة للقدر

تبكى وأنت قتلتها فاصبر وإلا فانتحر

(١) اضحية : مقبرة .

(٢) نذره الحى : علها به .

”ثم وجأ فى أوداجه بمشاقصه^(٢)، وجاء الحى فوجدوهما مقتولين^(٣)“ .

ففى هذه الأقصوصة تعابير غزلية لا تخفى على فطنة القارئ .

٣ — ويتصل بهذا الفن ما جاء فى وصف المخطوبات كقولهم أحدهم لصاحبه :

”ابغنى امرأة بيضاء البياض ، سوداء السواد ، طويلة الطول ، قصيرة القصر“^(٤) .

وقول آخر :

”ابغنى امرأة لا تؤهل داراً ، ولا تؤنس جاراً ، ولا تنفث ناراً“^(٥) .

وقول أعرابى لابن عمه :

”أطلب لى امرأة بيضاء ، مديدة فرعاء^(٨) ، جعدة تقوم فلا يصيب قميصها منها الا مشاشة^(١١) منكبها ، وحلمتى نديها ، ورائفتى أليتها ، ورضاف ركبتيها ، اذا أستققت فرميت تحتها^(١٢) بالأترجة العظيمة نفذت من الجانب الآخر“^(١٣) .

فقال له ابن عمه : وأنى بمثل هذه إلا فى الجنان !^(١٤)

٤ — وأثرت عن الأعراب كلمات غزلية كقول أحدهم فى وصف الهوى :

”هو أعظم ملكا فى القلب من الروح فى الجسم ، وأملك بالنفس من النفس ؛ يظهر ويظن ، ويكتف ويلطف ، فامتنع عن وصفه اللسان ، وعى عنه البيان ، فهو بين السحر والجفون ، لطيف المسلك والكمون“^(١٥) .

(١) وجأ : ضرب . (٢) المشاقص جمع مشقص وهو نصل السهم اذا كان طويلا غير عريض .

(٣) راجع عيون الأخبار ج ٤ ص ١٣٣ و ٣٤٠ . (٤) يريد : كل شئ . منها أبيض فهو شديد البياض .

وكل شئ منها أسود فهو شديد السواد . وكذلك الطول والقصر — راجع عيون الأخبار ج ٤ ص ٥

(٥) لا تجعل دارها أهلة بدخول الناس عليها . (٦) لا تؤنس الجيران بدخولها عليهم .

(٧) أى لا تم ولا تغرى بين الناس — راجع عيون الأخبار ج ٤ ص ٥ (٨) طويلة .

(٩) الفرعاء : ذات الفرع وهو الشعر . (١٠) جعدة : مجتمعة الخلق . (١١) المشاشة :

روس العظام . (١٢) منى رائقة وهى أسفل الألية الذى يلى الأرض عند القعود . (١٣) الأترجة :

ثمر شجر من جنس الليمون . (١٤) راجع عيون الأخبار ج ٤ ص ٥ و ٦

(١٥) زهر الآداب ج ٤ ص ٩٢

وسمع الأصمى - امرأة من العرب تصف امرأة وهي تقول :

”بيضاء غضة^(١)، وذماء رخصة^(٢)، قباء طفلة^(٣)، تنظر بعيني شادن ظمآن، وتبسم عن مشور
الأخوان، في غب التهان، بأساريع الكشبان^(٤)، خلقها عميم، وكلامها رخم“.

ووصف أعرابي امرأة يحبها فقال :

”هي زينة الحضور، وباب من أبواب السرور، ولذكرها في المغيب، والبعد من
الريب، أشهى إلينا من كل ولد ونسيب، بها عرف فضل الحور العين، وأشتيق بها الين
يوم الدين“.

وسئلت أعرابية عن الهوى فقالت :

”لا تمتع الهوى بملكه، ولا ملئ بسلطانه ! وقبض الله يده، وأوهن عضده ! فانه جائر
لا ينصف في حكم، ولا يصر في ظلم، ولا يرعى للدم، ولا ينقاد لحق، ولا يبقى على عقل
وفهم . لو ملك الهوى وأطيع لرد الأمور على أدبارها، والدنيا على أعقابها“.

وقال أعرابي :

”دخلت بغداد فرأيت فيها عيوناً دججا^(٥)، وحواجب زجا^(٦)، يسحب النياب، ويسلب
الألباب“.

وقال رجل من فزارة لرجل من بني عذرة : تعدون موتكم في الحب مزية، وإنما
ذلك من ضعف البنية، وعجز الروية .

فقال العذري : أما أنكم لو رأيتم المحاجر البلج^(٧)، ترشق بالأعين الدجج، فوقها الحواجب
الزج، وتحته المباسم الفلج^(٨)، والشفاه السمر، تفتقر عن الشايات الغر، كأنها برد الدر، لجلعنموها
اللات والعزى، ورفضتم الاسلام وراء ظهوركم“.

(١) عضة : بقعة . (٢) وذماء : جسمها ريان . (٣) رخصة : لينة .

(٤) الأساريع جمع أسروع وهو نوع من دود الرمل تشبهه الأنامل . (٥) الدجج جمع دججا من الدجج
بالتحريك وهو سواد العين مع سعتها . (٦) زج جمع أزج من الزجج بالتحريك وهو دقة الحاجبين في طول .
(٧) البلج جمع أبلج وهو الأبيض . (٨) الفلج جمع أفلاج من الفلج بالتحريك وهو تباعد ما بين الأسنان .

وذكر أعرابي نساء فقال :

”ظعائن في سوافهن طول، غير قبيحات العطول^(١)، اذا مشين أسبان الذبول، وإن ركبنا
أنقلن الجمول“ .

ووصف آخر نساء فقال :

”يتلثمن على السبائك ، ويتشجن على النيازك^(٢) ، ويتزرن على العوانك^(٣) ، ويرتفغن على
الأرائك ، ويتهادين على الدوانك ، ابتسامهن وميض ، عن ثغر كالأغريض ، وهن عن الصبا
صور^(٤)، وعن الحيا حور“ .

٥ — ولم نجد فيما طالعناه رسالة غرامية لأحد كتاب القرن الأول ، أما القرن الثاني
فوجد فيه شواهد ، من ذلك ما حدث مخارق المغنى إذ قال :

”لقيني أبو اسحاق اسماعيل بن القاسم قبل نسكه فقال : أنا والله صب بك ، ولوع اليك ،
مغمور القلب بشكرك ، واللسان بذكرك ، متشوف الى رؤيتك ومفاوضتك ، وقد طالت
الأيام على ما أعد به نفسي من الاجتماع معك ، ومن قضاء الوطر منك ، فما عندك ، أنا الفداء
لك ! أتورني أم أزورك ؟ قلت : جعلني الله فداك ! ما يكون عند من هو منك بهذا الموضع ،
وفي هذا المحل ، الا الاتقياد الى أمرك ، والسمع والطاعة لك ، ولولا أن أسيء الأدب في أمر
بدأت فيه بالفضل لقلت إن كثير ما ابتدأت به من القول يقل عما عندي من الشوق اليك ،
والشغف بك ، فوجبت لك به المنة على“ ، وأنا بين يديك : فائن عناني الى ما أردت ، وقدنى
كيف شئت“ .

وكان أبو العتاهية من المفتونين بغناء مخارق ، سمعه يوما يغنى بفعل بيكي ، ثم قال :

”يا دواء المجانين ! لقد رقت حتى كدت أن أحسوك^(٦) !“ .

وهذه العبارة جذوة من جذوات التشبيب .

- (١) أى أن العطل من الحلى لا يغير من حسنهن . (٢) النيازك : جمع نيزك وهو الرمح القصير .
(٣) العوانك : جمع عانك وهو الرمل المعقد . (٤) صور : منحرفات . (٥) هو أبو العتاهية .
(٦) نهاية الأرب ج ٤ ص ٣٣٤ .

وقال علي بن عبيدة الرميحاني وقد رأى جارية يهاها :

”لولا البقا على الضمائر ، لبجنا بما تجننه السرائر ، لكن نيران الحب نتدارك بالإخفاء ،
ولا تعاجل بالإبداء ، فإن دوامها مع إغلاق أبواب الكتمان ، وزوالها في فتح مصارع الاعلان“ .
وقال :

”لولا حركات من الابتهاج أجد جسمها عند رؤيتك في نفسي لا أعرف لها مثيلا من
مظاهرها الا مؤانستك لي ، لأبقيت عليك من العناء ، وخففت عنك مؤونة اللقاء . لكنني أجد
من الزيادة بك عندي أكثر من قدر راحتك في تأنرك عني ، فأضيق عن احتمال الحسران
بالوحدة منك“ .

والكلمة الأولى غزل خالص ، والثانية بين الغزل والاخوانيات ، ولكنها تفيض بروح
النسيب .

وكان علي بن عبيدة رقيق الاحساس يتحول الود عنده الى عشق ، وهو صاحب هذه
الحكمة الغالية :

”اجعل أنسك آخر ما تبذل من وذك ، ومن الأسترسال منك ، حتى تجد له مستحقا .
فإن الأنس لباس العرض ، وتحفة الثقة ، وجباء الأكفاء ، وشعار الخاصة ، فلا تخلق جدته
الا لمن يعرف قدر ما بذلت له منك“^(١) .

وكتب إسحاق بن ابراهيم الموصلي الى علي بن هشام القائد :

”جعلت فداك ! بعث إلى أبو نصر مولاك بكتاب منك إلى يرتفع عن قدرى ، ويقصر
عنه شكركى ، فلولا ما أعرف من معانيه ، لظننت أن الرسول غلط بي فيه ، فما لنا ولك
يا أبا عبد الله ، تدعنا حتى اذا نسيتنا الدنيا وأبغضناها ، ورجونا السلامة من شرها ، أفسدت
قلوبنا ، وعلقت أنفسنا ، فلا أنت تريدنا ، ولا أنت تتركنا ! .

وما ذكرته من سؤتك الى لولا أنك حلفت عليه لقلت :

يا من شكا عبثا إلينا شوقه شكوى المحب وليس بالمشاق
لو كنت مشتاقا إلى تريدني ما طببت نفسا ساعة بفراق
وحفظتني حفظ الخليل خليله ووفيت لي بالعهد والميثاق
هيئات قد حدثت أمور بعدنا وشغلت باللذات عن إسحاق

قد تركت، جعلت فداك، ما كرهت من العتاب في الشعر وغيره وقلت أبياتا لا أزال
أخرج بها الى ظهر المربرد وأستقبل الشمال وأنسم أرواحكم فيها ثم يكون ما الله أعلم به، وإن
كنت تكرهها تركتها إن شاء الله :

ألا قد أرى أن الشواء قليل وأن ليس يبقى للخليل خليل
وإني وإن ملّيت في العيش حقبة كذى سفر قد حان منه رحيل
فهل لي إلى أن تنظر العين مرة إلى ابن هشام في الحياة سبيل
فقد خفت أن ألقى المنايا بحسرة وفي النفس منه حاجة وغليل

وأما بعد فاني أعلم أنك وإن لم تسأل عن حالي تحب أن تعلمها، وأن تأتيك عنى سلامة
فأنا يوم كتبت إليك سالم البدن، مريض القلب ... الخ^(١) .

والشعر في هذه الرسالة أغلب، وفقا للتقاليد الأصلية في النسيب .

وقال أحمد بن يوسف : كتب غلام من ولد أنوشروان ممن كان أحد غلمان الديوان
إلى آخر منهم وكان قد علق به وكان شديد الكلف به والمحبة له :

” ليس من قدرى ، أدام الله سعادتك ، أن أقول لمثلك جعلت فداك ، لأني أراك فوق
كل قيمة نضيرة ، وثن معجز ، ولأن نفسي لا تساوى نفسك ، فتقبل في فديتك على كل
حال ، بفعلنى الله فداء ساعة من أيامك ! اعلم أيها السيد العلى المتزلة أنه لو كان لعبدك من
شدة الخطب أمر يقف على حده النعت لأجتهد أن يصف من ذلك ما عسى أن يعطف به
زمام قلبك ، وتحنو على الرقة والتحنى أثناء جوائحك ، ولكن الذى أصبحت وأمسيت ممتحنًا

به فيك منع من كل بيان، ونزع عن كل لسان . والحب ، أيها الملك ، لم يشبه قذى ربية ، ولم يختلط به قلب معاب ، فلا ينبغي لمن كرم أخلاقه أن يعاف مقارنة صاحبه المدل بحزم نيته . والذي أتمناه أيها المولى اللطيف مجلس أقف فيه أمامك ، ثم أبوح بما أضنى جسدي ، وفقت كبدي ، فإن خف ذلك عليك ، ورأيت نشاطا من نفسك إليه ، كنت كمن فك أسيرا ، وأبرأ عيلا ، وسلك من الخير سبيلا يتوعر سلوكها على من كان قبله ، ويكون بعده ، ثم أضاف إلى منة لا يطيقها جبل راس ولا فلك دائر . فأريك أيها السيد المعتمد الإسعاف قبل أن ينذرني الموت فيحول بيني وبين ما خدعت إليه النفس مواصلا برا . إن شاء الله تعالى .

نأجابه :

”تولى الله ما جرى به لسانك بالمزيد ، ولا أوحش ما بيننا بطائر فرقة ، ولا حافر تشنت ، وضمنا وإياك في أوثق جبال الأنس ، وأؤكد أسباب الألفة . وقفت على ما لخصته من العجز عن بلوغ ما خامر قلبك ، وأنطوى في ضميرك ، من السغف المقلقل ، والهووى المضرع ، ولعمرى لو كشف لك عن معشار ما عليه مضمير صدرى ، لأيقنت أن الذى عندك إذا نسبته إلى ما عندى كالتلاشى الرائل . ولكك بفضل الإنعام سبقتنا إلى كشف ما فى الضمير . وأما طاعتي لك ، وذمايى إليك ، فطاعة العبد المقتنى ، الطائع لما يحكم له وعليه مولاه ومالكة . وأنا سائر إليك وقت كذا ، فتأهب لذلك بأجهد عافية ، وأتم عاقبة ، وأسعد نجم جرى بالألفة . إن شاء الله تعالى“ .

وهذا ، كما يرى القارئ ، غزل غفيف يفيض بأرق أنفاس الوجدان .

وفى نسبته إلى غلمان من أولاد أنو سروان دليل على أن هذا الفن وصل إلى العرب من الفرس ، والفرس المستعربون نقلوا إلى اللغة العربية فنونا من القول كان يتخرج منها العرب ، فهم الذين أذاعوا غزل المذكر فى الشعر ، وهم كذلك الذين أذاعوه فى النثر ، لأن هذه

العواطف الرقيقة كانت مما يتحماه العرب فى بداوتهم ، فلما تحضروا أقبلوا على هذه الفنون الناعمة التى سبقهم اليها الفرس واليونان بأزمان طوال .

٦ — وفى القرن الثالث نجد الغزل أخذ يظهر فى النثر ، ونرى الجاحظ يكتب الى إبراهيم بن المدبر^(١) :

« ما ضاء لى نهار ولا دجا ليل ، مذ فارتك ، إلا وجدت الشوق إليك قد حزّ فى كبدى ،
والأسف عليك قد أسقط فى يدى ، والتزاع نحوك قد خان جلدى ، فأنا بين حشا خافقة ،
ودمعة مهراقة ، ونفس قد ذبلت بما تجاهد ، وجوانح قد بليت بما تكابد ، وذكرت وأنا على
فراش الارتماض ، ممنوع من لذة الاغتماض ، قول بشار :

إذا هتف القمرى نازعى الهوى بشوق فلم أملك دموى من الوجد
أبى الله إلا أن يفرق بيننا وكما جاء المزن شيب مع الشهد
لقد كان ما بينى زمانا وبينها كما كان بين المسك والعنبر الورد

فانتظم وصف ما كنا نتعاشر عليه ، ونجربى فى مودتنا اليه ، فى شعره هذا . وذكرت أيضا ما رمانى به الدهر من فرقة أعزائى من إخوانى الذين أنت أعزهم ، ويمتحننى بمن نأى من أحبائى وخلصائى الذين أنت أحبهم وأخلصهم ، ويجرّعني من مرارة نأيمهم ، وبعد لقاءهم ، وسألت الله أن يقرن آيات سرورى بالقرب منك ، ولين عيشى بسرعة أوبتك ، وقلت أبياتا تنصر عن صفة وجدى ، وكنه ما يتضمنه قلبى ، وهى :

بجدى من قطر الدموع ندوب وبالقلب منى مذ تأيت وجيب
ولى نفس حتى الدجى يصدع الحشا ورجع حنين للفؤاد مذبذب
ولى شاهد من ضر نفسى وسقمه ينبر عني أنى الكئيب
كأنى لم أبغ بفرقة صاحب ولا غاب عن عيني سواك حبيب

وقد قرئت هذه الرسالة في مجلس ابن المدبر فقال أحد الحاضرين : هذه رقعة عاشق لا رقعة خادم ، ورقعة غائب لا رقعة حاضر ! فضحك ابن المدبر وقال : نحن نتبسط مع أبي عثمان الى ما هو أدق من هذا وألطف .

وقال ابن المعتز : كان لنا مجلس حظ أرسلت بسببه خادمة الى قينة فأجابت ، فلما مررت في الطريق وجدت فيه حارسا فزجعت ، فأرسلت اليها أعاتبها فكتبت الى :

” لم أتخلف عن المسير الى سيدى فى عشية أمس لأرى وجهه المبارك ، وأجيب دعاءه ، إلا لعله قد عرفتها فلانة ، ثم خفت أن يسبق الى قلبه الطاهر أتى قد تخلفت بغير عذر ، فأحببت أن تقرأ عذرى بخطى ، ووالله ما أقدر على الحركة ، ولا شئ أسرّ الى من رؤيتك ، والجلوس بين يديك ، وأنت يا مولاي جاهى وسندى ، لا فقدت سندى ! ولك رأيك فى بسط العذر موقفا “ .

وكتبت فى أسفل الكتاب :

أليس من الحرمان حظٌ سُلِبْتُ وأحوجنى فيه البلاء الى العذر !
فصبرا فما هذا بأول حادث رمتنى به الأقدار من حيث لا أدرى

فأجابها ابن المعتز :

” كيف أردّ عذر من لا تسلط التهمة عليه ، ولا تهتدى الموجدة اليه ؟ وكيف أعلمه قبول المماذير ، ولا آمن بعض جواهره الى يسير الى انتهاز فرصة فيما عاد الى الفرطة . فان سلمت من ذلك فمن يجيرنى من توكله على تقديم العذر ، ووقوعه موقع التصديق فى كل وقت ، فتتصل أيام الشغل والعلّة ، وتتقضى أيام الفراغ والصحة ، فتطول مدة الغيبة ، وتدرس آثار المودة “ (١) .

وكتب آخر الرقعة :

إذا غبت لم تعرف مكانى لذة ولم يبق نفس لىها وسرورها

وبدلت سمعا واهيا غير ممسك لقول وعينا لا يرانى ضميرها

٧ — وفى القرن الرابع يظهر الغزل فى النثر ظهورا رائعا بحيث يمكن مقارنة الرسائل الغرامية بأقوى قصائد التشبيب ، ولا يمكن الارتياح فى قدرة كتاب القرن الرابع على إجادة هذا الفن وتفوقهم فيه وتصرفهم فى ضروبه تصرف المبدعين .

وأى حسن فات ابن العميد إذ يقول :

”سألنى عن شغفى وجدى به ، وشغفى حبي له . وزعمت أنى لو شئت لذهلت عنه ، أو لو أردت لأعتضت منه ، زعما لعمر أليك ليس بمزعم ! كيف أسلو عنه وأنا أراه ، وأنساه وهو لى تجاه ، هو أغلب على ، وأقرب الى ، من أن يرنى لى عنانى ، أو يخلينى وأختيارى ، بعد اختلاطى بملكه ، وأنخرطى فى سلكه ، وبعد أن ناط حبه بقلبي نائط ، وساطه بدمى سائط ، وهو جار مجرى الروح فى الأعضاء ، متنسم تنسم الروح للهواء ، إن ذهبت عنه رجعت اليه ، وإن هربت منه وقعت عليه ، وما أحب السلو عنه مع هنائه ، وما أوثر الخلو منه مع ملاته . هذا على أنه إن أقبل على بهتنى إقباله ، وأن أعرض عنى لم يطرقنى خياله ، يبعد عنى مثاله ، ويقرب من غيرى نواله . ويرد عنى خاسية ، ويثنى يدى خالية ، وقد بسط آفات العيون المقاربة ، وصدق مراعى الظنون الكاذبة . وصله ينذر بصدده ، وقربه يؤذن ببعده ، يدنى عند ما ينزح ، ويأسو مثل ما يجرح ، خالته أحوال ، وخلته خلال ، وحكمه سجال ، الحسن فى عوارفه ، والجمال من منائح ، والبهاء من أصوله وصفاته ، والسناء من نعوته وسماته ، اسمه مطابق لمعناه ، وفخواه موافق لنجواه^(١) .

وأرسل قابوس بن وشمكير الى بعض أودائه :

”كنت ، أطل الله بقاء مولائى ، وما فى جسمى جارحة إلا وهى تود لو كانت يدا تكلمته ، ولسانا يخاطبه ، وعينا تراقبه ، وقريحة تعاتبه ، بنفسى وهى ، وبصيرة ورهى ، وعين

عبرى ، وكبد حرى ، منازعة الى ما يقرب منه ، وتمسكا بما يتصل عنه ، ومنابرة على أمل هو غايته ، وتعلقا بجبل عهد هو نهايته ، وخاطرى يميل نحوه ، ونفسى تأمل دقوده ، وترجو وتقول : أتراد ، بل لعله وعسا ، يرق لنفس قد تصاعد نفسها ، ويرحم روحا قد فارقها روحها ومؤنسها ، وكيف بقلبه لو عين صورة هذه صورتها ، وشاهد مهجة هذه جملتها ، فليرقى — جعلت فداه ! — بمن عائد برحا عظيما ، وكابد فرحا أليما ، وليرق لكبد مزقها البعاد ، وعين أرقها السماد ، وأحشاء محرقة بنار الفراق ، وأجفان مقروحة بدمعها المهرق ، وقلب فى أوصابه متقلب ، ولب فى عذابه معذب ، فلو أنى أسعدت فأعطيت الرضى ، وخيرت فاخترت المني ، لتيت أن أتصور صورتك ، وأطالع طلعتك ، وأمثل لها مثالى لتراه ، فأخبرها بكنه حالى ومعناه ، لترقى لازالة ما أزله الدهر الى ، وتلتطف لإمطة ما أماطه على ، وأشكو بعض ما نابى من نرائبه ، وأطلقنى من أشراكه وحبائله^(١) .

٨ — رأمثل حاتين الرسالتين مما يكثرو وجوده فى ثل القرن الرابع ، وهو فن وسط بين العزل والاخوانيات . وهناك نماذج عديدة من الغزل الصريح ، كالذى تخيره الثعالبي مما جاء فى رسائل معاصريه وصفا لمحاسن النساء ومحاسن الغلمان . والى القارئ شواهد تعين منحهم فى هذا الباب :

— هى روضة الحسن ، وضرة الشمس ، وبدر الأرض .

— هى من وجهها فى صباح شامس ، ومن شعرها فى ليل دامس ، كأنها فلقسة قمر على برج فضة ، بدر آلم يضي تحت نقابها ، وغصن البان يهتر تحت ثيابها .

— ثغرها يجمع الضريب والضرب ، كأنه ثل الدر .

— قد أنبت صدرها ثمر الشباب .

— خرطت لها يد الشباب حقين من عاج .

— كأنها البدر قرط بالثريا ، ونيط بها عقد من الجوزاء .

- أعلاها كالغصن ميال، وأسفلها كالدعص منهال .
- لها عنق كالبريق اللجين، وسرة كمدهن العاج .
- نطاقها مجذب، وإزارها مخضب .
- مطلع الشمس من وجهها، ومنبت الدر من فمها، وملقط الورد من خدها، ومنبع السحر من طرفها، ومبادئ الليل من شعرها، ومغرس الغصن من قدها، ومهيل الرمل من ردفها .
- شادن فاتر طرفه، ساحر لفظه .
- غلام تأخذه العين، ويقبله القلب، وترتاح إليه الروح .
- تكاد القلوب تأكله، والعيون تشربه .
- جرى ماء الشباب في عوده فتمايل كالغصن، وأستوفى ماء الحسن، ولبس ديباجة الملاحة .
- كأن البدر قد ركب على أزراره، لا يشبع منه الناظر، ولا يروى منه الخاطر .
- شادن منتقب بالدر، ومكتحل بالسحر .
- ما هو إلا نزهة الأبصار، ومخجل الأفتار، وبدعة الأمصار .
- غمزات طرفه، تخبر عن ظرفه، ومنطقته تنطق عن وصفه .
- تحال الشمس تبرعت غمرته، والليل ناسب أصداعه وطرته .
- الحسن ما فوق أزراره، والطيب ما تحت إزاره .
- شادن يضحك عن الأخوان، ويتنفس عن الريحان .
- له عينان حشو أجفانهما السحر، كأنه قد أعار الظبي جسده، والغصن قده، والراح ريحه، والورد خده .
- الشكل في حركاته، وجميع الحسن بعض صفاته .
- قد ملك أزيمة القلوب، وأظهر حجة الذنوب، كأنما وسمه الجمال بنهايته، ولحظه الفلك بعنانيته، فصاغه من ليله ونهاره، وحلاه بنجومه وأقماره، ونقشه ببدايع آثاره، ورمقه بنواظر سعوده، وجعله بالكمال أحد جنوده .

- قد صبغ الحياء غلالة وجهه ، ونشر لؤلؤ العرق عن ورد خده .
 — له طرزة كالغسق ، على غرة كالفلق .
 — جاءنا في غلالة تتم على ما يستره ، وتحنو مع رقبتها على ما يظهره .
 — وجهه بماء الحسن منسول ، وطرف بمرود السحر مكحول .
 — السحر في الحاظه ، والشهد في ألفاظه ، كأنه خاصم الولدان ، ففارق الجنان .
 — اختلس قامة الغصن ، ووشح بمطارف الحسن ، وحكى الروض غب المزن .
 — اللجنة مجتناة من قربه ، وماء الجمال يترقق في خده ، ومخاسن الربيع بين سحره ونحره .
 — ماهو إلا خال في خد الظرف ، وطراز على علم الحسن ، ووردة في غصن الدهر ، ونقش على خاتم الملك ، وشمس في فلك اللطف ^(١) .

٩ — وأوضح ما يكون النسيب المشور إذا اتصل بأهل الفنون ، كقول أحد الكتاب في وصف جارية كاتبة :

”كأن خطها أشكال صورتها ، وكأن مدادها سواد شعرها ، وكأن قرطاسها أديم وجهها ، وكأن قلمها بعض أناملها ، وكأن بناتها سحر مقامها ، وكأن سكينها غنج لحظها ، وكأن مقطها قلب عاشقها“ ^(٢) .

١٠ — هذا ، ولعل القارئ لاحظ أن أكثر ما مرّ به في هذا الفصل يرجع الى غزل المذكر ، وهو كذلك ، فقد تحول النسيب في العصر العباسي الى هذا الفن ، وقل التشبيب بالنساء أو كاد ، وخفّ خطاب المذكر على ألسن الشعراء ، حتى رأينا من يصف محبوبه ، وهو يعنى محبوبته ، كأن خطاب المذكر أخف في اللغة وأسهل في توجيه الضمائر والإشارات أو كأنه متابعة لما يقع من هذا النوع في اللغة الفارسية .

(١) راجع زهر الآداب ج ٣ ص ١٤٧ — ١٤٩ وسحر البلاغة ص ٢٩

(٢) زهر الآداب ج ٣ ص ٩٣

وقد وضع الراغب الأصفهاني في محاضراته هذا العنوان :^(١)

”الاستحياء من المحبوب بظهر الغيب لذكره“

ثم جاء بشواهد من شعر جميل، وأشجع، ومجنون ليلى، وكلها في المحبوبة لا في المحبوب.^(٢)

ولنذكر أن غزل المذكر في النثر نوع من الثورة على التقاليد الأدبية، فإن أبا هلال يحدثنا أن صاحب الرياسة لو خطب بذكر عشيق له ووصف وجده به وحنينه إليه وشهرته في حبه وبكاه من أجله لآسئجن منه ذلك، ولو قال في ذلك شعرا لكان حسنا. فكأن غزل المذكر في الشعر مستحسن مقبول، ولكنه في النثر مستهجن مردود. فكيف يتفق هذا مع ما رأيناه من الغزل المنشور في رسائل ابن العميد؟ الجواب سهل، وهو أن أبا هلال يقول: ”أو خطب“ ولم يقل ”لو كتب“ ومن الواضح أن من يليق خطبة في الحنين إلى معشوق بعد سخيفا، ولا كذلك من يحن إلى محبوبه بأوتار القصيدة.

ولا ينس القارئ أن موقفنا دائما موقف المؤرخ، وليس في مقدورنا أن نحكم ذوق اليوم، ذوق القرن الرابع عشر، في ذوق القرن الرابع، فكتاب عصرنا لا يتغزلون بالنثر، ومنهم

(١) ص ٢٥ ج ٢ (٢) وكتاب العصر الحاضر، على عكس ذلك، يهزون من خطاب المذكر في الغزل، ويحذفون الكلام عن مواضع أحيانا: فقد كتب الدكتور طه حسين فصلا عن شعر الأستاذ عباس العقاد تعرض فيه لتحليل إحدى مقطوعاته فقال: «أحسن العقاد وصف صاحبه» مع أن العقاد كان يصف صاحبه لا صاحبه. وكتب الأستاذ الشيخ عبد الله عفيفي فصولا عن شعراء مصر فكان يتفق له كثيرا أن يقول: «وقال في وصف محبوبته» على حين يتحدث الشاعر عن محبوبه لا محبوبته. وهذا وذاك نوع من التحمل المقبول. والذي يهمنا هو تقييد هذه الظواهر الأدبية لدلائلها على تطوّر التعابير وفقا لتطوّر الأذواق.

وما يحسن ذكره بهذه المناسبة أن المستشرقين الذين اهتموا بترجمة بعض القصائد الفارسية والعربية إلى الفرنسية يقولون الخطاب من المذكر إلى المؤنث وفقا لتقاليدهم الأدبية فإن الكلام عن المعشوق بالتذكير غير مقبول في لغة الفرنسيين، وقد اتفق لي وأنا أكتب هذا الكتاب بالفرنسية أن أحارص ذلك الدوق فقهرت بعض الضمائر ونقلتها من المذكر إلى المؤنث وفقا للتقاليد الفرنسية. والعرف يطغى أحيانا بأخذ قوة القانون.

(٣) الصناعتين ص ١٠٤

من يؤن عواطفه في شعده وقد تنبذ العصر 'خضر فيخاطب' الموث وهو يرده المذكرة،
 كما كان يتفق لبعض القدماء أن يخاطب المذكرة وهو يرده الموث . ومؤرخ الأدب تفرض
 عليه امانة العلمية أن يصور الأدب كما كان، لا كما توجب تنالده عصره أن يكون .

ومما سلف يتبين أن الأستاذ مصطفى صادق الرافعي أخطأ حين قرر في مقدمته كتابه
 (أوراق ابود) أن العرب لم تؤثر عنهم رسائل الحب . تصحح له دعوى أنتقد به لسبق إلى
 هذا الفن أجيال ، وهو يتفق عند ما كتب في 'شوق' إلى المحبوبة ، وذلك خطأ من التوجيه
 التاريخية ، فن أقطاب الفن الفني وجهوا غرضهم إلى المحبوب . والأستاذ الرافعي أن يطعن
 في هذا باسم الأخلاق ، أما نحن فنؤرخ الأدب في حيدة مصقفة ، ونسأله أين ساره والأدب
 لا يشرق بين 'خير' و'شر' ولا يميز بين الجدة والمجون .

٦ - الاخوانيات

١ - هذا الفن لا يحتاج الى تمهيد مطول في بيان أطواره النثرية ، كما صنعنا في النسيب ، فانه فن قديم في اللغة العربية ، وجد في النثر كما وجد في الشعر ، غير أنه في النثر يسمى العتاب .

ومن المؤلفين من يطلق الاخوانيات والعتاب ، بدون تمييز ، على ما يقال شعرا أو نثرا في مناجاة الأصدقاء .

وقدم هذا الفن في اللغة العربية لا يمنع أنه صار في القرن الرابع فنا قويا ينجل إلى القارىء أنه فن جديد ، لكثرة ما جد فيه من الصور والتعابير . وهو في جوهره قريب من الغزل لا يفرق بينهما الا اختلاف ما يردان عنه من أحوال النفس . وقد أفصح عن ذلك التوحيدى إذ قال :

«الصدقة أذهب في مسالك العقل ، وأدخل في باب المروءة ، وأبعد من نوازي الشهوة ، وأزعه عن آثار الطبيعة ، ... فأما العلاقة فهي من قبل العشق والمحبة والكلف والشغف والهوى والصبابة... الخ»^(١) .

٢ - وقد بلغ من ذيوع هذا الفن في القرن الرابع أن عقد له الثعالبي فصولا في سحر البلاغة جمع فيها ما تخيره من عبارات الكتاب ، كما آهت في يتيمة الدهر بجمع الفقرات الخاصة بالاخوانيات ، وإلى القارىء شذرات من تلك التعابير الإخوانية :

— مودة سكنت الصدر، وحلت سواد القلب .

— ودّ سليم الصفحة ، أملتس الجلدة ، مشرق السحنة ، واضح الجهة .

— مودة أدين بها عن خالصة النفس ، وأودعها واسطة القلب ، وأجمع عليها نواحي الصدر ، وأحرسها من لواحق الدهر .

— قد آتخذنا المودة بيننا ديناً وخليقة ، ورأيناها بين الناس مجازاً فأعدناها حقيقة .

— لا أحول عن عهدك وإن حالت النجوم عن مآزها ، ولا أزول عن ودك وإن زالت الجبال عن مقارها .

— عهدك سبيل فكري ، وودك سبيل ذكري .

— صدرى وءاء ودك ، ولسانى ناشر فضلك ، وضميرى وقف على عهدك .

— الحال بيننا أربت على المودة والحرمة ، وأرمت على المشاركة والخلقة ، وعدت في شواجر^(١)

الرحم والخدمة . ومنجت الدم بالدم والمهجة بالمهجة .

— محبة لا تتميز معها الأرواح ، انما ميزت الأشباح ، ومخالصة لا تتباين بها النفوس والمهج ،

وإن تباينت الأشتاس والصور .

— نحن كالنفس الواحدة : لا تجزؤ ولا أنقسام ، ولا تميز ولا أنقسام .

— لا أعظم كحن مودته حقاً ، ولا أرى بين النفسين فكيف بين المألين فرقا .

— أنت جاري منى مجرى أبعاض جسمى ، وأعشار قلبي ، وأنت جزء من نفسى ، وناظم

شمل أنسى .

— أنت منى كالعين الباطرة التى تصان عما يقذمها ، واليد الباطشة التى تحفظ مما يدويها .

— هو شقيق روحه ، وعديل حياته ، وشريك دولته ، وقسيم نعمته .

— ما زال مستودع سرى وجهرى ، ومشتكى بئى وخرنى .

— هو منى بمنزلة الولد ، والعضو من الجسد .

— العشرة رضاء تثبت حرمة ، والمودة لبان تانم ذمته .

— قد تقلبنا فى أعطاف العيش ، بين الوقار والطيش .

- إخوان تطابقوا فى الآراء ، وتآلفوا فى الأهواء ، وتماحلوا فى الطعام ، وتراضعوا بالمدام .
- أنا أتهم عليك عيى ، وإن كنت لا أتهم قلبى ، وأرضى لمودتك نيتى ، وإن كنت لا أرضى لها طاقى .
- لا مرحبا بعيش أتفرد به عنك ، ويوم لا أكتحل فيه بك .
- وددت أن أضرب بحضرتك أطناب عمرى ، وأنفق على خدمتك أيام دهرى .
- لا أزال أحن إليك ، وأحنو عليك . ياليت قلبى يتراءى لك فتقرأ فيه سطور ودى ، وتقف منها على رأى فيك !
- إني لأسف على كل يوم فارغ منك ، وكل لحظة لا تؤنسها برؤيتك .
- أنت من لا يسافرودى إلا إليه ، ولا يفرغ طير محبتي إلا عليه .
- قد ملت إليك فما أعتدل ، ونزلت بك فما أرتحل ، ووقفت عليك فما أنتقل .
- أنا أتصبح باسمك ، وأتفاءل بذكرك ، وأحلم بوجهك ، وأحتاب ضرع الشعر بذكرك .
- ما فى نفسى بقعة أعمر من محلك ، وأنضر من مسكك ، ولا فى قلبى مكان إلا موثى بذكرك ، مطرز بأسمك .
- عهدى لك أكرم العهود ، ووفائى لك وفاء العرق للعود .
- شوقى إليك زادى فى سفرى ، وعتادى فى حضرى .
- شوقى لو خوف المجرمون بحره ، وتوعد المشركون بحره ، لما عُد صنم ، ولا نقلت فى الضلال قدم .
- فرحة الأديب بالأديب ، كفرحة المحب بالمحبيب ، والعليل بالطبيب .
- حالى بعدك حال عود ذوى بعد آرتوائه ، ونجم هوى بعد اعتلائه .
- ودعت بوداعك العافية ، وفارقت مع فراقك العيشة الراضية .
- يا أسفى على غفلات العيش ، ولحظات الأنس ، إذ ظهائنا أسحار ، وليالينا نهار ، وشهورنا أيام ، وسنونا قصار .

— سقى الله أياما لو كان دهرى عقدا كانت واسطته ، أو كان عمري جيدا كانت قلالته .

— أيام حسنت فكأنها أعراس ، وقصرت فكأنها أنفاس .

— سلام كأنفاس الأحباب ، وأيام الشباب .

— صرت عندك من محاسن النسيان صورته من صدرك ، وأسمه من صحيفة حفظك .

— أنت سحى بمالك على من يطالك ، بخيل بكتابك على من يكتبك ، تتوسع في ألوف ، وتضيق في حروف^(١) .

٣ — وهذه فقرات قليلة تخيرناها مما تخير الثعالبي لأقطاب عصره ، ويجب أن نشير الى أن هذه الثروة الأدبية ليست ملكا خالصا لكتاب ذلك العهد ، فبعضها أتت من ألفاظ الشعراء ، فقول أحد أولئك الكتاب^(٢) :

” في الأرض مجال إن ضاقت ظلالك ، وفي الناس واصل إن رثت جبالك “

مأخوذ من قول معن بن أوس :

وفي الناس إن رثت جبالك واصل وفي الأرض عن دار القلي متحول

ولا يقدح في هذا المأخذ أن يحدثنا الثعالبي في مقدمة سحر البلاغة أنه حل بعضه من نظم أمراء الشعر في زمانه ، فإن ألفاظ الشعراء تواجه القارئ في أكثر ما ترك كتاب القرن الرابع ، وعمل الثعالبي نفسه شاهد على ذلك .

٤ — وأفضل من كتب في الاخوانيات أبو حيان التوحيدي ، وكتابته عن (الصدقة والصديق) من أنفس ذخائر اللغة العربية ، وقد تكلمنا عنه في الجزء الثاني من هذا الكتاب^(١) وتعجبنا المحاورات التي أنشأها في تحليل معاني الصدقات والعلاقات والمودات . وأسمع كيف يقول :

”قلت للهائم أبى على : من تحب أن يكون صديقك ؟ قال : من يطعننى اذا جعت ، ويكسونى اذا عريت ، ويحملنى اذا كللت ، ويفرلى اذا زلت . فقال له على بن الحسين العلوى : أنت انما تريد انسانا يكفيك مؤنتك ، ويكفلك فى حالك ، كأنك تمنيت ويكلا فسميته صديقا . فما أحرار جوابا .

”وقلت للبنوى — ولقيته بالدسكرة سنة خمس وستين — من تحب أن يكون صديقك ؟ قال : من يقبلنى اذا عثرت ، ويقومنى اذا أزوررت ، ويهدينى اذا ضللت ، ويصبر علىّ اذا مللت ، ويكفينى ما لا أعلم وما علمت .

”وسمعت أبا عامر النجدي يقول : الصديق من صدقك عن نفسه لتكون على نور من أمرك ، ويصدقك أيضا عنك لتكون على مثله ، لأنكما تقسمان أحوالكما بالأخذ والعطاء ، فى السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، فليس لكما فرحة ولا ترحة إلا وأنتما تحتاجان فيهما الى الصديق والانكاش والمساعدة على آجتلات الحظ فى طلب المعاش^(١)“ .

ه — ويمتاز التوحيدى بتاريخ أكثر ما ينقل من الإخوانيات ، فهو بهذا أفضل من الثعالبي الذى يهمل التاريخ حتى حين يترجم للشعراء والكاتب ، من ذلك ما حدثنا أنه لما استوزر أبو محمد المهلبى سنة أربعين بعد وفاة أبى جعفر الصيمرى كتب الى أبى الفضل العباس بن الحسين وكان بينهما تواصل :

”بسم الله الرحمن الرحيم .

إنى — حفظك الله وحفظنى لك ، وأمتعك بى وأمتعنى بك — قد بلوتك طول أيام أبى جعفر ، قدس الله روحه ، فوجدتك ذا شهامة فيما يناط بك ، حسن الكفاية فيما يوكل اليك ، كتوما للسرا اذا استُحفظته ، حسن المساعدة فيما يجمل بك الوفاق عليه . وقد حدانى هذا كله على آجتبائك وتقريبك ، وإدنائك وتقديمتك . وغالب ظنى أنك تعينى على ذلك بيمينون نقيبتك ، ومأمون ضربيتك . وجعلت دعامة هذا كله أنى أجريك مجرى الصديق

الذى يغاوض في الخير والشر، ويشارك في الغث والسمين، ويستنام اليه في الشهادة والغيب .
 ولى معك عيان إحداهما مغضوبة عن كل ما ساء في منك، والأخرى مرفوعة الى كل ما سرى
 فيك، فان كنت تجد في نفسك على قولى هذا شاهدا صدوقا، وأمارا نطوقا، فعرفنى لأعلم أن
 فراستى لم تغفل، وحدى عن طريق الصواب لم يعل . والحالة التى قد جددها الله لى هى
 محروسة لك، ومفرغة عليك، ومستقلة بك، فأشركنى فيها بخالصة الوفاء، أو تفرد بها إن
 شئت بحقيقة الصفاء . فلك الأمانة من حيلولة الاعتقاد، والسكون الى عفو الاجتهاد .
 وثق بأن الذى خطبته منك، إنما أريده لك، فلا يقعن في وساوس صدرك أن لكاشح لنا
 فيما نحن عليه طريقا لقص، أو لحب لنا فيه بابا الى الزيادة . وآكتف بهذا القدر الذى
 دللتك عليه، وأستقبل أمرى وأحرك بالذى أرشدتك اليه . وإياك أن تستشير فيه غير
 نفسك فانك بعرض حسد يكون عقالا لحظك . والله يهديك للحسن، ويقينى فيك غوائل
 العيون المرضى . والسلام^(١) .

وهذا كلام أفصح من أن يحتاج الى تعليق، واليك ما هو أحلى منه وأعذب :

”قلت لأبن الأبهري : من الصديق ؟ قال : من سلم سره لك، وزين ظاهره بك،
 وبذل ذات يده عند حاجتك، وعف عن ذات يدك عند حاجته، يراك منصفا وإن كنت
 حائرا، ومفضلا وإن كنت ممانعا، رضاه منوط برضاك، وهواه محوط بهواك، إن ضللت
 هداك، وإن ظلمت أرواك، وإن عجزت آداك . يبين عنك بالجسم والرسم، ويشاركك
 في القسم والوسم“ .

”قلت : أما الوصف فحسن، وأما الموصوف فعزيز“ .

قال :

”إنما عزّ هذا في زمانك، حين خبثت الأعراق، وفسدت الأخلاق، وأستعمل النفاق
 في الوفاق، وخيف المللك في الفراق . والله لقد شاهدت لتسيخنا آبن طاهر أصدقاء ينطوون

له على مودة أذكى من الورد والعنبر ، اذا لحظهم بطرفه تهالوا ، واذا ناقلهم بلفظه تدلوا ، واذا تحكّم عليهم تعجلوا ، واذا أمسك عنهم تولوا وخولوا ، وكانوا يجدون به ما لا يجدون بأهلهم وأولادهم . رحمة الله عليهم ! فلقد كانوا زينة الأرض ، فى كل حال من الشدة والخفض ، وإنى لأذكركم فأجد فى روحى روحا من حديثهم^(١) .

والكلام فى إخوانيات التوحيدى يطول اذا شئنا ، فلنكتف بهذه الكلمات الطيبات .

٦ — ومن الذين أكثروا من الإخوانيات بديع الزمان الهمداني ، وكلامه فى ذلك

موصول بباب العتاب . كقوله من رسالة ابتدأها بهجاء خصومه الواشين :

”أنا أطال الله بقاء الشيخ الإمام بصير بأبناء الذنوب ، وأولاد الدروب ، أعرفهم بشامة ، وأثبتهم بعلامة ، والعلامة بنى وبينهم أن يفسدوا الصنيع على صانعهم ، ويحرفوا الكلم عن مواضعه ، ويرموا فى الحكاية ، سهم الشكاية ، ويحيلوا فى الشكاية ، قدح النكاية ، ثم لا يرون النكاية ، إلا السعاية ، وإن أعوزهم الصدق مالوا الى الكذب ، وإن حلم لهم الجسد عرضوا باللعب . ومن علاماتهم ، قبح مقاماتهم ، وإيراد ظلاماتهم ، مورد النصيحة لكبرائهم . ومن آياتهم كثرة جنائياتهم على الفضلاء ، وشدة حقنهم على من لا يخطرهم بباله ، ولا يحبطهم فى حباله ... والذى فاوضنى التاضى فى معناه ، جلى فى بابه ما حكا ، يجمع هذه الخصال وقيادة ، وينظم هذه الأوصاف وزيادة . فلم يبعد الشيخ عن مثله أن يكذب ؟ أظاهرة أصله ، أم نجابة نسله ، أم حصانة أهله ، أم رجاحة عقله ، أم ملاحه شكله ، أم غزارة فضله ؟ ! ولم يجوز على ما حكا ؟ ألم يؤونى طريدا ، ويلمنى حصيدا ، ويؤنسنى وحيدا ، ويصطنعنى مبديا ومعيدا ؟ وكان بقدرى أنه اذا رآنى أفعل شنيعا ، أو سمع أنى ألفظ بئرا ، لم يأل فى تحسين أمرى ، فعل الوالد بولده . ونظر المولى لصديعه أقرب“ .

”والآن ، إذ عاد الأمر الى العتاب ، فهلم الى الحساب ، إن كنت أخالت بطرف من طاعتى من جهة فقد نقصنى ما عودنى من وجوه : وذلك أنه كان لا يتجاسر أحد على أن يفرينى عنده ، فقد صار يفرينى ويبرئ جلد ، وكان يقوم قناتى ، فقد صار يحبط حسناتى ،

وكان يثمر مالى، فقد صار يبطل آمالى، وكان يحتشد لأمرى أحشاده لأمره، فقد نبذت وراء ظهره، وقد كان يحمل فصار يتحامل، وكان لا يضايقنى فى الألف والدنانير، فقد ضايقتنى فى الشعر، فى حمل بعير... الخ^(١) .

وله من رسالة ثانية :

”ليسوا سواء : فئة بالباب تسعد بالحضرة، وأخرى بالمغيب تكمد بالحسرة، والله ما للساعة من وليّ النعمة ثمن، ولا كالأعتياض من لقائه غبن وغبن، فليت كتاب الإذن شفى مما نجد، وليت هنذا أنجزتما ما تعد! معاذ الله أن أشتاق الى حضرة، لكنى أفتقر اليها أفتقار الجسد الى الحياة، والحوث الى العرات، وانما مثل العبد مع الأصحاب، مثل الأرض مع السحاب، أفيسمى التلحط شوقا، أم يكون الموت وجدا؟ انى عبد الشيخ وأسمى أحمد، وهذان المولد، وتنبأ بالمرور، ومضر المحتد^(٢) . وعبد بهذه الصفة غريب نادر، وللصدر والمملوك بغريب الأطلاق ولوع... الخ^(٣) .

٧ - وأبو نصر العتبي له رسائل جيدة فى الاخوانيات، نختار منها قوله فى الاستشارة :

”هذا يوم رقت علائل صحوه، وخنت شمائل جوه، وضحكت ثغور رياضه، وأطرد زرد الحسن فوق حياضه، وفاحت مجامر الأزهار، وانتثرت قلائد الأغصان عن فرائد الأنوار، وقام خطباء الأطيّار، فوق منابر الأشجار، ودارت أفلاك الأيدي بشمس الراح، فى بروج الأقداح، وقد سيدنا العقل فى مرجح المجون، وخلعنا العذار بأيدى الجنون . فمن طالعتنا بين هذه البساتين، وأنواع الرياحين، طالع فتيانا كالشياطين، ونصارى يوم الشعانين، فبحق الفتوة التى زان الله بها طبعك، والمرودة التى قصر عليها أصلك وفرعك، إلا تفضلت بالحضور، ونظمت لما بك عقد السرور^(٤) .

وقد ترق الرسائل الإخوانية حتى يعود وكأنها رسائل حب، كالذى آتفق لأبى الفضل الميكالى وأبى الفضل بن العميد، وقد أشرنا الى بعض ذلك فى ترجمة هذين الكاتبين فى الجزء الثانى فليرجع اليه القارئ هناك .

(١) رسائل بديع الزمان ص ١٠٧ و ١٠٨ (٢) فى هذا رد على من يظنون بديع الزمان فارسى الأصل .

(٣) ص ٨ و ٩ (٤) البيضة ج ٤ ص ٢٨٤

٧ - الوصف

١ - أظهر ميزة في ذلك العصر هي إجادة الوصف : فقد آهتُم كتابه آهتاما عظيما بوصف ما رآته أعينهم ، أو جرى في خواطرهم ، أو آرتابت فيه عقولهم . ولم يكن الوصف عندهم مما يأتي عفوا عند المناسبات الطارئة — كما كان الحال في أوائل العصر الاسلامي — لا ، بل تعمدوا استقصاء الموضوعات الوصفية : فأطالوا الحديث عن الأزهار والرياح والنبات ، والليل والنجوم ، والجداول والغدران ، والأنهار والبحار ، والبرك والأحواض^(١) ، والمنازل والقصور ، ومطارح القصف ، ومجالس الشراب ، والنساء والغلمان ، والجواري السود ، والقيان ، وآلات الطرب ، ومحاسن الشباب ، وأحوال المشيب ، والرعد والبرق ، والنسيم والريح ، والمطر والتلج ، والصحو والغيوم ، والبلاغة والشعر والنثر ، والخيل والسيوف ، والنار ، والأفاعي والثعابين ، والطيور والأطعمة ، والفواكه ، والسكاكين ، والكؤوس ، والخواتم ، والحلى والقلائد ، والمحابر والأقلام ، والسفن ، والدواب ، والجيوش والأساطيل ، وأيام الصيف والشتاء والربيع .

٢ - وأطنبوا في وصف المعاني الوجدانية — كما أطنبوا في وصف المراثيات — فتكلموا عن أهواء النفوس وزعاعاتها ، كوصف الحب والوجد ، والحقد والبغض ، والكرم والنبيل ، وعرضوا لما يقع لأهل المهن وللرؤساء من الهنات والعورات .

(١) البركة جمع بركة ، والبركة صارت كلمة مبتذلة ، ولكنها كانت طريفة ، ومعناها الخوض «القسفية» وكانت مما تزدان به صحنون القصور ، والصحن ابتذل أيضا ، ويمرون عنه بالقناء — بكسر القاء — وفي لغة التخاطب يقولون (الحوش) وهي لفظة عراقية كما في القاموس . وفي بركة قصر المتوكل يقول البحتري :

يا من رأى البركة الحساء وزيتها والآتات اذا لاحت . مانيتها

(٢) أكثر كتّاب القرن الرابع من وصف المحابر والأوراق والأقلام وذلك يدل على فهمهم لخطر هذه الأدوات وأثرها في نفسية الكتّاب . وقد فصلنا هذا الموضوع تفصيلا في البحث الذي نشرناه بالفرنسية عن فن الإنشاء ومذاهب الكتّاب في القرن الثالث . وقد طبع هذا البحث مع (الرسالة الغراء) .

كل ذلك بطريقة مقصودة تدل على أنه كان لهم برنامج خاص لم يعرفه أسلافهم . ولهذا المذهب عيوبه ومزاياه : فعييه أنه حملهم على التكلف والإسراف، ومزيتة أنه دفعهم الى تنظيم أفكارهم، وترتيب أغراضهم، فان القارئ يرى لهم قوة في تصوير المراتب والمعنويات لا يجدها إلا قليلا عند من سبقهم من الكتاب . وذلك بفضل هذا الاتجاه الذي جعل من عصرهم (مدرسة وصفية) لا نراها في عصر الخلفاء، ولا عهد بنى أمية، ولا أوائل أيام بنى العباس . ولا ننكر أن الكتاب السابقين أجادوا الوصف في كثير من الموضوعات، ولكننا نقرر أن كتاب القرن الرابع عمدوا الى كل ما يقع عليه الحس، أو يجري في الخاطر، أو ينقده العقل، فوصفوه وصفا مفصلا مقصودا بطريقة لم يفكر في مثلها المتقدمون .

٣ — ولقد مكنتنا الثعالبى في كتابه (سحر البلاغة) من تعابير كثيرة عن الأوصاف التى عنى بها كتاب ذلك العصر، نثبت شيئا منها فى هذا الفصل ليرى القارئ صدق ما نراه من قصد كتاب ذلك العهد الى إجادته الوصف .

من ذلك قولهم فى وصف الماء :

”ماء كالزجاج الأزرق — غدير كعين الشمس .

— ماء كاللسان الشمعة، فى صفاء الدمعة، يسبح فى الرضراض، سبح النضناض ،

— ماء أزرق كعين السَّنور، صاف كقضيب البلور .

— غدير ترقرت فيه دموع السحاب، وتواترت عليه أنفاس الرياح الغرائب ” .

وقولهم فى وصف النثر والنظم :

”نثر كثر الورد، ونظم كنظم العقد — نثر كالسحر أو أدق، ونظم كالماء أو أرق .

— رسالة كالروضة الأنيقة، وقصيدة كالخندرة الرشيقة .

— نثر كما تنفتح الزهر، ونظم كما تنفس السحر ” .

وقولهم فى وصف سكين :

”سكين كأن القدر سائقها، والأجل سابقها، مرهفة الصدر، مخطئة الخصر، يحول

عليها فرند العتق، ويموج فيها ماء الجوهر، كأن المنية تبرق من حدها، والأجل يلعب من

متنہا، رکت فى نصاب أبوس، كأن الحدق نفضت علیه صبغها، وحب القلوب كسته لباسها، أخذ لها حديدہا الناصع بحظ من الروم، وضرب لها نصابها الخالك بسهم من الزنج، فكأنها ليل من تحت نهار، أو مجمر أبدى سنا ناره، ذات غرار ماض، وذباب قاض .

— سكين أحن من التلاق، وأقطع من الفراق، تفعل فعل الأعداء، وتنفع نفع الأصدقاء^(١) .

٤ — وقد ظلت أمثال هذه التعابير الوصفية منبعاً يستقى منه الكتاب والشعراء الى العصر الحديث . والنقاد فى مصر يعجبون بقول حافظ ابراهيم فى وصف الصبياء :

خمرة قيل إنهم عسروها من حدود الملاح فى يوم عرس

وقد حسب الدكتور طه حسين أن هذا الخيال من مبتكرات حافظ وناله بشيء من الملام لأن عصير الحدود فى زعمه مما تعافه النفوس، فليقل اللوم إن شاء الى كتاب القرن الرابع : لأن هذا الخيال سرق من هناك^(٢) !

ويعجب النقاد كذلك بقول توفيق البكرى فى وصف النساء :

”صدور كالإغريض، أو صدور البزاة البيض“ .

وهى عبارة مأخوذة من قول الثعالبي فى وصف آثار السرى الرفاء :

”كأنها أطواق الحمام، وصدور البزاة البيض، وأجنحة الطواويس، وسوالف الغزلان،

ونهود العذارى الحسان، وغمرات الحدق الملاح“ .

وقول توفيق البكرى :

”فم كأنه أخوانة لم تصوح، ووردة لم تفتح، يضحك عن جمان، ويتنفس عن ريحان، وينطق عن ألحان، وخدود، كثار أخدود، أو تفاح، أو ماء وراح، أو الشفق فى الصباح“ .

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ١٤١ (٢) ورد هذا المعنى أيضاً فى شعراين خفاجة الأندلسى ورد

قبل ذلك فى شعرك الجنى .

مأخوذ أيضا من كتاب ذلك العهد .

وقوله في وصف كبير أحد الرؤساء :

” كأنه جاء برأس خاقان ، أو أدال دولة بنى مروان ، أو أن الايوان داره ، والهرمين آثاره ، وعصام بن شهر حاجبه ، وعمر بن بحر كاتبه ، والمجاج غلامه ، والحماسة كلامه “ .
مأخوذ من قول أحد كتاب القرن الرابع :

” قد أسكرته نمرة الكبر ، وأسغرفته لذة التيه ، كأن كسرى حامل عاشيته ، وقارون وكيل نفته ، وبلقيس إحدى داياته ، وكأن يوسف لم ينظر إلا بطلعه ، وداد لم ينطق إلا بنغمته ، ولقمان لم يتكلم إلا بحكمته ، والشمس لم تطلع إلا من جبينه ، والغمام لم يبد إلا من يمينه “ .

وكذلك يمكن رد أكثر التعابير الوصفية التي كان يغرم بها فريق من كتاب الصنعة في العصر الحاضر أمثال المبكى على أدبهم الرفيع : محمد المويلحي ومحمد السباعي ومحمد هلال .

٥ — وكان القرن الرابع يؤدي للقرون التي تليه ما أخذه عن القرون التي سبقت ، فقد كان كتابه مولعين بحل الشعر القديم : لا يرون معنى بديعا ولا خيالا طريفا إلا آقبسوه وأضافوه الى ثروتهم الثرية ، يشهد بذلك ما أشار اليه الثعالبي في مقدمة (سحر البلاغة) من أنه ضمن كتابه بعض ألفاظ الجاحظ وآبن المعتز ، وما نجده في مقامات بديع الزمان من حل بعض الأبيات الجاهلية . وكانوا كذلك يغيرون على شعراء عصرهم فيأخذون معانيهم الجيدة ، كما فعل صاحب بن عباد حين اغتصب بعض معاني المتنبي وأدخلها في رسائله ، وكذلك فعل الصابي والخوارزمي وابن العميد .

٦ — وقد أشاع كتاب القرن الرابع نظرية ” الفن للفن “ فقد عودوا القراء تذوق

الكتابة البليغة ، وحببوا إليهم الثر المصنوع ، فأصبح المتأدبون يتأملون مواقع الألفاظ ، وقرار التراكيب ، وصارت فنون البديع من تورية وجناس وطباق أصولا فنية يجد القارئ لذة ومتعة حين يراها وقعت موقعا حسنا ، وأصاب الغرض الذي وضعت له ولو كان غرضا لفظيا لا يتوقف عليه تمام المعنى المراد .

واذا كان كتاب العصر الحاضر لا يستطيعون أكثر آثار ذلك العصر، ويرون بلاغتها بلاغة لفظية، فلائهم أسرفوا فى مهاجمة النثر الفنى الذى غلبت عليه الصنعة، حتى صارت صدورهم تضيق كلما رأوا سجعاً أو جناساً أو طباقاً، أو أى محسن وقع عن قصد، مع أن المتأدب لا يقبل على آثار ذلك العصر إلا عجب لتلك القرائح القوية، وتلك الطباع السليمة، التى سمحت لأولئك الناس بالتمتع فى وصف ما شهدته أعينهم، وأحسسته أنفسهم، من غرائب العوالم المحسوسة والمعقولة، بطريقة فنية هى وحدها تطلب دقة فى الفهم، وقوة فى العقل، وسلامة فى الذوق.

٧ - ومن أظهر الدلائل على ميل كتاب ذلك العصر الى الإغراب فى الوصف ما جاء فى نعت البلاغة بصور مختلفة على السنة جماعة من أرباب الصناعات^(١) :

(١) لم نعرف واضع هذا الحديث، ولم يزد صاحب زهر الآداب على نسبه الى "بعض من ولد عقائل هذا المثور، وألف فواصل هذه الشذور" وقد رأيت صورة منه فى كتاب اسمه "الفرائد والقلائد" منسوب الى الثعالبي، ومن المحتمل أن يكون من وضعه، وكتاب (الفرائد والقلائد) طبع على هامش "نثر الظم وحل العقد" للثعالبي أيضاً - المطبعة الأدبية بالقاهرة سنة ١٣١٧ هجرية.

وملاحظة كلام أهل المهن والصناعات مما تنبه له الجاحظ قال : قلت للملاح لى - وذلك بعد العصر فى رمضان - أنظر، كم بين عين الشمس وبين موضع غروبها من الأرض ؟ قال : "أكثر من مردين ونصف" - والمردى عود يدفع به الملاح السفينة - وقال آخر : وقع علينا اللصوص، فأول رجل دخل علينا بالسفينة كان فى طول هذا المردى، وكانت نخذه أغلظ من هذا السكان، وأسود وجه صاحب السفينة حتى صار أشد سواداً من هذا القير . وأردت الصعود مرة فى بعض القناطر وشيخ ملاح جالس، وكان يوم مطر وزلق، فزلق حمارى فكاد يلقىني بحيني، لكنه تماسك فأقنى على بحره، فقال الشيخ الملاح : "لا إله إلا الله ! ما أحسن ما جلس على كونه ! " - والكوتل : مؤخر السفينة .

وفى دار الكتب المصرية رسالة مخطوطة (رقم ٨٢ م أدب) يتحدث فيها أربعة ونحسون رجلاً (فشرط كل منهم أنه لا يكلم رفيقه إلا بعبارة تناسب حرفته، وكلها فرغ من نثره أتبعه بيتين من شعره) وهى رسالة جاءت بعد القرن الرابع بزمان طويل وتظهر عليها النزعة المصرية فى الألفاظ والتعابير، وفيها أحياناً نزعة شامية .

ومن طريف ما فى هذه الرسالة ما جاء على لسان الجزار :

"ذبحتمونى ذبح، ونحرتمونى نحراً، انتو عنديكم معنى أحسن من خروف ! بالله استغنموا أيام البدارى قبل انسلاخها عنكم، وانت يا ساقى، يافك النعجة وكبش المراح، ما لى عنك مراح" .

قال الجوهري : أحسن الكلام نظاما ما ثقبته يد الفكرة ، ونظمته القنطرة ، ووصل
جواهر معانيه في سموط ألفاظه ، فأحتملته نخور الرواة .^(١)

وقال العطار : أطيّب الكلام ما عجن عنبر ألفاظه بمسك معانيه ، ففاح نسيم نسقه ،
وسطعت رائحة عبقه ، فتعلقت به الرواة ، وتعطرت به السراة .

وقال الصائغ : خير الكلام ما أحميته بكبر الفكر ، وسبكته بمشاعل النظر ، وخلصه
من خبث الإطناب ، فبرز بروز الإبريز ، في معنى وجيز .

وقال الصيرفي : خير الكلام ما تقدته يد البصيرة ، وجلته عين الروية ، ووزنته بمعيار
الفصاحة ، فلا نظريزيفه ، ولا يسماع يهرجه .

وقال الحنّاد : أحسن الكلام ما نصبت عليه منفخة القريحة ، وأشعلت عليه نار
البصيرة ، ثم أخرجته من خُم الإلغام ، ورققته بفطيس الإفهام .^(٢)

وقال النجار : خير الكلام ما أحكمت نجر معناه بقدم التقدير ، ونشرته بمشار التدبير ،
فصار بابا لبيت البيان ، وعارضة لسقف اللسان .

وقال النجاد : أحسن الكلام ما لطفت رفاف ألفاظه ، وحسنت مطارح معانيه ،
فتزهت في زرابي محاسنه عيون الناظرين ، وأصاغت لنفارق بهجته آذان السامعين .^(٣)

== وما جاء على لسان البرادعي :

”أنا معكم كل ساعة في مذلة ، وكل في برد عنكم مسألة ، أنا أخيش وأنت ، وغيري يبط ويركب ، فما أفج
حشوكلامكم ، قلع الله حرامكم ، وأنت يا ماق ما بتكرما ، اسقيا حتى تلجمنا :

عندت عليكم ما حييت تحلدي وقد ضاع عمرى فيكو وتصرما

وحل حرام الصبر مني ولم يزل في فيكو عن شرح حالى ملجا

والرسالة طويلة وفيها شواهد على البراعة في التكنة اللغوية .

(١) السموط جمع سمط بالكسر وهو الخيط الذي تنظم فيه القلادة . (٢) الإلغام : العجز عن

الإصباح . (٣) الفطيس ، على وزن سكيت ، المطرقة العظيمة . (٤) الزرابي جمع وهي

الأبسة أو كل ما بسط واتكئ عليه ، الواحد زربي بالكبر ، ويضم . والزرابي من البت ما اصفر أو احمر وفيه خضرة .

(٥) النفاق : الوسائد الصغيرة ، والمفرد تمرق ومفرقة بالثلاث .

وقال المسامح^(١) : أبين الكلام ما عقلت وذم ألفاظه ببكرة معانيه ، ثم أرسلته فى قلب^(٢) الفطن ، فتمتحت به سقاء يكشف الشبهات ، وأستنبطت به معنى يروى من ظمأ المشكلات .
وقال الخياط : البلاغة قميص : بجرأته^(٣) البيان ، وجييه المعرفة ، وكجاء الوجازة ، ودخاريصه^(٤) الإفهام ، ودروزه^(٥) الحلاوة ، ولايس جسده اللفظ ، وروحه المعنى .

وقال الصباغ : أحسن الكلام ما لم تنض بهجة بإيجازه ، ولم تكشف صبغة إعجازه ، وقد صقلته يد الروية من كمود الإشكال ، فراع كواعب الآداب ، وألف عذارى الألباب .
وقال الحائك : أحسن الكلام ما اتصلت ألفاظه بسدى معانيه ، فخرج مفوفا منيرا ، وموشى محبرا .

وقال البراز : أحسن الكلام ما صدق رقم ألفاظه ، وحسن نشر معانيه ، فلم يستعجم عنك نشر ، ولم يستبهم عليك طى .

وقال الرائض : خير الكلام ما لم يخرج عن حد التخليع^(٦) ، إلى منزلة التقريب^(٧) ، إلا بعد الرياضة ، وكان كالمهر الذى أطمع أول رياضته ، فى تمام ثقافته .

وقال الجمال : البليغ من أخذ بخطام كلامه ، فأناخه فى مبرك المعنى ، ثم جعل الاختصار له عقلا ، ولايجاز له مجالا ، فلم ينبد عن الآذان ، ولم يشذ عن الأذهان .

وقال المحدث : خير الكلام ما تكسرت أطرافه ، وتشتت أعطافه ، وكان لفظه حلة ، ومعتاه حلية .

(١) من متح الماء نزهه . (٢) الودم بالتحريك السيوربين آذان الدلو . (٣) القلب : البئر .
(٤) الجربان بتشديد الباء القميص ، اذا كثرت الجسم والراء ، فاذا ضممتها فهو الجيب ، كما فى القاموس ، وظاهر من نص هذا الحديث ابن جربان القميص شئ غير الجيب . (٥) الدخاريص طيات القميص . (٦) دروز الثوب طرائق الخيط فيه . ومنه — ولا مؤاخذه ! — قيل للقول بنات الدروز . وأولاد درزة : هم السفلة ، وهم أيضا الحاكة والخياطون . (٧) التخليع نوع من سير الفرس تتخلع فيه الأليان . (٨) التقريب سرب من الدر . أو حوأن يرفع الحصان يديه معا ويضعهما معا .

وقال النخار : أبلغ الكلام ما طبعته مراحل العلم ، وصفاه راووق الفهم ، وضمنه دنان الحكمة ، فتمتت في المقاصل عذوبته ، وفي الأفكار رفته ، وفي العقول حدته .

وقال الفتاح ^(١) : خير الكلام ما أزاحت ألفاظه غباوة الشك ، ودفعت رفته فظاظة الجهل ، فطاب حساء فطنته ، وعذب مص جرعته .

وقال الطبيب : خير الكلام ما اذا باشر دواء بيانه سقم الشبهة استطلقت طبيعة الغباوة فشفى من سوء التفهم ، وأورث صحة التوهم .

وقال الكحال : كما أن الرمد قذى الأبصار فكذا الشبهة قذى البصائر ، فاحل عين اللكنة بميل البلاغة ، وأجل رمص الغفلة بمرود اليقظة .

٨ — وقد يقال : إن هذا حديث يدل على ذوق واضعه : فلا يكون دليلاً على الاتجاهات الوصفية في عصره ، ونجيب بأننا نجد هذا الاتجاه في عدة مواطن من آثار ذلك العصر في الموضوع نفسه وهو وصف البلاغة . مثل :
”البليغ من يحنى من الألفاظ أنوارها ، ومن المعاني ثمارها“ .

— فلان يبعث بالكلام ، ويقوده بالين زمام ، حتى كأن الألفاظ تتحاسد في التسابق إلى خواطره ، والمعاني تتغاير في الانبثال على أنامله ^(٢) .

ونجد مثل هذا الاتجاه في الرسائل التي تبادلها كتاب ذلك العصر ، كقول أبي الفضل الميكالي مخاطب النعالي :

”وصل كتاب سيدى ومولاي أبدع الكتب هوادى وأعجازا ، وأبرعها بلاغة وأعجازا ،
تخسبت ألفاظه در السحاب ^(٤) ، أو أصفى قطرا وديمة ، ومعانيه در السحاب ^(٥) ، بل أوفى قدرا
وقيمة“ ^(٦) .

(١) امتناع : بائع الشراب . (٢) زهر الآداب ج ١ ص ١٥٤ (٣) الهوادى جمع هاد ، وهو الحق ، والأعجاز جمع عجز ، والمراد بالهوادى والأعجاز وصف الكتاب القوام والخواتم . (٤) الدرر الفتح هو فى الأصل اللبن . ومنه : نه درولاد : تمدح الأملى الذى نبت منه . (٥) السحاب ، على وزن كُتب : قلادة من قزقل . (٦) زهر الآداب ج ١ ص ١١٥

٩ - ولكن أليس لهذا الزخرف قيمة في فهم ذلك العصر؟

بلى . إنه يدلنا على أن أولئك الناس عرفوا لغتهم معرفة جيدة ، ووقفوا على أسرارها ، وطرائق تعبيرها ، وكان من همهم أن يرتبوا الألفاظ والمعاني والتعابير والأخيلة حتى أستطاع كاتبهم أن يحشر أرباب الصناعات في صعيد واحد ، ثم ينطقهم بأسرار البلاغة ، فيتحدث كل واحد على طريقته وبأسلوبه الذي يختاره في مقتر مهنته ، وموطن عمله . وما نحسب كتاب القرن الأول مثلاً كانوا يفكرون في جمع شتات اللغة لتصبح طوع أفكارهم وأفلامهم على هذا النحو الفضفاض ، وإنما كانوا يكتفون في الوصول إلى أغراضهم بالعبارة الواضحة الموجهة التي يفهمها خاصة الناس وعامتهم بلا عناء . أما كتاب هذا القرن فقد أصبحوا في حاجة إلى صفوة من المتأدين تقرأ لهم ، وتفهم عنهم ، وتنقل إلى الجماهير أسرار ما يكتبون ، لأن لغتهم أصبحت من القوة بحيث لا يفهمها الجمهور بلا دليل ، فليس كل قارئ ولا كل سامع بمستطيع أن يتذوق تشبيه الحظ الجميل بأزهار الربيع ، والألفاظ بقلائد النحور ، والمعاني بالآلئ ، ولا أن يدرك كيف نمتى كل جراحة أن تكون أذنا تلتقط درر الكلام وجواهره ، أو عينا تجتلي مطالعه ومناظره ، أو لسانا يدرس محاسنه ومفاحره .

إذن فالصنعة التي عرف بها كتاب القرن الرابع لها وجهان : وجهٌ جميل يدل على حذقهم وبراعتهم ، ووجه آخر يدل على بعدهم من غاية البيان وهي الوضوح ، فإن الإغراق في الصنعة باب من الغموض .

٨ - المبتذل والطريف في التعابير الأدبية

١ - يكتب هذا الفصل ردا على الأستاذ ديمومين الذي يرى أن التعابير الأدبية عند العرب أكثرها مبتذلات^(١) . ولنشر أولا إلى أنه يذكر كلمة « كليشية » وقد بحثنا فيما يقابل هذه الكلمة في العربية فرأينا كلمة "مبتذل" تؤدي معناها أفصح أداء . وهي كلمة استعملها علماء البلاغة حين قسموا التشبيه باعتبار الوجه إلى مبتذل وغريب ، وعرفوا المبتذل بأنه ما ينتقل فيه الذهن من المشبه إلى المشبه به من غير احتياج إلى شدة نظر لظهور وجهه ، وعرفوا الغريب بأنه ما احتاج في الانتقال من المشبه إلى المشبه به إلى فكر ودقة نظر لخفاء وجهه . وفي هذا التفسير بعد قليل بين كلمة مبتذل وكلمة كليشية ، لأن الكليشية هو الصورة التي تمنع لأقول وضعها جميلة ثم تسيئ بكرة الاستعمال ، فلنقرر إذن أن كلمة "مبتذل" كلمة اصطلاحية أردنا وضعها مقابل كلمة كليشية لأنها أصلح الألفاظ لأداء المعنى الذي نريده في وصف التمايز التي هجتها طول الاستعمال .

٢ - والحق أنه وجد في اللغة العربية - كسائر اللغات - مبتذلات . فقد يقع التعبير موقع القبول عند ظهوره ثم لا يزال الناس ياحون في استعماله حتى يسمج وييوخ . من ذلك "سُحَطُ النوى" و "شط المزار" وهي كلمات كثر ورودها في قصائد الشعراء ورسائل الكتاب حتى آبتذلت ، وكان من ذلك أن لا يهش لها الذوق في قول ابن زيدون :

سحطنا وما بالدار نأى ولا سُحَط وشط بمن نهوى المزار وما شطوا

(١) ارسلت الى المسيو ديمومين - وكنت في باريس وكان في هوتوتولوت - فصولا من رسالتي ، وارسل

الى كتابا في ثلاث صفحات عن ابحاثه ، وجاء في قوله عن التعابير في اللغة العربية :

La Littérature arabe est par essence une littérature de jolis clichés.

وقد رددت عليه في الأصل العربي ، وعدت الى الموضوع في هذه الطبعة بهذا التفصيل .

وكلمة "عَبْلُ الشوى" يمجدها القارئ فى أكثر ما جاء فى وصف الخيل بحيث تصح إفاضتها إلى المبتذلات . وعبرة "أنشبت المنية أظفارها" استجادها الناس فى قول الهدلى :
وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تميعة لا تنفع

ثم عادت مبتذلة بكثرة الاستعمال بحيث يتحاماها الشعراء والكتاب ، ومثلها عبارة "استشعر الندم" وعبرة "حذوك النعل بالنعل" مع أن العبارة الثانية كانت مستجادة جدا فى قول عمر بن أبى ربيعة :

قلما تلاقينا عرفت الذى بها كمثل الذى بى حذوك النعل بالنعل

وقد وقعت مرة على لسان خطيب من خطباء الثورة المصرية فقابله السامعون بالسخرية والصفير^(١) . وعبرة "بكرت تلومك" كثر ورودها فى الشعر الجاهلى والأموى حتى ابتذلت وتناساها الشعراء . وكلمة "نؤوم الضحى" كانت من أجل ما توصف به المرأة، وهى اليوم من سقط المتاع . وكان القدماء يستجيدون قول امرئ القيس :

وتعطو برخص غير شثن كأنه أساريع ظبي أو مساويك إسحل

والأساريع دواب ظهورها ملساء تكون فى الرمل أو فى الحشيش وتشبه بها أنامل الحسان وكان هذا التشبيه مستملا لأول ظهوره ثم أخذ يثقل بكثرة الاستعمال حتى كاد يضاف الى القبيح المردول فى قول أبى تمام :

بسطت اليك بنانة أسروعا تصف الفراق ومقالة ينبوعا

ومن المبتذلات أيضا قولهم "نسج على منواله" وقولهم "لا يفرق بين الغث والسمين" وهناك مبتذلات ماتت موتا لا نشور بعده كقولهم : "كثير الرماد" و "جبان الكلب" و "مهزول الفصيل" مع أنها كانت من أطيب الصفات فى شعر من قال :

وما يك فى من عيب فانى جبان الكلب مهزول الفصيل

(١) كان ذلك فى خطبة ألقاها الدكتور محبوب ثابت على قبر شهيد الوطنية محمد بك فريد .

٣ - على أن بعض التعابير قد تستعمل لسبب آخر غير كثرة الاستعمال ، وذلك حين يخرف التعبير عما كان يراد به بعض الانحراف ؛ فقد كان القدماء يستحسنون وصف المرأة بطيب الأنياب ، كالذى يقول :

وما أنشد الرعيان إلا تلاءً يواخمة الأنياب طيبة النشر

أو الذى يقول :

لئن كان يهدى برد أنيابها العلى لأفقر منى إننى لفقير

ولو أن أحد شعراء اليوم وصف فتاة يبرد الأنياب لعد من السخفاء ، لأن "الأنياب" أخذت معنى أخشن وأقرب إلى الوحشية . وكذلك لفظة "النسوان" كانت حلوة في قول بعض الشعراء :

فـنـوائـه ما أدرى أزيدت مـلـاحـةً وحسنا عن النسوان أم ليس لى عقل

ولكنهم اليوم في مصر كلمة "هجاء" ولا تؤدي في الذوق ما تؤديه كلمة "نساء" .

وكذلك وصف الدمع وتسيبه العين الباكية بالقربة المخروقة في قول ذى الرمة :

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كل مغرية سرب^(١)

وقوله من كلمة ثانية :

وما ستنا نرقاء واهية الكى سقى بهما ساق ولما تبالأ^(٢)

بأضيق من عينيك للدمع كلها تذكرت ربعا أو توهمت منزلا

ويحق بهذا قولهم : "نزل المطر كافواه القرب" فإنه أبـتـذل لأنصراف الأذهان عن تلك الصورة البدوية . وكان الشعراء في عصور كثيرة يشبهون مشية المرأة بالنسياب الحية كقول ابن أبي ربيعة :

خرجت تأطُر^(٣) في الثياب كأنها أيم يسيب على كتيب أهىلا

(١) الكى جمع كية بضم الكف وسكون الهمزة ، وهى من المرادة رقعة مستديرة تحوز عليها تحت العروة ، والمنزلة : المشققة . (٢) الشئ والشيء : القرية . (٣) تأطرت لحذاء : تمت وتمايلت .

ولكن هذا الخيال عاد مما تنبو عنه الأذواق لبعده ما بين مشية المرأة وأنسياب الحية ، وإن كنت أعجب كيف سرى هذا التشبيه حتى نراه عند الفرنسيين في شعر بودلير ، وأنا لا أعرف صلة بين المرأة والحية من جهة الحسن ، إلا أن يكون اتفاقهما في البغي مما يقرب بينهما في خيال الشعراء ! والمرأة والحية هما اللتان أخرجتا أبانا آدم من فراديس الجنان !

٤ — ولتقيد هنا أن المبتذلات أو الكليشيات تنتقل من عصر الى عصر ومن بيئة الى بيئة ثم تذوى وتموت ، ومن شواهداها في عصرنا ما كانت تختتم به أكثر المقالات في الصحف المصرية قبل سنين من مثل عبارة :

”ولله في خلقه شؤون“

وقد تنوسيت هذه العبارة منذ مدة بعد أن أملت القراء والكتاب . ومن طريف هذا النوع ما كان الدكتور طه حسين يبدأ به محاضراته في الجامعة المصرية من مثل عبارة ”قلنا في المحاضرة الماضية“ وقد آتفق له أن علا المنصة وتأهب للكلام فسمع بعض الطلبة يقول في همس : ”قلنا في المحاضرة الماضية“ فأبتسم وقال :

”سمعتم في الدرس الماضي“ .

وهو تخلص لطيف !

وهناك تعابير تحيا على السنة أصحابها فقط كقول المرحوم سعد باشا ”أنجلتم تواضعي“ وقوله ”في ميدان الضحايا متسع للجميع“ فان الكتاب أنصرفوا عن استغلال أمثال هذه التعابير لدلالاتها على صاحبها دلالة عنيفة قوية بحيث يشعر القارئ أنها لا تقع في الكلام إلا أنها وأختلاسا . وكذلك قوله ”إن الوطن غفور رحيم“ وهو تعبير قرآني نقله سعد باشا من الصيغة الدينية الى الصيغة الوطنية ، فأخذ في كلامه صورة حية ، ولكنه من التعابير التي تأبى الانقياد لكثير من الناس ، إلا أن يتفق للحاكين ما آتفق لسعد باشا من علو الكلمة ورهبة الجلال .

٥ — تنقسم المبتذلات الى أقسام : قسم مفهوم هجته كثرة الاستعمال وقد ذكرنا له عدة أمثلة . وقسم غير واضح لا يفهم إلا في غموض ، ولا يزال الناس يستعملونه بدون أن يتبينوا تماما وضع صورته وإن أدركوا معناه ، كقولهم ” جاءوا على بكرة أبيهم “ فانهم يفهمون المراد من هذا التعبير وإن كانوا لا يدركون صورته الأولى ، وقولهم ” رفع عقيرته وغنى “ وهى عبارة ماتت وحاول المبتذلون إحياءها فتابعه بعض الكتاب ، وإن كانوا لا يدركون الصورة الأصلية ؛ وقولهم ” شالت نعمته “ اذا مات ، وقولهم :

” الى حيث ألفت رحلها أم قشعم “ .

وهى عبارة لا تزال حية ، وإن كان الجمهور لا يدرك صورتها الأولى على الإطلاق . وقولهم ” سبق السيف العذل “ وهى كلمة لا تزال تجرى على ألسنتنا ، وإن كان الناس لا يلتفتون الى مورد هذا الأثر . وقولهم ” لأيا عرفت الدار “ وهى عبارة جاهلية تنوسيت طويلا ثم حاول المبتذلون إحياءها فلم تنهض إلا قليلا . وقولهم ” ينتجتون أثله ويصدعون مروته “ وهى جملة نستحيدها أحيانا وإن كان الجمهور لا يتمثل صورتها إلا بجهل شديد .

وهناك قسم ثالث من الكليشيات جهل أصله منذ زمن طويل فأنصرف عنه الكتاب والنسرا . كقولهم ” يا عيد مالك “ و ” يا هي مالك “ و ” يا شيء مالك “ وقولهم فى الإغراء ” كذبت كذا “ و ” كذبك العسل “ و ” كذب عليك الحج “ و ” كذبت عليكم أوعدونى “ وقولهم ” عمك فى الأرض “ و ” عمك شيئا “ وقولهم ” أعمد من سيد قتله قومه ؟ “ أى هل زاد؟ وقول ابن ميادة :

وأعمد من قوم كفاهم أخوه صدام الأعادى حين فُلت نيوها

ونسره الخليل فقال : ” معناه هل زدنا على أن كفيينا؟ “ وهذا لا يغنى شيئا فى توضيح ذلك التعبير . ومثل هذا قولهم ” بعين ما أرينك “ فى موضع ” عجل “ وقولهم ” لعا “ فى الدماء

(١) ذكره ابن فارس فى لم يستطع تفسيره العلماء . انظر الصحاح ص ٣٥ (٢) من قول الشاعر :

كذبت ليكم أوعدونى وعللوا بن الأرض والأقوام قردان موطبا

(٣) ارجع الى الصحاح ص : ٣٠ — ٣٧

للعائر، وهى جملة ماتت منذ أزمان وحاول شوقى إحياءها فى رواية مجنون ليلى ، وقولهم "مخزنيق لينباع" وهى عبارة تحماها المتكلمون منذ عصور طوال ، وحاول بعض الكتاب أن يمدح صدق باشا فوصفه بها فظنها الناس من الهجاء ، وما يدرى أحد أأصابوا أم كانوا من المخطئين ! وكان العرب يستهضون العائر بقولهم "دعدع وللع" فنهاهم النبي عن ذلك وأستحب لهم أن يقولوا "اللهم أرفع وآفغ" فما معنى دعدع وللع ؟ كانت هاتان الكلمتان مفهومتين بالطبع حتى صح النهى عنهما ثم أركبهما الموت فاندثر ما كان لهما من معنى ومدلول . وكذلك قول الشاعر :

وما كان على الجيء ولا الهيء أمتداحيكا

فما هو الجيء والهيء ؟ تلك مبتذلات أو كليشيات ضاعت معانيها فسيحب عليها الزمان أذيال العفاء .

٦ - وفى اللغة العربية تماير تفيض قوة وحياة ، ولكن الكتاب والشعراء ينصرفون عنها عامدين ، ومن ذلك عبارة "والذى نفسى بيده" وهو قسم ظريف أنفرد به الرسول عليه السلام ، وقد وقع منذ سنوات فى خطاب أذاعه الأستاذ على ماهر باشا وكان وزير المعارف ، فأبتسم الناس ، وقيل إنها عبارة نمتها الأستاذ عبد العزيز البشرى وكان الكاتب البرلمانى لوزارة المعارف حينذاك . ومن هذا الباب الأقسام القرآنية التى تقرن بحرف "لا" مثل "فلا أقسم بالشفق" و "فلا أقسم بمواقع النجوم" وهى أيمان لو عاد إليها المتأدبون لكانت ظريفة ، ولكن القرآن أنفرد بها وقصر جمالها على آياته البينات ، بحيث لو وقعت فى كلام غيره لشعر القارئ بغربتها عن مواطنها ، وبذلك قضى عليها أن تظل رهينة المصحف لا يعرفها الناس إلا فى الصلوات . وقد يكون من أسباب هجرها وتناسيها أنها كانت تشير إلى معان أو حوادث كانت معروفة لعرب الجاهلية فكانوا يجحدون فى تذوقها ما لا نجد بعد أن تطورت العقائد والأهواء والأذواق والميول ، فلسنا ندرك اليوم ما كان يدركه العرب من جلال هذا اليمين "والتين والزيتون وطور سينين" ولا نسمى هذه مبتذلات ولا كليشيات

لأن الناس آنصرفوا عن استعمالها كل الانصراف، وإنما نسميها الطوايع القرآنية، لأنها تجل فيه وحده، ولا تنقاد للكلام سواه بعد أن حفظت فيه ما كانت ترمى إليه من دقائق الأغراض.

٧ — لتترك المبتذلات التي ماتت، والتي يحاول بعض المعاصرين إحياءها في غير نفع، من مثل "يحرقون الأرم" وما أشبه ذلك من التعابير البالية، ولناخذ في ذكر نوع من الصور لا يبلى ولا يموت، لأن الضرورات اللغوية تفرض حياته على اختلاف الأزمان. والضرورات اللغوية هذه مشكلة إنسانية: لأن الناس لا يستطيعون في سبيل الفن أن يخلقوا في كل جيل ألغاز جديدة يتمتعون بها عن سبقهم في تلوين الخيال. ومن أجل ذلك نرى الشعراء والكتاب في جميع العصور يتلاقون عند تشبيه الخلد بالورد، والعين بالنبل، والثغر بالأخوان، والسن بالبرد، واللفظ بالسحر، والنفس بالريحان، والقصد بالغصن، والطرة بالغسق، والغزة بالفلق، والخل بالمسك، والشفة بالعقيق، والريق بالرحيق، وتشبيه العذار بطراز العنبر، والعنق بأبريق اللين، والسرة بمدخن العاج، والوجه بالصبح، والشعر بالليل، ووصف العيون بالدعج، والمباسم بالفنج، وزراهم كذلك يتلاقون عند الكلمات الواضحة الدلالة والتي أقرها العرف والذوق، مثل: أشمر الصبا، وسكر الخدائث، وشرح الشيبه، وريعان العمر، وعنفوان الشباب، وكبد السماء، وقرارة الماء، ومطلع الفلق، وجمع الغسق، وأضطراب النفس، وأنضطرام الصدر، وصروف الدهر، وغدرات الزمان. ونجدهم يتوافقون أيضا عند الصفات النازلة، كالعقاب الكاسر، والبرج الشاهق، والنجم الثاقب، والشعري العبور، والأسد المنصور، والجبل المنيع، والحصن الحصين، والصبح الشامس، والليل الدامس، والقلب الخافق، والماء الدافق، والهواء العليل، والنسيم البليل، والطرف الكحيل، والخذ الأسيل، والخصر النحيل، والقوام الأهيف، والطرف الأحور، والوعد الخلب، والزمن القلب، والرسم المدارس، والطلل الطامس، والغيم الجهام، والسيف الكهام، والبأس الشديد، والعذاب الأليم، والروض الضاحك، والسراب الخادع، والغصن الرطيب، والوادي

الخصيب ، والصخرة الصماء ، والدرة العصماء ، والحية الرقطاء ، والداء العضال ، والموت الزؤام ، والروضة الغناء ، والحنة الفيحاء .

ولو شئنا لمضينا في سرد ما تداوله الشعراء والكتاب من الأوصاف والتشبيهات ، بدون أن يجرؤ ناقد على أخذهم باعادة ما سبق اليه الأديباء الأقدمون لأنهم في الواقع ياجأون الى صفات وتشبيهات لا يُستغنى عنها إلا بخلق من اللغة جديد ، واللغات لا تتخلق في أعوام معدودة ، وإنما تنمو وتطور في أجيال طوال ، فليس من المعقول إذن أن نرفض تشبيه الخد بالورد مثلا بحجة أن هذا كلام معاد درجت عليه القرون . ولو نظرنا لرأينا النقاد في أكثر اللغات يحاكمون الكتاب والشعراء الى المصطلح عليه من الألفاظ والتعابير ، ويظهر ذلك واضحا عند نقادنا في القديم والحديث ، حين نراهم يقولون ”العرب لا تقول ذلك“ أو ”لا تعرف العرب ذلك“ وثلاثة أرباع ما كتب الباحثون في النقد والبيان يرجع في جملة الى المقابلة بين القوالب الجديدة والقوالب القديمة في الألفاظ والمعاني والتعابير والأساليب ، ومتى راعينا ذلك سهل علينا أن ندرك أن لوجه لاتهام الأدب العربي بأنه ركam من المبتذلات كما يظن المسيو ديموميين .

٨ — على أن الكليشيه بمعناه المفهوم عند النقاد الفرنسيين لا يوجد عند شعرائنا وكتابنا إلا قليلا ، ذلك بأن التعبير لا يسمى كليشيه عند الفرنسيين إلا حين يبتذل ويفقد الحياة مثل قولهم في المستثقل من الأشياء أو الأشخاص Embétant comme la pluie .

ونحن إذا رجعنا الى الصور الأدبية عند كبار الكتاب والشعراء من العرب وجدناها تتوثر من فيض القوة والحياة ، ونستطيع أن نقدم نماذج من الشعر والنثر ليس فيها تعبير مبتكر ، ولا يوجد فيها من الصفات والتشبيهات إلا ما ألفه الناس وتناولت عليه السنون ، ومع ذلك تبدو طريقة أخاذا وكأنها عذراء لم يمسهما كاتب ولا شاعر ولا خطيب ، وإنما كانت كذلك لأنها صدرت عن نفس حية مفعمة بالشعور والإحساس ، ومن ذا الذي ينكر أن الكلمة الواحدة قد ينطق بها رجلان فتقابل من أحدهما بالتبليد والجمود ، وتقابل من ثانيهما بالتأثر والقبول ، وكذلك الأغنية الواحدة يغنيها أثنان على أصولها الفنية بحيث لا تسقط منها

نبرة ولا يشد فيها صوت ، ومع ذلك يكون الفرق بين المعنيين بعيدا ، لأن أحدهما ينقل الصوت نقل احساكاة ، على حين يشعر ثانيهما بمعنى ما يغنيه ويساير صاحب الصوت فيما يعبر عنه من ألوان المشاعر والأحاسيس ، فلو كانت المعاني تبذل يجتهد التكرار لوجب أن تنصرف عن أشياء كثيرة عرفها الأولون ، فإن كميات الحب والعبادة والتقدير قد تكررت وتكررت في مئات الأجيال ، ومع ذلك يقول النخب لحبيته ” أحبك وأعبدك وأقدسك “ فتظهر هذه الجمل على طول العهد بها حارة قوية كأنها موجهة من أول آدم الى أول حواء ، وهذه الجمل بينهما قد يوجهها رجل الى امرأة فتلقاها في نحو ، لا لأنها حمل مبتذلة أضيفت الى الكليشيات ، ولكن لأنها صدرت عن قلب خامل ولسان كذوب !

فلنعول عليه إذن في التعابير الأدبية هو حياتها في أنفاس قائلها ، ولا عبرة بالتقدم والحدوث في هذا الباب ، وإن كان الأدباء يتفاضلون بما يتكرون من الصور والأخيلة ، كما يتفاضلون في المعاني والأساليب .

والى الفارئ قطعة من شعر آين هاني الأندلسي في وصف زهرة رمان قطفت قبل عقدتها :

وبنت أريك كالشباب النضر كأنها بين الغصون الخضر
جَنَانٌ بَزْ أَوْ جَنَانٌ صَقَر قَدْ خَلَقْتَهُ لِقَوَّةٍ بَوَكَّر^(١)
كَأَنَّهَا سَحَتْ دَمًا مِنْ نَحْرٍ أَوْ نَبَتَتْ فِي تَرَبَةٍ مِنْ جَمْرٍ
أَوْ سَقَيْتَ بِحَدُولٍ مِنْ نَحْرٍ لَوْ كَفَّ عَنْهَا الدَّهْرُ صَرَفَ الدَّهْرُ
جَاءَتْ كَمَثَلِ التَّهْدِ فَوْقَ الصَّدْرِ تَفَرَّتْ عَنْ مِثْلِ اللَّثَاثِ الْحَمْرِ
في مثل طعم الوصول بعد الهجر

فالتشبيهات والصناعات في هذه القطعة قديمة تداولها الكتاب والشعراء ، ولكن من الذي ينكر أن هذه القطعة من نوادر الشعر البليغ ؟ فإن سألت ما سر الحياة في هذه القطعة فاني أجيبك بأن سر حياتها هو الحياة في روح من نظم الوصف وهو متأثر بجمال الموصوف .

(١) المفرة : بالفتح ، هو العقاب ، بضم العين .

والى القارئ قطعة أخرى من شعر ابن المعتز فى ضاحية كانت ملعب صباه ثم غيرها الزمان :

لامثل منزلة الدويرة ^(١) منزلٌ	يادار جادك وابلٌ وسقاك
بؤسا لدهر غيرتك صروفه	لم يمح من قلبى الهوى ومحاك
لم يحل للعيتين بعدك منظر	دُمَّ المنازل كلهن سواك
أى المعاهد منك أندب طيبه	ممسك بالآصال أم مفداك
أم برد ظلك ذى الغصون وذى الجنى	أم أرضك الميشاء أم رياك
وكانما سعطت مجامر عنبر	أو فُتَّ فار المسك فوق ثراك
وكانما حصباء أرضك جوهر	وكان ماء الورد دمع نداك
وكان درعا مفرغا من فضه	ماء الغدير جرت عليه صباك

فأى جديد من التشبيهات والصفات فى هذه القطعة ؟ لا شيء ! ومع ذلك لا ينكر أحد أنها من الشعر المرقص المطرب الذى يندر أن تجود بمثله قرائح الشعراء ، فما هو السر فى هذه العذوبة التى تسكر أرواحنا كلها أصطبحنها أو آغبتنا بهذه القطعة الرائعة ؟

السر هو أن الشاعر ينطق عن نفسه فى قوة وحياة ، بحيث تبدو تلك التعابير على لسانه وكأنها من فيض روحه ومن صنع بيانه ، وكأن لم يسبقه إليها أحد من صاغة الكلام .

ولنقدّم الكلمة الآتية من نثر بديع الزمان :

”أنا وإن لم ألق تطاول الإخوان إلا بالتطول ، وتحامل الأحرار إلا بالتحمل ، أحاسب الشيخ أيدى الله على أخلاقه ضنا بما عقدت يدى عليه من الظن به ، والتقدير فى مذهبه ، ولولا ذلك لقلت فى الأرض مجالاً إن ضاقت ظلالك ، وفى الناس واصلٌ إن رثت حبالك ، فان أعارنى أذنا واعية ، ونفسا مراعية ، ونزوعا عن هذا الباب الذى يقرعه ، ونزولا عن الصعود الذى يفرعه ، فرشت لمودته خوان صدرى ، وعقدت عليه جوامع خصرى ، ومجامع عمرى ،

وإن ركب من تعالى غير مركبه، وذهب من تعالى في غير مذهبه، أقطعت خطه أخلاقه وأوليته جانب إعراضه، فاني وإن كنت في مقبل السن والعمر، قد حلت شطرى الدهر، وركبت ظهري البر والبحر، ولقيت وفدى الخير والشر، وصاحفت يدى النفع والضر، وضربت إبطنى العسر واليسر، وبلوت طعمى الحلو والمر، ورضعت ضرعى العرف والنكر، فما تكاد الأيام ترينى من أفعالها غريباً، وتسمعى من أحوالها عجيباً، ولقيت الأفراد، وطرحت الآحاد، فما رأيت أحداً إلا ملأت حافى سمعه وبصره، وشغلت حيزى فكره ونظره، فإلى صغرت هذا الصغر فى عينه، وما الذى أزرى بى عنده حتى أحتجب وقد قصدته، ولم أرضه وقد حضرته؟ أنا أحاشيه أن يجهل قدر الفضل، أو يحدد فضل العلم، ويمتطى ظهر التيه، على أهليده، وأسأله أن يختصنى من بينهم بفضل إعظام إن زلت بى مرة قدم فى قصده، وكأنى به غضب لهذه المخاطبة المجحفة، والرتبة المتحيفة، وهو فى جنب جفائه يسير.

وقد تخيراً هذه القطعة لكثرة ما ورد فيها من الصور والتعابير القديمة لندل القارئ على أن ذلك لم يمنع من ظهور شخصية بديع الزمان إذ كان يعاتب وهو مضطرم الصدر مهتاج الفؤاد. ولتقدم كلمة أخرى من نثر أبى الفضل بن العميد :

”وصل كتابك فصادفتى قريب العهد بانطلاق، من عنت الفراق، ووافقتى مستريح الأعضاء والجوانح من جوى الاستيقاظ، فإن الدهر جرى على حكمه المألوف فى تحويل الأحوال، ومضى على رسمه المعروف فى تبديل الأشكال، وأعتقتى من مخالطتك عتقا لا تستحق به ولاء، وأبرأنى من عهدك براءة لا تستوجب معها دركاً ولا استثناء، ونزع من عنق ربة الدل فى إختالك، بيدى جفائك، ورس على ما كان يضطرم فى ضميرى من نيران الشوق بالسلو، وشن على ما كان يلتهب فى صدرى من الوجد ماء اليأس، ومسح أعشار قلبى فلاءم قطورى بجمل الصبر، وشعب أفلاذ كبدى فلاحم صدوعها بحسن العزاء، وتغلغل فى مسالك أنفاسى فعرض عن التزاع اليك نزوعاً عنك، ومن الذهاب فيك رجوعاً دونك، وكشف عن عيني ضبابات ما ألقاه الهوى على بصرى، ورفع عنها غيايات ما سددله الشك دون نظرى، حتى حدر النفاذ

عن صفحات شريك، وسفر عن وجوه خليفتك، فلم أجد إلا منكرا، ولم ألق إلا مستكبرا، فوليت منها فرارا، وملئت رعبا، فاذهب فقد ألقيت جُلك على غاربك، ورددت اليك ذم عهدك“ .

وللقارئ أن يتأمل هذه القطعة فسيرى صورها جميعا منتبهة من غمر الشعر القديم بحيث لا يبقى لأبن العميد معنى واحد خلا من لباس معروف، ومع هذا فن ينكر أنها من طرائف النثر الجميل؟ إن الكاتب أفاض عليها من روحه كما تفيض الحسناء من سحر الملاحظة على ما تحمل من دماج وأساور وعقود .

٩ — ونستطيع أن نضرب المثل ببعض ما ظهر من أطايب الأدب الحديث ، فهناك كتاب صهاريج اللؤلؤ للسيد توفيق البكرى وهو كتاب نفيس لا يختلف فى استجادته اثنان ، ولا أقول لا ينتطح فيه عزان، فرارا من الكليشيه! وهذا الكتاب مع جودته قلما يقع فيه تشبيه إلا وهو مسروق من القدماء ، وخاصة رجال القرن الرابع، وما نظرت فيه إلا تذكر ما قاله أحد النقاد المتقدمين فى سعيد بن حميد :

” لو قيل لكلام سعيد وشعره ارجع الى أهلك لما بقى معه شيء ! “

ولكن هذا لا يمنع من أننا نقرأ نثر السيد توفيق البكرى مأخوذين بأبداعه وأفتنانه حتى لنحسب أنه صاحب ما يطالعنا به من الصور والتشابه، ولننظر كيف يقول فى شواطئ الآستانه :

”فاذا رأيت ثم حين دلوك الشمس ، وقد شعشع نورها كل بناء وغرس ، وقد عكس فى الماء، صور ما يحيط به من الأشياء، أبصرت فى الماء قبابا من ذهب، وأهلة من لهب، وكثباناً من زمرد ، وودياناً من زبرجد، وجبالاً وأيفاعا، وحصونا وقلاعاً ، وسقوفاً من جواهر، وعمداً من مرمر، وصرحاً من قوارير، وتمائيل وتصاوير، ودورا وحورا ، ونارا ونورا، وحللاً تطوى وتنشر، وسيوفا تغمد وتشهر، وأقماراً تصاع وتكسر، فكأنما تقرأ فى البرق قصيدة من شعر، وتتنظر فى البحر، فانوساً من سحر“ .

أفبعد هذا من المبتذلات ؟ هيهات هيهات !

١ - لقد آن أن نفهم أن الدأب على إحياء الصور القديمة يزيد اللغة قوة ورسوخا ويحببها الى أذواقنا وقلوبنا ، ألسنا نشعر أحيانا بالرغبة في وضع بعض الصور الفصيحة في صور عامية ؟ بلى ! وإن ذلك ليقع في كل يوم . فما هو سر ذلك ؟ لا شيء أكثر من أن التعابير العامية صقلتها الألسنة فأستطابتها الأذواق .

وقد تناقل الناس أن أما العلاء المعزى وضع كتابا في معارضة القرآن ، فقليل له :
إن كتابك بليد ، ولكن تنقصه حلاوة القرآن ! فأجاب حتى تصقله الألسن في المحاريب
أربعائة سنة وعد ذلك أنظروا كيف يكون !

وليس المهم هنا أن نعرض لهذا الرأي برفض أو قبول ، ولكن المهم أن نسجل أثر التريديد والتقليب في حياة البلاغات ، فإن البلاغة كالموسيقا تبقى صورها في النفس ونفقا لما يقدر لها من الذبوع . والقلب أكثر ميلا للصوت الذي يداعب أذنيه في الصباح والمساء ، وكذلك كانت الموسيقى القومية ألصق بالقلوب ، وأعاق بالنفوس ، وإن كانت في تأليفها وسطا لا تمسوا الى الخاف بكثير من مستجاد الأصوات . وهذا هو أيضا السرفيا يُعرف من استهضاء الشعر على الترجمة في كثير من الأحيان ، لأن المعنى قد يتصل بالفاظه اتصال الروح بما في الجسم الذي يلبسه من أعصاب وحواس . فالألغة لها أهمية عظيمة في أستجدادة ما نقرأ وما نسمع ، واليها يرجع الفضل في أستجسان ما ترصع به البلاغات من الحكم والأشعار والأمثال . ولو دققنا النظر في الصلوات النفسية لوجدنا لتداعى المعانى دحلا في هذه المشكلة البيانية ، لأن الصور المختلفة الألوان تهىء الذهن والذوق تهية خاصة لأستقبال ما يتقدم به الشعراء والكتاب والخطباء من فنون البيان .

وليس من التحامل في شيء أن نحكم أن المستشرقين أقل منا إدرا كالم في التعابير الأدبية من قوى الحياة ، لأنهم يرون من التعابير شيئا وأعراضها ولا يدركوا ما توحى الى النفوس إلا بجهد شديد ، فاذا وقع لأحدهم فعل "نعيم" مثلا في عدة مواطن ظن تنقله من هنا الى هناك

سمة من سمات الفقر اللغوى ، ونسب الصورة الأولى التى أخذت عن عجم العود قبل أن تصنع منه الراح فصعب عليه تبعا لذلك أن يدرك سر البلاغة فى مثل قول ابن المعتز :

وكم عاجم عودى تكسر نابه إذا لان عيدان اللثام وخاروا

١١ — بقيت نقطة أخيرة فى هذا الموضوع ، وهى تتصل بما نراه من أن حياة التعبير هى التى تمنع من إضافته الى المبتذلات . ذلك أن كتاب اللغة العربية وخاصة رجال القرن الرابع كان من همهم دائما أن يرتفعوا عن الجماهير بما يبدعون من المعانى والأساليب ، وكانت وسيلتهم إلى ذلك أن يظهروا بالغنى فى ثقافتهم الأدبية بحيث لا يتذوق أدبهم إلا خواص الخواص ، من أجل ذلك كثرت عندهم الإشارات إلى الحوادث السياسية والاجتماعية ، وبالغوا فى تضمين الآيات والأحاديث والأسجاع والأمثال ، لينقلوا قراءهم إلى جواء بعيدة لا يتنفس فيها إلا المثقفون . وذلك كله يفرض ادراكهم الحى لما يشيرون اليه من حوادث التاريخ ، وتأثرهم بما يعرضون له من إثارة ما أندفن من قديم الصور فى مختلف الأغراض .

وهذا التسامى فى خلق بيئة أدبية عالية كان ولا يزال من هموم الأدباء العظام ، فان الأدب فى ذاته نوع من الترف العقلى وهو يفرض وجود أريستوقراطية فكرية يتفيا ظلالها إل الكتاب والشعراء . وكذلك كان رجال الأدب العربى فى عصور كثيرة من أصحاب المطامع الكبار ، ومن رجال السياسة والملك ، ومن أقطاب المجتمع الفكرى والعقلى ، بحيث لا يفهم عنهم إلا من يدرك ما كانت ترمى اليه همهم فى مطارح الحقائق ، أو مدارج الظنون .

الباب الثالث

كتاب الاختيار والأوصياء

١ - المقامات

١ - العرب بكجميع الأمم لهم قصص وأحاديث وأسمار وخرافات وأساطير يقضون بها أوقات الفراغ، ويصورون بها عاداتهم وطباعهم وغرائزهم من حيث لا يقصدون. فنى أى بقعة من البقاع العربية نجد الناس يسمرون تحت ضوء القمر فى ليلالى الصيف، أو حول الموافد فى الشتاء. ولو آستمعنا إليهم لوجدنا لهم على سذاجتهم طرائف من القصص تدل على لباقة وذكاء. وقد أتيح لى فى أحيان كثيرة أن أختبر طبقات العامة من المصريين والسوريين والحجازيين والتونسيين فرأيت لهم نواذر غريبة تشوق الخيال. وتلك القصص الطليقة التى تقال فى غير تحفظ ومن غير فن هى المصدر الأول لكاتب ألف ليلة وليلة الذى شغل الأوربيين والأمريكيين بما فيه من المفاجآت المدهشة والأحلام العجيبة التى صورت بها التزعات المكبوتة فى تلك الطبقات التى أضناها الاستعباد واليأس والرق الاجتماعى زمنا غير قليل. ولو أن كاتبها أراد أن يجمع كتابا على طراز ألف ليلة وليلة لوصل إلى ما يريد من غير مشقة ولا عناء، فلا تزال تلك الطبقات تحلم وتخيّل وتبتكر ما شاءت لها حياتها الاجتماعية من أنواع القصص الخلاب الذى يمثّل ما ترجو وما تخاف. ولكن هذا النوع من القصص ليس هو النوع الذى نريد أن نتحدّث عنه فى هذا الباب، إننا نريد أن نتكلّم عن القصص الذى وضع قصدا، والذى أراد أصحابه أن يدونوا به بعض الأوصاف عن طريق الحكايات الصغيرة، أو يذيعوا بعض النوادر والفكاهات، أو يعطوا بعض الجوانب التاريخية صورة مغرضة يخدمون بها بعض الأحزاب، أو يشرحوا بعض النظريات الفلسفية والأدبية أو يصفوا بعض الحوادث الغرامية، وما إلى ذلك مما يشوق القلوب والعقول والأذواق.

٢ - وأظهر أنواع الأفاصيص فى القرن الرابع هو فن المقامات، وهى القصص القصيرة التى يودعها الكاتب ما يشاء من فكرة أدبية، أو فلسفية، أو خطرة وجدانية، أو لمحة

من لمحات الدعابة والمجون . وكان المعروف أن بديع الزمان الهمداني هو أول من أنشأ فن المقامات . ولم أجد فيسن عرفت من رجال النقد من آرتاب في سبق بديع الزمان إلى هذا الفن ، وإنما رأيت من يعال سبقه بنزعتة الفارسية ، إذ كان الفرس فيما يظن بعض الناس أحرص من العرب على القصص وأعرف بمصنوع الأحداث .

٣ — وفي رأي أن الحريري هو الذي أذاع هذا الغلط ، ثم آمن الناس بقوله إذ كان أشهر من أقبل الجمهور عليهم من كتاب المقامات ، وهو في مقدمة مقاماته ينسب إلى بديع الزمان فضل السبق إذ يقول :

”و بعد فانه قد جرى ببعض أندية الأدب الذي ركدت في هذا العصر ريحه ، وخبث مصابيحه ، ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان ، وعلامة همدان ، رحمه الله تعالى ، وعزرا إلى أبي الفتح الاسكندري نشأتها ، وإلى عيسى بن هشام روايتها ، وكلاهما مجهول لا يعرف ، وبكرة لا تتعرف . فأشار من إشارته حُكْم ، وطاعته غُثْم ، إلى أن أنشئ مقامات أتلوفيا نلو البديع ، وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع “ .

إلى أن قال :

”هذا مع اعتراي بأن البديع رحمه الله سباق غايات ، وصاحب آيات ، وأن المنصدي بعده لإنشاء مقامة ، واو أوقى بلاغة قدامة ، لا يغترف إلا من فضالته ، ولا يسرى ذلك المسرى إلا بدلالته . ولله در القائل :

فلو قبل مبكاه بكيت صباية بعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا بكاه فقلت الفضل للتقدم^(٢)

٤ — وقد وصلت إلى أن بديع الزمان ليس مبتكر فن المقامات ، وإنما ابتكره ابن دريدا المتوفى سنة ٣٢١ وإلى القارئ النص الذي اعتمدت عليه في تحرير هذه المسألة :

(١) الخالغ : الذي يغتر في مشيته . والضليع القوى الأضلاع . (٢) راجع مقدمة مقامات الحريري .

قال أبو إسحاق الحصرى حين عرض لكلام بديع الزمان :

”كلامه غَضُّ المكاسر، أنيق الجواهر . يكاد الهواء يسرقه لطفًا، والهوى يعشقه ظرفًا . ولما رأى أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي أغرب بأربعين حديثًا وذكر أنه آستنبطها من ينابيع صدره، وآستخبها من معادن فكره، وأبداها للأبصار والبصائر، وأهداها للأفكار والضمائر، في معارض عجمية، وألفاظ حوشية، بغاء أكثر ما أظهر تنبو عن قبوله الطباع، ولا ترفع له حجبها الأسماع، وتوسع فيها، إذ صرف ألفاظها ومعانيها، في وجوه مختلفة، وضروب متصرفة، عارضها بأربعائة مقامة في الكدية تذوب ظرفًا، وتقطر حسنا، لا مناسبة بين المقامتين لفظًا ولا معنى، وعطف مساجلتها، ووقف مناقلتها بين رجلين : سمي أحدهما عيسى بن هشام، والآخر أبا الفتح الاسكندري، وجعلهما يتهاديان الدر، ويتنافثان السحر، في معان تضحك الحزين، وتحرك الرضين، يتطلع منها كل طريفة، ويوقف منها على كل لطيفة، وربما أفرد أحدهما بالحكاية، وخص أحدهما بالرواية“ .

وقد دهش المسبو مرسيه حين عرضت عليه هذا النص في باريس، وعجب كيف آتفق الناس مع هذا على أن بديع الزمان هو منشئ فن المقامات، ثم سألتى : ألا يمكن الأرتياب في قيمة كلام الحصرى في هذا الموضوع ؟ فأجبت أنه تحدّث بأسلوب يدل على أنه كان مفهومًا في أوائل القرن الخامس أن بديع الزمان إنما عارض ابن دريد وحاكاه . فأرتضى هذا الجواب ثم قال : يظهر أنه ضاع علينا من تاريخ الأدب العربى شيء كثير .

وقد واصلت البحث لأرى مدى هذه الفكرة في مؤلفات القدماء فلم أجد من أفردا . بجهد خاص وإن كنت رأيت ياقوت الحموى نقل ما كتبه صاحب زهر الآداب حين ترجم لبديع الزمان، ونقل ياقوت لهذا النص من غير تعقيب مظهر من مظاهر القبول .

وعندى أن من أسباب غفلة مؤرخى الآداب عن كشف هذا الخطأ أن ابن دريد سمي قصصه (أحاديث) في حين أن بديع الزمان سمي قصصه مقامات .

٥ — وقد دهش الدكتور طه حسين أيضا حين أطلعتة على ما وصلت اليه في تحرير هذه الفكرة ، وقال : إن ابن دريد كان رجل لغة ورواية ، ولم يعرف عنه أنه كان كاتباً ممتازاً ، فكيف أثار بديع الزمان بما أبدع من الأحاديث ؟ ثم عاد فقال : ارجع إلى كتاب الأملى للقالي وأنظر الأحاديث التي نقلها عن الأعراب ، فان رأيتة يروى عن ابن دريد — وكان أستاذه — فأعلم إذن أن الأعرابيين حديثاً التي ذكر صاحب زهر الآداب أنه اخترعها لم تكن شيئاً آخر غير هذه القصص التي حلى بها القالي كتابه . فلما رجعت إلى كتاب القالي وجدت حقاً أن القصص التي آتواها مروية عن ابن دريد . من ذلك مثلاً حديث البنات اللأئي وصفن أرواجهن^(١) ، وحديث العاشق الجميل^(٢) ، وقصة خنافر الكاهن^(٣) ، والرواد الذين أرسلتهم مذجج لوصف بعض أقطار الجزيرة العربية . وكذلك يمكن المضي في استقصاء ما ذكره القالي من القصص العربية المسجوعة ، وإن كان هذا لا يعين أنها نفس القصص التي عارضها بديع الزمان^(٤) .

٦ — ولكن يظهر مما جاء في « الرسالة العذراء » لابن المدبر أن أهل القرن الثالث كانوا يعرفون نوعاً من المحاورات الأدبية يسمى المقامات إذ رأيناه يوصي المتأدب فيقول :

(١) ح ١ ص ١٧ (٢) ح ١ ص ٢٨ (٣) ج ١ ص ١٣٢ طبع بولاق . (٤) لم يكن حدثه بل قيمة النص الذي نقله آخراً عن زهر الآداب ووصلت منه إلى فتاة من المقامات ، وقد اتفق أن المسبور ديمو من رحى نصرى أخيراً إلى إشارة وردت في دائرة المعارف الإسلامية تدل على أن المسبور وركبان كان تنبه إلى ذلك النص وكنيت في هامش ص ٨٦ من الأصل الفرنسي هذا الاستدراك :

J'ai étudié cette question directement. M. Demombynes après avoir lu ce chapitre a attiré mon attention sur l'opinion exprimée sur le même sujet par les auteurs de l'Encyclopédie de l'Islam. J'y ai trouvé ceci (pp. 71, Livraison 39) :

(... à savoir qu'Al-Hamadani se serait inspiré des Arabians d'Ibn Dorand, nous ne pouvons porter aucun Jugement, car cette œuvre ne nous a pas été conservée.)

ومعنى هذا الكلام أن المسبور وركبان الذين كتبوا عن المقامات في دائرة المعارف الإسلامية يرتابون في أن يكون بديع الزمان متأثر بأحاديث ابن دريد . لأن هذه الأحاديث لم تصل إلينا حتى نستطيع أن نصدر حكماً . وسيبقى التارئ فيما سنكتب عن (أحاديث ابن دريد) كيف ترجح لدينا وجود طائفة من تلك الأحاديث .

”وأنظر في كتب المقامات والخطب، ومحاورات العرب“^(١).

غير أن «المقامات» في كلام ابن المدبر قد تكون جمع مقام بالتذكير وهو الخطبة أو العظة يلقيها الرجل في حضرة الخليفة أو الملك، وقد عقد ابن قتيبة فصلاً سماه (مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك) وذكر نماذج كثيرة منها مقام صالح بن عبد الجليل بين يدي المهدي، ومقام عمرو بن عبيد بن يدي المنصور، ومقام خالد بن صفوان بين يدي هشام، ومقام الحسن عند عمر بن هبيرة^(٢). وقد تؤنث كقول بديع الزمان في أحد الواعظين: «غريب قد طراً لا أعرف شخصه، فأصبر عليه إلى آخر مقامته، لعله ينبيء بعلامته»^(٣).

وقد انتقلت المقامات بعد ذلك إلى كلام المعتفين الذين يتوسلون إلى الأغنياء بكلام مسجوع، وكثيراً ما نجد عندهم أمثال عبارة «ارحموا مقامي هذا» يريدون الموقف، ثم صار المقام يطلق على ما يقال من الكلام في تلك المواقف. والمقام في الأصل المجلس، ففي القرآن ((أى الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً))^(٤) وفي شعر زهير:

وفيهـم مقاماتٌ حسان وجوـدهم وأندية ينتابهـا القول والفعل

ومن المؤكد أن بديع الزمان حين أنشأ المقامات كان يتمثل مقامات السائلين في المساجد والأسواق، ولذلك نجد راويته مشرداً في جميع الأحيان^(٥).

٧ - ومع أن ابن دريد هو المبتكر لفن المقامات فإن عمل بديع الزمان في هذا الفن أقوى وأظهر، وطريقته في القصص تختلف عن طريقة ابن دريد، والذين كتبوا مقامات بعد ذلك لم يكن في أذهانهم غير فن بديع الزمان، فهو بذلك منشئ هذا الفن في اللغة العربية، ولم تسم تلك القصص بعد ذلك أحاديث كما سماها ابن دريد وإنما سميت مقامات كما سماها بديع الزمان.

(١) راجع ص ٧ من الرسالة العذراء (طبع دار الكتب المصرية). (٢) ص ١٤٣ من المقامات (طبع بيروت). (٣) راجع عيون الأخبار ج ٢ ص ٣٣٣ — ٣٤٣ (٤) سورة مريم آية ٧٢ (٥) راجع ما كتبه بروكلمان في دائرة المعارف الإسلامية ص ١٧٠ (Livraison 39).

٨ - وأول من تأثر خطواته في القرن الرابع أبو نصر عبدالعزيز بن نباته السعدي المتوفى سنة ٤٠٥ هـ ولم تحفظ عنه إلا مقامة واحدة كما أشار بروكلمان، ثم جاء ابن نايقا عبد الله بن محمد ابن الحسين المتوفى سنة ٤٨٥ هـ وأشأ عدة مقامات تختلف في أسلوبها عن مقامات بديع الزمان بعض الاختلاف^(١).

ثم جاء الحريري فصر في المقامات شريعة أدبية، وقد أُنشِرت مقاماته في جميع الأقطار العربية، وصارت مضرب المثل في الفصاحة والبيان، ويعتد الحريري أشهر من نظم المقامات واليه يرجع الفضل في ذبوع هذا الفن الجميل.

ومضى الكتاب بعد ذلك يترسلون على هذه الطريقة في جميع العصور حتى اليوم. ولم يمض عصر لم تحفظ فيه مقامات، ونظرة فيما كتب بروكلمان في دائرة الاسلامية، أو مادون في فهرس دار الكتب المصرية، ترينا كيف آفتن الكتاب في تلك الأقاليم.

٩ - وقد لاحظنا أن كل ما كتب من المقامات يرجع في جوهره الى فن بديع الزمان، فالصورة واحدة من حيث السجع والأزدواج، وطريقة القصص واحدة، والافتنان في الموضوعات هو كذلك من مبتكرات بديع الزمان، حتى الطريقة التعليمية التي عرفت في مقامات السيوطي وابن الجوزي والقلقشندي هي أيضا مما ابتكر بديع الزمان، والفرق يرجع الى صور الثقافات في مختلف العصور، فبديع الزمان صور مشكلات عصره، والحريري مثل معضلات زمانه، والسيوطي فصل أو هام الناس وعولمهم في أيامه، وجاء محمد الموليحي في العصر الأخير فوضع كتابا في نقد الحياة الاجتماعية في مصر تأثر فيه بسجع بديع الزمان وحفظ من رسومه أسم راويته عيسى بن هشام.

١٠ - وفن المقامات الذي نشأ في القرن الرابع لم يعرف وطنيا عربيا، وإنما عاش في جميع الأقطار الاسلامية، فكان من أهل فارس والعراق والشام واليمن والحجاز ومصر

(١) لم يبق من آثار ابن نايقا إلا تسع مقامات مخفولة بمكتبة (الفايح) في استانبول.

والمغرب والأندلس تكتب برعوا في فن المقامات، وتفصيل هذه النقطة يحتاج الى كلام طويل، على أنها أوضح من أن تحتاج الى تفصيل .

١١ - ومن طريف ما قرأت ما أشار اليه بروكلمان في دائرة المعارف الاسلامية فقد حدثنا أن هذا الفن أنتقل بفضل بديع الزمان الى اللغة الفارسية، وكان الدكتور أحمد ضيف يظن أنه انتقل من الفارسية الى العربية، وأشهر أصحاب المقامات في الأدب الفارسي القاضي حميد الدين أبو بكر بن عمر بن محمود البلخي المتوفى سنة ٥٩٩ هـ وهي تحتوى على مناظرات مختلفة بين الشباب والشيخوخة، وبين أهل السنة والشيعة، وبين الطبيب والمنجم، وفيها وصف للربيع والخريف، والحب والجنون، وفيها مناقشات فقهية وصوفية، وهي كالمقامات العربية تصاغ في قوالب فنية^(١) .

وأشار بروكلمان كذلك الى أن هذا الفن دخل اللغة العبرية بفضل اليهودى الربانى يهودا ابن شلومو الحريزى الذى ترجم مقامات الحريرى الى العبرية وأنشأ على نمطها خمسين مقامة سماها (سفر تحكمونى)^(٢) وضمها كثيرا من آيات التوراة^(١) .

ودخل هذا الفن أيضا الى اللغة السريانية، فقد نظم أحد السريان من مدينة نصيبين خمسين قصيدة على نمط مقامات الحريرى ضمنها جملة من العظات والأخلاق، في لغة مثقلة بالزخارف والتهويل، ونشرها جبريل قرداحى في بيروت سنة ١٨٨٩^(١)

١٢ - وعند مقارنة مقامات البديع بمقامات الحريرى يتبين لنا أن لغة بديع الزمان خالية من التكلف والاعتساف، ولا كذلك لغة الحريرى التى تعد من أغرب نماذج النثر المصنوع وعند الرجوع الى آثار من تأثروا بفن المقامات نراهم فى الأغلب تلامذة الحريرى لا تلامذة البديع، فقد أولع أكثرهم بالصنعة والزخرف، ولم يأنس منهم الى فطرته إلا القليل .

(١) راجع دائرة المعارف الاسلامية ص ١٧٢ و ١٧٣ من (Livraison 39) .

(٢) كلمة عبرية معناها « كتاب الحكمة » .

١٣ - ونتيجة ما سلف أن القرن الرابع دان اللغة العربية بفن من فنون القصص هو فن المقامات ، وذيق هذا الفن يرجع الى أنه وافق السليقة العربية التي تميل الى القصص القصير، والتي تميل الى الزخرف في الانشاء .

وقد ظن ناس أن فن المقامة هو فن القصة ، وكذلك نراهم يذكرون المقامات كلها أثر موضوع القصة في اللغة العربية، والواقع أن العرب بفطرتهم لم يكونوا يميلون الى القصص المعقد الذي وحد كثير منه فنيا أثر عن اليونان القدماء ، والذي ذاع عند الانجليز والروس والفرنسيين والألمان .

ولا عيب في أن تخلو آثار العرب من القصص الطويل ، فان الفن الصحيح يرتكز أولا على الفطرة ، ولم يكن العرب مفطورين على القصة التي تقرأ في أيام أو أسابيع ، ولذلك خلا شعرهم ونثرهم من الآثار القصصية التي وجدت عند معاصريهم في الشرق والغرب .

وليس معنى هذا أن آثار العرب خلت خلوا تاما من القصة ، ولكن معناه أن فن القصة من الفنون الدخيلة على اللغة العربية ، وقد يكون لبساطة الطباع العربية أثر في وقوفهم عند القصص القصير، ومثل القصة في ذلك مثل الموسيقى ، فقد كانت موسيقاهم بسيطة لأن نفوسهم كانت بسيطة ، فلما أخذت العواطف تتعقد وتشتبك أخذ القصص والموسيقا في التعقد والاشتباك .

ولهذا السبب عينه لم يفكروا في التمثيل ، ولم ينقلوا عن اليونان شيئا يذكر من القصص التمثيلية ، لأن أسماهم كانت تغنيهم عن التمثيل .

ولا ينس القارئ أن موقفنا دائما موقف المؤرخ للفنون الأدبية، ونحن من وجهة التاريخ نرى أن إبداع فن المقامات يعد فتحا عظيما في اللغة العربية، ولا بد أن يكون معاصرو بديع الزمان تلتفوا الى فنه تلتفت الدهشة والاستغراب وعدوه من كبار المبدعين .

وحسب بديع الزمان من المجد أنه ألهم الحريري مقاماته التي كانت سببا في خلود هذا الفن الجميل ، وقد ظلمه شوقي حين قال في رثاء المويليحي :

رب سجع كرقص الروض لما يختلف لحنه ولا إيقاعه

أو كسجع الحمام لو فصلته وتأنت به ودقّ آختراعه

هو فيه بديع كل زمان ما بديع الزمان ؟ ما أسبجاءه ؟^(١)

إن بديع الزمان شخصية نادرة المثال ، وأسبجاءه أحيانا أرق من الزهر المطلول ، ولكن المتصفين في الناس قليل .

ألم يجرؤ أحد المتحذلقين على ادعاء أن ثر بديع الزمان لا يقرأ اذا ترجم الى لغة أجنبية ؟

لقد ترجمنا نماذج من مقاماته ورسائله الى اللغة الفرنسية فكانت تحفة في عين من رآها

من الفرنسيين ، ولكن أكثر المحدثين عندنا لا يعرفون أسرار الأدب القديم .

(١) انظر ما كتبه الأستاذ محمد لطفى جمعه في جريدة البلاغ « ٢٨ يونيه سنة ١٩٣٠ » .

٢ - مقامات بديع الزمان^(١)

١ - ألف بديع الزمان مقاماته بعد وصوله إلى نيسابور سنة ٣٨٢^(٢) - والمتفق عليه عند كتاب التراجم أنها كانت أربعانة، ونحن نرجح أنها كانت خمسين، بدليلين :
الأول أنه عارض بها أربعين حديثاً أنشأها ابن دريد ، والمعارضات كانت تتقارب دائماً في الكمية .

الثاني أن مقاماته لم يحفظ منها غير خمسين ، فليس بمعقول أن يضع من آثاره خمسون وثلاثانة مقامة ، مع أن آثاره لم يضع منها إلا القليل .

يضاف الى ذلك أن الحريري حين عارض بديع الزمان لم ينشئ في معارضته غير خمسين مقامة ، ثم صار عدد الخمسين هو الرقم المتبع فيما كتب في هذا النوع من الأفاصيص .

٢ - في مقامات بديع الزمان نماذج من القصة القصيرة، ففيها «العقدة» وتحليل الشخصيات ، والمقامة المضيرية التي تكلمنا عنها في « الفكاهات » تمثل هذا الفن ، وكذلك المقامة البغداية التي أشرنا إليها في الجزء الثاني^(٣) ، وهاتان المقامتان هما أبرع ما قص بديع الزمان . وفيما عدا ما وفق إليه في نظم بعض الأفاصيص نراه يقف حيث وقف من قبله ابن دريد ، فيرسل العظة ، أو يسوق الوصف ، أو يمتق الفكاهة ، أو يقضى بأحكام أدبية أو فلسفية ، من دون أن يهتم بالعقدة القصصية ، وإليك هذا المثال :

حدثني عيسى بن هشام قال : بينما نحن يجرجان في مجمع لنا نتحدث ومعنا يومئذ رجل العرب حفظاً ورواية وهو عصمة بن بدر الفزاري . فأفضى بنا الكلام الى ذكر من أعرض عن خصمه حلماً ، ومن أعرض عنه آحتقاراً ، حتى ذكرنا الصلتان العبدى والبعيث وما كان

(١) انظر ترجمة بديع الزمان في الجزء الثاني من هذا الكتاب ص ٣٢٥ وما يليها من الصفحات .

(٢) راجع بقيمة الدهرج ٤ ص ١٦٩ (٣) ص ٣١٥ و ٣١٦

من احتقار جرير وأسرته إلى الإقاصيص . ساحتكم بما شاهدته عيني ، ولا أحدنكم
عن غيري ، بينما أنا أسير في بلاد تميم مرتحلاً بنجبية ، وقائداً بنجبية^(١) ، عن لي ركب على أورك^(٢)
جعد اللغام^(٣) ، فإذاني حتى إذا صك الشيخ بالشيخ ، رفع صوته بالسلام عليك ، فقلت :
وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ! من الراكب الجهير الكلام ، بتحيةة الاسلام ؟ فقال : أنا
غيلان بن عقبة . فقلت : مرحباً بالكريم حسبه ، الشهير نسبه ، السائر منطقاً ! فقال :
رحب واديك ، وعن ناديك ، فمن أنت ؟ قلت : عصمة بن بدر الفزاري . قال حياك الله نعم
الصديق ، والصاحب والرفيق ! وسرنا فلما هجرنا قال : ألا تغور يا عصمة ، فقد صهرتنا^(٤)
الشمس ؟ فقلت : أنت وذلك ! فلما إلى شجرات ألأء^(٥) ، كأنهن عذارى متبرجات ، قد نشرن
غداثرهن ، لأثلاث تناوحن . فخططنا رحالنا ولننا من الطعام ، وكان ذو الرمة زهيد الأكل ،
وصلينا بعد ، وآل كل واحد منا إلى ظل أثلة يريد القائلة ، وأضطجع ذو الرمة ، وأردت أن
أصنع مثل صنيعه ، فوليت ظهري الأرض ، وعيناي لا يملكهما غمض ، فنظرت غير بعيد
إلى ناقة كرماء قد ضخيت ، وغبطها ملقي ، وإذا رجل قائم ، يكلؤها كأنه عسيف أو أسيف^(٦) ،
فلهيت عنهما — وما أنا والسؤال عما لا يعني ! — ونام ذو الرمة غراراً ، ثم آنتبه وكان^(٧)
ذلك في أيام مهاجراته لذلك المرى ، فرفع عقيرته وأنشأ يقول :

(١١)	(١٠)	أمن مية الطلل الدارس	ألف به العاصف الرامس
(١٢)	(١١)	فلم يبق إلا شجيج القنذال	ومستوقد ماله قابس
(١٣)	(١٢)	وحوض تلم من جانبيه	ومحتفل دارس طامس
	(١٣)	وعهيدى به وبه سكنه	ومية والأنس والأنس

- (١) الجنبية الفرس يقودها الرجل إلى جنبه . (٢) الأورق من الأبل ما في لونه بياض إلى سواد .
(٣) جعد اللغام : متراكم الزيد . (٤) هجر بالشديد صادف وقت الهجير ، وهو الظهيرة .
(٥) التغوير : النوم عند الغائرة وهي القائلة . (٦) الألأء : شجر مر . (٧) كرماء : عظيمة السنام .
(٨) العسيف الأجير ، والأسيف العبد . (٩) قليلا . (١٠) ألف به : لازمه . (١١) من
رأس الشيء دفته . (١٢) الشجيج : المكسور . والقنذال الرأس ، والمراد به هنا الويد الذي كانت تربط فيه
الأطناب . (١٣) السكن بفتح فسكون : الساكنون .

كانى بيمه مسمر
 اذا جثها ردى عانس
 رقيب عليها لما حارس
 ستانى امرأ القيس مأثورة
 يغنى بها العابر الجالس
 ألم ترأن امرأ القيس قد
 هم القوم لا يلمون الهجاء
 وهل يالم الحجر اليابس؟
 فإلهم فى العلا مركب
 ولا لهم فى الوغى فارس
 ممرطلة فى حياض الملام
 اذا طمح الناس للكرامات
 فطرفهم المطرق الناعس
 تعاف الأكرام إصهارهم
 فكل أياها هم عانس^(٤)

فلما بلغ هذا البيت تنبه ذلك البائس وجعل يمسح عينيه ويقول : أذو الرمية يمعنى النوم
 بشعر غير مثقف ولا سائر؟ فقلت : يا غيلان من هذا؟ فقال : الفرزدق، وحى ذو الرمة
 فقال :

وأما مجاشع الأزدلون
 فلم يسق منبتهم راجس^(٥)
 سيعقلهم عن مساعى الكرام
 عقل ويحبسهم حابس

فقلت : الآن يشرق ويشور، ويعم هذا وقبيلته بالهجاء . فوالله ما زاد الفرزدق على أن
 قال : قبحا لك إذا الرمية أتعرض لمثل بمقال متحل؟ ثم عاد فى نومه كأن لم يسمع شيئا ،
 وسار ذو الرمة وسرت معه ، وإنى لأرى فيه انكسارا حتى افترقنا .

فهذه المقامة ليست أقصوصة ، وإنما هى خبر من الأخبار التى كثر اختراعها فى الأدب
 القديم ، والتى تمثل بعض العادات والتقاليد ، وتصف ما يقع بين الناس من ألوان الخصومات

- (١) العانس : الصبيح ، ونفرة الغزال فى الصباح شديدة لقرب عهده بوحشة الليل .
 (٢) الناجس الداء العصال . (٣) ممرطلة : ملطخة . (٤) الأياى جمع أيم وهى التى لا زوج لها ،
 بكراً أو ثيباً ، والانس التى لم تزوج أصلاً . (٥) الراجس : السحاب الرائد . (٦) يشرق :
 ينص برشته ، كناية عن شدة الغيظ . (٧) يسبح .

والأحقاد . وقد يمكن مع ذلك إضافتها الى الأقاصيص الوصفية التي لا يراد بها الإغراب في العقدة والشخصيات ، وإنما تجرى على نمط الأحاديث .

٣ - ومن مظاهر الضعف عند بديع الزمان ومن حاكاه وقوفه عند شخصية واحدة ، فأبو الفتح الاسكندري ينتقل من قصة الى قصة ، وعيسى بن هشام يحدثنا في كل مرة عن دهشته من كشف شخصيته ، مع أنه كان يكفى أن يشبهه عليه أمره مرة أو مرتين ، ولكنه في جميع الأحوال يضل عن عرفانه ، ولا يتبينه إلا بعد كشف اللثام . غير أن لعيسى بن هشام مواقف لا يذكر فيها أبو الفتح ، كما وقع في المقامة الأهوازية ، والمقامة البصرية ، والمقامة الصفرية ، والمقامة الخلفية .

٤ - وبديع الزمان مغرى برسم السوات ، والمقامة الشامية والرصافية والدينارية من شواهد ذلك ، وله غرام بالأهائج المقذعات - وكان هذا الفن مما يقصد اليه كتاب القرن الرابع - فقد اتفق لعيسى بن هشام أن يفكر في التصديق بدينار على أشخذ رجل في بغداد ، وذكر له اسم أبي الفتح الاسكندري فمضى اليه فوجده في رفقة ، قد آجتمعت في حلقة ، فقال : يا بني ساسان ؟ أيكم أعرف بسلعتي ، وأشخذ في صنعتي ، فأعطيه هذا الدينار ؟ فقال الاسكندري : أنا ! وقال الآخر من الجماعة : لا ، بل أنا ! ثم تناقشا وتهارشا ، فقال عيسى ابن هشام : ليشتم كل منكما صاحبه ، فمن غلب سلب ، ومن عثر بز !

فقال الاسكندري يهجو صاحبه :

يا برد العجوز ، يا كربة تموز ، يا وسخ الكوز ، يا درهما لا يجوز ! يا فوسوة التين ، يا نخلة العيين ، يا حديث المغنين ! يا سنة البوس ، يا ضرطة العروس ، يا كوكب النحوس ، يا وطاة الكابوس ، يا تجمة الرعوس ! يا أم حبين ، يا رمد العين ، يا غداة البين ، يا فراق المحبين ، يا ساعة الحين ، يا مقتل الحسين ، يا ثقل الدين ، يا سمة الشين ! يا بريد الشوم ، يا طريد

(١) كما سترى في حكاية أبي القاسم البغدادى التي حللناها في آخر هذا الباب . (٢) مخففة عن البؤس .

(٣) دوية كريمة المنظر .

یا یوم، یا یوم، یا دیر البرق، یا منع الماعون، یا سنة الطاعون، یا بنی العبيد، یا آیه
 نو عید، یا کلامه سعید، یا اقیح من حتی، یا مواضع شتی، یا دودة الکثیف، یا قووة
 اصیف، یا تنجیح المصیف، یا کسر الرقیف، یا جشاء الخسوف، یا نکیة الصقور، یا وند
 تدور، یا خزونة القدور، یا أربع لا تدور، یا طمع المتصور، یا سحر اللسان، یا یول
 انحصین، یا مؤاکة العین، یا شفاة العرین، یا سبت الصیان، یا کتاب التعلی،
 یا قرارة الخزی، یا بجن الأهوازی، یا فضول الرازی، یا لله لو وضعت إحدى رجلتيك على
 أرضه، وأخرى على دماوند، وأخذت بيدك قوس قزح، وندقت الغیم فی جباب الملائكة
 ما كنت إلا حلاج !!

وقد اختر:

یا قود تدرود، یا بود یهود، یا نکیة الأسود، یا فسوة السود، یا شرطه فی السجود،
 یا عذابی وجود، یا کعب فی غرس، یا قود فی غرس، یا قرعۃ بامش، یا أقل من لاش،
 یا دخن سنط، یا صان لابط، یا زول انت، یا دلال الخلك، یا أخبث ممن باء بذل
 لطلاق، یا منع الصديق، یا وحل الطريق، یا ماء علی اریق، یا محرك العظم، یا معجل
 مضیه، یا ریح الأستان، یا روح الآذن، یا أجرم قلس، یا أقل من قلس، یا أفصح من
 عبوة، یا بنی من برة، یا موب انحف، یا مدرجة لا کف، یا کمة لیت، یا وکف
 بیت، یا کیت وکیت، یا لله لو وضعت أمتی الخجوة، ودیت رجلتي فی الخجوة،
 وتحذت الشمری خفاء، وثر، وده، وجمعت سباء منوالا، وحکت الهواء سر، یا، فسیته
 بالنسر طر، وأختمه بالذک، یا، ما کنت، یا حائک، یا .

(۱) الخزونة: شعير وساد . (۲) یا خربة: سدة تر یسرق بها ویرایق لفظ .

(۳) قرعۃ عدم: یصنع من السرخ، وشدش حد یترب من حطب، یا قود: یقرب فی صعبه من العذس، یا دخن: یطلق بالقرع

کان کره اساق . (۴) محرك: یغير سر حتی شديدة المنحوية، یا لرد: وشدرة . (۵) قلع الأستان

ما یمرود من خضرة، یا مدرجة . (۶) انفسر: یفتح فیکون الحیر یجربه المرك .

وهنا يتحدثنا عيسى بن هشام أنه لم يدر أيهما يؤثر؛ فما منهما إلا بديع الكلام، عجيب المقام، ألد الخصام .

وهذا النمط من الانشاء لا يراد به إلا الظهور بقوة القريحة، وغنى اللغة، وخصب الخيال . وهو يمثل هذر الحضريين وسفاهاتهم وميلهم الى شناعة القيل والقال . وعند مراجعة هذه الأهاجي نجد فيها عبارات طريفة تبعث الضحك الى ثغر الحزين .

وهل في الدنيا أبرد من « نتحنح المضيف، اذا كُسِر الرغيف » ؟ !

وهل في الحياة أثقل من « شفاعاة العريان، وسبت الصبيان » ؟

٥ - والوصف من الفنون المقصودة في مقامات بديع الزمان، وهو يفتن فيه من موضع الى موضع، وأنظر قوله في المقامة الأسدية :

« ... الى أن آتفتك لى حاجة بحمص، فشذت الحرص، في صحبة أفراد كنجوم الليل،^(١)
أحلاس لظهور الخيل، وأخذنا الطريق نتهب مسافته، ونستأصل شأفته، ولم تزل أسمة^(٢)
النجاد، بتلك الجياد، حتى صارت كالعصى، ورجعت كالقسي^(٣)، وتناح لنا واد في سفح
جبل ذى ألاء وأئل كالعذارى يسرحن الضفائر، وينشرن الغدائر، ومالت المهاجرة بنا اليها^(٤)
ونزلنا نفور ونفور، وربطنا الأفراس، بالأمراس، وملنا مع النعاس، فما راعنا الا صهيل الخيل،^(٥)
ونظرت الى فرس يجذّ قوى الجبل بمشافره، ويخذ خد الأرض بجافره، ثم اضطربت الخيل
فأرسلت الأبوال، وقطعت الحبال، وأخذت نحو الجبال، وطار كل واحد منا الى سلاحه
فاذا السبع في فروة الموت قد طلع من غابه، منتفخا في إهابه، كاشرا^(٦) عن أنيابه، بطرف قد
ملى صلفا، وأنف قد حشّى أنفا، وصدر لا يبرحه القلب، ولا يسكنه الرعب، وقلنا :
خطب والله ! وتبادر اليه من سرعان الرقعة فتى :

أخضر الجلدة في بيت العرب يملأ الولو الى عقد الكرب

(١) الاحلاس جمع حلس بالكسر وهو البرذعة . (٢) النجاد جمع نجد وهو ما ارتفع من الأرض .

(٣) تناح : عرض . (٤) نفور : نزل النور . (٥) نفور : تمام .

(٦) أخضر الجلدة : أسمر اللون .

بقلب ساقه قدره، وسيف كنه أثره، وملكنه سورة الأسد نخائته أرض قدمه، حتى سقط ليده وقد، وتجاوز الأسد مصرعه، إلى من كان معه، ودعا الحين أخاه. يمثل ما دعاه، فصار إليه، وعقل الرعب يديه، فأخذ أرضه، وأفترش الليث صدره. ولكنني رميته بهامتي، وشذلت منه، حتى حقنت دمه، وقام التقي فوجاً بطنسه، حتى هلك التقي من خوفه، والأسد للوجهة في جوفه. ونهضنا في أثر الخيل فتألفنا منها ما ثبت، وتركنا ما أفلت، وعدنا إلى الرقيق لتجهزه.

فلما حوثنا التراب فوق رقيقنا جزعنا ولكن أي ساعة يجزع

وعدنا إلى الغلاة وهبطنا أرضها، حتى إذ، ضمرت المزاد، ونفذ الزاد أو كاد يدركه النفاذ، ولم يلك الذهاب ولا الرجوع، وخضنا القاتلين الظمأ والجوع، عن لنا فارس فصعدنا صمده، وقصصنا قصده. ولما بلغنا نزل عن حر فوسه ينقش الأرض بشفتيه، ويلقي التراب بيديه، وعمدني من بين الجماعة فتقبل ركابي، وتحزم يحناني، ونظرت فإذا وجه يبرق يرق العارض المتهلل. وقوام متى ما ترق العين فيه تسهل، وعارض قد أخضر، وشارب قد طر، وساعد ملائ. وقضيب ريان، ونجاد تركي، وزى ملكي، فقلنا: ما لك، لا أبالك! فقار: أنا عبد بعض الممرك هم من قتلى بهم^(١). فهست على وجهي إلى حيث تراني. وشهدت شواهد حله، على صدق مقال. ثم قال: أنا اليوم عبدك، ومالي مالك. فقلت بشري لك وأذاك سيرك إلى فده رجب، وعيش رطب! وهنأتني الجماعة، وجعل ينظر فتقلنا ألاحظه، وينطق فتقلنا ألفاظه. والنفس تنازعني فيه باحفظور، والشيطان من وراء الغرور، فقال: ياسادة! إن في سفح الجبل عينا وقد ركبتم ذلاة عوراء^(٢)، نخذوا من هناك الماء، فلوينا الأعنة إلى حيث أشار، وبلغناه وقد صهرت الماخبرة الأبدان، وركب الجنادب العبدان، فقال: ألا تقبلون في هذا الظل الرجب، على هذا الماء العذب؟ فقلت: أنت وذاك! فقل

(١) أي عن فوسه احز العتيق. (٢) وقع هذا التعبير في كلام بديع الزمان غير مرة وهو في الأصل من

كلام امرئ القيس. (٣) اظم: العزم. (٤) عوراء: قليلة العيون فليس بها ماء.

عن فرسه ونحى منطقته، وحلَّ قُرْطُتَه^(٢). فما أسترعنا إلا بغلالة تم على بدنه، فما شككنا أنه خاصم الولدان، ففارق الجحان، وهرب من رضوان، وعمد إلى السروج خطها، وإلى الأفراس خشها^(٣)، وإلى الأمكنة فرشها، وقد حارت البصائر فيه، ووقفت الأبصار عليه^(٤)، .. وقلت: يا فتى! ما ألفتك في الخدمة، وأحسنك في الجملة! فالويل لمن فارقت، وطوبى لمن رافقت! فكيف شكر الله على النعمة بك؟ فقال: ما سترونه منى أكثر! أعجبكم خفى في الخدمة، وحسنى في الجملة، فكيف لو رأيتموني في الرفقة؟ أريكم من حذق طرفا، لتردادوا بي شغفا؟ فقلنا: هات! فعمد إلى قوس أحدا وفوق سهما فرماه في السماء، وأتبعه بآخر فشقه في الهواء، وقال: سأريكم نوعا آخر، ثم عمد إلى كتابي فأخذها وإلى فرسى فعلاه، ورمى أحدا بسهم أثبت في صدره، وطيرَه من ظهره. فقلت: ويحك، ما تصنع؟! فقال: أسكت يالْكَم! والله ليشدّ كل منكم يد رفيقه، أو لأغصّنه بريقه! فلم ندر ما نصنع، وأفراسنا مربوطة، وسروجنا محطوطة، وأسلحتنا بعيدة، وهو راكب ونحن رجالة، والقوس في يده يرشق بها الظهور، ويمشق بها البطون والصدور، وحين رأينا الحَدَّ، أخذنا القِدَّ^(٥)، فشَدَّ بعضنا بعضا، وبقيت وحدى، لا أجد من يشدّ يدي، فقال: اخرج بإهابك، عن ثيابك! فخرجت، ثم نزل عن فرسه وجعل يصفع الواحد ما بعد الآخر. ويقول: أقمت قضيبك، نخذ نصيبك! ... الخ“.

والقصة في جملة فكاكة. ولكن الوصف ظاهر فيها كل الظهور، وفيها فقرات تعدّ من آيات الوصف السابغ، والحركة قوية في تلك الأقصوصة، والمناظر تتوارد في حياة وأنسجام. وعند تأمل ما انتهت إليه نجد الغرض في غاية من التفاهة، فكأن بديع الزمان ما كان يقصد غير هذه الأوصاف.

(١) المنطقة: الخزام.

(٢) القرطقة: مؤنث قرطاق وهو قبا. دو طاق واحد وأصله (كوتة) بالفارسية (راجع شرح المقامات للشيخ

محمد عبده ص ٣٩) . (٣) ألقى لها الحشيش.

(٤) حذنا من هذا الموطن كلمات فيها مجون . (٥) القَدَّ بالكسر صير من حله غير مدبوغ .

والمقامة الحميرية وضعت قصدا لوصف الصهباء ، فيحدثنا عيسى بن هشام : أنه كان في عنقوان شبيته عدل ميزان عقله ، وعدل بين جدّه وهزله ، فجعل النهار للناس ، والليل للكلاب ، وأنه اجتمع في بعض لياليه مع إخوان الخلوة فما زالوا يتعاطون نجوم الأقداح ، حتى نفذ ما معهم من الراح ، ثم دعته دواعي الشطارة ، إلى حان الخمار ، والليل أخضر الدياج ، معتلم الأمواج ، فلما أخذوا في السبح ، توب منادى الصبح ، نفخس شيطان الصبوة ، وتبادروا إلى الدعوة ، وقاموا وراء الإمام ، قيام البررة الكرام ، بوقار وسكينة ، وحركات موزونة ، وإمامهم يحدّ في خفضه ورفع ، ويدعوهم بإطالته إلى صفعه ! حتى إذا راجع بصيرته ، ورفع بالسلام خيبرته ، تربع في ركن محرابه ، وأقبل بوجهه على أصحابه ، وجعل يطيل إطرافه ، ويدمّ استنشاقه ، ثم قال : أيها الناس ! من خلط في سيرته ، وأبلى بذاذورته ، فليسح ديماسه^(١) . دون أن تتجسأ أنفاسه ، اني لأجد منذ اليوم ، ريح أم الكجائر من بعض القوم ، فما جزاء من مات صريع الطاغوت ، ثم آبتكر إلى هذه البيوت ؟ !

وأشار إمام المسجد إلى عيسى بن هشام وأصحابه فنألبت عليهم الجماعة حتى مزقت أرديتهم ، وأدمت أنفيتهم ، فأفسدوا لا عاودوا الشراب ، وأفلتوا وما كادوا يفتنون ، وسألوا من مرتبهم من الصبية ، عن إمام تلك القرية ، فأجابهم الصبية : بأنه الرجل التقى أبو الفتح الاسكندري ، فقالوا : سبحان الله ! ربما أبصر عجميت ، وآمن عفريت ! والحمد لله لقد أسرع في أوبته ، ولا حرما الله مثل توبته . وجعلوا بقية يومهم يعجبون من نسكه ، مع أنهم كانوا يعجبون من فسقه ... ثم شرع عيسى بن هشام في الوصف فقال :

”ولما حترج النار أوكاد ، نظرنا فإذا برايات الحان أمثال النجوم ، في الليل البهيم ، فتهادينها السراء ، وتبأشرنا بليلة غراء ، ووصلنا إلى أخفمها بابا ، وأضخمها كلابا ، وقد جعلنا الديار إماما ، والاستهتار لزاما ، فدفعنا إلى ذات شكل ودل ، ووشاح منحل ، إذا قتلت

(١) الديماس : البيت .

(٢) الشكل : النزل .

ألاحظها، أحييت ألفاظها، فأحسننت تلقينا، وأسرعنت تقبل رءوسنا وأيدينا، وأسرع من معنا
من العلو، الى حط الرجال والسروج، وسألنا عن نمرها فقالت :

نمر كريق في العذو به واللذاعة والحلاوة
تذر الحليم وما عليه له حلمه أدنى ظلاوة

كأنما أعتصرها من خدى، أجداد جدى، وسربلها من القار بمثل هجرى وصدى،
ودبعة الدهور، وخبيثة جيب السرور، وما زالت تتوارثها الأخيار، ويأخذها الليل والنهار،
حتى لم يبق إلا أرج وشعاع، ووهج لذاع، ريحانة النفس، وضرة الشمس، فتاة البرق، عجوز^(١)
الملق، كاللهب في العروق، وكبرد النسيم في الخلق، مصباح الفكر، وترياق سم الدهر، بمثلها
عزير الميت فانتشر، ودووى الأكمة فنظر.

ثم ينتقل عيسى بن هشام فيحدثنا بعد هذا الوصف أنهم قالوا :

”هذه الضالة وأبيك، فمن المطرب في ناديك؟ ولعلها تُشعّع للشرب، من ريقك
العذب!“.

وأنها أجابتهم بأن لها شيخا ظريف الطبع طريف المجون، مر بها يوم الأحد في دير المربد،
فوقعت بينهما الخلطة، وتكررت الغبطة، وذكر لها من وفور عرضه، وشرف قومه في أرضه،
ما عطفها عليه. وأشتاق عيسى بن هشام الى رؤية هذا الشيخ الذى يجتمع بين ظرف الطبع
وطرافة المجون فإذا هو أبو الفتح الاسكندري إمام المسجد في صباح الأمس!

أكان بديع الزمان يريد بهذه المقامة أن يعرض ببعض الأشياع الذين يظهرون بسمت
مشرق، وينطوون على زيغ موبق؟

لا، إن بديع الزمان نفسه مرتاب، ولذلك نراه يطق أبا الفتح بهذه الأبيات :

دع من اللوم ولكن أى دكاك ترائى^(٣)

أنا من يعرفه كل تمام ويمانى

(١) البرق بالتحريك : التزين . (٢) عزز : أتين . (٣) الدكاك : المختال .

أنا من كل غبار أنا من كل مكان
ساعة ألزم محرا بآ وأخرى بيت حان
وكذا يفعل من يعد نقل في هذا الزمان

ومن المقامات التي أريد بها مجرد الوصف المقامة الحمدانية، وهي في وصف النخيل،
وهي مشهورة، وقد شرحها صاحب "زهر الآداب"^(١١).

٦ -- أكثر بديع الزمان في مقاماته من الكلام على الشعر والشعراء، فانطلق أبا الفتح

في المقامة العراقية بهذه الأسئلة الطريفة :

هل قالت العرب بيتا لا يمكن حله ؟^(٢)

وهل نظمت مدحا لم يعرف أهله ؟^(٣)

وهل ذا بيت سمج وضعه، وحسن قطعه ؟^(٤)

وأى بيت لا يرق دمه ؟^(٥)

وأى بيت يتنل وقعه ؟^(٦)

وأى بيت يشج عروضة، ويأسو ضربه ؟^(٧)

(١) راجع ص ٢٨ و ٢٩ من الجزء الثاني . (٢) مثاله قول الشاعر :

دراحتنا كهما جيد فلا تحبستا بتقادها

فان هذا البيت كالشعر لا تتدبر فيه ولا تأخيه .

(٣) مثله قول الخنزل :

ولم أدر من ألقى عليه رداؤه على أنه قد سل عن ماجد محض

(٤) مثاله قول أبي نواس :

فتنسا يراذ الله شر عصاوبة تجرد أذبال الفسوق ولا نخر

(٥) مثاله قول ذى الرمة :

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كل مقربة مرب

(٦) مثاله قول ابن الرومي :

إذا من لم يئن بمن يئنه وقال لنسي أيها النفس أمهل

(٧) مثاله قول الشاعر :

دلقت له بأبيض مشرق كما يدنو المصاخ، السلام

- وأى بيت يعظم وعيده ويصغر خطبه ^(١) ؟
 وأى بيت هو أكثر رملا من بيرين ^(٢) ؟
 وأى بيت هو كاستان المظلوم ، والمنشار المثلوم ^(٣) ؟
 وأى بيت يسرك أوله ويسوءك آخره ^(٤) ؟
 وأى بيت يصفحك باطنه ، ويخدعك ظاهره ^(٥) ؟
 وأى بيت لا يخلق سامعه ، حتى تذكر جوامعه ^(٦) ؟
 وأى بيت لا يمكن لمسه ^(٧) ؟
 وأى بيت يسهل عكسه ^(٨) ؟

- (١) مثاله قول عمرو بن كلثوم :
 بخاريق بأيدى لاعينا كما نسيوفا ما ومنهم
- (٢) مثاله قول ذى الرمة :
 معرور يا مرض الرضاض يرككه والشمس حيرى لها فى الجود تدوم
- (٣) المظلوم هو الذى كسر ظله أى أسنانه .
- (٤) مثاله قول الأعشى :
 وقد عدوت الى الحانوت يتعنى شاء مثل شليل شلل شول
- (٥) مثاله قول امرئ القيس :
 مكر مفر مقبل مدبر معا بكهود صخر حطه السيل من عل
- (٦) مثاله قول الشاعر :
 عاتبتها فبكت وقالت يافى نجاك رب العرش من عنى
- (٧) مثاله قول طرفة :
 وقفا بها صحى على مطيم يقولون لا تمك أسى وتجيد
- (٨) مثاله قول الخبزوزى :
 تقشع غيم الهجر عن قمر الحب وفشرف نور الصلح من طلبة العتب
- وقول أبى نواس :
 نسيم غير فى غالة ماء وتمثال نور فى أديم هواء
- (٩) مثاله قول حسان :
 بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأزل

- وأى بيت هو أطول من مثله ، وكأنه ليس من أهله ^(١) ؟
 وأى بيت هو مهين بحرف ، ورهين بمحذف ^(٢) ؟
 وفى المقامة الشعرية ينطقه بهذه الأسئلة :
 أى بيت شطره يرفع ، وشطره يدفع ^(٣) ؟
 وأى بيت نصفه يقضب ، ونصفه يلعب ^(٤) ؟
 وأى بيت إن حرك غصنه ؛ ذهب حسنه ^(٥) ؟
 وأى بيت مدحه ذم ^(٦) ؟
 وأى بيت يأكله الشاء ، متى شاء ^(٧) ؟
 وأى بيت حله عقد ، وكله نقد ^(٨) ؟

- (١) مثاله قول المتنبي :
 عش أبى آسم سد جد مر أنه آسر فـه تسـل
 شظ أرم صب آرم أعز آسب رع زع دل أنى تل
- (٢) مثاله قول أبى نواس :
 لتد ضاع شعرى على بابكم كما ضاع درخل حاله
 فاذا أنشدت «ضاع» كان يجاء ، وإذا أنشدت «ضاء» كان مدحا .
- (٣) مثاله قول الشاعر .
 والله عندى جانب لا أضيقه واليه عندى والخلاعة جانب
- (٤) كقول الشاعر :
 كأن سيوفنا بنا ومنهم مخارق بأيدى لاعبا
- (٥) مثاله قول الشاعر :
 لك قسـة لولا جراح عينيـك لك لعنت عليه ورق الحمام
- (٦) مثاله قول الشاعر :
 فان قوى وإن كانوا ذوى عندد ايسوا من الشر فى شئ ، وإن هاما
- (٧) مثاله قول الشاعر .
 فيا للنوى جذ النوى قطع النوى رأيت النوى قطاعة للقرائن
- (٨) مثاله قول الأعشى :
 دراخنا كلها جيد فلا تحبسا بتقادها

وأى بيت نصفه مدّ، ونصفه ردّ؟^(١)

وأى بيت إن أفلتناه، أضللتناه؟^(٢)

وأى بيت قام، ثم سقط ونام؟^(٣)

وأى بيت أوله يطلب، وآخره يهرب؟^(٤)

وأى بيت ضاق، ووسع الآفاق؟^(٥)

وأى بيت كاد يذهب فعاد.^(٦)

وفي المقامة القريضية ينطق عيسى بن هشام وأبا الفتح الإسكندري بأسئلة وأجوبة تعيّن خصائص الشعراء المتقدمين . وإليك هذا الحوار .

عيسى بن هشام — مخاطبا أبا الفتح — يا فاضل! أدنُ فقدمت، وهات فقد أثنت .

أبو الفتح — سلوني أجبكم، واسمعوا أعجبكم !

عيسى بن هشام — ما تقول في أمرئ القيس ؟

(١) مثاله قول البكري :

أناك دينار صدق يقص سنين . فلما
من أكرم الناس إلا أصلا ودرنا وهما

(٢) مثاله قول الشاعر :

ألا إني بال على جمل بال يقود بنا بال ويتبعنا بال

(٣) كقول الآخر :

ألا أيها النعام ويحكوه هبوا أسألكم هل يقتل الرجل الحب ؟

(٤) مثاله :

بجهل بجهل السيف والسيف مستضى وحلم كحل السيف والسيف مغرود

(٥) كقول أبي نواس :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

(٦) كقول المتنبي :

وما أنا منهمو بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

أبو الفتح — هو أول من وقف بالديار وعصر صاتها، وأغتندى والطير في وكثاتها، ووصف الخيل بصناتها، ولم يقل الشعر كاسبا، ولم يجد القول راغبا، ففضل من تفتق للخيالة لسانه وأتبع للرغبة بنانه .

عيسى بن هشام — فما تقول في النابغة ؟

أبو الفتح — يثلب اذا حق، ويمدح اذا رغب، ويعتذر اذا وهب، ولا يرى إلا صائبا.

عيسى بن هشام — فما تقول في زهير ؟

أبو الفتح — يذيب الشعر والشعر يذيه، ويدعو القول والسحر يجيه .

عيسى بن هشام — فما تقول في طرفة ؟

أبو الفتح — هو ماء الأسعار وطيتها، وكثر القوافي ومدينتها، مات ولم تظهر أسرار دفائنه، ولم تفتح أعلاق خرائنه .

عيسى بن هشام — فما تقول في جرير والفرزدق، وأيهما أسبق ؟

أبو الفتح — جرير أرق شعرا، وأغزر غزرا، والفرزدق أمتن سخرا، وأكثر خفرا، وجرير أوجع هجوا، وأشرف يوما، والفرزدق اذا أفتخر أجزى، واذا احتقر أزرى، واذا وصف أوفى .

عيسى بن هشام — فما تقول في المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم ؟

أبو الفتح — المتقدمون أشرف لفظا، وأكثر من المعاني حظا، والمتأخرون ألطف صنعا، وأرق نسجا .

وهذا وذاك يبين كيف كان آتاب القرن الرابع يعنّون بدراسة الشعر وتعقب أخبار الشعراء، وإنما لتجد مصداق ذلك في مكان آخر إذ يحدثنا عيسى بن هشام بأن « البليغ من لم يقصر نظمه عن نثره، ولم يزر كلامه بشعره » وقد أسلفنا القول بأن مدرسة القرن الرابع النثرية تعتمد في أسسها على المذاهب الشعرية من حيث الصنعة والخيال .

٧ - ولم يكتف بديع الزمان بالخوض في الشؤون الأدبية، بل تعداها إلى المعضلات الكلامية؛ فعرض لمذهب المعتزلة بالتحقير والتسفيه، وآنخذ المتكلم من بين المجانين، إذ حدثنا أن عيسى بن هشام قال :

دخلت مارستان البصرة ومعى أبو داود المتكلم فنظرت إلى مجنون تأخذنى عينه وتدعنى فقال : إن تصدق الطير فأتم غرباء . فقلنا كذلك . فقال : من القوم ، لله أبوهم ؟ فقلت : أنا عيسى بن هشام ، وهذا أبو داود المتكلم . فقال : العسكى ؟ قلت : نعم ، فقال : شامت^(١) الوجوه وأهلها ! إن الخيرة لله لالعبد ، والأبور بيد الله لا بيده . وأنتم يا مجوس هذه الأمة تعيشون جبراً ، وتموتون صبراً^(٢) ، وتساقون إلى المقدور قهراً ، ولو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم^(٣) . أفلا تنصفون ؟ إن كان الأمر كما تصفون ، وتقولون خالق الظالم ظالم ، أفلا تقولون خالق الملوك هالك ؟ أتعلمون يقينا ، أنكم أخبث من إبليس دينا ، قال رب بما أغويتنى ، فأقر وأنكرتم ، وآمن وكفرتم ، وتقولون خير فاختار ، وكلا فان المختار لا يعجز بطنه ، ولا يرى من خالق أبنه ؛ فهل الإكراه ، إلا ماتراه ، والا كراه مرة بالمرة ومرة بالدره ، فليخزكم أن القرآن بغيضكم ، وأن الحديث يغيظكم ، إذا سمعتم « من يضل الله فلا هادى له » ألدتم ، وإذا سمعتم « زويت لى الأرض فأريت مشارقها ومغاربها » جحدتم ، وإذا سمعتم « عرضت على الجنة حتى هممت أن أقطف ثمارها ، وعرضت على النار حتى آتقيت حرها بيدي » أنفضتم رؤوسكم ، ولويتم أعناقكم ، وإن قيل عذاب القبر تطيرتم ، وإن قيل الصراط تفاضرت ، وإن ذكر الميزان قلتم : من الفِرغ كفتاه ، وإن ذكر الكتاب قلتم : من القِد دفناه . يا أعداء الكتاب والحديث بم تطيرون ؟ أبا لله وآياته ورسوله تستهزئون ؟ إنما

(١) يريد : إن تصدق القراءة . (٢) شامت : قبحت . (٣) رد على المعتزلة الذين يقولون بأن المرء مختار في أفعاله . (٤) أى مقهورين على الحياة . (٥) الموت صبرا أن يحبس الرجل حتى يموت والمراد أنهم محبوبسون في آجالهم .

(٦) اشارة إلى جواب القرآن في الرد على من قالوا : « لو كان لنا من الأمر شئ . ماقتلنا هاهنا » .

(٧) المرة بالكسر العقل . (٨) حركتموها كالمتعجبين .

مرقت مارقة فكانوا خَبَثَ الحديث، ثم مرقت منها فأتَمَّ خَبَثَ الحديث . يا مخانيث الخوارج ترون رأيهم إلا القتال، وأنت يا ابن هشام تؤمن ببعض وتكفر ببعض . سمعت أنك أقترشت منهم شيطانة^(١)، ألم ينهك الله عز وجل أن تتخذ منهم بطانة ؟ ويلك هلا تخيرت لنطفتك، ونظرت لعقبك ! ثم قال : اللهم أبدلني هؤلاء خيرا منهم وأشهدني ملائكتك^(٢) ! »

ثم يحدثنا ابن هشام أنه بقى هو وأبو داود لايحيران جوابا ، ويتبين بعد المراجعة أن ذلك المجنون كان أبا الفتح الاسكندري « ينبوع العجائب »

٨ — ولبدیع الزمان مقامة تدل على نحو من فساد الحياة الاجتماعية في بغداد لذلك الحين هي المقامة الرصافية ، وقد شرح فيها حيل اللصوص ، وهي حيل فيها القبيح والطريف عددها فرأيتها تجارز السبعين حيلة وما أظن قرأى ينتظرون أن ألخص تلك المقامة الشريرة فهم عنها أغنياء ! على أن أكثر تلك الحيل لا ينفع اليوم — فلا يأسف بعض الناس ! — لأن أوضاع اللباس وطرق المعاش تغيرت في الدنيا عما كانت عليه منذ عشرة قرون في بغداد، ولعل اللصوص المحدثين اخترعوا من الحيل ما لو رآه بديع الزمان لبدت له حيل بغداده الألعيب صبيانية !

وفي المقامة الرصافية قصة ماجنة أطرف المجنون ، ولكنها لاترعى في هذا الكتاب ، وقد أسقطها المرحوم الشيخ محمد عبده من طبعته ، وبقيت في طبعة استانبول ، وخلاصتها أن عيسى بن هشام عن له على سطح البيت سواد فنظر فإذا هو غلام كانت له مع ابن هشام سابقة إدلال . فتحدث مع جاريته حديثا فيم منه اللص أن في البيت ذخائريهون يجانبها العرض . وتمت الحادثة ، وخرج من البيت وهو خزيان ، وصح لابن هشام أن يقول :

« وفقتش الغلام البيت ؛ فلم يجد سوى البيت » .

وهو تهكم ظريف !

(١) المراد إحدى فناء المعتزلة ، والاقتراش هنا الزراج .

(٢) يريد أن الموت خير من صحبة هؤلاء .

٩ - وبديع الزمان مفلطور على الفكاهة، وهى مشورة فى رسائله ومقاماته، وفى هذا الكتاب طُرف مما تخيرناه^(١). فلنشر فى هذا الفصل إلى حديث عيسى بن هشام حين طال شعره، وآتسخ بدنه، فقد سأل غلامه أن يختار له حماما وحماما، وليكن الحمام واسع الرقعة، نظيف البقعة، طيب الهواء، معتدل الماء، وليكن الحمام خفيف اليد، حديد الموصى، نظيف الثياب، قليل الفضول.

ودخل الحمام، فدخل على أثره رجل وعمد الى قطعة طين فلطخ بها جبينه ووضعها على رأسه. ثم خرج ودخل آخر فجعل يدلكه دلكا يكاد العظام، ويغمزه غمزا يهد الأوصال، ويصفر صفيرا يرش البزاق. ثم عمد إلى رأسه يغسله، وما لبث أن دخل الأول فطمم الثانى لطمعة قعقت أنيابه وقال: يا لكع! مالك ولهذا الرأس وهو لى؟ ثم عطف الثانى على الأول فضربه ضربة هتكت حجابيه وقال: بل هذا الرأس حق وملكى وفى يدي. ثم تلا كما حتى عيا. وتحاكما الى صاحب الحمام فقال الأول: أنا صاحب هذا الرأس، لأنى لطخت جبينه، ووضعت عليه طينه، وقال الثانى: بل أنا مالكة، لأنى دلكت حامله، وغمزت مفاضله!

فقال الحمأى: إئتونى بصاحب الرأس أسأله، ألك هذا الرأس أم له؟

وأتيا عيسى بن هشام فقالا: لنا عندك شهادة.

الحمأى - مخاطبا عيسى بن هشام - يا رجل! لا تقل غير الصدق، ولا تشهد بغير الحق، وقل لى: هذا الرأس لأيهما؟

عيسى ابن هشام - يا عافاك الله! هذا رأسى قد صبحنى فى الطريق، وطاف معى بالبيت العتيق. وما شككت أنه لى!

الحمأى - أسكت يا فضولى!

ثم مال الحمأى إلى أحد الخصمين وقال:

(١) ونوصى القارئ بالرجوع الى مناظرة بديع الزمان سوارزمى المنبئة بآخر الجزء الثانى من هذا الكتاب فقها شواهد كثيرة على روح الفكاهة عند بديع الزمان.

يا هذا إلى كم هذه المنافسة مع الناس ، بهذا الرأس ! تسَلَّ عن قليل خطره ، إلى لعنة الله
وحرقه . وهب أن هذا الرأس ليس ، وأنا لم نر هذا التيس !

وكانت النتيجة أن نجح عيسى بن هشام وليس ثيابه وأنسلَّ من الحمام .
وللقارئ أن يتأمل الدتابة في هذه الأقصوصة فإنها في غاية من الظرف .
أما قوله " اسكت يا فضولى ! " فهو في هذا الموضع من وثبات الخيال .

١ . — ويحانب الأوصاف والفكاهات وضع بدیع الزمان طائفة من العظات ، كأنه
أراد أن يودع مقاماته أظهر ضروب البيان ، من ذلك ما حدثنا أن أبا الفتح الإسكندري
لما جهز ولده للتجارة أوصاه فقال :

" يا بني ! إني وإن وثقت بمثانة عقلك ، وطهارة أصلك ، فإني شفيق ، والشفيق سيئ
الظن ، ولست آمن عليك النفس وسلطانها ، والشهوة وشرطانها ، فاستعن عليهما نهارك بالصوم ،
وليلك بالنوم ، إنه أبوسُ ظهارته الجوع ، وبطانتة المجوع ، وما لبسهما أسد إلا لانت
سورته ، أفهمتهما يا ابن الخبيثة ؟ ! وكما أخشى عليك ذاك فلا آمن عليك لصين أحدهما الكرم ،
وآسم الآنحر القرم^(١) ، فإياك وإياهما . إن الكرم أسرع في المسال من السوس ، وإن القرم أشام
من البسوس . ودعني من قولهم : إن الله كريم . إنها خدعة الصبي عن اللبن . بلى إن الله
لكريم ، ولكن كرم الله يزيدنا ولا ينقصه ، وينفعنا ولا يضره ، ومن كانت هذه حاله ، فلتكرم
خصله . فأمَّا كرم^(٢) لا يزيدك حتى ينقصني ، ولا يريشك حتى يبريني ، فخذلان لا أقول
عبرى ، ولكن بقري . أفهمتهما يا ابن المشثومة ؟ ! إنما التجارة ، تنبط الماء من الحجارة ،
وبين الأكلة والأكلة رنج البحر ، بيد أن لا خطر ، والصين غير أن لا سفر ، أفتركه وهو
معرض ثم تطلبه وهو معوز ؟ أفهمتهما لا أم لك ؟ ! إنه المال ، عافاك الله ! . فلا تتفقن
إلا من الرنج ، وعليك بالخبز والملح ، ولك في الخل والبصل رخصة مالم تؤذهما ، ولم تجمع^(٤)
(١) القرم ، بالحريك ، اشتداد الشهوة إلى اللحم (٢) امرأة عربية ثارت بسببها الحرب أربعين عاما بين
فيلين فغرب بها المثل في الثؤم . (٣) منسوب إلى بقربض فتفتح وهو الداحية .
(٤) من أذمه وجده ذميا .

بينهما . واللحم لحك وما أراك تأكله ، والحلو طعام من لا يزال على أى جنبيه يقع ، والوجبات عيش الصالحين ، والأكل على الجوع وأقية القوت ، وعلى الشيع داعية الموت ، ثم كن مع الناس كلاعب الشطرنج ، خذ كل ما معهم وأحفظ كل ما معك !

يا بنى قد أسمع وأبلغت ، فإن قبلت فآله حسبك ، وأن أبدت فآله حسبك^(١) .

وهناك المقامة الوعظية وقد رصعها بأبيات من الشعر متحدة القافية والوزن ، وهو فن يجيده بديع الزمان .

١١ - وهناك مقامات كثيرة نحسبها أنهيت من رسائله ، وهى بعيدة عن منجى القصص ، وأغلب الظن أنها رتبت كذلك على أيدي بعض النساخ .

١٢ - وبديع الزمان فى مقاماته رجل حرص وحذر وأرتياب ، ولا ينطق أبا الفتح بالحكمة إلا اقتناصا للال ، فى المقامة الكوفية يطرق باب عيسى بن هشام فيسأل من المتأب ؟ فيجيب الطارق : « وفد الليل وبريده ، وفل الجوع وطريده ، وحرقة الضر ، والزمن المر ، وضيف وطؤه خفيف ، وضالته رغيف ، وجار يستعدى على الجوع ، والجيب المرقوع ، وغريب أوقدت النار على سفره ، ونبح العواء فى أثره ، ونبتت خلفه الحصيات ، وكنت بعده العرصات ، نضوه طليح ، وعيشه تبرج ، ومن دون فرخيه مهامه فيح »^(٢) .

ويش عيسى بن هشام لهذا السائل الأديب فينفحه بالمسال ويقول : زدنى سؤالا أزدك نوالا ! فيقول الطارق :

« ما عرض عرف العود ، على أحر من نار الجود ، ولا لنى وفد البر ، بأحسن من بريد الشكر ، ومن ملك الفضل فليواس ، فإن يذهب العرف بين الله والناس » .

(١) وهذه الوصية أشباه فى أدب بديع الزمان ، ورسالة فى وصيته لابن أخته معرويه ، وقد ترجمها الى الفرنسية « أنظر الأصل الفرنسى ص ١٥٤ و ١٥٥ » .

(٢) المهامه جمع مهمه وهو اليداء ، وفيح جمع أفصح وفيحاء ، أى واسعة ، والمعنى مأخوذ من قول ابن خلم الشيبانى : وناحت وفرخاها بحيث تراهما ومن دون أفرانى مهامه فيح

ويطرب عيسى بن هشام لهذا السجع الجميل ويفتح الباب فيرى السائل أبا الفتح فيقول :
«شد والله يا أبا الفتح ما بلغت منك الخصاصه !» :

فيتبسم أبو الفتح وينشئ يقول .

أنا فيه من الطلب	لا يفرّك الذي
لها برده الطرب	أنا في ثروة تشق
ت سقوا من الذهب	أنا لو شئت لأتخذ
ط وطورا من العرب	أنا طورا من النيب

وفي المثامة القردية يفضل الحق على العقل ويقول :

فأعتب على صرف الليالي	الذنب بلايام لا لي
ورفت في حلال الجمال	بالحق أدركت المنى

١٦٢ — وخلاصة القول أن مقامات بديع الزمان تحفة من تحف التراث الفنى فى القرن
رابع ، وقد أورد أن نطيل بها الطواف ليتعرف إليها القارئ ، فقد كان مفهوما عند كثير من
الناس أنها ألاعيب لغزية ليس فيها من المعانى ما يستحق الدرس ، ولكننا بعد مواجهتها مرة ومرة
رأينا فيها من أمارات العقل والذكاء وخفة الروح ما يوجب الإعجاب ، وكنا نحفظها فى الحداثة ،
غير أننا لم نكن ندرك خطورها كما تمت لنا فى هذه الأيام .

فى تلك المثامات بعض العيوب ، ولكن أى عمل فنى سلم سلامة مطلقة من العيوب ؟
ونترك للقارئ أننا لم نكشف من محاسنها إلا القليل ، فليعد إليها يطالعها فى فهم وروية ،
وليتأمل بصفة خاصة قرار الألقاظ والتراكيب وصوغ الأمثال .

وسيرى القارئ فى الجزء الثانى مخات من سيرة بديع الزمان وتحليل رسائله ، ولكن ذلك
لا يغنى عن العودة الى مقارنة المقامات بالرسائل واستخلاص صور الحياة الاجتماعية لذلك
العهد من آثار ذلك الكاتب الشجاع .

٣ - أحاديث ابنه دريد

رأى القارئ أن بديع الزمان الهمداني ليس المنشئ الأول لفن المقامات، وإنما حاكى أحاديث ابن دريد، فمن هو ابن دريد؟ وما عسى أن تكون الأربعون حديثاً التي أنشأها وفتح بها باب القصص لبديع الزمان؟

١ - ولد أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد بالبصرة في خلافة المعتصم سنة ٢٢٣ ثم صار الى عمان فأقام بها مدة، ثم صار الى فارس فسكنها مدة، ثم قدم بغداد فأقام بها الى أن مات سنة ٣٢١

ولسنا هنا بصدد الإفاضة في حياة ابن دريد وما وقع فيها من مختلف الأحداث، وما عُرف به من قوة الحفظ وكثرة الإملاء، وما أخذ عليه من أفتعال العربية وتوليد الألفاظ، وإدخال ما ليس من كلام العرب في كلامها^(١)، وإنما يهمنا أن نذكر بعض الجوانب الدقيقة من تلك الشخصية القوية التي حسبها الناس لا تحسن غير رواية اللغة والشعر وتصريف الأفعال. وسنرى أن ابن دريد بالرغم من شغله باللغة والرواية وكلفه بالبحوث الجافة التي تنجم على القلب، كان رجلاً دقيق الحس، عذب الروح، وليس يكبر عليه أن يكون فناناً بارعاً يدين له أمثال بديع الزمان ممن طُبعوا على جودة الفهم وحسن البيان.

٢ - كان ابن دريد شاعراً. ولكن أى شاعر؟ شاعر مُثَقِّل، تحفظ له الأبيات والمطوعات، وبعض القصائد، ولكنه كان يسكب روحه فيما ينظم من الشعر، فتسرى معانيه قوية سخارة بلا جلبة ولا ضوضاء، كما تفعل الجمون النواعس بألباب الشعراء. نخرج مرة يريد عمان فنزل تحت نخلة فاذا فاختتان تزقوان في فرعها فقال:

أقول لورقاوين في فرع نخلة^(٢) وقد طفل الإماء أو جنح العصر

(١) ص ٤٨٦ ج ٦ ياقوت. (٢) منى ورقاء وهي المائة.

وقد بسطت حاتا لثلك جناحها ومال على هاتيك من هذه النحر
 ليهنكا أن لم تُرَاعا بفرقة وما دب في تشيتت شملكهما الدهر
 فلم أر مثلى قطع الشوق قلبه على أنه يحكى قساوته الصخر
 وهي أبيات تفيض بالرفق والحنان، وتمثل أئتلاف الطير أرق تمثيل، ولا يعرف قيمتها
 إلا من أَلَفَ مناغاة الطير في ضخوات الربيع وأصائل الخريف .

ومن شعر ابن دريد هذان البيتان :

عانقت منه وقد مال النعاس به والكاس تقسم سكرًا بين جلّاسي
 ريحانة ضميخت بالسك ناضرة تمجّ برد النبدى في حرّ أنفاسي
 وفي هذين البيتين صورة شعرية جذابة، والبيت الثاني يبدو وكأنه وثبة من وثبات الخيال .
 ٢٧ — ماذا تجاوزنا أمثال هذه الشواهد من شعر ابن دريد — وفيها وحدها الدلالة على
 التفوق في الآقتان والابتداع — ثم انتقلنا إلى حياة الرجل الخاصة رأيناها شهيدة بدقة فهمه،
 وسلاوة نكتته، وجزأته في الخروج على ما ألفت الجماهير . جاءه يوما سائل فلم يكن عنده
 غير دتّ نبيذ فوهبه له . بقاء غلام وأنكر عليه ذلك، فاحتج بقوله تعالى : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى
 تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾^(١) . وهي نكتة تدل على خفة الروح ولطف النسيم . وتذاكر جماعة يوما
 المنزهات في مجلس ببعض الأشراء وابن دريد حاضر، فقال بعضهم أنزه الأماكن غوطة دمشق
 وقال آخرون : نهر الأبلّة ، وقال آخرون بل سغد سمرقند ، وقال بعضهم نهروان بغداد، وقال
 بعضهم سيب نوان بأرض فارس وقال آخر نو بهار بلخ . فقال ابن دريد : هذه منزهات
 العيون ، فإين أنتم من منزهات القلوب ؟ قالوا : وما هي يا أبا بكر ؟ قال : عيون الأخبار
 لابن قتيبة، والزهرية لابن داود، وفاق المستاق لابن أبي طاهر، ثم أنشد :

ومن تلك نزهته قينةً وكأس تُحْتَّ وكأس تصبّ
 فنزحتنا وأستراحاتنا تلاقي العيون ودرس الكتب^(٢)

وهذا حديث طريف كانت لفظة ابن دريد فيه لفظة الشاعر الفيلسوف إذ يقول "هذه
متزهات العيون، فأين أتم من متزهات القلوب" على أن في الشعر الذي أنشده كلمة تستوقف
النظر، تلك كلمة "تلاقي العيون" التي قدمها في متعة القلب على "درس الكتب" فهو رجل
يرى الجمال في الطبيعة الناطقة طبيعة الانسان الجذاب التي يؤثرها على جمال الأنهار والبحار
والمروج الفيحاء، والرياض الغناء .

٤ - ومن الدلائل على خفة روحه وحلاوة نكته تلك الرؤيا التي قصها علينا إذ قال :
"سقطت من منزلي بفارس فانكسرت ترعوقي، فسمهرت ليلي، فلما كان آخر الليل حملتني
عيناي فرأيت في نومي رجلا طويلا أصفر الوجه دخل عليّ وأخذ بعضادتي الباب وقال :
أنشدني أحسن ما قلت في الخمر . فقلت : ما ترك أبو نواس شيئا . فقال : أنا أشعر منه .
فقلت ومن أنت ؟ قال أنا أبو ناجية من أهل الشام، ثم أنشدني :

وحمرأ قبل المزج صفراء بعده بدت بين ثوبى نرجس وشقائق

حكمت وجنة المعشوق صرفا فسلطوا عليها مزاجا فاكتست لون عاشق

فقلت له : أسأت . قال : ولم ؟ قلت لأنك قلت : (وحمرأ) فقدمت الحجرة ، ثم
قلت : (بدت بين ثوبى نرجس وشقائق) فقدمت الصفرة . فالأ قدمتها على الأخرى كما
قدمتها على الأولى ! فقال : وما هذا الاستقصاء في هذا الوقت يا بغيض ! وقد رويت هذه
القصة على نحو آخر في كتاب طبقات النحاة لأبن الأبارى ص ٣٢٤ فلتراجع هناك .

٥ - وكان ابن دريد فوق هذه المرونة العقلية جريئا في بيته وفي درسه جرأة جامحة
لا يسمو اليها ولا يقوى على تكليفها إلا من وثق بأنه أمة وحده وأن على الناس أن يسمعو له
طائعين . فاذا سمعت أنه ألف أكثر من عشرين كتابا في اللغة والأدب وأنه كان أعرف أهل
زمانه بما ترك الأولون فاذا كرى بجانب ذلك أنه كان رجلا سرحا طروباً ، وأن نفسه اللعوب

أوحى إليه أفانين من الأدب بهرت معاصريه وأعطته في الثروة بارعة تجعله في الصف الأول من صفوف المبدعين .

٦ - ولكن ما هي آثاره الثرية ؟

هي تلك الأربعون حديثاً التي حدثنا عنها الحصري في زهر الآداب ، والتي حاجت بديع الزمان وحملته على أن يكتب في معارضتها أربعاً مائة مقامة لم يبق منها إلا أربعون . وقد شقيت في البحث عن تلك الأحاديث ، ثم عدت أتمس الصواب فيما أفترضه الدكتور طه حسين وأخذت أتبع كل ما رواه القالي عن ابن دريد فوجدته روى عنه أكثر من ستين حديثاً بعضها قصير وبعضها طويل . ثم قابلت تلك الأحاديث بالحديث الشائق الذي نقله عنه حمزة الاصفهاني جامع ديوان أبي نواس فصحت لدى النتائج الآتية :

أولاً - حديث ابن دريد في حج أبي نواس حديث ممتع خلاب كتب بطريقة روائية تصلح تمام الصلاحية لأن تكون أساساً لفن المقامات . ولست أشك الآن في أن هذا الحديث جزء من الأربعين حديثاً التي أبتكرها ابن دريد .

ثانياً - الأحاديث التي نقلها القالي عن ابن دريد تشتمل على طائفة من القصص المسجوعة تنرب في وضعها من قصته عن حج أبي نواس وتصلح أيضاً أن تكون أساساً لفن المقامات . فلا بأس من الاطمئنان إلى أنها سطر من الأربعين حديثاً التي عارضها بديع الزمان .

ثالثاً - إذا غرضنا النظر عن الأحاديث القصيرة جداً التي نقلها القالي عن ابن دريد وعددها بما رواه عن شيوخه أو عما وقع إليه من كلام الأعراب ، كان ما بقي من أحاديثه المتشابهة في القدر والوضع والأسلوب قريباً من الأربعين .

رابعاً - يلاحظ أن أكثر ما روى القالي عن ابن دريد من الأحاديث جرى على ألسنة ناس مجهولين : فاستحصاه يكونون حيناً من الأعراب ، وتارة يكونون من أقيال اليمن الذين لا يعرف لهم أسم ولا يحفظ لهم تاريخ ، وأحياناً يكونون من النكرات التي لا يعرف لها وجود وهذا دليل على الوضع والاختراع .

خامسا — لاحظ صاحب زهر الآداب أن الأربعين حديثا التي آبتكرها ابن دريد (جاء أكثرها مما تنبؤ عن قبوله الطباع، ولا ترفع له حجبها الأسماع) وأنها وقعت "في معارض عجمية وألفاظ حوشية" ولو أننا تتبعنا ما نقله القالى من تلك الأحاديث لوجدنا الصنعة والإغراب ظاهرين فيها كل الظهور. وربما ساغ لنا أن نفترض أن ابن دريد تعمد أن يدس في أحاديثه بعض الألفاظ التي آتهم باقتعالها وتوليدها، فقد آتهم أبو منصور الأزهرى في مقدمة كتاب التهذيب بادخال ما ليس من كلام العرب في كلامها، فكان من همه إذن أن يجرى ما آتهم باقتعاله على ألسنة الاعراب لتسقط عنه تهمة الاختلاق.

٧ — بعد ذلك نرى من المهم أن نتناول بالتحليل بعض أحاديث ابن دريد، ولنذكر أولا أن تلك الأحاديث في حملتها تمثل جانب الدعابة والفن من ذلك الرجل الخليع. وأى نكتة أدق وأرشق من قصة توضع مثلا عن حج أبي نواس؟ إن رحيل أبي نواس إلى بيت الله الحرام هو في نفسه قصيدة من قصائد المجون، فكان من الحتم أن يُعنى بعض الكتاب المازحين بعرض تلك الشخصية عرضا تلتقى فيه الفكاهة والسخرية بصورة توهم القارئ أن ماتحت عينيه جدُّ صراح. وكذلك فعل ابن دريد فأنتطق أبا نواس بقصة طريفة حدثنا فيها أنه لقي في طريقه نصبا إذ أنهمل المطر في أرض بنى فزارة ففرغ إلى بعض الخيام فاذا جارية مبرقة ترنو بطرف مريض الجفون ساحر النظر، فاستسقاها، فضمت تهادى في جسم خصب رشيق، وأحضرت إليه الماء، ثم كان منه حوار مملوء بالسفه واللؤم أراد به الوصول إلى معاينة ماتحت تلك الثياب من أسرار الجمال. ولكن طبل الرحيل صرفه فانصرف، وفي قلبه حسرة كامنة وكرْبٌ دخيل، فلما قضى حجه ورجع مر بتلك الخيام طامعا في الصيد، ولكن مطامعه انتهت بخيبة مخجلة تكتفى في الابانة عنها بهذه الاشارة، ونحيل القارئ على مقدمة الديوان ليرى كيف برع ابن دريد في السخرية من أبي نواس.

٨ — ثم ننظر بعد فنرى ابن دريد آتهم بتصوير التماثل العربية وكلف بنوع خاص بتقديم طائفة من الصور المختلفة عن أحلام النساء في فهم الرجال، وإعجاب البنات بأعمال

الآباء، وما يقع من الملاحاة بين الأزواج، والتواصى بين الشباب والكهول. كل ذلك بطريقة قوية أخاذة تجعل له مكانا بين العالمين بالغرائز وأهواء النفوس. ونلاحظ أنه يميل إلى الفكاهة حين يعرض للهواجس الجنسية فينطق النساء والبنات بألفاظ وتعاير تغلب عليها النكتة، وبخاصة حين يتكلم عن فتاتين تتبادلان الأمانى أو زوجين يتقارضان الهباء، فتلك فتاة تصف الزوج المشتبه بأنه إن ضم قضيقض وإن دسر أغمض، وتلك امرأة تخاضع لزوجها فتصممه بأنه يشبع ليلته يضاف، وينام ليلته يخاف، وأولئك بنات عتسن أبوهن فتهامسن بحيث يسمع بأبيات من الشعر قهرته على أن يعجل لمن بالزواج^(١).

٩ - فإذا تحدث ابن دريد عن شجعان العرب وفرسانهم وأجوادهم رأيناه رجلا جزل الرأي بعيد الغور ينطق بالحكم وفصل الخطاب، فنراه تارة يقول على لسان أوس بن حارثة "المبية ولا الدنية، والعتاب قبل العقاب، والتجلد لا التبلد، والقبر خير من الفقر، ومن قلّ ذل، ومن أسر قلّ، والدحر يومان فيوم لك ويوم عليك"^(٢). وزاه أخرى ينطق رجلا أعمى من أزد السراة يقوده شاب جميل فيقول "يا ابن أخي! إن اغترارك بالشباب كالتذاذك بسمادير الأحلام، ثم تتشبع فلا تلمسك منها إلا بالحسرة عليها. ثم تعرى راحلة الصبا وتشرب سلوة الهوى. وأعلم أن أغنى الناس يوم الفقر من قديم ذخيره، وأشدّهم اغتباطا يوم الحسرة من^(٣) أحسن سريرة".

١٠ - وبمراجعة أحاديث ابن دريد نلاحظ أنه يتعقب أعيان الجاهلية فينطقهم بالوان من الحوار تمثل ما كان يحب العرب أن يعرف عن أسلافهم من كرم الطباع وشرف الأحساب. ولو بقيب لنا مقامات بديع الزمان كاملة لعرفنا إلى أى حدّ حاكى ابن دريد في هذا الباب. فان قصبة بشر بن عوانة التي اخترعها بديع الزمان نموذج طريف في ابتداع الأفاصيص... إلى هنا عرفنا الفسوف بين مقامات بديع الزمان وأحاديث ابن دريد. وعرفنا من السابق ومن المسبوق، فلننظر ما ترك معاصروهم من هذا البدع الجديد.

(١) ص ١٧ ج ١ أمال. (٢) ص ١٠٤ (٣) ص ١٠٧ ج ٢ (٤) أمر الرجل كثر عدده.
(٥) ص ١٠٢ ج ١ (٦) ربما كان الصواب «الحشر» بدل الحسرة. (٧) ح ٢ ص ٢١٦

نموذج من أحاديث ابن دريد

أخبرنا عبد الرحمن عن عمه قال :

دُفِئْتُ يوماً في تلمسى بالبادية الى وادٍ خَلاء لا أنيس به إلا بيت معتز، بفنائها أعز، وقد ظمئت، فيممتته فسامت، فاذا عجوز قد برزت كأنها نعمة راحم^(٢)، فقلت : هل من ماء ؟ فقالت : أو لبن ؟ فقلت ما كان بغيتي إلا الماء، فاذا يسر الله الابن فاني اليه فقير . فقامت الى قعب فأفرغت فيه ماء ونظفت غسله، ثم جاءت الى الأعتر فتغبرتن حتى آحتلبت قراب ملء القعب، ثم أفرغت عليه ماء حتى رغا وطففت ثمالة كأنها غمامة بيضاء، ثم ناولتني إياه فشربت حتى تحببت^(٣) رياء، وأطمأنت . فقلت إني أراك معتزة في هذا الوادى الموحش، والحيلة منك قريب، فلو أنضمت الى جنابهم^(٥) فأنست بهم . فقالت : يا ابن أخي ! إني لأنس بالوحشة، وأستريح الى الوحدة، ويطمئن قلبي الى هذا الوادى الموحش، فأنذرك من عهدت، فكأنني أخطب أعيانهم، وأترأى أشباحهم، وتتحيل لي أندية رجالهم، وملاعب ولدانهم، ومُنْدَى أموالهم . والله يا ابن أخي لقد رأيت هذا الوادى بشع اللديدين بأهل أدواح وقباب، ونعم كالهضاب، وخيل كالذئاب، وفتيان كالرماح، يبارون الرياح، ويمحون الصباح، فأحال عليهم الجلاء قفاً بغرفة فأصبحت الاثار دارسة، والمحال طامسة، وكذلك سيرة الدهر فيمن وثق به . ثم قالت : أرم بعينيك في هذا الملا المتباطن . فنظرت فاذا قبور نحو أربعين أو خمسين . فقالت : ألا ترى تلك الأجداث ؟ قلت نعم . قالت : ما أنطوت إلا على أخ أو ابن أخ أو عم أو ابن عم، فأصبحوا قد ألمت عليهم الأرض، وأنا أترقب ما غلهم . انصرف راشداً رحمك الله !

- (١) معتز : منفرد . (٢) الراحم التي تحضن بيضها . (٣) تحببت : امتلأت . (٤) واجمع الحلال : وهي بيوت الناس . (٥) الجناب : فناء الدار . (٦) بشع : ملان . (٧) اللديدان : الجانيان . (٨) الأدواح : جمع دوحه وهي الشجرة العظيمة . (٩) الهضاب : الجبال الصغار . (١٠) قفا : كنساء، قمت البيت : كنسة . والفرقة واحدة الغرف وهو ضرب من الشجر . (١١) الملا : النضا . (١٢) متباطن : متظامن . (١٣) ألمت عليهم : احتوت عليهم وتلبأت عليه الأرض : استوت عليه ووارته .

٤ - روايات الأغاني

١ - من مشاهير الكتاب في القرن الرابع أبو الفرج الأصبهاني المتوفى سنة ٣٥٦ في خلافة المطيع^(١) . والأصبهاني هذا يعد في رأي أكبر مؤلف عرفته اللغة العربية . ولا يوجد في المؤلفين من بعده من لم يعول عليه ، ويندر أن نجد باحثا في تاريخ الأدب أو تاريخ الإسلام لم يتخذ كتاب الأغاني مرجعا له . والأغاني هذا كتاب عظيم في ٢١ مجلدا ألفه الأصبهاني في خمسين سنة وكتبه مرة واحدة في عمره وأهداه الى سيف الدولة بن حمدان^(٢) .

٢ - وشهرة الأصبهاني وكتابه مستفيضة فلا حاجة لإعادة ما يعرفه الناس . وإنما أريد هنا أن أنص على ناحيتين في الأصبهاني وكتابه لم أجد من تنبه لهما من الباحثين . ولهاذين الناحيتين أهمية عظيمة في فهم الحياة الأدبية ، وسيكون لهما أثر عظيم في دعوة المؤلفين الى الاحتياط حين يرجعون الى كتاب الأغاني يتلمسون الشواهد في الأدب وفي التاريخ .

الناحية الأولى خاص بالأصبهاني : تلك الناحية هي خلقه الشخصي . فقد كان الأصبهاني مسرفا أتسع الإسراف في اللذات والشهوات ، وقد كان لهذا الجانب من تكوينه الخلق أثر ظاهر في كتابه ، فإن كتاب الأغاني أحفل كتاب بأخبار الخلاعة والمجون . وهو حين يعرض للكتاب والشعراء يهتم بسرده الجوانب الضعيفة من أخلاقهم الشخصية ، ويهمل الجوانب الجدية إهمالا ظاهرا يدل على أنه كان قليل العناية بتدوين أخبار الجدة والزانة والتجمل والاعتدال . وهذه الناحية من الأصبهاني أفسدت كثيرا من آراء المؤلفين الذين أعتمدوا عليه ، ونظرة فيما كتبه المرحوم جورج زيدان في كتابه تاريخ أدب اللغة العربية ، وما كتبه الدكتور طه حسين في حديث الأربعة تكفي للاقتناع بأن الاعتماد على كتاب الأغاني جرّ هذين الباحثين الى الخط

من أخلاق الجماهير في عصر الدولة العباسية ، وحملهما على الحكم بأن ذلك العصر كان عصر شك وفسق ومجون .

٣ - ولا أريد بهذا أن أحكم بأن الأصهباني كان يعتمد الاختلاق ، وأن الجمهور في العصر العباسي كان مغموراً بالطهر والعفاف ، كلا ، فقد قلت غير مرة إن الحياة الانسانية مزيج من الشك واليقين ، والحلم والجهل ، والهدى والضلال ، وإن الانسان لا يكون خيراً محضاً ولا شراً محضاً ، وإنما بقاءه في أن تكون سريره مسرحاً لنوازع النى والرشد ، والبر والفجور ، ولكنى أريد أن أقول : إن إكثار الأصهباني من تتبع سقطات الشعراء ، وتلمس هفوات الكتاب ، جعل في كتابه جواً مشبعاً بأوزار الإثم والغواية ، وأذاع في الناس فكرة خاطئة هي اقتران العبقريّة بالتزق والطيش والخروج على ما ألفت الجماهير من رعاية العرف والدين .

٤ - أما الناحية الثانية فهي خاصة بكتاب الأغاني : تلك الناحية هي نظم ذلك الكتاب ، ففي مقدمته عبارات صريحة في الدلالة على أن مؤلفه قصر آهتاه أو كاد على إمتاع النفوس والقلوب والأذواق : فهو كتاب أدب لا كتاب تاريخ . وأريد بذلك أن المؤلف أراد أن يقدم لأهل عصره أكبر مجموعة تُغذى بها الأندية ومجامع السمر ومواطن اللهو ومغانى الشراب . وإنه ليحدثنا في المقدمة بأنه أتى في كل فصل من كتابه بفقرٍ إذا تأملها قارئها لم يزل متنقلاً بها من فائدة الى مثلها ومتصرفاً فيها بين جد وهزل ، وآثار وأخبار ، وسير وأشعار متصلة بأيام العرب المشهورة ، وأخبارها المأثورة ، وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الاسلام . وأخبرنا بعد ذلك أنه آهم بالغناء الذي عرف له قصة تستفاد وحديثاً يستحسن . وعلى ذلك بقوله : ” إذ ليس لكل الأغاني خبر نعرفه ولا في كل ما له خبر فائدة ، ولا لكل ما فيه بعض الفائدة رونقٌ يروق الناظر ويلهى السامع “ .^(١)

وأحب أن يتأمل القارئ قوله : ” رونق يروق الناظر ويلهى السامع “ فهذا التعبير هو الوصف الصادق لما آختر الأصهباني أن يدور عليه كتابه حين أراد أن يقدم ما رافقه من أيام

العرب وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الاسلام، وخصوصا إذا لاحظنا أن كلامه يشعر بأنه مستعد لإهمال ما فيه بعض الفائدة إذا خلا من ذلك الروق الذي "يروق الناظر ويلهمي السامع". فهو إذن يساير القراء المتطلعين الى النواحي الطريفة من أخبار الملوك والخلفاء والوزراء والكتاب والشعراء . ولهذا النحو في التأليف قيمة عظيمة جدا إذا فهمه القارئ على وجهه الصحيح : فهو دليل على خصوبة التصور والخيال، وبرهان على أن كتاب اللغة العربية لم يرموا من القصص الشائقة، الخلاب، ولم يفهم أن يقدموا لأوقات اللهو والفراغ ما تحتاج اليه العقول المكدودة والنفوس المحزونة من طرائف الأقاصيص وغرائب الأسفار . ولكن الخطر كل الخطر أن يطمئن الباحثون الى أن لروايات الأغاني قيمة تاريخية، وأن يبنوا على أساسها ما يشاءون من حقائق التاريخ . لاسيما صاحب الأغاني بصارحنا بأن "في طباع البشر محبة الانتقال من شيء الى شيء، والاستراحة من معهود الى مستجد، وكل مستقل اليه أشهى الى النفس من المتقل عنه، والمبتكر أغلب على القلب من الموجود" وأن "انتقال القارئ من خبر الى غيره ومن قصة الى سواها ومن أخبار قديمة الى محدثة ومليك الى سوقة وجدة الى هنزل" أدعى الى نشاطه وأبعث على شهوته لتصفح ما في الكتاب من مختلف الفنون .

٥ - ولأصرب المثل بما قصه صاحب الأغاني من أخبار عمر بن أبي ربيعة، وهي أخبار ظنها كثير من الباحثين صورة حياة المخاز في القرن الأول للهجرة، وقد حدثني المسيو ماسينيون بأن لأشعار عمر بن أبي ربيعة وحوادثه أهمية عظيمة من هذه الناحية . وأنا قد اعتمدت بالفعل على كتاب الأغاني حين فصلت أحاديث من عرف ذلك الشاعر من الملاح في الطبعة الثالثة من كتابي "حب ابن أبي ربيعة وشعره" ولكنني دعوت القارئ الى الاحتراس وبينت له أنني أريد أن أرسم من ابن أبي ربيعة صورة جذابة تشبه صورة ميسيه عند الفرنسيين وجوت عند الألمان ويرون عند الانجليز . وأنا أستبج هذا النحو من استغلال كتب الأدب والتاريخ، فإن الأدب يقصد به إمتاع القلوب كما يراد به إقناع العقول . ومتى نص الكاتب

على أن وجهته فنية محضة وأن منحاها أدبيّ صرف فقد أبرأ ذمته عند من يريد أن يتخذ من أقاصيص الأدب صورة صادقة لحياة الأشخاص وما أحاط بهم من مختلف البيئات وشتى الظروف . وكذلك فعلت حين قالت :

”إن كثيرا من حوادث ابن أبي ربيعة الغرامية من صنع الخيال . وقد قبلناه على علاته واكتفينا بتلك الإشارة عند التمهيد لأخبار الملاح ، إذ كانت حوادث ابن أبي ربيعة التي أضيفت إليه تدلنا على شيئين : فهي أولا علامة على أن المتقدمين أنسوا بروحه وأسلموا قلوبهم لوجيهه فأبدعوا في ظلال ذكره ما شاء الخيال من أحاديث الحب الظافر والهوى الغلاب ، وهي ثانيا دليل على أنه كان للمتقدمين ميلٌ إلى القصص الغرامي وحظ من الإجادة فيه ، فكان من الخير أن نستغل تلك الباكورة القصصية ونحن نتحدث عن هوى ذلك الشاعر من حسان النساء^(١) .“

لكن صاحب الأغاني لم يفعل شيئا من ذلك ، وإنما ساق أخبار ابن أبي ربيعة كلها على أنها حقائق ، وساقها مروية بالسند ، والرواية بالسند شيء ساحر فتن به كثير من الناس وظنوه علما دقيقا له آداب وشروط ، واعتمادا على هذا العلم الدقيق أطمأن أكثر الباحثين إلى روايات الأغاني فضلوها وأضلوها في حقائق التاريخ .

٦ — قلت إن صاحب الأغاني كان يهتم بالنواحي الطريفة من السير والأخبار . فلا ذكر من أدلة ذلك أنه حدثنا بسنده عن ابن أنس زرقان عن أبيه قال : أدركت مولى لعمر بن أبي ربيعة شيخا كبيرا فقلت له : ”حدثني عن عمر بن عبد العزيز عن أبيه“ وكلمة ”حديث غريب“ هذه لها معناها فيما نحن بسبيله من أخذ الرواة بالتلفيق والاختلاق ، فإن البحث عن الأوضاع الغريبة من أحاديث عمر بن أبي ربيعة يدل على ظمأ تلك النفوس إلى النادر المستطرف من القصص والأحاديث . وما عسى أن يكون ذلك الخبر الغريب ؟ هو خبر يشبه من أكثر نواحيه قصة حج أبي نواس التي اخترعها ابن دريد . فأبى نواس حين رجع من حجه اجتذبه جماعة من

(١) راجع كتاب « حب ابن أبي ربيعة وشعره » ص ٢٩٥ من الطبعة الثالثة .

حسان النساء . وما كاد يطمئن الى ظفره بما كان يشتمى من جميل الصيد حتى دخل عليه جماعة من العبيد في حالة جراحة بددت ما نظم من ساحر الأحلام . وأبن أبى ربيعة في حجة تعرض لنسوة من جوارى بنى أمية نخلينه ووعدنه بتذكرة طيبة تكون تحفة له كلما تذكر أنسه بهن في أيام الطواف ، فلما بعث غلامه ليتسلم التذكرة عاد ومعه صندوق لطيف مقفل مخشوم كان يظن أنه أودع طيبا أو جوهرا ، ففتحه فإذا هو مملوء من المضارب وهي الكيرنجيات وإذا على كل واحد منها اسم رجل من بجان مكة وفيها اثنان كبيران على أحدهما الحارث بن خالد وهو يومئذ أمير مكة وعلى الآخر عمر بن أبى ربيعة . وإذا كانت المضارب والكيرنجيات هي آلات السفاد فقد تم التشابه بين قصة عمر وقصة أبى نواس .

وتجد صاحب الأغاني في مكان آخر يروى بسنده عن عثمان بن ابراهيم الخاطبي أنه قال :
 ” أتيت عمر بن أبى ربيعة بعد أن نسك بسنين وهو في مجلس قومه من بنى مخزوم فانتظرت حتى تفرق القوم ثم دنوت منه ومعى صاحب لى ظريف وكان قد قال لى : تعال حتى نبيحه على ذكر نعل فنظر مل بقى في نفسه منه شيء ؟ فقال له صاحبي : يا أبا الخطاب ، أكرمك الله ! لتد أحسن العذرى وأجاد فيما قال ، فنظر عمر اليه ثم قال له : وماذا قال ؟ قال حيث يقول :

لو جدد بالسيف رأسي في مودتها لمز يهوى سريعا نحوها راسي

ثم مضى يبيحه بالشعر حتى طرب ، رحدثها بحديث وُصف بأنه ” حديث حلو ” وتلك الحلاوة لها معانها أيضا فهي نص على أنه وضع ليكون فكاهة طريفة يتنقل بها السامعون في مجالس الشراب . ويتلخص الحديث في أن خالدا الخزيت صاحب عمر حدثه عن نسوة صررن به قبيل الشاء لم يرتلين في بدو ولا حضر ، فهين هند بنت الحارث المارية ، وأشار عليه بأن يأتي متكررا ليسع من حديثين ويتمتع بالنظر اليهن ولا يعلمن من هو . فقال له عمر : ويحك ! وكيف أخفى نفسي ؟ فأتار اليه بأن يلبس لبسة أعرابي ثم يجلس على قعود فلا يشعرون إلا به وقد هجم عليهن : فأتاع عمر ثم وقف بقرب النسوة وأنشدن ما سألن إنشاده

من شعر كثير وجميل والأحوص ونُصيب . وبعد لحظات تغامر النساء وجعل بعضهن يقول لبعض : كأننا نعرف هذا الأعرابي ! ما أشبهه بعمر بن أبي ربيعة ! ثم مدت يدها فانترعت عمامته وألقته عن رأسه ثم قالت : هيه يا عمر ! أتراك خدعتنا منذ اليوم ؟ بل نحن والله خدعناك واحتلنا عليك بخالد فأرسلناه اليك لتأتينا في أسوأ هيئة ونحن كما ترى ! ثم قالت بعد أن أخذنا في الحديث : ويحك يا عمر ؟ اسمع مني ، لو رأيتني منذ أيام وأصبحت عند أهلي فأدخلت رأسي في جيبى فنظرت الى حرى فاذا هو ملء الكف ومنية الممتنى فناديت يا عمره يا عمره ! فصاح عمر : يا لبيكاه يا لبيكاه ! ومد في الثالثة صوته ، الى آخر الحديث .

ونحن نجد لهذه القصة أشباها كثيرة من حيث الغرض والأسلوب . فقد حدث ابن دريد أن رجلا جلس الى مجنون ليل في ظل شجرة فقال : ما أشعر قيسا حيث يقول :

بيت ويضحى كل يوم وليلة على منهج تبكي عليه القبائلُ
قتيلٌ للبنى صدّع الحب قلبه وفي الحب شغلٌ للحبين شاغل

فقال المجنون أنا أشعر منه حيث أقول :

سلبت عظامي لحما فتركتهما معرقة تضجى لديك وتخصرُ
وأخليت من منحنها فكأنها قوارير في أجوافها الريح تصفر
إذا سمعت ذكر الفراق تقطعت علائقها مما تخاف وتحذر
خذى بيدي ثم أنهضى بى تبينى بى الضر إلا أنى أتستر^(١)

وللحديث بقية ، وفي هذا ما يكفى لبيان الأسلوب الذى كان يجرى عليه الرواة في تصوير العشاق الذين تسلوا أو يئسوا ، وما كان يعمل أرباب الفضول في تهيج ما كانوا يكتمون من أسرار الوجد الدفين ...

ويشبه هذين الحديثين مارواه محمد بن خلف بسنده عن علي ابن عاصم إذ قال :

”قال لي رجل من أهل الكوفة من بعض اخواني : هل لك في عاشق تراه ؟ فقصيت معه فرايت فتى كأنما نزع الروح من جسده وهو مؤثر بآزار ومرتب بآخر وإذا هو مفكر وفي ساعده وردة فذكرنا له بيتا من الشعر فتهيج وقال :

جعلت من وردتها تيممة في عضدي
أشبهها من حبها إذا علاني كسدي - (١)

وما روى عن هند بنت الحارث في استدراجها لعمر وأستقدامه بأسوأ هيئة يشبه ما روى عن الثريا بنت علي حين دست من يخبره بأنه سمع عند رجليه عن الطائف صوتا وصياحا عاليا على امرأة من قريش أسميا أسم نجم في السماء وقد ذهب عنه أسمه . فقال عمر : الثريا ؟ قال : نعم ، وكأ - قد بلغ عمر قبل ذلك أنها عليلة ، فوجه فرسه الى الطائف يركضه ملء فروجه وسلك طريق كداد وهي أخشن الطرق وأقربها حتى انتهى الى الثريا وقد توقعته وهي تتشوف له فوجدتها سليمة . فأخبرها الخبر فضحكت وقالت : أنا والله أمرتهم لأختبر مالى عندك !

ومن أحل القصص التي رواها صاحب الأغاني عن محمد بن خلف قصة عمر مع فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وخلاصتها أن امرأة أقبلت عليه وهو في فناء مضربه وغلماؤه حوله فسلمت عليه وسألته : هل لك في محادثة أحسن الناس وجها وأتمهم خلقا وأكلهم أدبا وأشرفهم حسبا ؟ قال : ما أحب ذلك الى ! فاشتربت عليه أن تمكنه من عينيه فتشدهما وتقوده حتى إذا توسط الموضع الذي تريد حلت الشدة ثم تفعل به ذلك عند إخراجهم حتى تنتهي به الى مضربه . فقبل عمر ، سم قادته الى امرأة لم ير مثلها قط جمالا وكالا ، فسلم وجلس ، ثم كان بينهما وبينه حوار آتته بطرده ، فعاد الى مضربه كاسف البال ، ثم عادت المرأة في اليوم التالي فقادته مرة ثانية آتته بمثل ما آتته به المرة الأولى من الإخفاق ، وظلت الحال على ذلك أياما حتى أهدى عمر الى أنها فاطمة بنت عبد الملك ، في حديث شائق طويل .

(١) س ٧ مصارع العشاق وقد وردت هذه الحكاية في الأمالى ح ٣ ص ١٤٥ مروية عن عبد الله بن خلف .

وقد استمر صاحب الأغاني ينقل من أخبار عمر بن أبي ربيعة ما طاب له من غير نقد ولا تمحيص . ولكنه فطن في بعض ما رواه الى تلفيق الرواة حين عرض الى تزويج الثريا وخروجها الى مصر وعمر فائق ، فقال : « وهذا الخبر عندي مصنوع ، وشعره مضعف يدل على ذلك . ولكني ذكرته كما وقع الى » .

٧ - هنا دلنا صاحب الأغاني على آرتيابه في بعض الأخبار، ولكن لما إذا يذكر ما يرتاب فيه كما يقع إليه ؟ يذكره لأنه يريد أن يقدم ما يروق الناظر ويلهى السامع ، كما أشرنا من قبل . ولكن لا يفوتنا أن نشير الى أن هذا الخبر الذي حدثنا الأصبهاني بأنه مصنوع هو كذلك منقول عن جماعة من الرواة ، كان يصح أن يحتج بروايتهم من يصدقون كل شيء روى بأسانيد ، لو لم ينص الأصبهاني على أنه مذكور .

وفي رأي أن أكثر أخبار عمر بن أبي ربيعة وضع تفسيراً لشعره ، لأن كل قصيدة من قصائده تشير الى حادثة من حوادثه الغرامية ، وقد صنع الرواة مثل هذا الصنع في أخبار أبي نواس ، فقد لفقوا حديثاً يشرح قوله في جنان :

يا ذا الذي عن جنان ظل يخبرنا	بالله قل وأعد ياطيب الخبر
قال آشتكك وقالت ما أبليت به	أراه من حيث ما أقبلت في أثرى
ويعمل الطرف نحوى إن مررت به	حتى ليخجلني من حدة النظر
وان وقفت له كيما يكلمني	في الموضع الخلو لم ينطق من الحصر
ما زال يفعل بي هذا ويدمنه	حتى لقد صار من همى ومن وطرى ^(٢)

واخترع الرواة كذلك قصة طريفة لتفسير أبيات أبي نواس التي مطلعها :

أسأل القادمين من حكام كيف خلفتما أبا عثمان^(٣)

(١) ٢٣٦ ج ١ "وما قيمة تضعيف الشعر في هذا الخبر ؟ كان ينبغي تحقيقه من وجهة تاريخية إن أمكن" .

(٢) الأغاني ج ٨ ص ٤ طبع الساسي . (٣) ج ١٨ ص ٥

وقد تنبه كثير من الباحثين إلى ما دُسَّ على أبي نواس، ولم أجد من أشار إلى ما دس على عمر ابن أبي ربيعة، مع أن الرجلين يشتركان في أن كلا منهما قضى معظم حياته في اللهو والعبث والمجون. وإذا جازينا صاحب الأغاني في الاستدلال على وضع الشعر بضعفه، فإن في شعراين أبي ربيعة قصائد كثيرة يغلب عليها الضعف والانحلال، حتى ليبعد معظم شعره عن المائة التي عرفت في عصره وطبع عليها عدد من قصائده الطوال.

هذا. ولو مضينا نحصى ما في روايات الأغاني من التلفيق لطال بنا القول، فلنكتف بهذا، ولنسجل مرة ثانية أن الأصبهاني أراد أن يكون كتابه معرضا لما تجمع بين أيدي معاصريه من طرف الأفاقيص، فليعتبره القارئ كتاب أدب لا كتاب تاريخ.

٨ — بقيت مسألة لها خطر في هذا الباب: قد يتوهم القارئ أننا نجزم بأن صاحب الأغاني اخترع ما دونه من أخبار عمر بن أبي ربيعة، فلننف هذا الوهم، ولندكر أننا رأينا في إرشاد الأريب لياقوت أن ابن بسام كان ألف كتابا في أخبار عمر، وقد روى فيه عن الزبير بن بكار وعمر بن شبة وحساد بن اسحق ومحمد بن حبيب ويعقوب بن أبي شيبة وأحمد ابن الحارث الخزاز^(١).

وبعض من روى عنهم ابن بسام يكثر النقل عنهم في كتاب الأغاني، وخاصة عمر بن شبة والزبير بن بكار. وابن بسام هذا من رجال القرن الثالث. وفي كتابه عن عمر دليل على أن أخبار ذلك الشاعر كانت معروفة قبل الأصبهاني بنحو قرن أو يزيد، وكانت موضع عناية المؤلفين.

ولو وصل إلينا كتاب ابن بسام لعرفنا الفرق بين طريقته وطريقة أبي الفرج في صياغة الأخبار، ولكننا على أي حال نرجح أن أبا الفرج له يد في تلوين تلك الأخبار ووضعها في قوالب يغلب عليها اللهو والمجون، فهو لم يخلقها كلها، لأن عبث ابن أبي ربيعة كان مشهورا قبل ذلك، ولكنه نفخ فيها من روحه، وصاغها بلباقة وأقتنان.



ولو خيلنا الأخبار المروية جانباً ، ونظرنا فيما حدث به أبو الفرج عن نفسه ، لعرفنا مبلغ حذقه في وضع الأقاصيص .

والى القارئ هاتين النادرتين :

١ - قال أبو الفرج : خرجت أنا وأبو الفتح أحمد بن إبراهيم بن علي بن عيسى رحمه الله ماضيين الى دير الثعالب في يوم من سنة ٣٤٥ للترهة ، ومشاهدة آجتماع النصارى هناك ، والشرب على نهر يزدرج الذي يجري على باب هذا الدير ، وفيه جماعة من أولاد كتاب النصارى من أحداثهم ، واذا بفتاة كأنها الدينار المنقوش تمايل وتثنى كغصن الريحان في نسيم الشمال . فضربت بيدها الى يد أبى الفتح وقالت : يا سيدى ! تعال اقرأ هذا الشعر المكتوب على حائط هذا الشاهد ، فمضينا معها ، وبنا من السرور بها وبظرفها وملاحة منطقتها ما الله به عليم . فلما دخلنا البيت كشفت عن ذراع كأنه الفضة وأومات الى الموضع فاذا فيه مكتوب :

خرجت يوم عيدها	في ثياب الرواهب
فكنت بأختيالها	كل جاء وذاهب
لشقاى رأيتها	يوم دير الثعالب
تهادى بنسوة	كاعب في كواعب
هى فيهم كأنها الـ	بدر بين الكواكب

فقلت لها : أنت والله المقصودة بهذه الأبيات . ولم نشك أنها كتبت الأبيات ،

ولم تفارقها بقية يومنا . وقلت لها هذه الأبيات وأنشدتها إياها ففرحت :

مررت بنا في الدير تُحصانه	ساحرة الناظر فتانه
أبرزها الذكران من خدرها	تعظم الدير ورهبانه
مررت بنا تخطر في مشيها	كأنما قامت باه
هبت لنا ريح فمالت بها	كما تثنى غصن ريحانه
فتيمت قلبي وهاجت له	أحزانه قدما وأشجانه

وحصلت بينها وبين أبي الفتح عشرة بعد ذلك ، ثم خرج الى الشام وتوفي بها ،
ولا أعرف لها خبرا بعد ذلك .

٢ - وقال في كلمة ثانية : كنت في أيام الشيبية والصبي ألف فتى من أولاد الجند
في السنة التي توفي فيها معز الدولة ، وولي بخيار ، وكانت لأبيه حال كبيرة ومنزلة من الدولة
ورتبة ، وكان الفتى في نهاية حسن الوجه ، وسلاسة الخلق ، وكرم الطبع ، ممن يحب الأدب
ويميل الى أهله ، ولم يترك قريحته حتى عرف صدرا من العلم وجمع خزانة من الكتب حسنة .
مضت لي معه سير لو حفظت لكانت في كتاب مفرد من مكاتبات ومعاتبات ، وغير ذلك
ما يطول شرحه . منها أني جتته يوم جمعة غدوة فوجدته قد ركب الى الحلبة . وكانت عادته
أن يركب إليها في كل يوم ثلاثاء ويوم جمعة . فجلس على دكة على باب دار أبيه في موضع
فسح كان عمرها وفرشها . فكنا نجلس عليها للحادثة الى ارتفاع النهار . ثم ندخل اذا أفت
عنده الى حجرة لطيفة كانت مفردة له لتجتمع على الشراب والشطرنج وما أشبههما . فطال
جلوسي في ذلك اليوم مستظرا له ، فابطأ وتصبح من أجل رهان كان بين فرسين لبخيار ، فعرض
لي لقاء صديق ، فقممت لأمصى ثم أعود إليه ، فنجس لي أن كتبت على الحائط الذي كما
نستند إليه هذه الأبيات :

يا من أطل بباب داره ويطول حبسى لانتظاره

وحياة طرفك وأحوراره ومجال صدغك في مداره

لا حلتُ عمري عن هوا لك ولو صليتُ بحـر ناره

وقت . فلما عاد قرأ الأبيات وغضب من فعلى لئلا يقف عليه من يحنثه . وكان

شديد الکتان لما بيني وبينه مطالبا بمثل ذلك مراقبة لأبيه ، إلا أن ظرفه ووكيد محبته لي
وميله إلى لم يدعه حتى أجاب بما كتب تحتها . ورجعت من ساعتي فوجدته في دار أبيه
فاستأذنت عليه فخرج إلى خادم لم فقال : يقول لك : لا التقيتا حتى تقف على الجواب
عن الأبيات ، فانه تحتها . فصعدت الدكة فاذا تحت الأبيات بخطه :

” ما هذه الشناعة ؟ ومن فسَّح لك في هذه الإذاعة ؟ وما أوجب خروجك عن الطاعة ؟ ولكن أنا جنيت على نفسي وعليك : ملكك فطغيت ، وأطعتك فتعديت ، وما أحتم أن أقول : هذا تعرض للإعراض عنك . والسلام “ .

فعلمت أنني قد أخطأت ، وسقطت — شهد الله — قوتي وحركتي ، فأخذتني الندامة والحيرة ، ثم أذن لي فدخلت فقبلت يده فمغنى ، وقلت : يا سيدي ! غلطة غلطتها ، وهفوة هفوتها ، فإن لم تتجاوز عنها وتعف هلكت . فقال لي : أنت في أوسع العذر بعد أن لا يكون لها أخت . وعاتبني على ذلك عتابا عرفت صحته . ولم تمض إلا مُديدة حتى قبض على أبيه وهرب . فاحتاج الى الاستتار فلم يأنس هو ولا أهله إلا بكونه عندى . فأنا على غفلة إزدخل في خوف وإزار ، وكادت مرارتي تنفطر فرحا ، فلقيته أقبل رجليه وهو يضحك ويقول : يأتيها رزقها وهى نائمة ! هذا يا حبيبي نخت من لا يصوم ولا يصلى فى الحقيقة — وكان أخف الناس روحا وأقلعهم لبادة . وبتنا فى تلك الليلة عروسين لا نعقل سكرًا ! وأصطبحنا وقلت هذه الأبيات :

بَّتْ وبات الحبيب ندمانى	من بعد نأى وطول هجران
نشب قفصية معتقة	بحانة الشط منذ أزمان
وكما دارت الكؤوس لنا	أثنى فاه ثم غنائى
الحمد لله لا شريك له	أطاعنى الدهر بعد عصيان

(١) ولم يزل مقيما عندى نحو الشهر حتى استقام أمر أبيه ، ثم عاد الى داره .

فهذه الأخبار التى رواها أبو الفرج عن نفسه تعين اتجاهاته الذوقية فى الحياة .

ومن هنا جاء غرامه بتعقب أخبار الخلاعة والمجون فيمن ترجم لهم من الشعراء .

٥ - أنخبار ابنه دريد

١ - لقد تكلمت عن ابن دريد في فصل سبق، وإني لعائد إليه لأستقصى أمره، إذ كنت أول من كشف الغطاء عن محاولاته في النشر الفنى، ولأذكر أقولا أن الذى كان يربى الدكتور طه حسين من ابن دريد هو روايته عن عبد الرحمن ابن أخى الأصمعى، وكان يرى في كلمة "ابن أخى الأصمعى" مثارا للشك. وقد رأيت أن أتعقب هذه الفكرة فوصلت الى أن رواة العرب كانوا يستعملون مثل هذا التعبير، فأننا نجد الأصبهاني ينقل "حدثني أبو مسلم عن ابن أخى رزقان^(١)".

وفي معجم ياقوت "قال أبو حيان: وكان يختلف الى مجلس أبي سعيد على بن المستنير وكان هذا ابن بنت قطرب" وكلمة "ابن بنت قطرب" تدل على أنهم كانوا يعطون قيمة لمن يتصلون بكبار العلماء اتصال قرابة. ومثل هذا ما نقل ياقوت: "حدث يموت بن المزروع عن خاله الجاحظ^(٢)". وفي الأثاني: "أخبرني محمد بن جعفر صهر المبرد^(٣)". وكان مثار الشك أن عبد الرحمن هذا لم يذكر أحد من أبوه، وقد وصلت بعد البحث الى أنه عبد الرحمن بن عبد الله وقد ذكره ابن الأنباري في طبقات النحاة بين من أخذ عنهم ابن دريد^(٤). لكن بقيت مسألة تثير الشك: ذلك أن هناك راوية أدعى أنه ابن أخت الأصمعى وهو أحمد بن حاتم وأنكر عليه ذلك^(٥). وأحمد هذا الذى استباح لنفسه أن ينسب الى الأصمعى كذبا كان أثبت من عبد الرحمن فيما نقل ياقوت. فعبد الرحمن إذن متهم في روايته، وهذا الاتهام له خطره فيما نقله عنه ابن دريد.

(١) ص ١٦٩ طبع دار الكتب المصرية، وفي معجم ياقوت ص ٩٨ ج ١ (٢) ص ٧٨ ح ٦ -
وفي بغية الوعاة أخذ عبد التاهر بن عبد الرحمن السحوعن «ابن أخت» اغامسى ولم يأخذ عن غيره - ٢١٠
(٣) ص ٤ ح ١٨ (٤) وفيات الأعيان ص ٣١٠ ج ٢ (٥) ص ٢٢٢ (٦) ياقوت ص ٤٠٥ ح ١

٢ — وقد وصلت الى نصوص مهمة تدين أخلاق ابن دريد وتلفيقه وتثبت أنه راع معاصريه بكثرة ما روى من الأخبار حتى اضطروا الى الارتياح في أمانته . ولننظر ما نقل ياقوت من خط أبي على المحسن : سألت القاضي أباسعيد السيرا في رحم الله عن الأخبار التي يرويها عن ابن دريد، وكنت أقرأها عليه، أكان يملئها من حفظه ؟ فقال : لا، كانت تجمع من كتبه وغيرها ثم تقرأ عليه، وسألت أبا عبد الله محمد بن عمران المرزباني — رحمه الله — عن ذلك ، فقال : لم يكن يملئها من كتاب ولا حفظ ولكن كان يكتبها ثم يخرجها إلينا بخطه فإذا كتبناها خرق ما كانت فيه ^(١) .

وعبارة ” لم يكن يملئها من كتاب ولا حفظ “ عبارة خطيرة الدلالة على آثام ابن دريد بالتلفيق وأخذه بوضع الأقاصيص .

وقال ابن خلكان في أخبار ابن دريد : ” سئل عنه الدارقطني : أثقة هو أم لا ؟ فقال : تكلموا فيه ، وقيل إنه كان يتساح في الرواية فيسند الى كل واحد ما يخطر له “ ^(٢) .

وهذا النص صريح في أن ابن دريد كان متهما بين معاصريه ، وأنهم أطالوا القول فيه ، وأنه كان مأخوذا بعدم الثقة فيما ينسبه الى الرواة ، فإذا أضيف هذا الى ما حدثنا به الحصري من اختراعه الأحاديث عرفنا ان له يدا في صنع ما نسبته الى العرب القدماء .

٣ — وهناك جانب عقلي من ابن دريد لابد من الإشارة إليه : ذلك أنه مع سعة علمه وقوة ذكائه كان يطمئن الى بعض الحقائق المزيفة التي يتداولها الناس ، فكان يذكر أن أول من أقوى في الشعر أبونا آدم عليه السلام في قوله :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبرٌ قبيحٌ
تغير كل ذى طعم ولون وقل بشاشة الوجه المليح ^(٣)

وحى سذاجة مطبقة أن يظن أن آدم كان يتكلم العربية حتى يؤخذ عليه أنه أول من وقع في الإقواء .

٤ — وهناك قصة نقلها ابن دريد عن العكلي قال :

كان لقمان بن عاد الذي عمرَّ عمر سبعة أنسر مبتلى بالنساء ، وكان يتزوج المرأة فتخونه ، حتى تزوج جارية صغيرة لم تعرف الرجال ، ثم نقر لها بيتا في سفح جبل وجعل له درجة بسلاسل يتزل بها ويصعد ، فاذا خرج رفعت السلاسل ، حتى عرض لها فتي من العالين فوقعت في نفسه فأتى بنى أبيه فقال : والله لأجزيَنَّ عليكم حربا لا تقومون لها . قالوا : وما ذاك ؟ قال : امرأة لقمان بن عاد هي أحب الناس إلى . قالوا : فكيف نحتال لها ؟ قال : اجمعوا سيوفكم ثم اجعلوني بينها وشدها حزمة عظيمة ، ثم آثتوا لقمان فقولوا : إنا أردنا أن نساو ونحن نستودعك سيوفنا حتى نرجع ، وسموا له يوما ، وأقبلوا بالسيوف فدفعوها إلى لقمان فوضعها في ناحية بيته وخرج ، وتحرك الرجل خلت الجارية عنه ، فكان يأتيها ، فاذا أحست بلقمان جعلته بين السيوف حتى أنقضت الأيام . ثم جاءوا إلى لقمان فاسترجعوا سيوفهم ، فرفع لقمان رأسه بعد ذلك فاذا نخامة تنوس في سقف البيت ، فقال لامرأته : من نخم هذه ؟ قالت : أنا . قال : فتنخمي ، ففعلت فلم تصنع شيئا ، فقال : يا ويلاته ! والسيوف دهنتي ! ثم رمى بها من ذروة الجبل فتقطعت قطعاً وأنحدر مغضبا ، فاذا ابنة له يقال لها صحر فقالت له : يا أبتاه ، ما شأنك ؟ قال : وأنت أيضا من النساء ؟ فضرب رأسها بصخرة فقالت العرب : ما أذنبت إلا ذنب صحر^(١) .

ولقمان بن عاد الذي عمرَّ عمر سبعة أنسر من الشخصيات الخرافية ، والقصة مخترعة يراد بها إثبات أن كيد النساء عظيم وأنه لا ينجو من مكرهن مخلوق . وقد تكون القصة وضعت تفسيرا لذلك المثل : ” ما أذنبت إلا ذنب صحر ” فهناك أمثال كثيرة جُهلّت موارها فاحتال الرواة وألبسوها أقاصيص جديدة لتتم بها العبرة وليفهمها الناس موصولة بأسباب الحياة .

٥ — وهذا العصر الذي دهس فيه المتأدبون من الأخبار التي كان يرويها ابن دريد كانت تجرى فيه أشياء أخرى تدل على أن الرواة كانوا ألفوا التلفيق ، ففي ترجمة السيرانى

أن نصر بن نوح وكان من أدباء ملوك آل ساسان كتب إليه كتاباً سأل فيه عن أمثال مصنوعة على العرب شك فيها ^(١).

ولو وقفنا على تلك الأمثال المصنوعة لاستطعنا أن نفهم ما بينها وبين الأخبار التي آتت عليها ابن دريد من قرب أو بعد، ولكن ذلك الكتاب ضاع كما ضاع ما نقله السيرافي من أخبار ابن دريد وفي معجم ياقوت إشارة إلى إن المحسن بن الحسين أملى بصيدا حكايات مقطعة بعضها عن ابن خالويه ^(٢). وابن خالويه هذا من تلامذة ابن دريد، أفنستطيع أن نفترض أن ^(٣) لتلك الحكايات قيمة أدبية، وكان ابن دريد يتخير لأخباره وأحاديثه أدق الأساليب؟

وتعقب روح العصر له أهمية في فهم هذا الموضوع، وقد كان ابن فارس يقول: سمعت أبا أحمد بن أبي التيار يقول: أبو أحمد العسكري يكذب على الصولي مثلهما كان الصولي يكذب على الغلابي مثلهما كان الغلابي يكذب على سائر الناس ^(٤)، وقد يمكن أن نقول على أساس هذه النكتة: ابن دريد يكذب على عبد الرحمن بن عبد الله مثلهما كان عبد الرحمن يكذب على الأصمعي مثلهما كان الأصمعي يكذب على سائر الناس!

٦ — وقد عاصر ابن دريد رجل ملفق هو أبو عمر الزاهد محمد بن عبد الواحد راوية ثعلب، بلغ من شهرته بالاختلاق أن قيل فيه: "لو طائر طار في الجوّ لقال أبو عمر الزاهد حدثنا ثعلب عن ابن الأعرابي ويذكر في معنى ذلك شيئاً" ^(٥). وله حادثة عجيبة دهش لها معاصروه: ذلك أن معز الدولة بن بويه قائد شرطة بغداد غلاماً تركياً من مماليكه اسمه خواجا فبلغ ذلك أبا عمر الزاهد وكان يملئ كتابه اليواقيت في اللغة فقال للجماعة في مجلس الإملاء: اكتبوا "ياقوتة خواجا: الخواجة في أصل اللغة الجوع" ثم فرّع على هذا باباً وأملأه عليهم فاستعظموا كذبه وتبعوه ^(٦). وقد أخذ على السير في أنه كان يشهد كذباً إذ يكتب بخطه في ذيل

(١) ص ١٠٠ ج ٣ ياقوت. (٢) ص ٢٢٩ ح ٦ (٣) ص ٣٨٣ طبقات النحاة.

(٤) ص ١١ ج ٢ ياقوت. (٥) ص ٢٦ ح ٧ ياقوت.

(٦) ص ٢٧ ج ٧ ياقوت.

الكتب أنه راجعها وأنها صحيحة لتشتري بأكثر من ثمن مثلياً^(١) . وهذا نوع من التهاون له خطر في تقدير أمانة العلماء .

٧ — وأكبر مجموعة باقية من أخبار ابن دريد هي ما نقله عنه أبو علي القالي في أماليه . وهذه المجموعة منقولة بصيغ مختلفة فبعضها يصل إلى ابن الكلبي وبعضها إلى الأصمعي ، وجزء منها مروى عن أبي حاتم السجستاني . والجزء الذي وصله بابن الكلبي يتحدث في الأغلب عن شئون يمنية . منها ذلك الحديث الذي يصف كيف كان قيل من أقبال حمير منيع الولد دهرًا ثم ولدت له بنت فبنى لها قصرًا منيفًا بعيدًا من الناس ووكل بها نساء من بنات الأقبال يخدمنها ويؤدبنها حتى بلغت مبلغ النساء فنشأت أحسن منشاء وأتمه في عقلها وكما لها فلما مات أبوها ملكها أهل مخالفيها فاصطنعت النسوة اللواتي ربينها وأحسنن اليهن وكانت تشاورهن ولا تنقطع أمرًا دونهن ، فنزل لها يوما : ” يا ابنة الكرام لو تزوجت لثم لك الملك ! فقالت : وما الزوج ؟ فقالت إحداهن : الزوج عز في الشدائد ، وفي الخطوب مساعد ، إن غضبت عطف ، وإن مرضت لطف . قالت : نعم هذا الشيء ! فقالت الثانية : الزوج شعاري حين أصرد ، ومتكئ حين أرقد ، وأنسى حين أفرد . فقالت : إن هذا لمن كمال العيش ! فقالت الثالثة : الزوج لما عانى كاف . ولما شفى شاف ، يكفيني فقد الألف ، ريقه كالشهد ، وعاقبه كالخلد ، لا يمل قرانه ، ولا يخاف حرانه . فقالت : أمهلني أنظر فيما قلتن ، واحتجبت عنهن سبعا ثم دعتهن فقالت : قد نظرت فيما قلتن فوجدتني أملكه رقي ، وأبشه بإطلى وحق ، فإن كان محمود الخلاق ، مأمون البوائق ، فقد أدركت بغيتي ، وإن كان غير ذلك فقد طالت شقوتي ، على أنه لا ينبغي إلا أن يكون كفؤًا كريمًا يسود عشيرته ، ويرب فصيلة ، لا أتقنع به عارًا في حياتي ، ولا أرفع به شئنا لقومي بعد وفاتي . فليكن فابغينه ، وتفترقن في الأحياء ، وأيتكن أتنين بما أحب فلها أجزل الحياء ، وعلى لها الوفاء^(٢) .

وقد عاد النساء بعد البحث فوصفت كل واحدة منهن الزوج الذي فضله في عبارات جميلة أراد بها الكاتب أن يدون أخلاق الرجال .

(١) ص ١٠٥ ح ٣ ياقوت . (٢) من الصرد وهو البرد . (٣) ص ٨٠ ح ١ أمالي .

٨ — وهناك أخبار أراد بها الكاتب أن يوجّه قراءه وجهة علمية صرفة كحديث الرواد الذين أرسلتهم مذبح حين أجذبت فقد وصف كل رائد واديا وصفا يمتاز من وصف غيره ، في عبارات مصنوعة أنيقة تؤدّي ما رمى اليه الكاتب من جمع الأوصاف الحسية للوديان المعشبة^(١) . ويشبه هذا الحديث من الوجهة التعليمية ما نقله ابن دريد بسنده عن أبي عبيدة من أنه اجتمع عند يزيد بن معاوية أبو زيد الطائي وجميل بن معمر العذري والأخطل التغلبي فقال لهم : أيكم يصف الأسد في غير شعر ؟ فوصفوه بالتعاقب وصفا فنيا في عبارات جزلة مسجوعة تذكر بما رواه ابن دريد منسوبا الى الأعراب^(٢) .

٩ — أما ما وصله ابن دريد بالأصمعي فهو في جملة يتحدّث عن أهل البادية ، ومن طريقه هذه الأقصوصة التي حكاها الأصمعي إذ قال :

مررت بحى الرينة فاذا صبيان يتقامسون في المساء ، وشاب جميل الوجه ملوح الجسم قاعد . فسألت عليه فرد على السلام . وقال من أين وضخ الراكب ؟ قلت من الحى . قال : ومتى عهدك به ؟ قلت : رائحا . قال : وأين كان مبيتك ؟ قلت : أدنى هذه المشافر^(٣) . فألقى نفسه على ظهره وتنفس الصعداء ، فقلت : نفساً حجاب قلبه ، وأنشأ يقول :

سقى بلدا أمست سليمى تحلّه	من المزن ما تروى به وتسيم
وإن لم أكن من قاطنيه فانه	يحلّ به شخص على كريم
ألا حبذا من ليس يعدل قربه	لدى وان شط المزار نعيم
ومن لامنّى فيه حميم وصاحب	فردّ بغيظ صاحب وحميم

ثم سكت سكّنة كالمغمى عليه فصاحت بالأصيبية فاتوا بماء فصبته على وجهه فأفاق وأنشأ يقول :

إذا الصب الغريب رأى خشوعى وأنشأ تزين بالخشوع

(١) أنظر ص ١٨٣ ج ١ أمالى . (٢) راجع ص ١٨٣ ، ١٨٤ ج ٣ . (٣) يتقامسون : يتفانون . (٤) المشافر : مابت العرخ . (٥) نفساً : تشق .

ولى عينٌ أضربها التفاتٌ الى الأجرع مطلقه الدموع
الى انطولات تأنس فيك نفسى كما أنس الوحيد الى الجميع^(١)

وفيا وصله ابن دريد بالأصمى أخبار تتجه وجهة تعليمية كحديث الأعرابي الذى وصف
بنسبه والأعرابي الذى وصف قومه والأعرابي الذى وصف المطر^(٢) . وهناك حديث وصله
بالأصمى وردت فيه القصة المشهورة التى روت كيف مات الشاعر الجاهلى عبيد بن الأبرص
وحى فى رأينا قصة موضوعة أريد بها شرح المثل المعروف « حال الجريض دون القريض »
وقراءة هذه القصة تعطى فكرة عن أحيال الكتاب والقصاصين فى إحياء العهود الجاهلية^(٣) .

أما ما ينقله ابن دريد عن أبى حاتم السجستاني فهو فى الأكثر من كلام الأعراب الذين
يفدون على الحواضر كحديث الأعرابي الذى وقف بالمسجد الحرام يصف ما وقع فيه قومه من
الفحط ويطلب الاحسان ، وهو حديث منقح يجرى بنفس اللغة التى كتبت بها أحاديث ابن دريد^(٤)
وهناك حديث وصف به ما وقع من الملاحاة بين الوليد بن عقبة وعمرو بن سعيد فى مجلس
معاوية وهو كذلك حديث مصنوع^(٥) .

١٠ — وهناك حديث أحتفل به ابن دريد ليسبع عليه ثوب الجلال ، إذ ذكر أن
أبا حاتم كان يرضى به ويقول « ما حدثنى به أبو عبيدة حتى أختلفت اليه مدة ، وتجلت عليه
بأصدقائه من الثقفين وكان لهم مواخيا » وسرى مثل هذه العبارة حين ينقل التوحيدى حديث
السقيفة ، فالجوق واحد ، وطريقة التشويق تكاد تكون واحدة عند أولئك الكتاب . وهذا
الحديث مهم من حيث دلالاته على تصور كاتبه لطائفة من الأخلاق الاجتماعية فى ذلك الحين ،
والحديث يقع بين عامر بن الظرب العدوانى وحممة بن رافع الدوسى وقد اجتمعا عند ملك
من ملوك حمير ، فقال الملك تيسلا حتى أسمع ما تقولان ، فقال عامر لحممة : أين تحب أن

(١) ص ٣٨ ج ١ أمالى . (٢) ص ٥٣ ج ١ (٣) ص ١٣٩ ج ١ (٤) ص ١٧٣ ج ١

(٥) ارجع الى هذه القصة فى ص ١٩٩ ، ٢٠٠ جزء ٣ من الأمالى . (٦) راجع ص ١١٣ ج ١ أمالى .

(٧) أنظر ص ٤٠ ج ٢ أمالى .

تكون أياديك؟ قال : عند ذى المرض العديم ، وذى الخلة الكريم ، والمعسر الغريم ،
 والمستضعف الهضم . قال : من أحق الناس بالمقت؟ قال : الفقير المختال ، والضعيف
 الصوال ، والعيّ القوال . قال : فمن أحق الناس بالمنع؟ قال : الحريص الكاند^(١) ، والمستמיד
 الحاسد ، والملحف الواجد . قال : من أجدر الناس بالصنيعة؟ قال : من إذا أعطى شكر ،
 وإذا منع عذر ، وإذا موطن صبر ، وإذا قدم العهد ذكر . قال : من أكرم الناس عشرة؟
 قال : من إن قرب منع ، وإن بعد مدح ، وإن ظلم صفح ، وإن ضويق سمح . قال : من
 الأئم الناس؟ قال : من إذا سأل خضع ، وإذا سئل منع ، وإذا ملك كنع ، ظاهره جشع ،
 وباطنه طبع . قال : فمن أحلم الناس؟ قال : من عفا إذا قدر ، وأجل إذا انتضر ، ولم تطغه
 عزة الظفر . قال : فمن أكرم الناس؟ قال : من أخذ رقاب الأمور بيديه ، وجعل العواقب
 نصب عينيه ، ونبد التهيب دبر أدنيه^(٢) .

وللحديث بقية ، ولكنى اكتفيت بهذا القدر . وقد لفت نظرى قوله بعد ذلك :

”قال : فمن أبلغ الناس؟ قال : من جلى المعنى المزيّر ، باللفظ الوجيز ، وطبق المفصل
 قبل التحزير“ .

ففى ذلك إشارة الى أنه كان مفهوما عندهم أن الجاهليين كانوا يدركون ماهية البلاغة
 ويتساءلون عن الكلام البليغ .

(١) الكاند : الجاحد . (٢) سمع استبس . (٣) راجع ص ٢٨٠ ح ٢ أمانى .

٦ - عظيمة اسمه الأنباري

١ - ابن الأنباري هو أبو بكر محمد بن القاسم المتوفى سنة ٣٢٨ ببغداد . كان من أعلم الناس باللغة والشعر وعلوم القرآن . والذين ترجموا له ذكروا أنه كان صدوقاً ثقة^(١) . ومن شعره :

إذا زيد شرا زاد صبرا كأنما هو المسك ما بين الصلابة والفهير
لأن فتيت المسك يزداد طيبه على السحق والحرأصطبارا على الضر

وأنا لا أتهمه بالاختراع . ولكنه روى أحاديث قصيرة تلوح عليها علامات الصنع ، من ذلك ما رواه أنه مات رجل كان يعول اثني عشر ألف إنسان ، فلما حمل على النعش صرّ على أعناق الرجال ، فقال رجل في الجنائزة :

وليس صرير النعش ما تسمعونهُ ولكنه أعناق قوم تقصّف
وليس فتيق المسك ما تجدونه ولكنه ذاك الثناء المخفّف

وعبارة : « مات رجل كان يعول اثني عشر ألف إنسان » صريحه في خلق هذه الحادثة للإشادة بنبل الاخلاق العربية .

٣ - وقد روى عن أبيه قصة طريفة فقال : كان بمكة رجل سفيه يجمع بين الرجال والنساء فشكا ذلك أهل مكة إلى الوالي فغربه إلى عرفات فاتخذها منزلاً ، ودخل مكة مستترا ، فلقى حُرُفَاء من الرجال والنساء فقال : ما يمنعكم ؟ قالوا وأين بك وأنت بعرفات ؟ فقال : حمار بدرهمين وقد صرتم إلى الأمن والزهة ! قالوا : نشهد أنك صادق ، وكانوا يأتونه ، وكثر ذلك حتى أفسد على أهل مكة أحاديثهم وسفهاءهم وحواشيهم ، فعادوا بالشكاية إلى أمير مكة فإرسل إليه فأتى به ، فقال : أي عدوّ الله ! طردتك من حرم الله فصرت إلى

(١) رفيات الأعيان ص ٣١٩ ج ٢ و ٩١ بنية الوعاة .

المشعر الأعظم تنفس فيه وتجمع الفساق، فقال : أصلح الله الأمير يكذبون على ويحسدوني !
قالوا : بيننا وبينه واحدة، قال : ما هي ، قالوا : تجمع حير المكارين وترسلها بعرفات ، فان
لم تقصد الى بيته لما تعرف من إتيان الخراب والسفهاء إياه فالقول ما قال . فقال الوالى :
إن فى هذا لدليلا . وأمر بحير بجمعت ثم أرسلت فقصدت نحو منزله فأتاه بذلك أهناؤه،
فقال : ما بعد هذا شيء ، جردوه ، فلما نظر الى السياط قال : لا بد من ضربى أصلح الله الأمير ؟
قال : لا بد منه ! قال : اضرب ، فوالله ما فى هذا شيء أشد علينا من أن تسخر منا أهل
العراق فيقولون : أهل مكة يميزون شهادة الحير ! فضحك الأمير وقال : والله لا أضربك
اليوم ، وأمر بتخلية سبيله .^(١)

ولنقيد أن ما يرويه ابن الانبارى لا صنعة فيه فهو يجرى فى لغة مقبولة لا يلتزم فيها
السجع ولا الازدواج . ويمكن الاطمئنان الى أنه كان يتحدث عن أخبار كانت معروفة
فى عصره بشيء يسير من الترتيب لم يصل قط الى مثل ما صنعه ابن دريد .
٣ — وفى مجموعة (التحفة البهية والطرفة الشمية) المطبوعة فى الآستانة سنة ١٣٠٢ هـ
ما نصه :

ومن غرائب هذا الأسلوب وعجائبه ما أورده محمد بن القاسم الأنبارى رحمه الله قال :
إن سوارا صاحب رحبة سوار وهو من المشهورين قال : انصرفت يوما من دار الخليفة
المهدى فلما دخلت منزلى دعوت بالطعام فلم تقبله نفسى . فأمرت به فرفع ، ثم دعوت
جارية أحدثها وأشتغل بها فلم تطب نفسى ، فدخل وقت القائلة فلم يأخذنى النوم ، فنهضت
وأمرت ببغلة لى فأمرجت وأحضرت فركبتها فلما خرجت أستقبلنى وكيل لى ومعه مال ،
فقلت ما هذا ؟ فقال : ألفا درهم جئت بها من مستنك الحديد ، قلت أمسكها معك ، وأتبعنى .
فاطلقت رأس البغلة حتى عبرت البحر ، ثم مضيت فى شارع الرقيق حتى انتهيت الى الصحراء ،
ثم رجعت الى باب الأنبار وأنهيت الى باب دار نظيف عليه شجرة وعلى الباب خادم فعطشت

فقلت لخدم : أعندك ماء تستقينيه؟ قال نعم ، ثم دخل وأحضر قلة نظيفة طيبة الرائحة عليها مندبل فناولني فشربت وحضر وقت العصر فدخلت مسجدا على الباب فصليت فيه ، فلما قضيت صلاتي إذا أنا بأعمى يتلمس فقلت ما تريد يا هذا؟ قال : إياك أريد ، قلت : فما حاجتك؟ بقاء حتى جالس إلى جاني وقال : شممت منك رائحة طيبة فظننت أنك من أهل النعم فأردت أن أحدثك بشيء ، فقلت قل ، قال : ألا ترى إلى باب هذا القصر؟ قلت نعم ، قال هذا قصر كان لأبي فباعه وخرج إلى خراسان ، وخرجت معه فزال عنا النعم التي كنا فيها وعيمت ، فقدمت هذه المدينة ، فأتييت صاحب هذه الدار لأسأله شيئا يصلني به فأتوصل إلى سوار فانه كان صديقا لأبي ، فقلت ومن أبوك؟ قال فلان بن فلان فعرفته ، وإذا هو كان أصدق الناس إلى ، فقلت له يا هذا إن الله تبارك وتعالى قد أتاك بسوار ومنعه من الطعام والنوم والقرار حتى جاء به فأقعده بين يديك ثم دعوت الوكيل فأخذت الدراهم منه فدفعتها إليه وثلث إذا كان غد فسر إلى منزلي ثم مضيت وقلت ما أحدث أمير المؤمنين بشيء أظرف من هذا فأتيته فاستأذنت عليه فأذن لي فلما دخلت إليه حدثته بما جرى لي فأعجبه ذلك وأمر لي بألف دينار فأحضرت فقال : ادفعها إلى الأعمى ، فنهضت فقال : اجلس ، بخلست ، فقال : أعليك دين؟ قلت نعم . قال : كم دينك؟ قلت خمسون ألفا ، فخذني ساعة وقال : امض إلى منزلك ، فمضيت إلى منزلي ، فإذا بخادم معه خمسون ألفا وقال : يقول لك أمير المؤمنين : اقض بها دينك ، قال : فقبضت ذلك منه ، فلما كان من الغد أبطأ على الأعمى وأنا في رسول المهدى يدعوني بفتته فقال : قد فكرت البارحة في أمرك ، قلت يقضى دينه ثم يحتاج إلى القرض أيضا . وقد أمرت لك بخمسين ألفا أخرى ، قال : فقبضتها وانصرفت ، بقاءني الأعمى فدفعت إليه الألف دينار ، وقلت له : قد رزق الله تعالى بكرمه وكافأ على إحسان أبيك وكافأني على إهداء المعروف إليك . ثم أعطيته شيئا آخر فأخذه وأنصرف .

وهذه القصة أطول من سابقتها ، وهي خالية من الشعر الذي حُلِّيت به الأولى والفكاهة التي بنيت عليها الثانية ، وتضمن الدعوة إلى البر والمعروف بما اشتملت عليه من حسن الجزاء .

وهذا النمط من القصص الأخلاقي كان كثير الذيوع في القرن الثاني والثالث والرابع، ومن أشهر من كتب فيه أبو جعفر أحمد بن يوسف أحد كتاب الدولة الطولونية، وسنعود إليه في بحث خاص .

٤ — وتلك القصص المتفرقة في كتب الأدب منسوبة إلى ابن الأنباري تدل على أنه كان مغرماً بتصوير الشخصيات عن طريق القصص الأخلاقي والوصفي والفكاهي، وهو منجى طريف كما نود لو ظفرنا بما يميزه من الشواهد الوافية، ولكن في ذلك القليل المبعثر هنا وهناك ما يكفي للاطمئنان إلى أن ابن الأنباري كانت له يد فيما نسب إلى الخلفاء والوزراء والقضاة والأعراب من طرائف القصص وروائع الأحاديث .

(١) ص ١٩٦ — ١٩٧

٧ - التوايع والزوايع

سياحة شاعر في وادي الشياطين

معنى التوايع والزوايع - متى ألف ابن شهيد رسالته - متى ألفت رسالة الغفران - التشابه بين موضوع الرسالتين - كيف اتصل ابن شهيد بعالم الجن - هل كان للكاتب والخطباء شياطين ؟ - الفكاهة في رسالة التوايع - بنفالج بن وحيهم يتعاشقون ويتعززون - بغلة أبي عيسى تتياكى مع ابن شهيد وتساله عن حاله وعن إخوانه - أوزة من أهل العلم والأدب تاطر ابن شهيد - دقة ابن شهيد في نقل آراء الكتاب - رأى ابن شهيد في لغة معاصريه من أهل الأندلس - توجع ابن شهيد من حقد معاصريه وحسدكم - شكواه من زمانه - عراه بمعارضة كتاب المشرق وشعرائه - إلاحاء ابن شهيد لاشيطان أنف اللافة - حرصه على إظهار فضله وتفوقه - إجازة الجن إياه وتقديمهم له - رأيه في أن البياض سارية لا صلة لها بالحو والتصرف - ابن شهيد عند نفسه أشعر الناس وخاصة في الرثاء .

١ - التوايع جمع تابع وتابعة وهو الجنى والجنينة يكونان مع الإنسان يتبعانه حيث ذهب ، والزوايع جمع زوبعة وهو اسم شيطان أو رئيس للجن ، ومنه سمي الإعصار زوبعة إذ يقال فيه شيطان مارد كما جاء في القاموس المحيط .

٢ - والتوايع والزوايع اسم رسالة نفيسة - لم يبق منها إلا شذرات في كتاب مخطوط هو الذخيرة - ألّفها أبو عامر ابن شهيد الأندلسي ، ولم نجد لها صدى يذكر في كتب القدماء ، وأول من وجه نظرنا إليها هو المرحوم الأستاذ محمد المهدي في محاضراته بالجامعة المصرية سنة ١٩١٥ ثم عاد الدكتور أحمد ضيف فحدثنا عنها في سنة ١٩٢٢ ومن رأى الدكتور ضيف أن التوايع والزوايع محاكاة لرسالة الغفران وأن ابن شهيد كان يقلد أبا العلاء لأنه أدرك عصره ، ولأن شهرة أبي العلاء كانت ذائعة في المشرق والمغرب ، وكان أهل الأندلس يقلدون أهل المشرق في كل شيء . وأقوى حجة عند الدكتور ضيف أن عصر ابن شهيد يندرج في عصر أبي العلاء ، فقد عاش من سنة ٣٨٢ الى سنة ٤٢٦ وعاش المعري من سنة ٣٦٣ الى سنة ٤٤٩ (١)

(١) انظر ترجمة ابن شهيد في الجزء الثاني ص ٣٠٢ وانظر تحليل ثره ص ٣١٠ راجع آراءه في نفسه

(٢) راجع بلاغة العرب في الأندلس ص ٤٨

الأدب ص ٤٨

٣ — وقد رأينا أن نحقق هذه المسألة فبحثنا طويلا عن التاريخ الذى وضعت فيه رسالة التوابع والزوابع فلم نهند، ولكنا رأينا فى الرسالة نفسها ما يدل على أنه وضعها وهو كهيل: فقد جاء على لسانه ما يشير إلى أن من إخوانه (من بلغ الإمارة وآتته إلى الوزارة) وألقى إليه على لسان أوزة جنية هذا السؤال :

”ما أبقت الأيام منك؟“ .

وفى هذا السؤال إشارة الى أنه كان ودع نضارة الشباب .

ولكن لا ينبغي أن نتخذنا هذه التعابير، فهناك نص يدل على أنه وضعها وهو شاب، فقد حدثنا فى (التوابع والزوابع) أن الجن قالوا له : ”قد بلغنا أنك لا تجارى فى أبناء جنسك، ولا يمل من الطعن عليك، والاعتراض لك، فمن أشدهم عليك؟“ وأنه أجاب ”جاران دارهما صقب، وثالث نابتة نوب، فأمتطى ظهر النوى، وألقت به فى سرقسطه العصا، انتضى على لسانه عند المستعين، وساعدته زرافة من الحاسدين ...“ (٢)

وهذا الكلام يشعر بأنه كتب هذه الرسالة فى عهد المستعين . والمستعين هذا هو سليمان ابن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الأموى، الذى بويغ بقرطبة منتصف ربيع الأول سنة ٤٠٠ بعد مقتل عمه هشام بن سليمان وجددت له البيعة سنة ٤٠٣ ثم مات مقتولا سنة ٤٠٧ (٣)

ومن هنا يمكن أن نرجح أن رسالة (التوابع والزوابع) كتبت بين سنة ٤٠٣ وسنة ٤٠٧ هذا جانب من المسألة، أما الجانب الآخر فهو التاريخ الذى وضعت فيه رسالة الغفران. وقد بحثنا طويلا فى كتب التراجم عن التاريخ الذى كتب فيه المعزى رسالة الغفران فلم نهند، ولكنا وصلنا بعد التأمل إلى تقريب التاريخ، ذلك أن رسالة الغفران جواب على

(١) الذخيرة ج ١ ص ١٥٢ (٢) الذخيرة ج ١ ص ١٣٨ (٣) فى الذخيرة تفاصيل مزبغة لما رفع بين المستعين وبين هشام بن سليمان، وصور شنيعة لما كان يحرق فى الأندلس من اشتعال الفتنة واغتلاء الصبية

رسالة ابن الفارح ، وقد عده الى رسالة ابن الفارح قدر سناها فترة فترة حتى انتهينا الى قوله :
 "وكيف أنسكو من فانتى واللى نيفا وسبعين سنة"^(١) . فعرفنا أنه وضعها بعد أن جاوز السبعين .
 ثم نظرنا فوجدناه ولد سنة ٣٥١ فإذا أضفنا الى هذا الرقم - ٧٠ - وجدناه كتب رسالته
 حوالى سنة ٣٢١ وتكون النتيجة أن رسالة الغفران كتبت حوالى سنة ٤٢٢ ؛ وإذا قدرنا
 أن ابن الفارح قال نيفا وسبعين . وللتيف دلالة ، وقدرنا أن أبا العلاء اعتذر عن تأخير الإجابة
 بأنه مستطيع بغيره كان من الممكن أن تكون رسالة الغفران كتبت بين سنة ٢٢ و ٢٤^(٢)

ونتيجة هذا التحقيق أن رسالة الغفران كتبت بعد رسالة التوايع والزوايع بنحو عشرين سنة .
 وبذلك يتبين أن الدكتور ضيف لم يكن مصيبا حين افترض أن ابن شهيد قلده أبا العلاء ،
 وصار من المرجح أن يكون أبو العلاء هو الذى قلده ابن شهيد ، وكما كان الأندلسيون يقلدون
 أهل المشرق فى كل شيء كان أهل المشرق يحرصون أشد الحرص على متابعة الحركة الأدبية
 فى الأندلس ، بدليل أن رسائل ابن شهيد ذاعت فى الشرق ودونها المؤلفون الشرقيون قبل أن
 يموت وقبل أن توضع رسالة الغفران .

٤ - والواقع أن التشابه تام بين الرسالتين ، فالموضوع واحد وهو عرض المشاكل
 الأدبية والعقلية بطريقة قصصية ، والخلاف فى جوهر الموضوع يرجع الى روح الكاتبين :
 فأبو العلاء يحرص أولا وقبل كل شيء على عرض المعضلات الدينية والفلسفية ، وابن شهيد
 يحرص على عرض المشكلات الأدبية والبيانية . ويتفق كلا الرجلين على التعريض بمعاصريه
 وشرح ما أخذ على المتقدمين من أساطين العقل والبيان . والمسرح واحد تقريبا : فهو عند
 ابن شهيد وادى الجن فى الدنيا ، وهو عند أبى العلاء وادى الإنس فى الآخرة : أى الفردوس

(١) رسائل البلاء ص ١١٢ (٢) بعد تحرير هذه المسألة وصلنا الى نص فى رسالة الغفران يدل على أنها
 كتبت سنة ٢٤ : إذ يقول المعرى : " ولا يجوز أن يجزئ من مائة سنة أن أمير حلب حرمها الله فى سنة
 أربع وعشرين وأربع مائة اسم ولد ابن دلاز " راجع ص ٤٨ ج ٢ من الطبعة الثانية لرسالة الغفران شرح الأديب
 كامل بكلاف .

والجحيم . فالمثلون عند ابن شهيد جن يسخرون الناس ، وعند أبي العلاء إنس تسخرهم الملائكة والشياطين ، وكان لكل إنسان في عرفهم ملك وشيطان .

٥ - وجه ابن شهيد رسالته الى أبي بكر بن حزم فيين في فاتحتها أنه كان في حديثه يمن الى الآداب ويصبو الى تأليف الكلام ، فابتاع الدواوين وجلس الى الأساتيذ فنبض فيه عرق الفهم ودرله شريان العلم وأنه كان له في أوائل صبوته هوى أشد له كلفه ثم لحقه ملل في أثناء ذلك الميل ، فاتفق أن مات من كانت يهواه مدة ذلك الملل بفزع وأخذ في رثائه فقال :

تولى الجسام بظبي الخدور وفاز الردى بالغزال الغرير

الى أن انتهى الى الاعتذار من الملل الذى كان فقال :

وكنتم مللتك لا عن قلى ولا عن فساد نوى فى الضمير

ثم أرتج عليه فإذا هو بفارس بباب المجلس على فرس أدهم قد آتكا على رحمه وصاح به :
”عجز يافى الإنس؟“ .

فأجاب : ”لا وأبيك ! للكلام أحيان وهذا شأن الانسان“ فقال : قل بعده :

كمثل ملال الفتى للنعيم اذا دام فيه رجال السرور

فأبنت إجازته وقال : ”وبأبى من أنت؟“ قال : ”زهير بن نمير من أسمع ابنى ، تصورت لك رغبة فى أصطفائك“ .

فقال ابن شهيد : ”أهلا بك أيها الوجه الوضاح ! صانفت قلبا اليك مقبولا ، وهوى بحوك مجنوبا“ وهنا ينطلق ابن شهيد فيقص علينا أنها تتحدثا وتذاكرا أمتار الخطباء والشعراء ومن كان يالفهم من التوابع والزوابع وأنه سأل صاحبه زهير بن نمير أن يحتمل له فى لقاء من اتفق من الشياطين ، فيمضى زهير ليستأذن شميخ ابنى ويعود وقد آذن له فيركب ابن شهيد مع صاحبه على متن الأدهم ويسيران كالطير يختاب البهو فالجو ، ويقطع الدو فالدو ، حتى يلحيا

أرضاً لا كأرضاء، ويشارفا جوا لا كجونا، متفرع الشجر، عطر الزهر . وهناك يقول الجنى مخاطباً ابن شهيد :

”حللت أرض الجن، أبا عامر؟ فبمن تريد أن تبدأ“ .

فيجيب ابن شهيد :

”الخطباء أولى بالتقديم، ولكنى الى الشعراء أشوق“ .

ومن هنا نفهم أنه كان للخطباء والكتاب شياطين، كما كان للشعراء شياطين، وهذه أول مرة أرى فيها أن العرب كانوا يعتقدون وجود شياطين للكتاب والخطباء، وقد حدثنا ابن شهيد أنه صادف في أرض الجن شيطان الجاحظ، وشيطان بديع الزمان، وشيطان عبد الحميد . فهل كان العرب يرون ذلك أم هو اختراع ابن شهيد^(١) ؟

٦ - رسالة التوايح نفيسة جدا ومؤلفها خفيف الظل الى حد بعيد، وقد وقعت له فيها مكاشفات تبعث الأتس الى النفس، من ذلك ما قصه علينا من أنه أشرف بأرض الجن ”على قرارة عياء، تفتت عن بركة ماء، وفيها عانة من حمير الجن وبغالها قد أصابها أولق^(٢) : فهى تصطك بالخوافر، وتنفخ من المناسخ، وقد أشتد ضراطها، وعلا شخيجها ونهاقها“ . فلما بصرت بهم أجفأت اليهم وهى تقول :

”جاءكم على رجليه“ .

فأرتاع ابن شهيد وتبسم زهير وقد عرف القصد وقال له : تنهأ للحكم .

قال ابن شهيد : فلما لحقت بنا بدأتني بالتفدية، وحيثى بالسكينة . فقلت : ما الخطب، حمى حماك أيتها العانة وأخصب مرعاك ! قالت : شعران لبغل وحمار من عشاقنا اختلفنا فيهما وقد رضىناك حكماً . قلت : حتى أسمع ! فتقدمت الى بغلة شهباء عليها

(١) في كتاب البيان والتبيين لملاحظ ح ١ ص ١٥٩ ما يعيد أنه كان للكهان شياطين، وكان فيهم الكتاب والخطباء..

(٢) الألق : الجور .

جلها وبرقعها لم تدخل فيما دخلت فيه العانة من سوء العجلة وسخف الحركة - فقالت :
الشعر لبغل من بغالنا وهو :

على كل صب من هواه دليل	سقام على جد الهوى ونحول
وما زال هذا الحب داء مبرحا	إذا ما آتت بغلا فليس يزول
بنفسى التى أما ملاحظ طرفها	فسحر وأما خدها فأسل
تعبت بما حملت من ثقل حبها	وإني لبغل للثقال حمل
وما نلت منها نائلا غير أنى	إذا هى بالث بلت حيث تبول

والآخر لدكين الحمار وهو :

دهيت لهذا الحب منذ هويث	وراثت إراداتى فلست أريث
كلفت بيالى منذ عشرين حجة	يجول هواها فى الحشا ويعيث
وغير منها قلبها لى نيممة	نماها أحم الحصيتين خيث
وما نلت منها محرما غير أنى	إذا هى راثت رث حيث تروث

قال ابن شهيد : فأستضحك زهير وتماسكت وقلت للنشدة : ما هويث ؟ قالت :
هويث بلغة الحمير ! قلت والله إن للروث لرائحة كريهة ولقد كان أنف الناقة أجدر أن يحكم
فى الشعرين ! فقالت : فهمت عنك ، وأشارت الى العانة أن ركبا مغلوب . وأنصرفت
قاعة راضية ^(١) .

٧ - وتتفرع عن هذه الفكاهة نكتة أبدع وأظرف إذ يقول ابن شهيد :

”وقالت لى البغلة : أما تعرفنى ، أبا عامر ! قلت : لو كان ثم علامة ! فأماطت لثامها
فاذا هى بغلة أبى عيسى ، والخال على خدها ، فتبا كينا طويلا ، وقد أخذنا فى ذكر أيامنا
فقالت :

ما أنقذت الأيام منك ؟ قلت : ما ترين ! قالت تب عمرو عن الطوف ! وما فعل

الأحبة ؟

قلت : شب الغلمان ، وشاخ الفتيان ، وتشكرت الأخلاق ، ومن إخواننا من بلغ
الإمارة ، وآتتهى إلى الوزارة . فتنفست الصّعداء وقالت : سقام الله سبيل العهد ، وإن
حالوا عن العهد ، ونسوا أيام الود ! بجرمة الأدب إلا أقرأتهم سلامي ! فقلت : كما تأمرين .

٨ - وهناك فكاكة من مبتكرات ابن شهيد تدل على فهمه لعالم الطير كما دلت
الفكاهات الماضية على فهمه لعالم الحيوان ، ذلك أنه يتحدثنا عن أوزة كانت في البركة
بالقرب منهم :

” أوزة بيضاء شهلاء في مثل جئان النعامة ، كأنما دُر عليها الكافور ، أولبت غلالة
من دمنس الحرير ، ... في طهرها صفاء ، تنفى سالفتها وتكسر حدقتها ، وتلوب قمح دوتها ،
فترى الحسن مستعارا منها ، والشكل مأخوذا عنها “ .

وقد صاحبت تلك الأوزة بالبلغة :

” لقد حكمت بالهوى ، ورضيت من صاحبكم بغير الرضى “ .

فيسأل ابن شهيد صاحبه : ما شأن هذه الأوزة ؟ فيجيبه : ” هي تابعة شيخ من مشيختكم
تسمى العاقلة ، وتسمى أم عفيف ، وهي ذات حظ من الأدب فأستعد لها “ .

فيقول لها ابن شهيد : ” أيتها الأوزة الجميلة ، العريضة الطويلة : لجمال صفتك باعتدال
منكيك ، وأستقامة جناحيك ، وطول جيدك ، وصغر رأسك ، تقابلين الضيف بمثل هذا
الكلام وتلقين الطائر الغريب بشبه هذا المقال ، وأنا الذي همت بالأوز صباية ، وأحتملت
في الكتاب بها غض كل مقالة ، وأنا الذي استرجعتها للوطن المألوف ، وحببتها إلى كل
غطريف ، فاتخذتها السادة بأرضنا ، وآستهلك عليها الظوفاء منا ، ورضيتها بدلا من العصافير ،
ومتكلمات الزرايزر ، ونسييت لذة الحمام ، ونقار الديوك ، ونطاح الكباش “ .

عند ذلك داخلها العجب من كلام ابن شهيد ، ثم تدفعت وقد أعترتها خفة شديدة في مائها ، فترة ساجحة ، ومرة طائرة ، تغطس هنا وتخرج هناك ، وهذا الفعل معروف في الأوز عند الفرج والمرح . ثم سكنت وأقامت عنقها وعرضت صدرها وقالت لابن شهيد :

”أيها الغاز المغرور! كيف تحكم في الفروع وأنت لا تحكم الأصول ؟ ما الذى تحسن ؟“
ثم يلاحقها وتلاحيه حول الشعر والخطابة والنحو والغريب الى أن يسألها : يا أم عفيف ! بالذى جعل رداءك ماء ، وحشا رأسك هواء ، أيهما أفضل ؟ الأدب أم العقل ؟ فتجيب : بل العقل . فيقول ابن شهيد : وهل تعرفين فى الخلائق أحق من أوزة ؟
فتجيب : لا !

. فيقول : فتطلبي عقل التجربة إذ لا سبيل لك الى عقل الطبيعة ^(١) !

٩ — وابن شهيد فى رسالته التوابع مغرم بأن ينطق الجن بالآراء التى كان يحرص عليها من ينسبون اليهم . من ذلك أنه حين اتصل بأبى عينية عتبة بن أرقم شيطان الجاحظ سمع منه هذا الملام :

”إنك لخطيب وحائك للكلام مجيد ، لولا أنك مغرم بالسجع فكلامك لا نثر“ . وهذا هو مذهب الجاحظ الذى كان يؤثر الكلام المرسل على المسجوع ويميل فى نثره الى المقابلة والأزدواج .

١٠ — وقد سافت هذه المناسبة ابن شهيد الى أن يعلن رأيه فى لغة معاصريه من أهل الأندلس فيقول :

”ليس هذا — أعزك الله ! — منى جهلا بأفن السجع ^(٢) ، وما فى المائلة والمقابلة من فضل ، ولكنى عدمت ببلدى فرسان الكلام ، ودهيت بغباوة أهل الزمان ، وبالحرى أن أحدهم

(١) راجع ص ١٥٢ و ١٥٣ (٢) ص ١٣٥ (٣) فى الأصل ”بأفق“ وهو تحريف ،

والأفن معناه العيب ، وهى لفظة يستعملها ابن شهيد . راجع ص ١٣٨ من الدخيرة .

بالآردواج . ولو فرشت للكلام فيهم طوله ، وتحركت لهم حركته ، لكأن أرفع لى وأوْج
فى قلوبهم^(١) .

فيدهش الجنى ويقول :

”أخذنا على تلك المناظر، وكبير تلك المحابر، وبكال تلك الطيالس ؟“ .

فيجيب ابن شهيد : ”نعم ! — انما يخنى الشجر، وليس له ثمر ولا عتر“ فيقول الجنى :
كيف كلامهم بينهم ؟ فيجيب ابن شهيد ليس لسيبويه فيه عمل ولا للفراهيدى اليه طريق ،
ولا للبيان عليه سمة ، انما هى لكنته يؤدون بها المعانى تأدية المجوسى والنبطى^(٢) .

يصيح الجنى : إنا لله ! ذهب العرب كلامها ، إرمهم بسجع الكهان فعسى أن ينفعك
عندهم ، ويطير لك ذكرا فيهم ، وما أراك مع ذلك إلا ثقیل الوطأة عليهم كرية الحجى ، اليهم !^(٣)

١١ — وفى تضاعيف الرسالة فقرات تشعر بأن ابن شهيد كان مبتلىً بحقد معاصريه
وحسددهم وإسرافهم فى الكيد له والنقض من شأنه ، فقد حدثنا أنه قرأ على الجن رسالة
فى وصف الحلواء فاستحسنوها وقالوا :

”إن لسجعك موزعا من القلب ، ومكانا من النفس ، وقد أعمرت من طبعك ، وحلاوة
لفظك ، وطلاوة سوقك ، ما أزال أفنه . ورفع غبنه ، وقد بلغنا أنك لا تجارى فى أبناء جنسك ،
ولا يمل من الطعن عليك والاعتراض لك ، فمن أشدهم عليك ؟“

”وهنا يجيب ابن شهيد بأن أشد أعدائه جاران تصاقب دارهما داره ، وثالث أمتطى
ظهر النوى ، فألقت به فى سرفسطه : حيث يلتضى عليه لسانه عند المستعين ، وتساعده
على إفكه زرافة من الحاسدين“ وأنه أنشد فى أولئك الأعداء :

وبلغت أقواما تجيش صدورهم على وئانى منهمو فارغ الصدر
أصاخوا إلى قولى فأسمعت مُعجزا وغازوا على سرى فأغياهمو أمرى^(٣)

١٢ - ولا يكتفى ابن شهيد بإعلان حزنه لتحامل معاصريه ، بل يضيف الى ذلك صرخته من عدوان زمانه فينطق الجن - وقد أستجادوا شعره - بهذه الكلمة الموجهة :
 ” ما أنت إلا محسنٌ على إساءة زمانك ! “^(١).

١٣ - وابن شهيد مغرم بمعارضة كتاب المشرق وشعرائه ، حريص على التفوق عليهم ، فقد حدثنا أنه قابل بأرض الجن ”زبدة الحقب“ شيطان بديع الزمان فقال له : اقترح على وصف جارية فوصفها ، فقال له الجنى : أحسنت ! فقال له ابن شهيد : أسمعنى وصفك للاء . فقال الجنى : ذلك من العقم ”يريد أنه معنى لا تمكن معارضته“ ثم أنطلق يقول : ”أزرق كعين السنور، صاف كقضيبي البلور، انتخب من الفرات ، وأستعمل بعد البيات ، فكان لكسان الشمعة ، فى صفاء الدمعة“^(٢).

ويعارضه ابن شهيد فيقول :

”أنظر يا سيدى كأنه عصير صباح ، أو ذوب قمر ليّاح ، ينصب من إنائه ، إنصباب الكوكب الدرى من سمانه ، العين كانونه ، والقمر عفريته ، كأنه خيط من غزل فلق ، أو مخضرة ضربت من ورق ، يرفع عنك فتروى ، ويصدع به قلبك فتحياً“^(٣).

عندئذ ضرب شيطان بديع الزمان الأرض برجله فانفجرت له عن عين تدهدى اليها فاجتمعت عليه وغاب وهو نجمل خزيان !

١٤ - ولم يقف الزهو بابن شهيد عند إعلان التفوق على كتاب المشرق ، بل مضى يحدثنا أنه ناوش شيطان أنف الناقة وأنتصر عليه بحيث علت أنف الناقة كآبة ، وأختلط كلامه ، وبدت منه ساعتئذ بوادٍ فى خطابه رحمه لها من حضر ، وأشفق عليه منها من نظره ، فشمّر له عن ساعدٍ فتى من الجن كان الى جنب أنف الناقة وقال :
 ” وهل يسوء قريحتك ، أو ينقص من بديهتك ، لو تجافيت لأنف الناقة وجُدت له ، فإنه على علاته زى علم ، وزنبيل فهم ، وكنف رواية ؟ “.

فقال ابن شهيد لصاحبه زهير : من هذا ؟ فقال : هو أبو الآداب صاحب أبي إسحاق
ابن حمام جارك .

فقال له ابن شهيد : رققا على أخيك بغرب لسانك ! وهل كان يضر أنف الناقة وينقص
من علمه ، ويفلّ شفر فهمه ، أن يصبر لى على زلة تتربه فى شعر أو خطبة : فلا يهتف بها
بين تلاميذه ويجعلها طرمذة من طراميده !

فقال الفتى الجنى : إن الشيوخ قد تهفو أحلامهم فى الندرة .
فيقول ابن شهيد : إنها المرة بعد المرة ^(١) !

ثم يحدثنا وهو مزهو مفتون أن أساطين الجن حاروا فى أمره فلم يدروا : أشاعر هو أم
خطيب ، وأنهم أصرفوا والأبصار اليه ناظرة ، والأعناق نحوه مائلة .
ومثل ابن شهيد فى عبقريته يعذر فى مثل هذا الفتون !

١٥ — ويتصل بحرص ابن شهيد على إظهار تفوقه وفضله ما نراه فى غير موطن من
التوايح من النص على أن زعماء الجن آجازوه ، وبلغ الأمر بأحدهم أن فتن بيت من شعره
فقام يردده ويرقص ، قال ابن شهيد :

ثم أفاق وقال : ” والله هذا شيء لم نلهمه نحن ، ثم استدنا فى فدنوت منه فقبل بين عيني
وقال : اذهب فانك مجاز على بظر أم الكاره ^(٢) ! “ .

وأولئك الكارهون هم بالطبع من عالم الإنس ، يضاف اليهم من ناواه من زعماء الجن .

١٦ — وفى رسالة التوايح إشارة لطيفة الى رأى ابن شهيد فى البيان وهو يعتقد أن
البيان نقحة سماوية لاصلة بينها وبين معرفة النحو والتصريف ، فليس يكفى أن يختلف
الإنسان الى الأساتذة يتلقى عنهم ، وليس يغنى أن يراجع الكتب والدواوين ، وإنما يجب
أن تكون هناك فطرة سمحة وطبيعة سنية يصدر عنها النثر الجيد والشعر البائع ^(٣) .

(١) راجع ١٤٢ و ١٤٣ ص (٢) تجد آراء ابن شهيد فى النقد الأدبى مبسطة

وفي هذا يحدثنا ابن شهيد أنه أصطدم في وادي الجن بشيطان أنف الناقة وأنه أستطال على ذلك الشيطان وقال له : طارحنى كتاب الخليل وشرح ابن درستويه . فقال الجنى :
”دع عنك هذا، أنا أبو البيان“ .

فقال ابن شهيد لاها لله ! إنما أنت كمغن وسط لا يحسن فيطرب ، ولا يسيء فيلجى .
قال الجنى :

”لقد علمنيه المؤدبون“ .

فقال ابن شهيد .

”ليس هو من شأنهم ، إنما هو من تعليم الله حيث يقول : ﴿الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان﴾ . ليس من شعريفسر ، ولا أرض تكسر ، حتى يكون نفسك من أنفاسك ، وقلبك من قلبك ، وحتى نتناول الوضع فترفعه ، والرفع فتضعه ، والقبيح فتحسنه“^(١) .
ومعنى هذه الفقرات أن البيان شيء آخر غير الكلام المفيد ، فمن الناس من تقرأ له فلا تحمده ولا تذمه ، وشر الكتاب من يعمرون على القراء فلا يكون لهم قاذح ولا ماح ولا عدو ولا صديق .

ولا عيب فما رآه ابن شهيد إلا أنه قدم له شواهد في وصف الثعلب والبرغوث تدل على ذكاء ولكنها بعيدة عن سحر البيان^(٢) .

١٧ — في رسالة التوابع إشارات كثيرة تدل على رأى ابن شهيد في شعره ، وهو عند نفسه أشعر الناس وخاصة في باب الرثاء ، فإن الجن حين يطارحونه الشعر يسألونه عن مرأثيه ، وإلى القارئ نموذجاً مما آختره من شعره في الرثاء :

أف كل عام مصرعٌ لعظيم أصاب المنايا حادثي وقدي

فكيف لقائى الحادثات اذا سطت وقد قل سيفى منهمو وعزيمى

(١) ص ١٣٩ (٢) راجع أوصافه للثعلب والبرغوث في الذخيرة ص ١٣٩ ج ١ وقيمة الدهر ص ٣٩١ ج ١

وكيف آتدأى فى الخطوب اذا دجت وقد فقدت عىناى ضوء نجومى
مضى السلف الوضاح إلا بقية كفرة مسود القميص بهيم
أما وأبى الأيام لولا آتداؤها لظاهرُ فى ساداتها بقروم
وقارعت من يبنى قراعى منهمو بأحلام بطش أو بطيش حلوم
أنا السيف لم يتعب له كف ضارب صروم اذا صادفت كف صريم
سعت بأحرار الرجال نفائى رجال ولم أنجد يجد عظيم
وضيعنى الأملاك^(١) بدءا وعودة فضعت بدار منهمو وحریم^(٢)

(١) الأملاك : الملوك . (٢) فى يتيمة الدهر طائفة صالحة من شعر ابن شهيد تجدها فى الصفحات

٨ - الانسان والحيوان أمام محاكمة الجحيم

١ - تلك رسالة كتبها جندى مجهول من رجال الفكر والبيان الذين كتبوا رسائل إخوان الصفاء . وكاتبنا هذا رجل متفوق في علم الحيوان ، ورسالته عن محاكمة الانسان أمام محكمة الجن لبطشه بالحيوان تجرى مجرى القصص الطريف . ولكن هذا القصص يدور حول محور واحد هو شرح طبائع الطير والحيوان ، ولذلك نرى الكاتب يبدى ويعيد في الكلام عن خواص الكائنات الحية التي آستبد بها الانسان ، وينطلق فيسرد طبائعها جنسا جنسا ، ثم يمضى فينطقها بما أودعت غرائزها من ضروب الأسرار ، ولا يزال يمعن في الدرس والبحث حتى يتمكن القارئ من معارف جمّة طريفة تشوق العقل والخيال .

٢ - وكاتب هذه الرسالة متأثر بكتاب كليلة ودمنة ، وآية ذلك أنه أختار كليلة رئيسا لوفد السباع . ووصفه بأنه " كليلة أخو دمنة " وهنا أخطأ الكاتب خطأ فنيا ، فإن الخرافة تحدثنا أن كليلة مات حزنا على دمنة بعد أن أودع دمنة السجن زمنا رهن المحاكمة جزاء بما كسبت يده من الدس لشربة الذي راح فريسة لدسائسه ومكايدته . وكان ذلك قبل الاسلام بآماد طوال ، على حين وقعت محاكمة الانسان أمام محكمة الجن بعد أن ظهر الاسلام وخضع الجن لتعاليم القرآن .

٣ - وقصة الخصومة بين الانسان والحيوان نتلخص في أن بنى آدم كانوا في بداية الحياة قلقين خائفين مستوحشين من كثرة السباع والوحوش في الأرض ، وكانوا يأوون في رؤوس الجبال والتلال ، وفي المغارات والكهوف ، وكانوا يأكلون من ثمر الأتجار وبقول الأرض وحب النبات ، ويسترون بأوراق الشجر من الحر والبرد . ثم تحضروا فبنوا المدن

والقرى والحصون . ثم سخرُوا من الأنعام البقر والغنم والجمال ، ومن البهائم الخيل والبغال والحمير ، وقيدوها وأجملوها وصرفوها في مآربهم من الركوب والحمل والدراس ، وأتعبوها في استخدامها ، وكلفوها أكثر من طاقتها ، ومنعوها من التصرف في مآربها ، بعد ما كانت مُخلّاة في البرارى والآجام والفياض تذهب وتجيء حيث أرادت في طلب مراعيها ومشاربها ومصالحها . ونفرت منهم بقيتها من حمر الوحوش والغزلان والسباع والطيور بعد ما كانت مطمئنة في أوطانها وأماكنها ، وهربت من ديار بنى آدم الى البرارى البعيدة ، والآجام والدّحال^(١) ورءوس الجبال ، وشمروا بنو آدم في طلبها بأنواع من الحيل والكنص والشباك والفخاخ ، وأعتقد بنو آدم أنها عبيد لهم هربت وخلفت الطاعة وعصت . ومضى الأمر على ذلك الى أن ظهر الإسلام وخضع له فريق من بنى الجن .

٤ - - وأنفق أن ولي أمر المسلمين من الجن ملك يقال له "يراست الحكيم" ولقبه "شاه مردان" وكانت دار مملكته مردان في جزيرة يقال لها "صاغون"^(٢) في وسط البحر الأخضر مما يلي خط الاستواء ، وهى جزيرة طيبة الهواء والتربة ، فيها أنهار عذبة ، وعيون جارية ، وهى كثيرة الريف والمرافق وفنون الأشجار وألوان الثمار والرياح والأنهار والرياحين والأشجار . وحدث أن طرحت العاصفة فى وقت من الزمان مركبا من سفن البحر الى ساحل تلك الجزيرة ، وكان فى المركب قوم من التجار والصنّاع وأهل العلم وأغنياء الناس ، فخرجوا الى تلك الجزيرة وفُتِنُوا بما فيها من الفواكه والبقول والرياحين ، وصادفوا ما فيها من البهائم والأنعام والطيور والسباع والوحوش والحوام والحشرات فى ألفة لا يشوبها تنافر ولا شقاق . وأسقطاب القوم المقام فى تلك الجزيرة وبناو هناك وسكنوا ، ثم أخذوا يتعرّضون لما فيها من البهائم والأنعام ليستخروها فيركبوها ويحملوا عليها أثقالهم على المنوال الذى كانوا يفعلون فى بلدانهم ، فنفرت منهم وهربت ، وشمروا فى طلبها لإعتقادهم أنها عبيدٌ خرجت عن

(١) الدحال جمع دحل بالفتح ويضم ، وهو قُب ضيق فيه ، منع أسفله حتى يمشى فيه . (٢) هكذا أثبتها الكتاب . والفرنسيون يظنونها سيجون Saigon وسألت أحد الصينيين فأخبرني أنهم يطلقونها "سيكون" .

طاعتهم . فلما رأت تلك البهائم رغبتهم في استعبادها جمعت زعماءها وخطباءها وذهبت الى يراست الحكيم ملك الجن وشكت اليه ما لقيت من جور بنى آدم ، فبعث ملك الجن رسولا الى أولئك القوم ودعاهم الى حضرته ، فذهبت طائفة من أهل ذلك المركب الى هناك ، وكانوا نحو من سبعين رجلا من بلدان شتى . وبذلك تبدأ قصة التحكيم ^(١) .

٥ — وأول ما ينبغي ملاحظته في هذه المحاكمة هو روح الفكاهة الذي يظهر من فصل الى فصل . ومن أمثلة ذلك أن زعيم الإنس استدل على حقهم في تسخير الحيوان بهذه الآيات (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ... وعليها وعلى الفلك تحملون ... والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ... لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه) .

فلما طلب ملك الجن من زعماء الحيوان أن يقيموا على هذه الآيات قام البغل فقال :
” ليس في شيء مما قرأ هذا الإنسى من آيات القرآن ، أيها الملك ، دلالة على ما زعم أنهم أرباب ونحن عبيد لهم ؛ انما هي آيات تذكركم بإنعام الله عليهم وإحسانه فقال ؟ (تسخرها لكم) . كما قال : (سخر الشمس والقمر والسحاب والرياح) . أفترى أيها الملك أنها عبيد لهم وأنهم أربابها ؟ “ ^(٢) .

ومن ظريف الفكاهة أن الثعبان وقف يتحدث عن مصير الحشرات والهوام في المحاكمة فبدل له أن أكثرها صم بكم عمى بلا يدين ولا رجلين ولا جناحين ولا منقار ولا مخالب ، ولا ريش على أبدانها ولا شعر ولا وبر ولا صسوف ، وأن أكثرها عراة حفاة ضعفاء فقراء مساكين بلا حيلة ولا حول ولا قوة .

وهنا يتحدث المؤلف أن الثعبان أدركته الرحمة والشفقة والرافة ورق قلبه فدمعت عيناه من الحزن !

(١) راجع ص ١٧٣ — ١٧٦ ج ٢

(٢) ص ١٧٧

٦ — وفي الرسالة فقرات تدل على أن المؤلف مأخوذ بفلسفة اليونان : وأنظر هذه الكلمة فهي تذكر بنظرية المثال التي شرحها أفلاطون :

”ثم أعلم أيها الملك العادل أن هذه الصور والأشكال والهيكل والصفات التي تراها في عالم الأجسام وجواهر الأجرام هي مثالات وأشياء وأصباغ لتلك الصور التي في عالم الأرواح ، غير أن تلك نورانية شفافة وهذه ظلمانية كاسفة ، ومناسبة هذه إلى تلك كنسبة التصاوير والنقوش التي على وجوه الألواح وسطوح الحيطان إلى هذه الصور والأشكال التي عليها هذه الحيوانات من اللحم والدم والعظام والجلود ، لأن تلك الصور التي في عالم الأرواح محركات وهذه متحركات ، والتي دون هذه ساكنات صامتات ومحسوسات فانيات باليات ، وتلك باطقات معقولات وروحانيات غير مرئيات بأقيات^(١) .

٧ — وفي الرسالة أوصاف حسية وعقلية لمختلف الشعوب ، ويستطيع الباحث أن يستخرج منها صروب الملابس والعادات إن بدا له أن يضع قصة تمثيلية تقع حوادثها في القرن الرابع ، فالهندي لذلك العهد كان ”طويل اللحية ، موفور الشعر ، متوشحا بازار أحمر على وسطه“^(٢) والعبراني من أهل الشام كان ”يرتدي برداء أصفر ويده مدرجة ينظر فيها ويزومزم“^(٣) والسرياني من آل المسيح كان ”يلبس ثيابا من الصوف وعلى وسطه منطقة من السيور“^(٤) والقرشي كان ”يلبس ثوبين : رداء وإزارا ، شبه المحرم“^(٥) واليوناني ”كانت على رأسه مشدة“^(٦) ولم يعين المؤلف ثياب الفارسي وإن كان وصفه بحسن الهندام^(٧) ، وكذلك وصف مندوب العراق^(٨) .

٧ — أنطق المؤلف زعماء الوفود بحامد أمهم ، ثم أنطق صاحب العزيمة من وزراء الحق بمساوى تلك الأمم . فمندوب الهند يفانح بأن الله بعث في بلاده الأنبياء وجعل أكثر أهلها الحكماء ، وخصهم بالسحر والعزائم والكهانة ، فيقول الجنى وهو يحاوره : ”لو أتممت

(١) ص ٢٣٢ (٢) ص ٢٣٦ (٣) ص ٢٣٧ (٤) ص ٢٣٨ (٥) ص ٢٣٩

(٦) ص ٢٤ (٧) ص ٢٤٢ (٨) ص ٢٣٤

الخطبة وقلت : ثم بلينا بحرق الأجساد وعبادة الأصنام والقروء وكثرة أولاد الزنا وأسوداد الوجوه^(١) ! “ .

والعبراني يفانح بأن الله أصطفى إسرائيل ومن ذريته موسى بن عمران الذي فلق البحر وأغرق فرعون ، وأن الله أنزل على بنى إسرائيل المن والسلوى وجعلهم ملوكاً وأعطاهم ما لم يعط أحداً من العالمين . فيقاطعه الجنى : “نسيت ولم تقل : وجعل منا القردة والخنازير وعبدة الطاغوت^(٢) ! “ .

ويفانح السرياني بأن الله آتخذ من العذراء البتول جسد الناسوت ، وقرن به جوهر اللاهوت ، وأيده بروح القدس ، وأظهر على يده العجائب ، وأحيا به آل إسرائيل من موت الخطيئة^(٣) . “ .

فيضيف الجنى : “قل أيضاً : فما رعيناهما حق رعايتها وكفرنا وقتلنا ثالث ثلاثة ، وعبدنا الصلبان ، وأكلنا لحم الخنزير في القربان ، وقتلنا على الله الزور والبهتان ؟ “ .

ويتكلم القرشي فيذكر أن الله خص أمته بنجى الأديان وأكرمها بتلاوة القرآن وصوم شهر رمضان . فيقول له الجنى : “قل أيضاً : إنا رجعنا بعد وفاة نبينا مرتدين ، وقتلنا الأئمة الخيِّرين ، طلباً للدنيا بالدين “ .

وفي هذه الفقرة يعبر المؤلف عن نزعة دينية كان يناصرها إخوان الصفاء .

ويخطب مندوب العراق فيذكر أن الله خص قومه بأوسط البلاد مسكناً وأطيبها هواء ، وأكثرها أنهاراً وأشجاراً وثماراً ، وأن الله فضلهم على كثير من خلقه : فمنهم نوح وإدريس وإبراهيم ، ومنهم كان الملوك الذين سيطروا على العالم القديم . فيقول الجنى : “ومن عندكم خرج الطوفان ، ومنكم كان نمرود الجبار ، وبخت نصر محرف التوراة وقتل أولاد سليمان وآل إسرائيل^(٤) “ .

ويتقدم مندوب اليونان فيخبر أن الله خمس بلادهم بكثرة البقول . وخص قومه برحمان العقول ، ودقة التمييز . وجودة النهم ، وكثرة العلوم والصناعات والطب والهندسة والنجوم وعلم تركيب الأفلاك . ومعرفة منافع الحيوان والنبات والمعادن والحركات وآلات الرصد والطلقات ، وعلم الرياضيات والمنطقيات والضييعات والإليات .

وهنا ينهض ابنى فيقول :

”من أين لكم هذه العلوم والحكمة التي ذكرتها وأنتخرت بها؟ لولا أنكم أخذتم بعضها من آل إسرائيل أيام بطليموس . وبعضها من أيام مسيطوس ، فقلتموها إلى بلادكم ، ونسبتموها إلى أنفسكم“ .

وفي هذه القطعة يحاول المؤلف أن يثبت أن العلوم قديمة أخذها بعض الأمم عن بعض ، وهو بهذا يدفع طغيان الثقافة اليونانية التي كان أشياعها يتمردون إذ ذاك في الأقطار الإسلامية . وإنه ليدكر أن ملك الجن نظر إلى اليوناني وسأله : ماذا تقول؟ وأن اليوناني أجاب :

”صدق الحكيم فيما قال : فإذا أخذنا عنهم فإن علومنا وعلوم سائر الأمم بعضها من بعض ، ولولم يكن كذلك من أين للفرس علم النجوم وتركيب الأفلاك وآلات الرصد ، لولا أنهم أخذوها من أهل الهند ؟ ومن أين كان لبني إسرائيل علم الحيل والسحر والعزائم ونصب الطلسمات واستخراج المقادير ، لولا أن سليمان عليه السلام أخذها من خزائن علوم سائر الأمم حينما غلب عليهم ونقلها إلى لغة العبرانيين وإلى بلاد الشام وكانت مملكته في بلاد فلسطين^(١)؟“

٩ - وقد أجاد المؤلف إنطاق زعماء الشعوب فوضع على لسان كل خطيب تعابير تعين ما لقومه من الأدواق في العلوم والفنون ، ومن أظرف ما جاء من ذلك قوله على لسان مندوب اليونان :

”الحمد لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي كان قبل الهوى ذات الصورة والأبعاد ! الحمد لله الذي أفاض من جوده العقل الفعال ! الحمد لله الذي أنتج من نوره العقل في جوهر

النفس الكلية ! الحمد لله الذى أظهر من قوة النفس عنصر الأكوان ذوات الحيولى واليكان !
الحمد لله مركب الأفلاك والكواكب السيارات ، الموكل بدورانها النفوس والأرواح ، والملائكة
ذات الصور والأشباح .

١٠ - وفى المحاورة فقرة تدل على أن العربية لم تسد سيادة تامة فى أرض فارس
حتى القرن الرابع ، فقد جاء على لسان مندوب الفرس ما نصه : ”ومنا من يقرأ القرآن ويلحنه
ولا يعرف معناه ويؤمن بحمد ويصدق به وينصره“^(١) .

١١ - وعرض المؤلف لأمة يأجوج ومأجوج التى تحدث عنها القرآن فذكر أنهما
”أمتان صورتهم آدمية ، ونفوسهما سبعة ، لا تعرفان التدبير ولا السياسة ولا البيع
ولا الشراء ولا الحرفة ولا الحرث ولا الزرع ، بل الصيد من السباع والوحوش والسمك
والنهب والغارات بعضها على بعض“^(٢) .

وهو شئ من التفصيل لما أجمله القرآن فى سورة الكهف ، وإن لم يحدد موقع هذه
الأمة من التاريخ .

١٢ - ومن فلسفة كاتب الرسالة أن الطبيعة يأكل بعضها بعضا ، ومن فساد شئ
يكون صلاح شئ آخر ، فحيوانات البحر تفرغ من التين وتهابه ، وهو لا يفرغ إلا من دابة
صغيرة تلسعه ، فإذا لسعته دب سمها فى جسمه فمات واجتمعت عليه الحيوانات البحرية
تأكله فيكون لها عيشا رغدا أياما ، كما تأكل كبار السباع صغارها مدة من الزمان ، وكذلك
حكم الجوارح من الطير : فالعصافير والقناير والخطاطيف تأكل الجراد والنمل والذباب ،
والبواشق والشواحين تصطاد العصافير والقناير . وهكذا سيرة بنى آدم : فانهم يأكلون لحوم
البدى والحمالان والغنم والبقر والطير ، ثم إذا ماتوا أكلتهم فى قبورهم الديدان والنمل والذباب^(٣) !

١٣ - وتحدث الكاتب عن النقل بالعربات ، وحديثه هنا طريف ، لأن العرب
موجودة من قديم الأزمان ، ولكننا نجد أثرها قليلا فى المدنية الاسلامية ، بحيث يظن أن

أن المسلمين لأولين لم ينتفعوا كثيرا بهذه الأداة في حمل الأثقال ، وقد وردت في كلام الكتب كنها أعجوبة ، وفي ذلك دلالة على أنها كانت قليلة الاستعمال ، فقد قرنها بالحيلة في الفوص إلى قاع البحار لاستخراج الدر والمرجان والصعود إلى رؤوس الجبال لإنزال النسر والعقبان ، فقال : ” وهكذا بالحيلة يعملون العجلة من الخشب ويشدونها في صدور الثيران وأكافئها ، ثم يحملون عليها الأحمال الثقيلة وينقلونها من المشرق إلى المغرب ، ومن المغرب إلى المشرق ، ويقطعون البراري والقفار والمفاوز^(١) “ .

١٤ - ويحدثنا الكاتب أن زعماء الحيوان اجتمعوا لينتخبوا رسولا منهم يجادل زعماء الانسان ، ثم اختاروا أحد الحكماء من بنات آوى ، فتلطف ابن آوى في الاعتذار وقال : ” وكيف أصنع مع كثرة أعدائي هناك من أبناء جنسنا ؟ ” فقال الأسد : ” من هم ؟ ” فقال : ” الكلاب ” . فسأل الأسد : كيف يصير الكلاب أعداء للسباع وأصدقاء لبني آدم ؟ فقال ابن آوى : أليس قد آستأمنت إلى بني آدم وصارت معينة لهم علينا معشر السباع ؟ فيسأل الأسد عن علة ذلك فلا يعرفها أحد غير الذئب .

وهنا ينطلق المؤلف فينطق الذئب بالأسباب التي جمعت بين الانسان والكلب فيقول : ” إنما دعا الكلاب إلى مجاورة بني آدم ومدخلتهم مشاكلة الطباع ومجانسة الأخلاق ، وما وجدت عندهم من المرغوبات واللذات ومن المأكولات والمشروبات ، وما في طباعها من الحرص والشره واللؤم والبخل ، وما في جبلتها من الأخلاق المذمومة الموجودة في بني آدم ، مما السباع عنه بمعزل : وذلك أن الكلاب تأكل اللحم ميتا وجيفا ومذبوحا ، قديدا ومطبوخا ومشويا ، وما لحا وطريا ، وجيدا ورديئا ، وثمارا وبقولاً وخبزاً ، ولبنا وحلياً ، وحامضاً وجبناً وسماً ودسماً ، ودبساً وشيرجاً ، وناطقاً وعسلاً ، وسويقاً وكافراً . وما شاكلها من أصناف ما كولات بني آدم التي أكثر السباع لا يأكلها ولا يعرفها “ .

ويضيف الخطيب إلى هذا التعليل الطريف للتشابه بين الكلاب والناس في التوائقي والتوارد على مختلف الألوان من الطعام والشراب أن الكلاب لا تترك أحداً من السباع يدخل

قرية أو مدينة مخافة أن ينازعها في شيء مما هي فيه ، حتى أنه ربما يدخل أحد من بنات آوى أو بنات أبى الحصين قرية بالليل ليسرق منها دجاجة أو ديكاً أو سنوراً ، أو يجز جيفة مطروحة ، أو كسرة مرمية ، أو ثمرة متغيرة ، فتحمل عليه الكلاب وتطرده وتخرجه من القرية . ولا يكتفى الخطيب بذلك بل يلح في فرض المشابهة بين الإنسان والكلب ، فيذكر أن الكلب إذا رأى في يد أحد من بنى آدم من الرجال والنساء والصبيان رغيفاً أو كسرة أو ثمرة أو لقمة طمع فيها وتبعه ، وأخذ يصبص بذنبه ، ويحرك رأسه ، ويحد النظر إلى حدقته حتى يستحى أحدهم فيرمي بها إليه ! وعندئذ يعدو إليها بسرعة ، ويأخذها في عجلة ، مخافة أن يسبقه إليها غيره ! ويقول الخطيب — ولا تنس أنه الذئب ! — :

”وكل هذه الأخلاق المذمومة موجودة في الإنس والكلاب ، فجانسة الأخلاق ومشاكلة الطباع دعت الكلاب إلى أن فارقت أبناء جنسها من السباع ، وأسأنت إلى الإنس ، وصارت معيّنهم على أبناء جنسها من السباع“^(١) .

١٥ — وعرض المؤلف لمسألة دقيقة ثار من حولها الجدل أزماناً طويلاً ، وهي خلق الجن ، وأصل العداوة بينها وبين الإنس ، فقد تخوف أحد زعماء الجن من عاقبة التدخل بين الإنسان والحيوان ، فإن الإنس أم قوية ، ومن المحتمل أن يشيروا على الجن فتقوم بينهم حروب يخسر فيها الغالب والمغلوب .

وقد تأتى الكاتب في عرض أدوار الخصومة بين الإنس والجن والظروف التي كان يقع فيها صلح أو قتال . والذي تجب الإشارة إليه هنا أن إخوان الصفا يعتقدون بما يسمى ”القران“ وهو عندهم تحول حظوظ الأنواع من حال إلى حال : فقد خشي أحد خطباء الجن من أن تعجز البهائم عن مقاومة الإنس في الخطاب لقصورها عن الفصاحة والبيان ، وأن يجد الإنس من ذرابة ألسنتهم وجودة عباراتهم ما يقضى بأن تظل البهائم أسيرة في أيديهم يسومونها سوء العذاب . وكان جواب وزير الجن أن ذلك إن وقع فستكون النتيجة أن

”تصير البهائم في الأمر والعبودية انى أن يتقضى دور القرآن ويستأنف نشوء آخر وياتى الله لما بالفرج والخلاص، كما نجى آل إسرائيل من عذاب فرعون، وكما نجى آل داود من عذاب بخت نصر، وكما نجى آل حمير من عذاب آل تبع، وكما نجى آل ساسان من عذاب اليونان، وكما نجى آل عمران من عذاب أودشير^(١)“ .

و ”القرآن“ هذا أمل جميل، ولو تأخر الزمن بالمؤلف لرجونا أن يقول :
”وكما نجى أهل مصر من عدوان الانجليز!“ .

١٦ — ولم يقف المؤلف عند حدود درس الحيوان، ولكنه استطرد فشرح كثيرا من الظواهر الاجتماعية، وتحدثت عن الملوك والوزراء والعلماء والفقهاء، وأفاض في ذكر الأسباب التي قوضت العروش وحولت الأعزرة الى أذلة صاغرين، ولم يشهد الكاتب لأحد من الملوك بالعدل إلا للملكين اثنين : ملك الجن وملك النحل^(٢) .

ويطول القول لو مضينا ندرس ما عرض له الكاتب من المعضلات العلمية والفلسفية والاجتماعية، فليرجع القارئ الى أصل الرسالة إن شاء^(٣) .

١٧ — وقد يسأل القارئ عن نتيجة المحاكاة التي فصل أخبارها الكاتب في خمسين ومائة صفحة، وهو سؤال لا بد أن يخطر بالبال .

ونجيب بأن المحاكاة لم تنته الى شيء : لأن زعماء الحيوان فكروا في الوصول الى الحرية عن طريق المفاوضات، ولو استمعوا للنصيحة الأسد حين صمم على أن يصدع القوة بالقوة، ونقل الحديد بالحديد، لما احتاجوا الى محكمة الجن في جزيرة صاغون !

((وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون)) .

(١) ص ١٩٨ ج ٢ (٢) وصف المؤلف ملك الجن بالحكمة والعدل، أما ملك النحل فوصفه بالاشفاق على رعيته والرحمة هم والتحنن عليهم (ص ٢٥٢) ويحسن بالقارئ أن يرجع الى ص ٢٥٠ و ٢٥١ ليرى كيف طلل المؤلف كثرة الملوك عند الأنس : فقد نقل الى صميم الحياة عند مختلف الشعوب، وفهم كيف تختلف العقول والطباع والأهواء باختلاف الأقاليم . (٣) لم يكن من همتنا أن نحلل الرسالة التي عرضنا لها في هذا الفصل تحليلا وافيا، وإنما قصدنا إلى إعطاء القارئ فكرة عن أسلوب الكاتب في عرض المسائل العلمية عن طريق القصص، وهو أسلوب له قيمة فنية، وله أثر في تشويق الجمهور الى تعقب الدقائق في مثل علم الحيوان . ولنشرنا الى أن أسلوب هذه الرسالة خال من التكلف وهو في جملة ممتاز بالوضوح والصفاء .

٩ - أخبار التوحيدى

١ - يختلف عمل التوحيدى عن أعمال كتاب الأخبار والأقاصيص أشد الاختلاف : فهو لا يهتم بأهل البادية ، ولا يسلك مسلك الرواة الذين يُعنون بتقييد الغريب من الأخبار والأشعار ، وإنما يهتم بالنواحي التاريخية والأدبية من حياة الرجال : فهو الذى دون المناظرة بين أبى سعيد السيرافى ومتى بن يونس^(١) فى المفاضلة بين النحو العربى والمنطق اليونانى . وهذه المناظرة تدل على قوة عجيبة فى التوحيدى ، وهى مثل أعلى فى لغة الجدل والحوار بين المتناظرين . ولا يتسع المقام لتحليل هذه المناظرة فليرجع إليها من شاء فى معجم ياقوت^(٢) .

ولكن لا بد أن نشير هنا إلى أن التوحيدى يصرح بأن أهل عصره كانوا ينقلون فلسفة اليونان عن اللغة السريانية ، ويقول على لسان السيرافى فى محاوره متى :
 ” أنت لا تعرف لغة يونان ، فكيف صرت تدعوننا الى لغة لا تفى بها ، وقد عفت منذ زمن طويل وباد أهلها ، وأقرض القوم الذين كانوا يتفاوضون بها ويتفاهون أغراضهم بتصرفها ؟ على أنك تنقل عن السريانية ، فما تقول فى معان متحوّلة بالنقل من لغة يونان إلى لغة أخرى سريانية ، ثم من هذه الى لغة أخرى عربية ؟ ! “^(٣)

٢ - ولعل هذا هو السر فى أن العرب ظل محصولهم الفاسفنى غامضا : لأنهم اضطروا الى العناية بدرس ما وصل إليهم عن اليونان فى إيهام وغموض . وقد واجهت هذه

(*) فى هذا الكتاب فصل عن أبى حيان التوحيدى فى الباب الخامس ص ١٣٣ - ١٤٤ ج ٢

(١) توفى السيرافى فى بغداد سنة ٣٦٨ وكان من كبار النحاة . متى بن يونس باحث من رجال

القرن الرابع كان مشغولاً بنشر علوم اليونان . (٢) معجم الأدباء ج ٣ ص ١٠٥ - ١٢٤

(٤) ص ١٠٨ ج ٣

المشكلة وأنا أدرس فلسفة الغزالي فوصلت بعد الدرس إلى أن الفلاسفة المتفوقين من العرب هم الرجال الذين بنوا فلسفتهم على أساس العقلية العربية ، وكان اتصالهم بالفلسفة اليونانية اتصال ثقافة لا اتصال نقل ومحاكاة ، وكذلك نجح ابن رشد ونجح الغزالي : لأنهما ابتدأ من نقطة مفهومة : هي النفس العربية أو الإسلامية ، ثم مضيا يتعقبان ما يقضى به العقل أو ما يوحى به الدين ، وأستطاعا بذلك أن يخلقا الحجة للفلسفة في البيئات الإسلامية ، وأن يخلقا لها ألوفا مؤلفة من الأصدقاء والأعداء .

٣ - ومن أهم ما أبدع التوحیدی حديث السقيفة ، وهو حديث عجيب مهد له بالكلمة الآتية^(١) :

”بممرنا عند القاضي أبي حامد ليلة ببغداد بدار ابن جیشان بشارع الماديان : فتصرف بنا الحديث كل متصرف . وكان والله غزير الرواية ، لطيف الدراية ، له في كل جو متففس ، وفي كل نار مقتبس ، بخرى حديث السقيفة ، وتنازع القوم الخلافة ، فقال كل فنا ، وقال قولاً ، وعرض بشيء . فقال أبو حامد : هل فيكم من يحفظ رسالة أبي بكر إلى علي وجواب علي له ومبايعته أياه عقيب تلك الرسالة ؟

فقال الجماعة : لا ، والله ! فقال : هي والله من درر الحقائق المصونة ، ومحبات الصناديق المحوطة ، ومنذ حفظها ما رويتها إلا للمهلي في وزارته ، فكتبها عني في خلوة بيده وقال : لا أعرف في الأرض رسالة أعقل منها ولا أبين ، وإنها لتدل على علم وحلم ، وفصاحة وفقاهة ، وبعد غور ، وشدة غوص . فقال له واحد من القوم : أيها القاضي ! فلو أتممت المنة علينا بروايتها سمعناها ورويناها عنك ، فنحن أوعى لها من المهلي وأوجب ذماماً عليك“ انخ .

٤ - وحديث السقيفة حديث ممتع ، والذي يهمننا قبل تحليله هو إيراد ما كتبه ابن أبي الحديد في التعقيب عليه ، لأن لذلك أهمية عظيمة في إعطاء ما نحن بصددده من إنشاء

(١) ورد حديث السقيفة في شرح ابن أبي الحديد نهج البلاغة ص ٩٢ هـ ج ٢ وأنبه القلقشندي في صبح الأعشى

القصص التاريخي صبغة واقعية، ويتلخص نقد ابن أبي الحديد في أن حديث السقيفة هذا شبيه بكلام التوحيدى ومذهبه في الخطابة والبلاغة، وأن خطب عمر وأبي بكر ورسائلهما خالية من البديع ومن صناعة المحدثين الظاهرة في ذلك الحديث، وأن الذي يتأمل كلام التوحيدى يعرف أن ذلك الحديث خرج من معدنه، ويدل عليه أنه أسنده إلى القاضي أبي حامد المروذى وهذه عادته في كتابه (البصائر) يسند إلى أبي حامد كل ما يريد أن يقوله هو من تلقاء نفسه إذا كان كارها لأن ينسب إليه، ومما يؤيد أنه مصنوع أن المتكلمين على اختلاف مقالاتهم من المعتزلة والشيعة والأشعرية وأصحاب الحديث وكل من صنف في علم الكلام والإمامة لم يذكر أحد منهم كلمة واحدة من هذه الحكاية. ولقد كان الرضى يلتقط من كلام عليّ اللفظة الشاردة والكلمة المفردة الصادرة عنه في معرض التألم والتظلم فيحتاج بها ويعتمد عليها وكأنما ظفر بملك الدنيا ويودعها كتبه وتصانيفه، فأين كان الرضى من هذا الحديث؟ وكان الباقلاني شديدا على الشيعة عظيم العصبية على عليّ، فلو ظفر بكلمة من كلام أبي بكر وعمر في هذا الحديث لملاّ الكتب والتصانيف بها وجعلها هجيرا ودأبه، ثم قال: "والأمر فيما ذكرناه من وضع هذه القصة ظاهر لمن عنده أدنى ذوق في علم البيان ومعرفة كلام الرجال، ولمن عنده أدنى معرفة بعلم السير وأقل أنس بالتواريخ".

٥ — وخلاصة الحادث الذي وضع من أجله هذا الحديث أن أبا بكر لما استقامت له الخلافة بين المهاجرين والأنصار بلغه عن عليّ تلكؤ وشماس فكره أن يتأدى الحال فتبدو العورة وتتفرق ذات البين، فدعا إليه أبا عبيدة في خلوة، وكان عنده عمر بن الخطاب، وأوصاه بأن يتلطف في دعوة عليّ إلى مبايعة أبي بكر وإعلان الرضا عن خلافته، فلما هم أبو عبيدة بالانصراف لمعالجة الأمر الذي نُدب له تبعه عمر فزوده بآيات من التلطف يلقى بها ابن أبي طالب، فلما وصل إليه بثه ما تلقاه من أبي بكر وعمر: فرق قلب عليّ واعتذر عن تخلفه بحزنه البليغ على فقد الرسول. ثم عاد أبو عبيدة فبلغ عمر نجاح مسعاه. وفي اليوم التالي ذهب عليّ إلى

المسجد فاخترق الجماعة وباع أبابكر، ثم استأذن للقيام وتبعه عمر مكرما له مستأثرا لما عنده .

تلك خلاصة القصة . ولكن أهمية الحديث ترجع الى ما فيه من الصور الفنية التى تأنق التوحيدى فى صوغها كل التأنق . وأنظر ما وصف به أبو بكر بوادر الشر المخوف الذى يهدد كيان المسلمين لو طال الشقاق :

” امض الى عليّ وأخفض له جناحك ، وأغضض عنده صوتك ، وأعلم أنه سلاية أبى طالب . ومكانته ممن فقدناه بالأمس — صلى الله عليه وسلم ! — مكانه . وقل له : البحر مغرقة ، والبر مفرقة ، والحق أكلف ، والليل أغدق ، والسماء جلواء ، والأرض صلعاء ، والصعود متعذر ، والهبوط متعسر ، والحق عطوف رءوف ، والباطل عنوف عسوف ، والعجب قداحة الشر ، والضغن رائد البوار ، والتعريض شجار الفتنة ، والقحة ثقوب العداوة . وهذا الشيطان متكئ على ستماله ، متحيل يمينه ، نافع خصيه لأحله ، ينتظر الشتات والفرقة ، ويدب بين الأمة بالشحناء والعداوة ... يوسوس بالفجور ، ويدلى بالغرور ، ويمنى أهل الشرور ... ولا بد الآن من قول ينفع إذا أضر السكوت وخيف غبه . ولقد أرشدك من أفاء ضالتك ، وصافاك من أحيا مودته بعتابك ، وأراد لك الخير من آثر البقاء معك . ما هذا الذى تسول لك نفسك ، ويدوى به قلبك ، ويلتوى عليه رأيك ، ويتخاوص دونه طرفك ، ويسرى فيه طعنك ، ويرتاد معه نفسك ، وتكثر عنده صعداؤك ، ولا يفيض به لسانك ؟ أعمجة بعد إنصاح ؟ أتلئس بعد إيضاح ؟ أدين غير دين الله ؟ أخلق غير خلق القرآن ؟ ... إنك والله جد عارف باستجابتنا لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وبخروجنا عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبتنا ، هجرة لله عز وجل ، ونصرة لدينه ، فى زمان أنت فيه فى كثر الصبا ، وخدر الفرارة ، وعنفوان الشبيبة ، غافل عما يشيب ويريب ، لا تعي ما يراد ويشاد ،

(١) حدى جماعة من رجال وزارة المعارف المصرية فظنوا هذه المحاوره صحيحة النسب فاختاروا منها قطعة نسبوها الى أبى بكر فى كتاب المخطوطات للداوس النانوية .

ولا تحصل ما يساق ويقاد، سوى ما أنت جار عليه الى غايتك التي اليها عدل بك، وعندها حط رحلك، غير مجهول القدر، ولا مجحود الفضل . ونحن في أثناء ذلك نعانى أحوالا تزيل الرواسي، ونقاسى أهوالا تشيب النواصي، خائضين غمارها، راكبين تيارها، نتجزع صمابها، ونسرج عباها، ونحكم أساسها، ونبرم أمراسها، والعيون تتحدج بالحسد، والأنوف تعطس بالكبر، والصدور تستعر بالغيظ، والأعناق تتطاول بالفخر، والشفاه تشحذ بالمكر، والأرض تميمد بالخوف، لا ننظر عند المساء صباحا، ولا عند الصباح مساء، ولا ندفع في نحر أمر إلا بعد أن نحسو الموت دونه، ولا نبلغ مرادا إلا بعد الا بعد الإياس من الحياة عنده^(١) الخ.

وهناك صفحة في غاية من الجودة كتبت على لسان عمر، رضى الله عنه، أوصى أبا عبيدة أن يواجه بها عليا كرم الله وجهه، وصفحة أخرى خاطب بها عمر عليا حين تلاقيا بعد البيعة، وهذه وتلك من آيات النثر الفنى .

والحديث طويل . ولا حاجة الى الإفاضة في تحليله فليرجع اليه القارئ إن شاء .

وهذا النمط من تنسيق الأخبار معروف عن التوحيدى، وما نحسبه ألف كتابا إلا أنطق الناس فيه بفنون من الأحاديث فيها متعة للعقل والذوق والإحساس^(١) .

(١) ضاق المجال عن تحليل المناظرات التي دونها التوحيدى، ويكفى أن يعرف القارئ ان تدوين المناظرات كان من أهم ما يمتاز به القرن الرابع، ونحن نرشد الى هذا العنصر من النثر الفنى ليعتقه من شاء، فقد يطول القول ان مضينا ندرس كل ما اهتم به كتاب ذلك العهد من فنون البيان .

(١)

١٠ - قصص البيغاء

١ - أما البيغاء فكانت شاعرة، كان في ريعان شبابه متصلاً بسيف الدولة، ثم تنقلت به الأحوال بعد وفاة صاحبه، فورد الموصل وبنجداد ونادم بهما الملوك والرؤساء . وظل ينعم تارة ويشقى تارة أخرى حتى وافاه حمامه لثلاث بقين من شعبان سنة ٣٩٨

وليس لدينا من النصوص ما يكفي لبيان الاتجاهات الفنية التي كانت تغلب على البيغاء في القصص . ولكن يظهر أنه كان معروفا بهذا الفن، حتى أستطاع الصابي أن يخاطبه بقوله :
خوستيت يا قس الطيور فصاحةً إذا أنشد المنظوم أو درس القصص^(٢)

٢ - وقد بقي لنا من قصصه حكاية ذكر الثعالي أنه لم يسمع أطرف منها في فنها، ولا ألطف ولا أعذب ولا أخف^(٣) . ونحن كذلك نشهد بأننا لم نقرأ في الأدب العربي أطرف من تلك الحكاية ، وهي تمثل الحزينة التي كان يمرح في ظلالها رجال الأدب في ذلك الحين . ولغة البيغاء في تلك القصة سهلة مقبولة لا يظهر فيها تصنع ولا تكلف ، وهو لا يستعمل السجع الا حيث يقضى السياق بالتأنق والتنميق ، فالسجع عنده حلية فنية يلجأ إليها حين يريد تصوير سمة من سمات الجمال ، أو نزعة من نزعات الوجدان . ولو سلك الأدباء مسلك البيغاء في ذلك القصص الغرامي لسانت اللغة العربية من الجفاف الذي غلب عليها في النثر ووقف به موقف الجمود . والشعر من هذه الناحية أسلس وأرق ، فقد كان للشعر ما يشبه التقاليد المرسومة التي تبيح التحدث عن هفوات الصبا ونزوات الشباب . ولعل هذا كان من أسباب ظهور الشعر على النثر في البلاغة العربية ، فانا نرى للشعر المكان الأول في الأندية والمحافل

(١) راجع ترجمة أبي الفرج البغيا وتحليل رسائله في الجزء الثاني ص ٢٢٦ — ٢٤٢ من هذا الكتاب .

(٢) ص ١٨٨ ج ١ يتيمة الدهر . (٣) ج ١ ص ١٧٤

والمواسم . وزاه كذلك أول ما نتوجه اليه عناية الناقدين ، إذ كان أقرب ألوان الأدب إلى النفوس ، وأحبها إلى القلوب ، لاهتمام أصحابه بالحديث عن أهواء الناس وشهواتهم وظنونهم في عالم الجسد وعالم المحبوس ، ولكن النثر لما قُصر قديما على الشؤون الجدية من علم وأدب وسياسة ودين كان نصيبه أن يحبس على فئة قليلة هي الجمهور المحدود بجمهور الساسة والعلماء والهداة ، وهو جمهور له قيمته وخطره ، ولكنه لقلته لم يستطع في أى عصر أن يذيع فنا من الفنون الأدبية التي يموت أصحابها إن لم تغز في وقت واحد ساكني القصور والأكواخ . ومن أجل هذا كانت الأقاصيص في النثر من أهم ما يمتاز به الأدب في القرن الرابع ، ففي كتابات بديع الزمان والتوحيدى والتنوخى والبيغا والأزدى نماذج فنية فيها فتن للعقول والقلوب والأهواء والأحاسيس ، لا تقل أثرا في أنفس قارئها وسامعها عما يقدم الشعر البليغ من صنوف اللذة والإمتاع .

قال أبو الفرج . تأخرت بدمشق عن سيف الدولة رحمه الله مكرها وقد سار عنها في بعض وقائعه . وكان الخطر شديدا على من أراد اللحاق به من أصحابه ، حتى أن ذلك كان مؤديا إلى النهب وطول الاعتقال ، وأضطرت إلى إعمال الحيلة في التخلص والسلامة بخدمة من بها من رؤساء الدولة الإخشيدية ، وكان سنى في ذلك الوقت عشرين سنة ، وكان أنقطاعهم إلى أبي بكر بن على بن صالح الرزبازى لتقدمه في الرئاسة ومكانه من الفضل والصناعة ، فأحسن تقبلى وبالغ في الإحسان بى وحصلت تحت الضرورة في المقام فتوفرت على قصد البقاع الحسنة والمتزهات المطرفة تسليا وتعللا ، فلما كان في بعض الأيام عملت على قصد دير مران وهذا الدير مشهور الموقع في الجلالة وحسن المنظر . وأستصحبته بعض من كنت آنس به وتقدمت لحمل ما يصلحنا وتوجهنا نحوه فلما نزلناه أخذنا في شأننا وقد كنت آخرت من رهبانه لعشرتنا من توسمت فيه رقة الطبع ، وسجاجة الخلق ، حسبما جرى به الرسم في غشيان الأعمار وطرق الديرة من التظرف بعشرة أهلها والأنس بسكانها ، ولم تزل الأقداح دائرة بين مطرب الغناء وزاهر المذاكرة إلى أن فض اللهو ختامه ، ولوح السكر لصحبي أعلامه ، وحانت

منى بطرة الى بعض الرهبان فوجدته اى خطابى متوثبا ، ولنظري اليه متربيا . فلما أخذته عني 'ك' يزعني بجنتي' الغمز . ووحى الإيماء ، فاستوحشت لذلك وأنكرته ونهضت عجلا واستحصرتة . فأخرج الى رقعة محتومة وقال لى : قد لزمك فرض الأمان فيما تقتضيه هذه الرقعة . وسقط زمام كاتبها فى سترها بك عني . فقمضتها فإذا فيها بأحسن خط وأملحه وأقرأه وأوصحه :

بسم الله الرحمن الرحيم ؛ لم أزل فيما تؤديه هذه المخاطبة يا مولاي بين حزم يحث على التقباض عليك . وحسن ظن يحض على التسامح بنفيس الحظ منك . إلى أن استزلتني الرغبة فيك ، على حكم الثقة بك ، من غير خبرة ، ورفعت يلى وبلنسك سحجف الحشمة فأطعت بالانسياط أوامر الأنسة وآتتهزت فى التوصل إلى مودتك فأتت الفرصة . والمستأخ منك جعلنى الله فذلك زورة أرتجع بها ما أغتصبته الأيام من المسرة مهتأة بالانفراد إلا من غلامك الذى هو مادة مسرتك ، وما ذاك عن خلق يضيق بطارق ، ولكن لأخذنى بالاحتياط على حالى . فإن صادف ما خطبته منك أيدك الله قبولاً ولديك نفاقاً فمُنية غفل الدهر عنها أو فارق مذهبه فيما أحدها الى منها . وإن جرى على رسمه فى المضايقة فيما أوتره وأهواه ، وأترقبه من قربك وأتمناه ، فدمام المروءة يلزمك رد هذه الرقعة وسترها وتناسيها وأطراح ذكرها . وإذا بأبيات تملوا الخطاب وهى :

يا عامر العمر بالفتوة والقصة	ف وحث الكؤوس والطرب
هل لك فى صاحب تناسب فى الد	مغربة أخلاقه وبالأدب
أوحشه الدهر فاستراح الى	قربك مستنصرا على النوب
فان تقبلت ما أتاك به	لم تشن الظن فيه بالكذب
وإن أتى الزهد دون رغبتنا	فكن كمن لم يقل ولم يجب

قال أبو الفرج : فورد على ما حيرنى ، وأسرت ما كان الشراب حازه من تميزى ، وحصل لى فى الجملة أن أغلب الأوصاف على صاحبها الكتابة خطأ وترسلاً ونظماً ، فشاهدته

بالفراسة من ألفاظه ، وحدث أخلاقه قبل الاختبار من رقعته ، وقلت للراهب : ويحك من هذا وكيف السبيل الى لقائه ؟ فقال أما ذكر حاله فاليه اذا اجتمعنا . وأما السبيل الى لقائه فمتسهل إن شئت . قلت : دلني . قال : تظهر فتورا وتنصب عذرا تفارق به أصحابك منصورا ، وإذا حصلت بباب الدير عدلت بك الى باب خفيّ تدخل منه . فرددت الرقعة عليه وقالت : ارفعها ليتأكد أنه بي وسكونه إلى ، وعرفه أن التوفر على أعمال الحيلة في المبادرة الى حضرته على ما آثره من التفرد أولى من التشاغل بإصدار جواب وقطع وقت بمكاتبته . ومضى الراهب وعدت الى أصحابي بغير النشاط الذي نهضت به فأنكروا ذلك ، فاعتذرت اليهم بشيء عرض لي وأستدعيت ما أركبه ، وتقدمت الى من كان معي ممن يخدم بالتوفر على خدمتهم ، وقد كنا عملنا على المبيت فأجمعوا على تعجل السكر والانصراف ، وخرجت من باب الدير ومعى صبي كنت آنس به وبخدمته ، وتقدمت الى الشاكريّ برد الدابة وستر خبري ومباكرتي . وتلقاني الراهب وعدل بي الى طريق في مضيق وأدخلني الى الدير من باب غامض وصار بي إلى باب قلالية^(١) متميز عما يجاوره من الأبواب نظافة وحسنا فقرعه بحركات مختلفة كالعلامة ، فابتدرنا منه غلام كان البدر ركب على أزراره ، مهفهف الكشح مخطف ، معتدل القوام أهيفه ، تحال الشمس برقعت غرته ، والليل ناسب أصداعه وطرته ، في غلالة تنم على ما تستره ، وتجفوع رقتها عما تظهره ، وعلى رأسه مجلسية مصمت فبهر عقلي ، وأستوقف نظري ، ثم أجفل كالظبي المذعور ، وتلوته والراهب إلى صحن القلالية فاذا أنا بيت فضي الحيطان ، رخامي الأركان ، يضم طارقة خيش مفروشة بحصير مستعمل ، فوثب الينا منه فتى مقتبل الشبية ، حسن الصورة ، ظاهر النبل والهيئة ، مثر من اللباس بزى غلامه ، فلقيني حافيا يعثر بسرأويله ، وأعتقني ثم قال : انما أستخدمت هذا الغلام في تلقيك ياسيدي لأجعل ما لعلك أستحسنته من وجهه مصانعا عما ترد عليه من مشاهدتي ، فاستحسننت اختصاره الطريق الى بسطى وآرتجاله النادرة على نفسه ، حرصا في تأنيسي ،

(١) القلالية : بناء كالدير .

وأقضى في شكرى على المسارعة إلى أمره . وأنا أوصل في خلال سكانه المبالغة في الاعتداد به . ثم قال : يا سيدى أنت مكدود بمن كان معك ، والاستمتاع بجادتك لا يتم إلا بالتوصل إلى راحتك — وقد كان الأمر على ما ذكر — فاستقيت يسيرا ، ثم نهضت نخدمت في حالى النوم واليقظة الخدمة التى ألفتها في دور أكابر الملوك وأجلة الرؤساء . وأحضرنا بخادم له ، لم أر أحسن منه وجها ، طبعا يضم ما يتخذ للعشاء مما خف ولطف . فقال : ألا كل منى ياسيدى لثاجة ، ومنك للمألحة والمساعدة ، فلنا شيئا . وأقبل الليل فطلع التمر ففتحت مناظر ذلك البيت إلى فضاء أدى إليها محسن الغوطة وجبانا بذخائر ياضها من المنظر الجنائى والنسيم العطرى . وجاءنا الراهب من الأشربة بما وقع اتفاقنا على المختار منه ، ثم آتعتنا غارب اللذة ، وجرينا في ميدان المفاوضة ، فلم يزل يناهينى نوادر الأخبار وملح الأشعار ، ونخلط ذلك من المزح بأظرفه ، ومن التودد بألطفه ، إلى أن توسطنا الشراب فالتفت إلى غلامه وقال له : يا مترف إن مولاك ما أذعرنا السرور بحضوره ، وما يجب أن نذخر ممكنا في مسرته ، فامتنع وجه الغلام حياء وخفرا ، فأقسم عليه بحياته وأنا لا أعلم ما يريد ، ومضى فعاد يحمل طنбора وجلس فقال لى : يا سيدى تأذن لى في خدمتك؟ فعممت بتقيل يده لما تداخلنى من عظم المسرة بذلك ، فأصلح الغلام الطنبور وضرب وغنى :

يا مالكى وهو ملكى وسالى ثوب نسكى
تزد يقين الحوى فيه لك عن تعرض شك
لولاك ما كنت أبكى الى الصباح وأبكى

فنظر إلى الغلام وتبسم فعلمت أن الشعر له . فكدت والله أطير طربا وفرحا بملاحة خلقه ، وجودة ضربه ، وعذوبه ألفاظه ، وتكامل حسنه ، فاستدعيت كيزا فأحضرنا الخادم عدة قطع من فخر البلور وجيد المحكم فشربت سرورا بوجهه ، وشربت بمثل ما شربت ، ثم قال لى : أنا والله ياسيدى أحب ترفيك وأن لا أقطعك عما أنت متوفر عليه ، ولكن إذا عرفت الاسم والنسب والصناعة واللقب فلا بد أن تشئ ليلتنا بشيء يكون لها طرازا ، ولذكريها معلما . فخذت الدواة وكتبت أرتجالا وقد أخذ الشراب منى :

وليلة أوسعتني حسنا وطوا وأنسا

ما زلت ألتئم بدرًا بها وأشرب شمسًا

إذ أطلع الدير سعدا لم يبق مذ بان نحسا

فصار للروح مني روحا وللنفس نفسا

فطرب على قولى (ألتئم بدرًا وأشرب شمسًا) وجذب غلامه فقبله وقال : ما جهلت
ما يجب لك يا سيدي من التوقير وإنما اعتمدت تصديقك فيما ذكرته ، فيحياتي إلا فعلت
مثل ذلك بغلامك ، فأتبعت إثارة خوفًا من آحتشامه ، وأخذ الأبيات وجعل يردها ثم أخذ
الدواة وكتب إجازة لها :

ولم أكن لغريمي والله أبذل فلسا

لو آرتضى لى خصمى بدير مرآت حبسا

فقلت إذا والله ما كان أحد يؤذى حقًا ولا باطلا ! وداعبته فى هذا المعنى بما حضره ،
وعرفت فى الجملة أنه مستتر من دين قد ركه وقال لى : قد خرج لك أكثر الحديث فان عذرت
والأذكرت لك الحال لتعرفها على صورتها ، فتبينت ما يؤثره من كتمان أمره ، فقلت له يا سيدي
كل ما لا يتعرف بك نكرة ، وقد أغنت المشاهدة عن الاعتذار ، ونابت الخبرة عن الاستخبار ،
وجعل يشرب وينجب على من غير إكراه ولا حث ولا استبطاء الى أن رأيت الشراب قد دب فيه ،
وأكتب على مجاذبة غلامه ، والفتنة تنهيه فى الوقت بعد الوقت ، فأظهرت السكر وحاولت
النوم ، وجاء الغلام ببردعة فقرشها لى بازاء بردعته فنهضت اليها وقام يتفقد أمرى بنفسه ،
فقلت له إن لى مذهبا فى تقريب غلامى منى ، وأعتمدت بذلك تسهيل ما يختاره من هذه
الحال فى غلامه ، فتبسم وقال لى بسكره : قد جمع الله لك شمل المسرة كما جمعه لى بك . وأظهرت
النوم نغاد يماذب غلامه بأعذب لفظ ، وأحلى معاتبة ، ويخلط ذلك بمواعيد تدل على سعة
وأنبساط يد ، وغلامه تارة يقبل يده ، وتارة فمه ، وغلبتني عيناي الى أن أيقظنى هواء السحر
فانتهت وهما متعاقبان بما كان عليهما من اللباس ، فأردت توديعه ، وحاذرت آنتباهه وآنزاعه ،

نفرجت ولقيني الخادم يريد إيقاظه وتعرفته أنصراق ، فأقسمت عليه أن لا يفعل ووجدت غلامى قد بكر بما أركبه كما كنت أمرته ، فركبت منصرفا وعاملا على العود اليه ، والتوفر على مواصلته ، وأخذ الحظ من معاشرته ، ومتوهما أن ما كنت فيه منام لطيبه وقرب أوله من آخره ، وأعترضنى أسباب أدت الى اللحاق بسيف الدولة فسرت على أتم حسرة لما فاتنى من معاودة لقائه . ولم أزل على أتم قلق وأعظم حسرة وأشد تأسفى على ما سلبته من فراق النقي ، لا سيما ولم أحصل منه على حقيقة علم ولا يقين خبرة يؤدىانى الى الطمع فى لقائه الى أن عاد سيف الدولة الى دمشق وأنا فى جملة من بدأ بشئ قبل المصير الى الراهب وقد كنت حفظت اسمه ففرج الى مرعوبا وخولا يعرف السبب فلما رآنى استطار فرحا وأقسم لا يخاطبني إلا بعد التزول والمقام عنده يومى ذلك ، ففعلت فلما جالسنا للحادثة قال : مالى لا أراك تسأل عن صديقك ! قلت والله مالى فكر ينصرف عنه ، ولا أسف يتجاوز ما حرته منه ، ولا سررت بعودى الى هذه البلدة إلا من أجله ، ولذلك بدأت بقصدك فاذا كرى خبره ، فقال لى : أما الآن فنعم ! هذا قى من المادرائين جليل القدر ، عظيم النعمة ، كان ضمن من سلطانه بمصر ضياءا بمال كثير ، فحاش^(٢) به ضيائه لقعود السعر ، وأشرف على الخروج من نعمته ، فاستتر ، ولما أشد البحث عنه خرج متخفيا الى أن ورد دمشق بزى تاجر فكان استناره عند بعض إخوانه ممن أخدمه فأتى عنده يوما إذ ظهر لى وقال لصديقه إني أريد الانتقال الى هذا الراهب إن كان على مأمونا فذكر له صديقه مذهبي ، وأظهرت السرور بما رغب فيه من الأئس بى وأنا لا أعرفه ، غير أن صديقى قد أمرنى بخدمته وحصل فى قلايتى فواصل الصوم فلما كان بعد أيام جاءنا الرسول من عند صديقنا ومعه الغلام والخادم وقد لحقا به ومعهما سفائح^(٣) وعليهما ثياب رثة فلما نظر الى الغلام قال : يا راهب قد حل القطر ، وجاء العيد !

(١) أسقطنا من هذا الموضع قضية وائية تضم بها البيغاء ما سلف من حوادث هذه القصة . فليراجعها القارئ

فى ص ١٨٠ ج ١ من ربيعة الدهر .

(٢) حاش : من اخوش وهو النقص : وقد يكون الأصل "خاس بضائه" أى غدر .

(٣) السفائح سندات مالية .

و وثب إليه فاعتنقه وجعل يقبل عينيه ويكي ، ووقف على السفائح فأنفذها مع درج رقعة منه الى صديقه .

فلما كان بعد يومين حمل إليه ألفى دينار وقال له ابتع لنا ما نستخدمه في هذه الضيعة فابتاع آلة وفرشا ، ولم يزل مكبا على ما رأيت الى أن ورد عليه بالبغال والآلات الحسة ، وكتب أهله باجتماعهم الى صاحب مصر وتعريفهم بإياد الحال في بعده عن وطنه لضيق ذات يده عما يطالب به ، والتوقيعُ بحبيطة المال عنه مقترن بالكتب ، فلما عمل على المسير قال لغلامه سلم جميع ما بقى معك من نفقتنا الى الراهب ليصرفه في مصالح الدير الى أن نواصل نفقده من مستقرنا . وسار وماله حسرة ولا أسف إلا عليك يقطع الأوقات بذكرك ولا يشرب إلا على ما يغنيه الغلام من شعرك . وهو الآن بمصر على أفضل الأحوال وأجلها ما يبخل بتفقدى ولا يغب برى .

فتعجلت بعض السلوة بما عرفت من حقيقة خبره ، وأتممت يومى عند الراهب وكان آتبع العهد به .

١١ - أحمد بن يوسف المصري

١ - في أوائل سنة ١٩١٥ أُرشدنا الأستاذ حسين مخلوف إلى قراءة كتاب المكافأة لأبي جعفر أحمد بن يوسف المصري، فأقنيتيه وقرأته، ولكنني وجدته كتاباً عادياً لا روح فيه. ثم عدت إليه في هذه الأيام، صيف سنة ١٩٣٠، وأنا في باريس، فدهشت لبعده ما بينت الإحساسين: شعوري بتفاحة الكتاب سنة ١٩١٥ وشعوري بنفسه سنة ١٩٣٠، ورجعت أختبر نفسي وأمتحنها لأعرف السر في هذا البعد الهائل بين تقديرين مختلفين أشبه الاختلاف نحو كتاب واحد، فانتهيت إلى أن الكتاب هو بالطبع لم يتغير لا في وضعه ولا في أسلوبه، ولكني أنا الذي تغيرت، ففي سنة ١٩١٥ كنت من المعجبين المفتونين بأسلوب بدیع الزمان والحوارزمي والصابي وآبن العميد، وكان كتاب الصنعة المتأقنون أقرب الناس إلى نفسي، وأحبهم إلى، وأبعدهم تأثيراً في تكوين مشاعري الفنية والأدبية، فقد كنت أحفظ عن ظهر قلب مقامات بدیع الزمان ومقامات الحريري ونهج البلاغة ومقادير عظيمة جداً من مختار ما كتب الحوارزمي والصاحب بن عباد وآبن زيدون ومن إليهم من الكتاب الذين أرادوا أن يكون النثر فناً خالصاً يسامى الشعر ويباريه في الزخارف والتهاويل، والوزن والقافية، لأن أكثر النثر المصنوع مقفىٌ موزون، وإن لم يجر وزنه وتقفيته على وتيرة واحدة، وكنت أحفظ كذلك أكثر ما في زهر الآداب والأمالى والعقد الفريد من خطب الأعراب وأحاديثهم وحكمهم وفقراتهم الماثورة في الأوصاف والتشبيهات، فأطمأنت نفسي إلى أن النثر الجيد هو النثر الذي يعنى الكاتب ويشقيه في اختيار الألفاظ والتعابير، وأن الكاتب البليغ هو الصانع الفنان الذي ترى جهده وصنعه وفنه في كل لفظة وكل جملة بحيث ترى في رسالته أو خطبته ما تراه في الأعمال الفنية الدقيقة من مظاهر البراعة والحذق ودقة النظم ومنانة التراكيب . من أجل ذلك رأيت في كتاب المكافأة يوم ذاك أثراً ينقصه الفن ويبدو هامداً لا حس فيه ولا روح .

٢ - ثم شاء الله أن أتعلم في دراسة الأدب العربي والأدب الفرنسي ، وأن أقبل بنوع خاص على ما كتب النقاد الفرنسيون الذين أطلوا القول في دراسة أسرار البلاغة مقرونة بدرس نفوس الكتاب وسرائرهم وضمائرهم ومشاعرهم وأحاسيسهم وألوان حياتهم ، فعرفت أن هناك جمالا غير جمال الصنعة البراقة التي تهيج الحواس ، هناك جمال النفوس الصافية ، والأرواح الملهمة والقلوب الخساسة ، التي تفيض على العالم من فيض الحكمة والعقل ، وتسكب على الوجدان ما يوقظه ويحييه من نعيم العطف والحنان . وعرفت أن النثر قد يكون مصنوعا أدق الصنع من دون أن نرى فيه أثرا للسجع والجناس والتورية والمطابقة والأزدواج ، وأن ما يسمى بالمحسنات البديعية ليس كل شيء في صناعة الكتابة ، فقد يشق الكاتب في وضع الجملة وصياغة الأسلوب من غير أن يحس القارئ أنه أمام نثر مصنوع . وهذا النوع من الصنعة أدل على الحدق والمهارة وقوة الطبع وعبقورية الخيال ، إن هذا النوع من الصنعة يقنع القارئ بأنه أمام نثر مطبوع . لا أثر فيه للجهد والعنت في تخير الألفاظ ورصف التراكيب ، ومثله مثل المناظر الطبيعية ، فقد يقف المشاهد أمام زهرة مبرقشة مزخرفة تغلب فيها الخطوط والتباوير ، أو تُعرض عليه سمكة ملونة تلويناً دقيقاً يزيغ البصر ويشير الحس ، ثم لا يحسب الإنسان أن في هذه السمكة أو تلك الزهرة فنا وصنعة ، لأنه يظنها هكذا خلقت ، ولا يدري أن الطبيعة صنعتها عن عمد وذكاء . وكذلك نقرأ الآثار الأدبية التي تنقصها الصنعة الظاهرة فنحسبها مطبوعة ، وذلك خطأ مبين ، فكل شاعر يصنع قصيدته ، وكل كاتب يصنع رسالته ، وكل خطيب يصنع خطبته ، والفرق بين المصنوع والمطبوع أن الأول يبدو فيه أثر التكلف ومحاولة الإبداع ، أما الثاني فيصدر عن طبيعة سخية لبقة تعودت الإتقان والإجادة ، بحيث يظن أنها تبدع ما تبدع بلا كلفة ولا عناء .

٣ - غير أنه ينبغي أن نقيد أن هناك جمهورين من القراء : جمهور المبتدئين الذين تروقهم الصنعة الظاهرة ولا يكادون يفهمون غرائب الصنعة الدقيقة ، ولهذا الجمهور الساذج كتاب يحسنون التلوين والتزيين والتحويل مثلهم مثل الباعة الذين يعرضون على الجمهور الساذج طرائف

التياب المخططة المبرجة وهي ثياب ظريفة خلابة لا تكلف صانعيها جهدا كبيرا، ولكنها تروق العامة وتفتنهم وتبدو لهم غاية في التجويد والإبداع . وهناك الجمهور الثاني جمهور المثقفين ثقافة أدبية عالية، وحولاء يفهمون دقائق الفنون الأدبية، ويفرقون بين الصنعة السطحية والصنعة الخفية التي لا يجيدها إلا الأفاضل القلائل من خول الكتاب . هذا الجمهور المثقف هو الذي يُسقى الكاتب المتفوق ويمجّله على مراعاة الذوق الأدبي والحاسة الفنية، لأنه يعرف كيف تقع الكلمة من الكلمة، وكيف تؤدي الجملة ما وضعت له تأدية صحيحة لا نقص فيها ولا إسراف. والكاتب البليغ حقا هو الذي يضع الألفاظ على قدود المعاني وضعا رشيقا مهندما يفتن العقل والذوق بحيث لا يود القارئ المثقف لو حذفت لفظة أو زيدت لفظة، ومثل هذا الكاتب مثل الصيقل البارع الذي يحسن تركيب الدواء، فهو شخص مسئول يركب أجزاء الدواء بمقادير معينة محدودة يؤخذ بعضها بالقطرة وبعضها بالميزان، وهو يعلم أن الدواء لو نقص منه جزء، أو زيد عليه جزء، لأصبح ضارا أو غير مفيد . ومثل الكاتب البليغ مع جمهوره المثقف مثل التاجر المتأنق الذي يتخير أجمل الملابس وأدقها صنعا، فقد تبدو بضاعته عادية لا رونق فيها عند من لا يفرقون بين المركب والبسيط . ولكنها تظهر نفيسة ثمينة عند من ألفت عيونهم وأذواقهم دقائق النسيج، وغرائب الصنع . ومثل هذا التاجر خليق بأن يرضى بالعدد القليل من عشاق الذخائر والأعلاق، فإن فهم التفائس يحتاج الى ثقافة خاصة لا تتاح لكل مخلوق . وكذلك الكاتب المبدع والفنان الذي يدق فنه وتسمو صنعته على كثير من العقول والأذواق يجب أن يطمئن الى أن جمهوره معدود الأفراد فليس له أن ينتظر جماهير كثيرة تصفق له وتستعيده وتشيد بذكره في الأندية والأسواق، وإلا عاد رجلا عاميا لا إباء له ولا عزة ولا كبرياء، فإن الخرز مهما راجت سرقه وصنعت منه ملايين العقود لن يصل في أي ذهن الى مساماة اللؤلؤ المكنون الذي كتب عليه انجول وظل يحين الأصداف، وفي ذلك عزاء لمن أفردتهم عبقريتهم، وأقصتهم عن الجماهير، فعاشوا في أوطانهم غرباء .

٤ — كتاب المكافأة طبع سنة ١٩١٤ بمطبعة الجمالية بالقاهرة بعناية الأديب الفاضل أمين عبد العزيز أفندي الذي ظهر بنسخة منه من أحد باعة الكتب بنابلس وقد أحدها الى أستاذنا

البجائية أحمد زكي باشا، وهو يقع في ١٢٨ صفحة بالقطع الكبير وعليه بعض تعليقات وفيه أغلاط كثيرة يمكن استدراكها لو طبع مرة ثانية. أما المؤلف فهو أبو جعفر أحمد بن يوسف المصري، وكان أبوه يوسف بن إبراهيم يكنى أبا الحسن. وكان من جلة الكتاب بمصر، قال ياقوت: ولا أدري كيف كان انتقاله إليها عن بغداد. مات أحمد بن يوسف نحو سنة ٣٤٠ هـ وله من التصانيف: سيرة أحمد بن طولون وسيرة هارون ابن أبي الجيوش، وأخبار غلخان بنى طولون، وكتاب المكافأة، وكتاب أخبار الأطباء. الخ. وكان حسن المجاسة، جيد الكتابة، حسن الشعر، قد خرج من شعره أجزاء. حدثنا عن نفسه قال:

”كان أبو الفياض سوار بن شراعة الشاعر صديقاً لي، ومائلاً إليّ، فلما أعتزم على الرجوع إلى العراق سألني أن أكتب له شيئاً من شعري فكتبت له مقدار خمسين ورقة. وكان يستحسنه ويعجب به، فصار إلى بغداد وعرضه على جماعة الأحرار، وأحسن وصفني لهم بإسلامه مذهبه وطهارة نيته. ودخل محمد بن سليمان مصر وقد ردّ البريد بها إلى أبي عبيد الله أحمد بن صالح، فسأل عند دخوله إياها عن أحمد بن يوسف فأحضر أحمد بن يوسف، كاتباً كان لأحمد ابن وصيف ولأبن الحصص بعده، فقال له: تعرف أبا الفياض؟ قال: لا. فقال لهم: ليس هذا الرجل الذي طلبت، فأحصرت، فلما رآني استشرف إليّ وقال: تعرف أبا الفياض؟ فقلت: ذكرك الله وإياه بكلّ صالحة! نعم، وكان حلالاً. فقال: هل أنشدك من شعره:
ظللنا بها نستنزل الدن صهوه
يستزل أقباساً بغير لهيب

فقلت: لا ياسيدي! ولكنني أنشدته إياه من شعري، فصحك وقال: والله لقد آشتقت إلى الدخول إلى مصر من أجلك“.

ونحن نأسف لأن ضاع شعر أحمد بن يوسف الذي كان ينقل إلى مصر سكان العراق.
هـ — كتاب المكافأة مصدر عظيم من مصادر الأدب والتاريخ، نعرف منه اتجاه العقول وسيرة الناس في مصر في أواخر القرن الثالث والنصف الأول من القرن الرابع. والمصريون

لذلك العبد، كما وصفهم صاحب المكافأة، كانوا يقاسون ألوانا من الظلم والاضطهاد. وكانوا في أنفسهم مزيجا من العرف والتكر، والخير والشر، والعدو والوفاء، فقد كان فيهم المحسنون والمتصددون، كما كان فيهم اللصوص وقطاع الطريق . وهذه الحال تذكر بما كنت أسمع في طفولتي من أخبار المناسر التي كانت تبيّت الناس فتزل عليهم في هدأت الليل وهم يديرون السواقي في أطراف الحقول . واللص المصرى في كتاب المكافأة هو نفسه اللص المصرى الذى كانت أخباره متعة السامعين الى عهد قريب، فهو رجل فأنك جرى نهاب سفاك، ولكنه مع ذلك رجل ذو مروءة وشهامة بنى بالعهد ولا يتقضى الميثاق . واللصوص في مصر كانت لهم تقاليد تشبه تقاليد الصعاليك من عرب الجاهلية . فالصعاليك كانوا فتيانا ذوى بأس شديد يسوءهم أن تقسم الأرزاق بين الناس قسمة جائرة، وأن تكثر الفروق بين الأغنياء الذين يحدون ولا يشتهون، وبين الفقراء الذين يشتهون ولا يحدون، فكانوا لذلك ينظمون جهودهم، ويغيرون على ما يملك الأغنياء البخلاء، من إبل وشاء . وصاحب المكافأة نفسه يطلق على اللصوص كلمة صعاليك، كأنه كان يلمح مافى طباع المصريين الناهبين من معنى الثورة على توزيع الأملاك . ولننظر كيف يقول :

”حدثني محمد بن صالح الغورى قال : كانت لى بضاعة أعود بفضلها على شملى، فافترقت في معاملات فى الصعيد وخرجت الى من عاملته بجمعها، وكان مقدارها خمس مائه دينار، وخرجت أريد الفسطاط فى رفقة كثيرة الجمع، فلما كان متصفا طريقنا وافى جمع من الصعاليك فسلب الناس جميعا ودهشت، فرأيت منهم شابا حسن الصورة فقلت له : وآله ما أملك غير هذا الكيس فارفعه لى عندك . فقال : وأين بيتك بالفسطاط ؟ فقلت فى دور عباس بن وليد . فقال : ما اسمك ؟ قلت : محمد الغورى . قال امض لشأنك . وجاء منهم من قلع ثيابى وسراويلى، وأنصرفوا عنا، ولم أزد أن سوغت واحدا منهم جميع ما كان معى، ودخلنا الى الفسطاط ونحن فقراء . فرجع كل واحد منهم الى ما تخلف له وبقيت ليس معى درهم أفقه . وإنى لجالس على درجة المسجد بين المغرب وعشاء الآخرة حتى رأيت رجلا قد

وقف بى ، فقال لى : هاهنا منزل محمد الغورى ؟ قلت أنا هو . ولا والله ما آتيت الى الرجل الذى أعطيته المال لأنه كان عندى أول مال ذاهب ، فقال لى : عتيتنى ! وأخرج الكيس فدفعه الى ، فردت على جدتى وتطعمت الحياة^(١) .

. . . وتنتهى القصة بأن الغورى دعا اللص الى المبيت عنده ، وأنه مضى فى الصباح الى بعض القواد يخبره بحديث ذلك اللص الشريف ، وأن القائد قال له : الطف لى فيه ، فوالله لأنوّهن باسمه ، ولأكافئنّه عنك ، قال : ”فرجعت اليه فأخبرته ، فوالله ما ارتاع ولا اضطرب ، ومضى معى ، فأحسن تلقيه ، وخلع عليه ، وصيره سيارة لعمله ، وضم اليه عدة وافرة“ .

. . . وللقارئ أن يعين المعانى النفسية فى الفقرة الأخيرة ، خصوصا عبارة ”فرجعت اليه فأخبرته فوالله ما ارتاع ولا اضطرب ومضى معى“ فانها تدل على شهامة ذلك اللص ، وإيمانه بقوة شخصيته ، وجدارته . بالتقدم الى من يدعوه من كبار القواد .

٦٠ — أسلوب أحمد بن يوسف يستحق الدرس والنقد ، لأن هذا الكاتب كان مانا يضع اللفظة فى الموضع الذى لا يليق بها غيره ولا تستقر فى مكان سواء . وهو كاتب مقتصد لا يسجع ، ولا يوازن بين الكلمات ، ولا يزاوج بين الجمل ، كأكثر معاصريه . ولكن هذا الاقتصاد كثير التكاليف : فمن الصعب أن يصل الكاتب إلى غرضه فى عبارات موجبة خالية من شوائب الإلمهاف والإطناب ، وأسلوبه مع هذا الاقتصاد شائق أخذ يغلب عليه الفن الجميل . ومن العجيب أن هذا الرجل أملك الناس لنفسه وأكثرهم سلطانا على قلمه ، فهو يتحدث عن أبيه ، ويتحدث عن وقائعه الشخصية ، بنفس الأسلوب والروح الذى يتحدث به عن قوم آخرين . وكان فى مقدوره — لو كان ممن يأخذهم الرهو والعُجب والكبرياء — أن يطيل القول حين يعرض لما وقع له ولأبيه من حوادث أنتصرت فيها المروءة والشرف وكرم العنصر وبسالة النفس . ولكنه ظل فى جميع ما أودعه كتاب المكافأة رجلا عبقريا بالكمال لزام قلمه وكأيا لجساح هواه ، فلا تراه يستطيل ولا يتريد حين يتكلم عما أسدى من

المعروف إلى بعض من عاصره من سلاسل الخلفاء والوزراء . وله مع قصده وإيجازه عبارات رائعة تضي كأروع ما يكون في التعريض والتلميح ، وإليك قوله في بعض قصصه يتحدث عن واقعة أنتصر فيها الخلق النبيل :

”ونزل في حارتنا غلام أمرد تأخذه العين ، وكنت أسلم عليه إذا آجترت به كما أفعل هذا بغيره من جيرتي . فأنصرفت يوما إلى منزلي فوجدته قائما على بابه ، فدفع إلى رقعة يذكر فيها أنه عباسي من ولد المأمون ويسألني بـره ، ودخل من كان معي بدخولي ، فقضيت شغلي بالجماعة حتى أنصرفتوا ، ووضعت المائدة بيني وبين العباسي . فأكلنا وهو يتأملني فلا يجد في شيئا قدره . فلما غسل يده دفعت إليه ثلاثة دنائير ، وأعتذرت إليه من تقصيري في حقه ، وأنصرفت وقد رأيت تبجيلي في حماليق عينه“^(١) .

ففي هذه الأسطر القلائل عرض الكاتب مسألة خلقية دقيقة عرضا لا إخلال فيه ولا تطويل . وللقارئ أن يتأمل قوله : ”أمرد تأخذه العين“ فإني أستجيد هذا التعبير وأفضله على قول الثعالبي في ثمار القلوب ”أمرد تأكله العين“ الذي أخذه أحد الشعراء فقال :

ولقد شربتك بالمنى ولقد أكلتك بالضمير

وجمالة : ”فأكلنا وهو يتأملني فلا يجد في شيئا قدره“ من الجمال العجيبة التي تؤدي في قصد وإيجاز ما تؤذيه الكايات البارة التي تصل بالكاتب إلى غرضه من دون أن يخرج على قوانين الأدب والحياء . وقوله : ”وأنصرفت وقد رأيت تبجيلي في حماليق عينه“ من العبارات الرائعة القوية التي لا تقع لغير الكتاب الموقفين .

٧ — وفي القصة التي رواها عن أحمد بن أيمن تعابير جيدة ، وذلك أن ابن أيمن دخل البصرة إلى أحد التجار فرأى بين يديه آيين له في نهاية من النظافة ، فقال للتاجر : استجدت الأم فحسن نسلك . فقال التاجر : ما بالبصرة أقبح من أمهما ولا أحب إلى منها . وللك الأم خبر عجيب خلاصته أن أباهما كان عضلها وتعرض لعداوة خطاها ، لسرخني^(٢) هو أن أبنته كانت

دمية محرومة من كل سمات الجمال ، وكان يخشى لو زفت أن تطلق ليومها ، فلما تقدم ذلك التاجر يخطبها رأى والد الفتاة أنه أهل للخير وأنه قد يقبلها على دمامة وجهها . فلما دخل بها واجهته بالكلمة الآتية :

”ياسيدى ! إني سر من أسرار والدى كتبه عن سائر الناس ، وأفضى به إليك ، وراك أدلا لستره عليه ، فلا تخف ظنه فيك ، ولو كان الذى يُطلب من الزوجة حسن صورتها دون حسن تديرها وعفافها لعظمت محنتي ، وأرجو أن يكون معي منها أكثر مما قصر بي في حسن الصورة“ .

ثم وثبت بخاءت بمال في كيس وقالت :

”ياسيدى ! قد أحل الله لك معي ثلاث حرائر وما آثرته من الإماء ، وقد سوغك تزويج الثلاث وأبتاع الجوارى من مال هذا الكيس ، فقد أوقفته على شهواتك ، ولست أطلب منك إلا سترى فقط“ .

وهنا يقول التاجر وقد حلف :

”إنها ملكت قلبي ملكا لم تصل إليه حسنة بحسنها ، فقلت لها جزاء ما قدمته ما تسمعه مني : والله لا أصبت من غيرك أبدا ! ولأجعلك حظى من دنياى فيما يؤثره الرجل من المرأة . وكانت أشفق الناس وأضبطهم وأحسنهم تديرا فيما تتولاه بمنزلى ، فتبينت وقوع الخيرة في ذلك ، ولحققتنى السن : فصارت حاجتى الى الصواب أكثر منها الى الجماع . وشكر الله لى ما تلقيت به جميل قولها ، وحسن فعلها ، فرزقنى منها هذين الابنين الرائعين لك ، ونحن منقطعون الى جوده فينا ، وإحسانه إلينا“^(١) .

والقارئ حين يتأمل هذه العبارات يجدها بسيطة ، ولكنها قوية الأثر في النفس ، وأية دقة ، أم أية بلاغة فاتت هذا الكاتب في مثل قوله : ”استجدت الأم فحسن نسلك“ أو قوله : ”إني سر من أسرار والدى كتبه عن سائر الناس ، وأفضى به إليك ، وراك أهلا

استرد عليه ، فلا تخفر ظنه فيك “ أو قوله : ” ولحقني السن : فصارت حاجتي إلى الصنواب أكثر منها إلى الجماع “ .

هذه العبارات هي أنسب وأدق ما يتخير للحديث عن مثل هذه الشؤون التي تمس الحياة الزوجية ، وهي حياة تبنى على أساس الصدق والعدل والحب الخالص من شوائب الزرق والرعون والشهوات . فمن البلاغة أن يعبر عنها في قصد وإيجاز بعيدين من طنطنة الإسهاب .

٨ — ومن التعابير المختارة قوله في أحمد بن كثير الفرغاني الذي عمل المقياس بمصر :

” وكانت معرفته أوفى من توفيقه لأنه ما تم له عمل قط “^(١) .

وقوله على لسان محمد بن موسى : ” إن قدرة الحر تذهب بحفيظته ، وقد فزعنا إليك

في أنفسنا التي هي أنفس أعلاقنا ، وما بنكر أنا قد أسأنا ، والاعتراف يهدم الاقتراف “^(٢) .

وقوله في وصف حصار أقریطش : ” وأشد الحصار ، وزرع السعر ، وتحلق المأكول ،

وشاع الجهد ، ثم زادت المكاره حتى أكل الناس مامات من البهائم جوعاً “^(٣) .

وقوله على لسان سيدة توفى زوجها بأسوأ حالة وخلف لها بنات :

” فبكنت أجاهد في مؤونة ولدي ، وإذا وقف أمرى صرت إلى أختي فقلت :

أقرضيني كذا وكذا ، باستحياء من أن أقول لها : هي لي . ويدخل شهر رمضان ، فلما مضى

نصفه أشتهاوا على صهياني حلوي في العيد ، فصرت إلى أختي فقلت لها : أقرضيني ديناراً

أعمل به للصبيان حلوى في العيد ، فقالت : يا أختي تغيظيني بقولك ” أقرضيني “ وإذا

أقرضتك من أين تعطيني : أمن غلة دورك ، أو بستائك ؟ لو قلت : هي لي ، كان أحسن .

فقلت لها : أفضيك من لطف الله تعالى الذي لا يحسب ، وجوده الذي يأتي من حيث

لا يرتقب . فتصاحكت وقالت : يا أختي ، هذا والله من المنى ، والمنى بضائع النوبي .

فانصرف عنها أخرجني إلى منزلي “^(٤) .

وهي عبارات ساذجة ولكنها تؤدي ما وضعت له تأدية صحيحة تثير العطف وتبعث الحنان .

٩ — وبجانب هذا البيان الرائع توجد عند أحمد بن يوسف عبارات مقتولة باللبس والغموض ، من ذلك قوله في مقدمة المكافاة :

” وقد رأيتك لا تزيد من رغبت اليه فيما تحذوه على برك ، وتحثه لما أغفل من أمرك ، على نص مكارم من سلف ، وترى أنه يهش الى مساجلتهم ، فلا يبلغ في هذا أكثر من إحراز الفضيلة للارغوب إليه ، ولا يوجد في الراغب فضيلة تحثه على شفيق قصده ، ولو عدلت عن مكارم من رغب اليه ، الى حسن مكافأة من أنعم عليه ، لكنت لك ذرائع يمت بها الراغب يوجد المرغوب اليه سبيلا الى الانعام “ .

فان الشطر الأخير من هذه الفقرة غارق في بلجة من الإبهام .

وتوجد في الكتاب عبارات كثيرة يغلب عليها الضعف ، وهذا مقتل خطراً لكثير الكتاب الذين لا يصنعون أساليبهم في تأنيق وحذق ، فان الكتاب الذين يغلب عليهم الاستسلام لسجيته ولا يتخيرون للكتابة ساعات النشاط والقوة يقعون غالباً في مهاوى الركاكة والإسفاف . ومهما قيل في تفضيل الطبع وإثارة ما توحى به النفس في غير كلفة ولا عناء ، فانه لا يزال من الحق أن الطبيعة الخالصة تحتاج الى تهذيب وترتيب ، وأحواض الزهر المنسقة المهندمة التي يعنى بها الجنانون في الحداثق والبساتين أفن وأروع من الزهر المبتد الذي تلقى به الطبيعة هنا وهناك وفقاً لخصب الأرض وجود السماء .

١٠ — وهنا نقطة مهمة لابد من درسها بعناية : ذلك أن مورّخي الأدب متفقون على أن البها زهير أقدم أديب ظهرت في أدبه ألفاظ وتعايير وأخيلة مصرية . ولكن رأيت أحمد بن يوسف سبقه الى ذلك بأجيال ، والى القارئ البيان .

(١) الجنان : البساتين ، وهي كلمة طريفة ، صفاها من كلمة « الحنة » ثم رأينا أحد المتقدمين سبقنا اليها حين قال :

جان يا جنان	إجن من السنان	اليسمين
واترك الريحان	بحرمة الرحمن	للعاشقين

ثم رأينا أن « الجنان » هي كذلك بمعنى البساتين في اللغة العبرية ، من « الجان » وهي في العبرية كالجنة في العربية .

(١) المصريون، حتى المثقفون منهم ثقافة عالية، يقولون «ست» في مكان «سيدة» وهي كلمة مصرية قديمة أدخلها أحمد بن يوسف في لغته الفصيحة مجازاة للغة الحديث^(١).

(ب) والذين يعيشون في الأقاليم المصرية يذكرون المنادى الذي ينادى في الطرقات قبيل العشاء ليبلغ الناس أوامر الحكومة، ويذكرون كيف يختم ندائه بهذه العبارة «والذي يخالف يستاهل مايجرى عليه» وكلمة «يستاهل» عربية فصيحة مخففة عن «يستأهل» بمعنى يستحق^(٢)، وفي مثل هذا التعبير يقول ابن يوسف: «فقال أبو العباس: سيعلم مايجرى مني عليه».

(ج) القاعدة العامة في النحو أن الفعل يفرد مع الفاعل المنى والجمع، فنقول: حضر الأفضلان، وحضر الأفاضلون، ولا يثنى الفعل ولا يجمع إلا في لغة ضعيفة يسميها النحاة لغة «أكلوني البراغيث» والعباد بالله! ولكن المصريين في لغة الحديث يطابقون بين الفعل والفاعل في الإفراد والجمع فيقولون مثلاً: حضروا الغائبون. وكذلك نجد ابن يوسف يجارى أحياناً لغة الحديث فيقول: «فلما مضى نصفه اشتهاوا على صلياني خلوى في العيد»^(٣).

(د) اللغة الفصيحة تطابق كلمة زوج على الرجل والمرأة بدون إلحاق النساء للدلالة على التأنيث، وفي القرآن الكريم (وأصاحنا له زوجة) ولا يقال «زوجة» إلا في كتب المواريث، ويذكرون أن الامام الشافعي كان يكره أن يقول «زوجة» فكان يقول «المرأة» إذا اقتضى الحال ذلك. ولكن المصريين في لغتهم يقولون زوج وزوجة مجازاة للقاعدة العامة التي تفرق بين المذكر والمؤنث بعلامة من علامات التأنيث. وكذلك نجد ابن يوسف يقول: «ولو كان الذي يطلب من الزوجة حسن صورتها، الخ»^(٤).

(هـ) ويقول أحمد بن يوسف: «فلما غسل يده دفعت إليه ثلاثة دنانير وأعتذرت إليه من تقصيري في حقه»^(٥) وعبارة «قصر في حقه» لا تزال مستعملة إلى اليوم بين المصريين في لغة الحديث.

(١) أنظر ص ١١٧ و«لغة الحديث» تزيد بها لغة التخاطب وبقاؤها في الفرنسية *l'a langue parlée*.

(٢) ص ١١٤ (٣) ص ١١٦ (٤) ص ٥١ (٥) ص ٢٢

(و) المصريون يسمون البنت أحيانا «حسنة» بضم الحاء، وكنت أحسبها تحريفا عن حسناء، ولكنى رأيت ابن يوسف يقول «ملكى قلبى ملكا لم تصل اليه حسنة بحسنا» ومن ذلك عرفنا أن كلمة «حسنة» كانت تجرى إذ ذاك على لسان المصريين بمعنى جميلة، وهذه الصفة مهجورة في اللغة الفصيحة، وأكثر ما تستعمل في المذكر، ولكن قلما يكون ذلك بدون إضافة، فهم يقولون قى حسن الوجه، ويندر أن يكتفوا بالصفة من غير تخصيص.

(ز) المصريون يشبعون تاء الخطاب في مخاطبة المؤنثة فيقولون «فعلتيه» بدلا من «فعلته» ويحذفون النون من «تفعلين» وكذلك نجد ابن يوسف يقول : «جزاء ما قدمته ما تسمعيه^(١)» بدلا من «جزاء ما قدمته ما تسمعيه منى» ويقول «يا أختى تغيطيني^(٢)» بدلا من «تغيطيني» وهو نوع من التخفيف في لغة الحديث أدخله الكاتب في اللغة الفصيحة.

(ح) المصريون يسمون السفينة «مركبا» وكذلك يسميها ابن يوسف فيقول : «ركبت مركبا أريد الفسطاط من تنيس وحملت فيه تجارة لى ما كنت أملك غيرها». وكلمة مركب في لغته مذكرة، وهى كذلك عند أكثر البحارة في النيل، وإن كنت أرى بعض أهل الريف يحرونها مجرى المؤنث خصوصا أهالى سنتريس.

(ط) المصريون يسمون الكيس الكبير جدا الذى توضع فيه الأمتعة «تليسا» بفتح التاء وتشديد اللام مكسورة. وهذه اللفظة موجودة في كتاب المكافاة حيث يقول المؤلف : «ثم دعا بتليس من شعر... أنخ^(٣)».

(ى) كلمة نفر في اللغة الفصيحة تستعمل غالبا بمعنى الجمع، ففى القرآن الكريم (ز) استمع اليه نفر من الجن. أى جماعة منهم، وفيه أيضا : (وَأَعِزَّنَا) بمعنى القوم والقبيل. ولكن المصريين يستعملون كلمة نفر بمعنى شخص، فيقولون خمسة أنفار مثلا، وكذلك نجد ابن يوسف يقول : «فتخفرت بأربعة نفر من القيسية^(٤)» يريد أربعة أشخاص.

(ك) والمصريون يقولون لمن يغلق الباب من الداخل ”أغلقه من عنده“ وكذلك يقول ابن يوسف : ”دخلت البيت وأغلقت من عندى“^(١).

(ل) ويقول ابن يوسف على لسان قابلة أولاد نحمارويه بن طولون : ”فكنت أجاهد في مؤونة ولدى ، وإذا وقف أمرى صرت إلى أختى فقلت أقرضينى“^(٢) . وعبرة ”وقف أمره“ عبارة مصرية تساوى العبارة الجارية في الريف حين يقولون ”وقف الحال“ بمعنى ضاق الأمر وأشدت الكرب . وتقابلها في اللغة السورية عبارة ”مشى الحال“ ومنها الأغنية المشهورة ”ماشى الحال ، ماشى الحال“ .

١١ - وأحب أن يتنبه القارئ إلى أن ما نسميه عبارات مصرية أو سورية أو يمنية أو مغربية ليس إلا ترديدا لأخيلة عربية صحيحة وردت جملتها في الشعر البليغ والنثر الفصيح ، ولكن غالب بعضها هنا وساد بعضها هناك ، بحيث صح أن يقال هذه عبارة مصرية ، وتلك عبارة سورية ، الخ .

وليس من المنطق في شيء أن نُسَدَّ آذاننا مرة واحدة عن اللهجات المتفرقة في الأقطار العربية ، فإن اللغة الفصيحة تحتاج إلى مدد دائم من تلك اللهجات ، ومثلها مثل النهر الكبير يحتاج ، مع فيض منابعه الأصلية ، الى المدد المستمر الذى يصل إليه من روافده الصغيرة . وقد يوجد في اللهجات العامية نوع من الحرية والطلاقة والمرونة في بعض التعابير ، فمن الأوفق أن يتسرب شيء من تلك السهولة الى اللغة الفصيحة لتعود ألين وألس ، ولتصير أقدر على التوضيح والتفهيم والتبيين .

والواقع أن فصاحة الكلمات وبلاغة التعابير ترجع في الأكثر الى قبولها من ذوى الطباع السليمة ، والأذواق المهذبة ، ففى مقدور الكتاب أصحاب النفوذ في تكوين الملكات الفنية ، والأذواق الأدبية ، أن يضيفوا الى قاموس اللغة الفصيحة بعض الكلمات المختارة في لغة الحديث ، حتى تصبح تلك الكلمات بعد حين جزءاً من الثروة اللغوية التى نرجو أن نستغنى

بها عن الاستعانة ببعض ألفاظ الأجانب وأخيلتهم حين يعرض لنا معنى دقيق يحتاج إلى لغة أقدر وأصرح من لغة القدماء والمحدثين الذين وقفوا عند حدود ما رسمت المعاجم والقواميس .



١٢ - ولكن لأى غرض وضع كتاب المكافأة ؟

يظهر أن أحمد بن يوسف المصرى كان غاية فى نبل النفس ، وقوة العقيدة ، وطهارة الوجدان . كان مؤمنا أصدق الايمان بعبد الله ورحمته ، وكان يثق ثقة مطلقة بأن المرء مجزى بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وكان فيما يظهر قد عرف من أخيار الناس وأشرارهم طوائف كثيرة مختلفة أرتة أنواعا من الجزاء على أعماله الصالحة ، فمنهم الوفى الشكور ، ومنهم الغادر الكفور ، لذلك تأصلت فى نفسه الحفيظة والموجدة تجاه الجاحدين الكاندين الذين نسدى إليهم الخير والاحسان ثم تلقى منهم عاديات الغدر والعقوق . ونكاد نلمس فى كلماته بجمرات الغيظ كلما مر ذكر الناقضين للعهد والناسين للعرف ، حتى لنذكر به تلك الزفرة المرة زفرة يحيى بن طالب حين قال :

يزهّدنى فى كل غير صنعته الى الناس ما جربت من قلة الشكر .

وله فى مقدّمة كتابه عبارات حكيمة ، منها قوله :

” إن أشدّ على المتحنّ من محتته ، عدوله فى سعيه عن مصلحته ، وتجنّبه الصواب فى بغيته “ .

وقوله :

” ولم يؤت الجود من مائى هو أغمض من مفادرة حسن المكافأة ، ولو أنعمت النظر فيها لوجدتها أقوى الأسباب فى منع القاصد ، وحيرة الطالب ، ولو كانت توجد مع كل فعل استحقتها لآثر الناس قاصديهم على أنفسهم ولجروا على السنن المأثور عنهم “ .

١٣ - وقد قسم المؤلف كتابه الى ثلاثة أقسام : الأول المكافأة على الحسن ، والثانى المكافأة على القبيح ، والثالث حسن العقبي . وقد وضع فى القسم الأول إحدى وثلاثين حكاية ،

ختمها بحكاية رجل وقف بين يدى المنصور، وكان من رجال هشام بن عبد الملك ، فكان المنصور يسأله عن سيرة هشام لأنها كانت تعجبه ، فكان الرجل يترحم عند كل جارٍ من ذكراه ، فأحفظ ذلك حاشية المنصور ، فقال له الربيع : ” كم ترحم على عدو أمير المؤمنين ؟ “ فقال الرجل للربيع :

” مجلس أمير المؤمنين ، أيدى الله ، أحق المجالس بشكر المحسن ، وبجائزة المحمّل ، ولشام فى عنق قلادة لا يزرعها إلا غاسل “ .

فقال له المنصور : وما هذه القلادة ؟ قال : قلدى فى حياته ، وأغتنى عن غيره بعد وفاته . فقال له المنصور : (أحسنت ، بارك الله عليك ، وبحسن المكافأة تستحق الصنائع ، وتزكو العوارف) . ثم أدخله فى خاصته .

واستطرد المؤلف فقال : وقد مثل بعض الفلاسفة الحسن المكافأة بالحسام الصقيل الذى يحدث له وقوع الشمس عليه أنبعاث شعاع منه يجلو غياهب الأمكنة المظلمة ، ويكون وفور شعاعه على حسب صقالته .

ووضع فى القسم الثانى إحدى وعشرين حكاية ختمها بحكاية شيخ كان يعرفه فى أيام نهارويه ، حلو النادرة ، مليح الألفاظ ، يعرف بالدفانى ، وكان معاشه من التوصل بكتب الولاية الى معاملهم ، فحدثه أنه نخرج بكتب الى الشرقية فالتقى مع رجل فى زى بعض المانوية من الأطباء ، فدعاه المتطبب الى مؤاكلة وأخرج رغيفين مشطورين أعطاه أحدهما ووضع الآخر بين يديه . ثم أخذ كوزا معه ومضى يسعى به ، فشرهت نفس الدفانى الى الرغيف الذى كان بين يدى المتطبب فأبدله برغيفه ، وجاء المتطبب بالماء وابتدأ الأكل ، فابتلع المتطبب لقمة حتى شخص بصره وتمدد ، الى آخر القصة (٢) .

ومهد المؤلف للقسم الثالث بهذه العبارات الفلسفية إذ قال :

” وإذ وفينا ما وعدناك به من أخبار المكافأة على الحسن والقيح، ما رجونا أن يكون ذلك عوناً للاستكثار من مواصلة الخير، وتطلب العارفة في الحسن، وزجر النفس عن متابعة الشر، وإبعادها عن سورة الانتقام في القبيح، وقد قالوا : الخير بالخير، والبادى أخير، والشر بالشر، والبادى أظلم، رأيت أن أصل ذلك، حفظك الله، بطرف من أخبار من أبلى فصبره، فكان ثمرة صبره حسن العقبي . لأن النفس إذا لم تكن عند الشدائد بما يجدد قواها تولى عليها اليأس فأهلكها، وقد علم الانسان أن سفور الحالة عن ضدها حتم لا بد منه، كما علم أن أنجلاء الليل يسفر عن النهار . ولكن خور الطبيعة أشد ما يلزم النفس عند نزول الكوارث، فإذا لم تعالج بالدواء اشتدت العلة، وازدادت المحنة، والتفكر في أخبار هذا الباب مما يشجع النفس، ويبعثها على ملازمة الصبر، وحسن الأدب مع الرب عز وجل بحسن الظن في موأاة الإحسان عند نهاية الامتحان، والله ولى التوفيق^(١) .

وقد وضع في القسم الثالث تسع عشرة حكاية، ختمها بحكاية عمرو بن عثمان اذ قال :

” كان لى مجلس فى ديوان الإنشاء قليل الجدوى علىّ ، وحالى حال لا تنهض بما يحتاج اليه المقتصد، وقد لزمنى يمين لا كفارة لها فى ترك النبذ . فكان جماعة الكتاب يجلسون ما جلس الوزير، وهو يومئذ الفضل بن الربيع، فاذا آنصرف الى منزله آنصرفوا الى ما عقدوا عليه أمرهم من الاجتماع، وأقيم وحدى فى الديوان الى أن يغلق، فبكرت اليه فى يوم من الأيام، وجاءت مطرة تطرب الوزير فيها الى الشرب، لتشاغل الرشيد فى دعوة لزييدة، فلم يبق فى ديوان الإنشاء غيرى . فانى جالس حتى دخل الى خادم من خاصة الرشيد، فأخذ ييدى وأدخلنى الى الرشيد، فلما مثلث بين يديه قال : اقرأ هذا الكتاب . فقرأته فبينته وأعربته . فقال : أجب عنه بين يديّ . فأجبت عنه بأحسن معان وأجود لفظ . فقال : اقرأه علىّ، فقرأته . فقال لمسرور الكبير ”ألف دينار“ بجاء بها . فقال : ادفعها اليه، وقل للفضل : ” يصرف اليه ديوان الإنشاء فهو أحق به ممن غادره “ ثم قال لى : ” خذ هذا .

المال ، وسأنظر لك في الوقت بعد الوقت ما يزيد في أصطناعي لك ، فلا يفسد الغنى ما أصلحته الفاقة من حسن ملازمتك ، وأستزدي أزدك^(١) .

١٤ — ومؤلف المكافأة يعتقد أن المحن والشدائد من أجل ما يهب الله لعباده الذين يعدّهم لعزائم الأمور ، ويمتثل في خاتمة كتابه بقول بزرجمهر: ”الشدائد قبل المواهب تشبه الجوع قبل الطعام ، يحسن به موقعه ، ويلذ معه تناوله “ وكلمة أفلاطون : ”الشدائد تصلح من النفس بمقدار ما تصلح من العيش ، والتترف يفسد من النفس بمقدار ما يصلح من العيش “ وقوله : ”حافظ على كل صديق أهدته إليك الشدائد ، وآله عن كل صديق أهدته إليك النعمة “ وقوله أيضا : ”الترف كالليل لا تتأمل فيه ما تصدره وتتناوله والشدّة كالنهار ترى فيها سعيك وسعي غيرك “ وقول أردشير : ”الشدّة كل ترى به ما لا تراه بالنعمة “ .

١٥ — قالت إن أحمد بن يوسف المصري كان قوى العقيدة ، وأضيف الى ذلك أن قوة عقيدته لم تكن لأنه قرأ في بعض الكتب أن الله موجود ، أو لأنه سمع من هداة القسيسين والأخبار أو العلماء والوعاظ أن الله سريع الحساب وأنه بالمؤمنين رءوف رحيم . لا ، لا ، فذلك إيمان المقلدين ، إيمان الذين يقولون إنا وجدنا آباءنا على ملة وإنا على آثارهم مهتدون . ولكن إيمان بعدل الله ورحمته أنبعث من نفس راضيتها الحوادث على الاطمئنان الحق الى وجود الله وحنان رفقته ، وقسوة جبروته . وآية ذلك أن الأقاصيص التي أودعها كُتاب المكافأة أكثرها مما شاهدته في عصره ، فبعضها وقع له بالذات ، وبعضها وقع لأبيه ، وجزء منها وقع لأناس عرفهم بالمجاورة والمعاشرة ، سواء أكانوا من عامة الناس أم من حاشية بنى طولون . من أجل هذا نرى إيمان ابن يوسف إيمانا قويا خالصا بعيدا كل البعد عن الإيمان الرسمي الذي يحرص عليه من يعيشون باسم الدين في أقطار الشرق والغرب ، وإن كان ذلك لا يمنع أن يكون فيمن تصلهم بالدين صلات رسمية أبرار ومتقون .

فإن كان القارئ في شوق الى لمحة من ذلك الإيمان القوى ، إيمان الرجل الذي عرف ربه كأنه يراه ، فليقرأ قول أحمد بن يوسف في خاتمة كتابه ”وملاك مصلحة الأمر في الشدّة

شيثان : أصغرهما قوة قلب صاحبها على ما ينوبه ، وأعظمهما حسن تفويضه الى مالكة ورازقه ، وإذا صمد الرجل بفكره نحو خالقه علم أنه لم يمتحنه إلا بما يوجب له مشوبة ، أو يحص عنه كبيرة ، وهو مع هذا من الله في أرباح متصلة ، وفوائد متتابعة . فاذا آشتد فكره تلقاء الخليفة كثرت رذائله ، وزاد تصنعه ، وبرم بمقامه فيما قصر عن تأميله ، وأستطال من المحن ما عسى أن ينقضى في يومه ، وخاف من المكروه ما لعله أن يخطئه . وإنما تصدق المناجاة بين الرجل وبين ربه لعلمه بما في السرائر ، وتأيبه البصائر ، ولله تعالى روح يأتي عند اليأس منه يصيب به من يشاء من خلقه . وإليه الرغبة في تقريب الفرج ، وتسهيل الأمر ، والرجوع الى أفضل ما تطاول اليه السؤال ، وهو حسبي ونعم الوكيل “ .



١٦ — وبعد فقد كان كتاب المكافأة عميق الأثر في نفسى ، وكان قبسا من الهداية أدفع به ظلمات الغواية في باريس . فإل أستطيع أن أحكم بأن إعجابى بذلك الكتاب هو أيضا مكافأة لمؤلفه رحمه الله ، وأن جهده في وضعه وتنسيقه لم يضع ، وأن حرصه على بث الفضيلة والتنفير من الرذيلة لم يضع ، وأن إيمانه بالله عز شأنه لم يضع . وهيات أن يضع عند الله شيء ، هيات ، هيات !

كان أحمد بن يوسف مصريا ، وأنا كذلك مصرى . لقد لقي في مصر بعض الظلم ، وأكاد ألقى فيها كل الظلم . كان يحسن الى كثير من الناس ، فيفى له من يفى ، ويغدر به من يغدر ، وأنا في حدود طاقى أبذل البر والمعروف ، ثم ألقى من بعض من أحسن اليهم أشنع ألوان الجحود ، وأتلفت الى أصدقائى الأوفياء أعدهم فأقول : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، ثم أغمض عيني من لدعة الكمد الوجيع .

ولكن يبقى لي ذلك الكثر الذى لا ينفد ولا يفنى ، وذلك المعين الذى لا ينضب ولا يغيب ، يبقى لي الله الذى يعاملنى بأجل وأفضل مما أستحق ، يبقى لي الله الذى تلمس يدي وترى عيني آثار رحمته وعدله ، وتكاد تصاحفه يمينى ، وتكاد تصاحفه يمينى ، ولو شئت لمضيت في ترديد هذه الجملة ، ولكن أين تقع التعابير من حقائق ما فى القلوب !

”ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب“ .

١٢ - عبد الله بن عبد الكريم

عبد الله بن عبد الكريم هذا من الشخصيات الخاملة لا نعرف عنه أكثر مما جاء في مجموعة التحفة النبوية من أنه كان مطلعاً على أحوال أحمد بن طولون ومن المرجح أنه أدرك القرن الرابع ، وقد روى حكاية مسجوعة تمثل عواقب القدر والولاء ، وأبنا أن ننبأها هنا بنصها وإن كنا لا نستبعد أن يكون دخل عليها شيء من التحرير ، وأهميتها ترجع إلى تصويرها لبعض الحوادث في التصور المصرية في عهد من أعظم ما وضعه من الروايات والأفاميص ...

حدث عبد الله بن عبد الكريم قال :

” كان أحمد بن طولون وجد عند سقاية طفلاً مطروحاً فالتقطه ورباه وسماه أحمد وشهره باليتيم فلما كبر ونشأ كان أكثر الناس ذكاءً وفطنة وأحسنهم زياً وصورة فصار يرعاه ويعلمه حتى تهذب وتمرس فلما حضرت أحمد بن طولون الوفاة أوصى ولده الأمير أبا الجيش نمارويه به فأخذه إليه فلما مات أحمد بن طولون أحضره الأمير إليه وقال له : أنت عندي بمكانة أركانك بها ولكن عادتني أني أخذ العهد على كل من أصرفته في شيء إنه لا يخونني ، فعاهدته ، ثم حكمه في أمواله ، وقدمه في أشغاله ، فصار أحمد اليتيم مستحوذاً على المقام ، حاكماً على جميع الخاشية الخاص والعام ، والأمير أبو الجيش يحسن إليه كلما رأى خدمته متصفة بالنصح ، ومساغيه متسمة بالنجح ، فركن إليه ، واعتصم في أسباب بيوته عليه ، فقال له يوماً : يا أحمد ، امض إلى الحجرة الفلانية ، فني المجلس بحيث أجلس سبعة جوهر بخني بها ، فمضى أحمد ، فلما دخل الحجرة وجد جارية من مغنيات الأمير وحظاياها مع شاب من الفرائشين ممن هو من الأمير بنخل قريب : فلما رأيا دخر الفتى بغايات الجارية إلى أحمد ، وعرضت نفسها عليه ودعتة إلى قضاء وطره ، فقال لها : معاذ الله أن أخون الأمير ، وقد أحسن إليّ ، وأخذ العهد عليّ ، ثم تركها وأخذ السبحة وأنصرف إلى الأمير وسلم إليه السبحة وبقيت الجارية شديدة الخوف من أحمد لئلا يذكر حالها للأمير ، فقامت أياً ما لم تجدد من الأمير ما غيره عليها ، ثم أتفق أن الأمير اشتري جارية

وقدمها على حظاياه ، وغمرها بغطاياه ، وأشتغل بها عن سواها ، وأعرض لشغفه بها عن كل من عنده حتى كاد لا يذكر جارية غيرها ، ولا يراها ، وكان أولا مشغوقا بتلك الجارية الجائرة ، الخائنة الغادرة ، العاتية القاهرة ، الفاسقة الفاجرة ، فلما أعرض عنها أشتغالا بالجديدة المحببة ، المسعدة السعيدة ، الحامدة المحمودة ، الوصيفة الموصوفة ، الأليفة المألوفة ، الرشيقة المرشوقة ، العارفة المعروفة ، وصرفت لبهجة محاسنها وآدابها وجهه عن ملاعبة أترابها ، وشغلته بعدوبة رضاها عن آرتشاف ضرب^(١) أضرابها ، وكانت تلك الأولى لحسنها متأمرة على تأميره ، لا تخاف من وليه ولا نصيره ، فكبر عليها إعراضه عنها ، ونسبت ذلك الى أحمد اليتيم ، وأطلعه على ما كان منها . فدخلت على الأمير وقد آرتدت من الكآبة بجلباب مكرها ، وأعلنت بالبكاء بين يديه لإتمام كيدها ومكرها ، وقالت : ان أحمد اليتيم قد راودنى عن نفسى ، فلما سمع الأمير ذلك آستشاط غيظا وغضباً ، وهم فى الحال بقتله ، ثم عاوده حاكم عقله ، فتأنى فى فعله ، وآستحضر خادما يعتمد عليه ، وقال له : اذا أرسلت اليك انسانا ومعه طبق ذهب وقلت لك على لسانه : املاً هذا الطبق مسكاً ، فاقتل ذلك الانسان وأحمل رأسه فى الطبق ، وأحضره مغطى . ثم إن الأمير أبا الجيش جلس لشربه وأحضر عنده ندماء الخواص وأدناهم لمجلس قربه وأحمد اليتيم واقف بين يديه ، آمن فى سربه لم يخطر ب خاطره شىء ولا هجس فى قلبه ، فلما ثمل الأمير وأخذ منه الشراب قال : يا أحمد ! خذ هذا الطبق وأمض به الى فلان الخادم وقل له يملؤه مسكاً ، فأخذه ومضى ، وأجتاز فى طريقه بالمغنين وبقية الندماء الخواص ، فقاموا اليه وسألوه الجلوس معهم فقال : . أنا ماض فى حاجة للأمير أمرنى بإحضارها فى هذا الطبق . فقالوا : أرسل من ينوب عنك فى إحضارها وخذها أنت وأدخل بها الى الأمير ، فأدار عينيه فرأى الفتى الفراش الذى كان مع الجارية فأعطاه الطبق وقال امض الى فلان الخادم وقل له يقول لك الأمير املاً هذا مسكاً ، فضى ذلك الفراش الى الخادم وذكر له ذلك فقتله وقطع رأسه وغسله وجعله فى الطبق وغطاه وأقبل به فناوله لأحمد اليتيم

(١) الضرب بالتحريك : العسل .

وليس عنده علم من باطن الأمر . فلما دخل به على الأمير كشفه وتأمله وقال : ما هذا ؟
 فقص عليه خبره وعوده مع المغنين وبقية الندماء وسؤالهم له الجلوس معهم وما كان من
 إنفاذه الطباق والرسالة مع الفراش وأنه لا علم عنده غير ما ذكره . قال : أفتعرف لهذا الفراش
 خبرا يستوجب ما جرى عليه ^(١) ؟ فقال : أيها الأمير، ان الذي تم عايه بما ارتكبه من الخيانة ،
 وقد كنت رأيت الإعراض عن إعلام الأمير بذلك . وأخذ أحمد يحدثه بما شاهده وما جرى
 له من حديث الجارية من أوله الى آخره لما أنفذه لاحضار السبحة الجوهر ، فدعا الأمير
 بتلك الجارية واستقرها فأقرت بصحة ما ذكره أحمد فأعطاه إياها وأمره بقتلها ، ففعل ،
 وأزدادت مكانة أحمد عنده وعلت منزلته لديه ، وضاعف إحسانه اليه ، وجعل أزيمة جميع
 ما تعلق به بيديه ^(٢) .

وقد مهد لهذه القصة عبارة مستجوعة ، وعقب عليها بالفقرة الآتية :

” فانظر إلى آثار الوفاء كيف ينجي من المعاطب ، وينجي من قبضة التلف بعد إمضاء
 القواضب ، ويفضي بصاحبه الى ارتقاء غوارب المراتب ، فهذا الغلام لما وفي لمولاه بعهدده ،
 وهو بشر مثله وليس في الحقيقة بعهدده ، وأطلع الله عز وجل على صدق نيته وقصده ، دفع
 عنه هذه القتلة الشنيعة بلطف من عنده . فاذا كان العبد مع خالقه ورازقه وأفيا في طاعته
 بعهدده ، فكيف لا يفيض عليه من ألطافه ومواهب بره ورفده ، ويفتح له من أنواع رحمته
 وأقسام نعمته ما لا ممسك له من بعده . ويقال انه ليس شيء أوفى من القمرية اذا مات ^(٣)
 ذكرها لم تقرب آخر بعده ، ولا تزال تنوح عليه الى أن تموت . والله أعلم “ .

(١) لا تنس أن هذه عبارة مصرية . (٢) ص ١٩٠ — ١٩٢ من التحفة البهية (٣) ص ١٩٢

١٣ - المحاضرة التنوخية

أرشدنا الى هذا الكاتب المسيو ماسينيون "صديق الجميع" كما كتب إلينا في وصفه المستشرق الهولندي الجليل الدكتور سنوك .

١ - والتنوخى هذا هو المحسن بن على بن محمد المتوفى ببغداد سنة ٣٨٤ ، وكان مولده بالبصرة سنة ٣٢٩ ، وله من التصانيف كتاب الفرج بعد الشدة ، وكتاب نشوار المحاضرة ، أحد عشر مجلدا ، كل مجلد له فاتحة بخطبة ، وهو كتاب جيد ألفه التنوخى في عشرين سنة أولها سنة ٣٦ وآشترط أن لا يضمه شيئا نقله من كتاب .

قال المستر مارجوليوث في خاتمة نشوار المحاضرة - وقد آبتدأ طبعه سنة ١٩١٨ وفرغ منه سنة ١٩٢١ :-

"النشوار كلمة فارسية أصلها نشخوار ، ومعناها جرة الحيوانات المجترة ، وقد آستعملها التنوخى بمعنى الحديث «طيب النشوار والأدب»^(١) «حسن النشوار راوية الأخبار»^(٢) وأما ما ذكر من تاريخ الكتاب فيطابقه ما جرى فيه ذكره من التواريخ ، فان المؤلف ذكر خبرا سمعه في سنة ٣٤٩ ثم أكثر من ذكر حوادث سنة ٣٦٠ ثم ذكر حادثا حدث سنة ٣٦١^(٣) وأما ما اشترط من الاقتصار على ما لم يدقن في كتاب فكثيرا ما أخل بشرطه . وقد نهينا في مواضع على ورود الحكايات في (الفرج بعد الشدة) للمؤلف وغيره من الكتب . وأما ما زعم من اشتمال الكتاب على ١١ جزءا فيؤكدده ما يوجد في بعض الكتب من حكايات منقولة عن النشوار غير موجودة في جزئنا . من ذلك ما أورده السيوطى في المزهر^(٦) وياقوت الرومى في إرشاد الأريب^(٧) والغزولى في مطالع البدر^(٨) وأما نحن فلم نعر منه إلا على الجزء الأول في نسخة

(١) ص ٦٢ ص ١٦ (٢) ص ٨٦ ص ١٤ (٣) ص ١٦ (٤) ص ٢١٦ ص ٢٣٥

(٥) ص ٢٧٤ (٦) ج ٢ ص ١٦٣ من الطبعة الأولى . (٧) ج ٦ ص ٦٠ ص ١٩٠

(٨) ج ١ ص ٩٤

عددتها ٣٤٨٢ من الخطوط العربية المحفوظة في خزانة الكتب الوطنية في باريس، قد ذكر الناخذ أنه فرغ من نسخها في سنة ٧٣٠ وليس فيها ما يدل على أنها أول جزء من أجزاء عدة، وعدد صفحاتها ١٩٣ وهي كاملة الشكل كثيرة الأغلاط لا سيما في الأعلام ... وقد حذفنا حكايات ليست بكثيرة لم نرداعيا الى تخليدها .

٢ — هذه كلمة المستر مارجوليوت في التعليق على ما ذكر يا قوت . ونلاحظ أنه فانه حين تكلم عن مطابقة التواريخ أن يتنبه الى ما نقله خطأ عن يا قوت حيث دون أن كتاب نشوار المحاضرة صنف في عشرين سنة أوّل سنة ٣٦، وهو قد ذكر أن التنوخي ولد سنة ٣٢٩ فعلى هذا يكون المؤلف ابتداء جمع أصول ذلك الكتاب في السابعة من عمره، وهو خطأ مبين وسنصححه بعد قليل .

٣ — وحدّثنا المستر مارجوليوت أنه حذف حكايات لم يرداعيا الى تخليدها، وكنا نودّ لو نُشر الكتاب كاملا لم يحذف منه شيء، فان التحكم في أغراض المؤلفين من الأغلاط الشنيعة التي ينبغي أن ينزه عنها أمثال المستر مارجوليوت، وهو قد صنع مثل هذا الصنيع في طبع إرشاد الأريب لياقوت المعروف بمعجم الأدباء، فقد أذكر أنه حذف طائفة من رسائل أبي العلاء المعري اكتفاء بنشرها في مجموعة أخرى من مجموعات أكسفورد . فكانه لا يفكر إلا في قرائه من المستشرقين .

وهذه المؤاخذة لا تحول دون الاعتراف بفضل هذا الباحث في نشر الآثار القديمة، فاليه يرجع الفضل في إحياء كثير من المراجع المهمة في الكشف عن معارف الأقدمين .

ونضيف الى ما كتبه عن نشوار المحاضرة ما أخبرنا به المسيو ماسينيون^(١) من أن مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق أخذت تنشر في أعدادها الأخيرة بقايا قيّمة من أصول ذلك الكتاب .

٤ - وأهمية كتاب شوار المحاضرة تعرف من مقدمته ، فان المؤلف يتحدثنا أنه اتصل
بكثير من الناس ممن عرفوا أحاديث الملل ، وأخبار الممالك والدول ، ووقفوا على محاسن الأمم
ومعانيهم ، وفضائلهم ومثالبهم ، وسمعوا أخبار الملوك والكتاب والوزراء ، والسادة والبخلاء ،
وذوى الكبر والخيلاء ، والأشراف والظرفاء ، والمحادين والندماء ، والسفهاء والحلماء ، والمحذنين
والفقهاء ، والفلاسفة والحكماء ، وأهل الآراء والأهواء ، والمتأدين والأدباء ، والمترسلين والفصحاء ،
والرجاز والخطباء ، والعروضيين والشعراء ، والنسايين والرواة ، واللغويين والنحاة ، والشهود
والقضاة ، والأمناء والولاة ، والمتصرفين والكفافة ، والفرسان والأجناد ، والشجعان والأبطال ،
والجند والقواد ، وأصحاب القنص والأصطياد ، والجواسيس والمتخبرين ، والسعاة والغازين ،
والوزائق والمعلمين ، والحساب والمحترفين ، والعمال وأصحاب الدواوين ، والأكرمة والفلاحين ،
والمتكلمين على الطرق ، والواعظين والقصاص ، وأهل الصوامع والخلوات ، والنسك
والصالحين ، والعباد والمتبتلين ، والصوفية والمتواجدين ، والأئمة والمؤذنين ، والقزاة والملاحين ،
وأهل النقص والمقصّرين ، والأغبياء والمتخلفين ، والشطار والمتقين ، وأصحاب العصبية
والسكاكين ، وقطاع الطرق والمتلصصين ، وأهل الخسارة والعيارين ، ولعاب النرد والشطرنجيين ،
والملاح والمتطايين ، وأهل النادرة والمضحكين ، والطفيلية والمستطرحين ، والأكلة والمؤاكلين ،
والشراب والمعاقرين ، والمغنيات والمغنين ، والراقصين والمختئين ، وأهل الهزل والمتخالعين ،
والبله والمغفلين ، والمفكرين والموسوسين ، والملاحدة والمتنبئين ، والأطباء والمنجمين ،
والكحاليين والفصادين ، والآسية والمجبرين ، والشحاذين والمجتدين ، والمجدودين والمحدودين ،
والسعاة والمسافرين ، والمشاة والمتغربين ، والسباح والغواصين ، وسلاك البحار والمفايزات ،
وأهل المهن والصناعات ، والمياسير والفقراء ، والتجار والأغنياء ، والفواضل من النساء ،
حرارهن والإماء ، وخواص الأحجار والحيوانات ، والأدوية والعلاجات ، والأحاديث
المفردات ، وطريف المنامات ، وشريف الحكايات ، وغير ذلك من ضروب أحاديث أهل
الخير والشر ، والنفع والضر ، وسكان المدر والوبر ، والبدو والحضر ، شرقا وغربا ، وبعدا وقربا .

ثم يقول :

وكان التوم الذين أستكثر منهم ، وأخذت ذلك عنهم ، يحكونه في أنشاء مذاكراتهم ، وفي عرض مجاراتهم... نفيا للساكنة ، واجترارا للثافنة^(١) ، وصلة للجالسة ، وفتحاً للؤانسة ، وسيرا لأحاديث الدنيا ماضيها وبقاياها ، وتواصفا لسير أهلها وما جرى فيها ، وتمثيلا بين ما شهده منها ، وسمعه عنها ، وعانوه من تقلبها ، وقاسوه من تصرفها ، وأخبروا به من عجائبها ، ويوردون كل فن من تلك الفنون على حسب ما تقتضيه الحادثة ، وتبعته المفاوضة ، فأحفظ عليهم ذلك في الحال ... وأستفيدة في أحوال . فلما تطاولت السنون ومات المشيخة الذين كانوا مادة هذا الفن ، ولم يبق من نظرائهم إلا السير الذي إن مات ولم يحفظ عنه ما يحكيه ، مات بموته ما يرويه ، ووجدت أخلاق ملوكنا ورؤسائنا لا تأتي من الفضل ، بمثل ما يحتوى عليه تلك الأخبار من النبل ... بل هي مضادة لما تدل عليه تلك الحكايات من أخلاق المتقدمين وضرائبهم وطبائعهم ومذاهبهم ، حتى أن من بقى من هؤلاء الشيوخ اذا ذكر ما يحفظه من هذا الجنس بحضرة أرباب الدولة ورؤساء الوقت ، خاصة ما كان منه متعلقا بالكرم ، ودألا على حسن الشيم ، ومتضمنا ذكر وفور النعم ، وكبر الهمم ، وسعة الأنفس ، وغضارة الزمان ، ومكارم الأخلاق ، كذبوا به ودفعوه ، وجعلوه في أقسام الباطل وأستبعدوه ، ضعفا عن إتيان مثله ، وأستعظاما منهم لصغير ما وصلوا اليه ، بالاضافة الى كبير ما احتوى أولئك عليه ، وقصورا عن أن تنتج خواطرهم أمثال تلك الفضائل والحاصل ، أو تتسع صدورهم لفعل ما يقارب تلك المكارم والأفعال . هذا مع أن في زمانهم من العلماء المحتسبين في التعليم ، والأدباء المستصين للتأديب والتفهيم ، وأهل الفضل والبراعة ، في كل علم وأدب وجد وهزل وصناعة من يتقدم بجودة الخاطر ، وحسن الباطن والظاهر ، وشدة الخدق فيما يتعاطاه ، والتبريز فيما يعاينه ويتولاه ، كثيرا ممن تقدمه في الزمان ، وسبقه بالمولد في ذلك الأوان ، ويقتصر منهم على الإكرام دون الأموال ، وقضاء الحاجة دون المغارم والأئقال ، فما يرفعون به راسا ،

ولا ينظرون اليه إلا آخلاصا ، لفساد هذا العصر ، وتباعد حكمه من ذلك الدهر ، وأن موجبات الدهر فيه متغيرة متقلة ، والسنن دارسة متبدلة ، والرغبة في العلم معدومة ، والهمم باطلة مفقودة ، والاشتغال من العامة بالمعاش قاطع ، ومن الرؤساء بلذاتهم البهيمية قانع .

هـ — وهذه الفقرات التي أقتبسناها من مقدمة نشوار المحاضرة تصل بنا الى النتائج الآتية :

الأولى — يظهر أن المؤلف كان قوى الحس ، دقيق الملاحظة ، فكان لذلك يتعقب الأدباء والشعراء والوزراء ، ومن عدا هؤلاء من مختلف الطبقات ، ويمى كل ما يسمع ، ويقيد كل ما يقع له من الأخبار والأشعار والمحاورات والمخادعات ، حتى أستطاع أن يكون نسيج وحده في هذا النوع من التأليف .

الثانية — يظهر أن المؤلف كان خصبا في لغته وإنشائه الى حد بعيد ، والذي يقرأ مقدمته كاملة يرى كيف كانت مفردات اللغة ومترادفاتنا تتال عليه أنثالا ، وإنه ليزدكر باللاحظ في هذا الباب ، ولا يؤخذ عليه إلا شيء يسير من الالتواء حين يباعد مثلا بين الفاعل والمفعول بطائفة من القرائن المتعاطفة المتواصلة بحيث يضطر القارئ الى تأمل ما تقدم من التراكيب ليظهر له الربط بين أجزاء الجملة التي قد لا تتم أحيانا إلا بعد عدة سطور ، وربما غلب عليه الإسفاف في بعض التعابير حين يتعمد السجع ، كقوله في الكلمة التي أقتبسناها آنفا :

”والاشتغال من العامة بالمعاش قاطع ، ومن الرؤساء بلذاتهم البهيمية قانع“ .

الثالثة — لم يكن التنوع من المؤلفين الذين يفردون المتقدمين بالإجادة والإبداع ، ويظنون أنه لا جديد تحت الشمس ، وأن المتقدم لم يترك شيئا للتأخر ، ولكنه يقرر أن في معاصريه من فاقوا الأولين ، ويقول : ”فقد خرج في أعمارنا وما قاربها من السنين من مكنون أسرار العلم ، وظهر من دقيق الخواطر والفهم ، ما لعله كان معاصرا على الماضين ، وممتعا على كثير من المتقدمين“^(١) .

الرابعة - لم يكن المؤلف راضياً عن الحكم والأمراء من أهل زمانه فهو يراهم من
تتخفين في طبعهم ومذاهبهم ، ويحكم على أهل عصره بالقسوة ، ويرى طبايع أهلهم متغيرة ،
ورغبتهم في تعلم معدومة ، وهمسهم منقودة ، ويقول :

”فحين حاصلون في أروى من خبر أنه لا يزداد الزمن إلا صعوبة ، ولا الناس إلا شدة ،
ولا تقوم لسعة إلا على شرار الخلق . وما أحسن ما أثنى أبو الطيب المتنبي لنفسه من قصيدة
في وصف صورته :

أنى الزمن بنوه في شيبته فسرهم وأبناء على الهرم^(١)“

ويقول في مكر آخر من المقدمة :

”وهذه أحد ما أنطست نحسن في هذه الدول ، وردت أخبار هؤلاء الملوك ، وقلت
التواريخ من عجائب ما يجري في هذا الوقت : لأن دوى الفضل لا يغنون أعمارهم بتشييد
مفاخر غيرهم ، تدق نتيج خواطرهم ، مع بعدهم من الفائدة . وخنوهم عن العائدة . وأكثر
الملوك ودوى الأحوال ، والرؤساء وأرباب الأموال : لا يجدون عليهم فيجيد هؤلاء لهم نسج
الأشعار والخطب ، وحولك رسائل والكتب ، أنى تبقى فيها المآثر ، ما بقى الدهر الغابر ،
فقد بخل هؤلاء ، وغفل هؤلاء ، ورضى كل واحد من الفريقين بالتقصير فيما يحده ، والتقص
فيما بعده“ .

٦ - وروى من هذا أن المؤلف كان ينتظر من أمراء عصره أن يتدبر بالمال ويعينوه
على التأليف .

وبهذه المناسبة نذكر أن عماد شعراء اللغة العربية وأدبائها على رعاية الملوك والأمراء
والوزراء لم يكن من البدع الشاذة التي أشرف بها العرب في العصور القديمة ، بل كان سنة
شائعة في الشرق والغرب . ويكفى أن يذكر المرء مثلاً بلاط فرانكس الأول أو لويس الرابع عشر
أو فريدريك الثاني يعرف أن شعراء أوروبا وأدبائها كانوا يعيشون في رعاية ملوكهم ،

ويعتمدون على معونات وزرائهم . وقد انقطعت هذه العادة أو كادت من الشرق والغرب ،
وآتقبض الملوك والأمراء والوزراء عن تشجيع الكتاب والشعراء والمؤلفين . ولست أنسب
انقطاع هذه العادة الى تغير الطباع وفساد الزمان ، كما فعل التنوخى ، فان عصرنا غير عصره ،
ولما أنسبها الى أن الشعراء والكتاب والمؤلفين قد أخذت خلائقهم تستقيم ، وشرعوا يفهمون
أن الأدب أعلى وأرفع من أن يكون صاحبه ملاحقا بجواشي الملوك والأمراء . يضاف الى ذلك
أن هذا العصر عصر الشعوب لا عصر الملوك . وللاذيب المتفوق ، والشاعر المبدع ، والكااتب
البليغ ، ميادين أخرى للشعر والإنشاء والتأليف هي أجدى وأنفع وأقرب الى التروة والغنى
والجاه من تلك الصلات الوضيعة التي كانت تخفض رءوس أصحابها أمام سدات الملوك .



٧ - أشرنا من قبل الى أن ياقوت ذكر أن التنوخى أبتدأ تأليف نشوار المحاضرة سنة ٣٦٠
وبينا كيف غاب عن المستر مارجوليوت أن يحو هذا الخطأ المبين ، ونعود فنذكر أن المستر
مارجوليوت حين غفل عن خطأ ياقوت أخذ يؤيده وينبئ عليه أن المؤلف ذكر خبرا سمعه
سنة ٣٤٩ ثم أكثر من حوادث سنة ٣٦٠ ثم ذكر حادثا حدث سنة ٣٦١

وهذا كله خطأ من حيث الوضع : فان ورود حوادث وقعت بعد سنة ٣٦٠ في صلب
الكتاب لا يدل على أنه ألف في ذلك الحين . والحقيقة أن المؤلف شرع في وضع كتابه بعد
التاريخ الذى ذكره ياقوت وحاول تأييده مارجوليوت بنحو خمس وعشرين سنة ، ولننظر
ماذا يقول المؤلف نفسه :

”وأنفق أيضا أنى حضرت المجالس بمدينة السلام فى سنة ستين وثلاثمائة بعد غيبتى عنها
سنتين فوجدتها تحيلة من كانت به عامرة ، وبمذاكرته أهلة ناضرة ، ولقيت بقايا من نظراء
أولئك الأشياخ ، وجرى المذاكرة فوجدت ما كان فى حفظى من تلك المحاطبات قديما قد قل ،
وما جرى من الأفواه فى معناها قد آختل ، حتى صار من يحكى كثيرا مما سمعناه يخلطه بما يحيله
ويفسده ، ورأيت كل حكاية مما أنسىته لو كان باقيا فى حفظى لصلح لفن من المذاكرة ، ونوع

من نشوار المحاضرة، فأثبت ما بقي على ما كنت أحفظه قديما، واعتقدت إثبات كل ما أسمعته من هذا الجنس، وتلميعه بما يثبت على قراءته من شعر متأخر من المحدثين، أو مجيد من الكتاب والمتأدين، أو كلام مشهور لرجل من أهل العصر، أو رسالة، أو كتاب بديع المعنى أو حسن النظم والنثر، ممن لم يكن في الأيدي شعره ولا نثره، ولا تكرر نسخ ديوانه، ولا ترددت معاني إحسانه، وما فيه من مثل طري أو حكمة جديدة، أو نادرة حديثة، أو فائدة قريبة المولد، ليعلم أن الزمان قد بقي من الترائخ والألأباب، في ضروب العلوم والآداب، أكثر مما كان قديما أو مثله، ولكن تقبل أرباب تلك الدول للأدب أظهره ونشره، وزهد هؤلاء الأئمة في هذا الأدب غمره وسره.

فهذه الفقرة واضحة الدلالة على أن المؤلف لم يشرع في جمع مواد كتابه إلا بعد سنة ٣٦٠ و إirاده لبعض حوادث سنة ٣٤٩ لا يدل على أنه ألفه قبل ذلك كما فصل مارجوليوث تأييدا لكلام ياقوت^(١).

٨ — أما طريقة التنوخي في التأليف فتضح من قوله :

”وأوردت ما كتبته مما كان في حفظي سالفاً، مختلطاً بما سمعته آنفاً، من غير أن أجعله أبواباً مبوبة، ولا أصنّفه أنواعاً مرتبة، لأن فيها أخباراً تصلح أن يذاكر بكل واحد منها في عدة أماكن، وأكثرها مما لو شغلت نفسي فيه بالنظم والتأليف، والترتيب والتصنيف، لبرد وأستثقل، وكان إذا وقف قارئه على خبر من أول كل باب فيه، علم أن مثله باقيه، فقلّ لقراءة جميعه آرتياحه ونشاطه، وضاق فيه توسطه وأنبساطه، وكان ذلك أيضاً يفسد بما في أثنائه من الفضول، والأشعار والرسائل والأمثال والفصول ... بل لعل كثيراً مما فيها لا نظيره ولا شكل، وهو وحده جنس وأصل، واختلاطها أطيّب في الأذان وأدخل، وأخف على القلوب من الأذان وأوصل^(٢)“.

(١) الواقع أن ياقوت لم يخطئ حتى يتابعه مارجوليوث على الخطأ، فقد جاء في ياقوت أن التنوخي ابتداءً لنشوار المحاضرة سنة «٣٦٠» فكأنها مارجوليوث «٣٦٠» وأنبى على ذلك قوله أن التنوخي ابتداءً كتابه سنة «٣٣٦» .
(٢) ص ٢٩ و ١٠

ولعل القارئ يتنبه هنا أيضا الى صنعة هذا الكاتب في إنشائه فهي تضي به أحيانا الى التهافت والإسفاف . لا سيما اذا لاحظ قوله : ” وأختلاطها أطيب في الآذان وأدخل ، وأخف على القلوب من الأذان وأوصل “ فقد أراد أن يوازن بين الآذان والآذان فضى به ذلك الى الغموض ، فضلا عن أنه ليس من المقبول أن يقال : ” أخف من الأذان “ إذ ليس من سلامة الذوق أن يدعى المرء أن كلامه أخف على القلوب من كلمة ” الله أكبر ، الله أكبر “ وهي هي الكلمة الباقية على الزمان . وتلك هفوة تذكر بهفوة المتنبي إذ قال :

يترشفن من في قطراتٍ هن فيه أحلى من التوحيد

والمؤلف ، في الجملة ، يسلك مسلك الاستطراد فينتقل بالقارئ من قصة الى قصة ، ومن حديث الى حديث ، بلا ترتيب ولا تبويب . وقد صنع هذا الصنيع غير واحد ممن تقدموه وعاصروه وخلفوه ، وهو منهج له قيمته في تشويق القارئ ونقله من حال الى حال ، بين الجدل والمزحل ، والحلو والمر ، والقديم والطريف .

٩ — والمؤلف مع ذلك يتحدثنا أنه أراد أن يقدم لقرائه ” من آداب النفس ، ولطافة الذهن والحس ، ما يغنيه عن مباشرة الأحوال ، وتلقن مثله من أفواه الرجال ، ويحسكه في العلم بالمعاش والمعاد ، والمعرفة بعواقب الصلاح والفساد ، وما يفضى اليه أواخر الأمور ، ويساس به كافة الجمهور ، ويحتنبه من المكاره حتى لا يتوغل في أمثالها ، ولا يتورط بنظائرها وأشكالها ، ولا يحتاج معها الى إنفاق عمره في التجارب ، وانتظار ما تكشفه له السنون من العواقب “ .^(١)

فهو إذن مقتنع باستفادة القارئ من تجارب من سبقوه ، ونحن نوافقه على ذلك مع تحفظ ، إذ كما نعتقد أن المرء لا يتمتع جيدا مراعى الحوادث الماضية إلا اذا اتصلت بحوادثه الحاضرة ، ونرى أن الرجل الخالي الذهن من المشاكل العقلية والخلقية والوجدانية والاجتماعية يقرأ ما يقع له من تجارب الأولين بذهن خامد ، وعقل مشكول ، ولب معقول . أما الرجل الذي أصطدم بحوادث دهره ، ومشاكل عصره ، فانه يقرأ أحاديث من سبقوه

بعقل يقظ، وفكر متنبه، وقلب حساس، إذ يرى من يواجهه بحقيقة نفسه، ويحدّثه عن قلبه، ويراجع معه مشاكل وجدانه، ومصاعب إحساسه، ومن هنا نشأ ما نراه من اختلاف التقدير للأثر الفني الواحد : فكم قصيدة وكم رسالة وكم قصة يبكي لها هذا ويسخر منها ذاك، والغرض هو هو لم يتغير لا في وضعه ولا في مرماه، وإنما تختلف النفوس والقلوب والعقول بحسب ما تمر به من مختلف الأحداث وشتى الظروف : فهنا قلبٌ هادئٌ وهناك قلبٌ مترددٌ وهناك قلبٌ مضطرب . ودليل ذلك أيضا أنك قد تقرأ الرسالة أو القصيدة أو القصة فلا تحرك نفسك ولا تهيج وجدانك، ثم تعود الى ما قرأته مرة ثانية في أحوال مخالفة، وظروف مغايرة، فترى ذلك الأثر الفني الذي لم يرك في اللحظة الأولى قد راعك وبهرك وشغلك بنفسك وقلبك حين عدت اليه للمرة الثانية . ودليل آخر هو صلاحية النفس في الشباب لآثار فنية وأدبية لا توافقها في حال الكهولة، فالشباب آداب، والكهولة آداب، ومن الخطأ أن يظن أن قيمة الأثر الفني تقدر بصلاحيته لجميع النفوس، وقدرته على التأثير في جميع القراء من شباب وكهول، ورجال ونساء . ولا يقدّر حقيقة ما نقوله إلا من خبر نفسه، ودرس مشا كل عقله ووجدانه وقلبه، وتأمل كيف يكون سكون النفس وأضطرابها، وكيف يكون شغل القلب وفراغه، وعرف أن الفرائز الانسانية أهول وأخطر وأفزع من أن يوضع لها مقياس ضابط لما تصلح له على اختلاف النوازع وفي جميع الأجيال .



١٠ — أشرنا من قبل الى أسلوب التنوخي وصنعتة في الإنشاء، ونحب أن نعود اليه بشيء من التفصيل .

بعد التنوخي من كبار الكتاب في زمانه، وقد استجابت له اللغة وطاوعه البيان، وحسبُ القارئ أن يعرف أنه أقرد من بين المؤلفين بصياغة كل ما أشتمل عليه كتابه من مختلف الأقاصيص والأسمار والفكاهات . وتلك قدرة عظيمة أن يقصد الكاتب الى كل ما سمعه فيدونه في عبارات فصيحة محبوكة الأطراف، لا قلق فيها ولا اضطراب . على أنه قد أعطانا نماذج من ثمره المصنوع الذي عملت فيه الروية، وصاغه التدبر، وأملأه الفن على قلمه البليغ،

وفي تلك النماذج القليلة تظهر صنعة التنوخي جيدة باهرة ، تشهد له بالحدق وطول الباع ،
والى القارئ كتابه الى بعض الرؤساء :

” لا أحوجك الله الى اقتضاء ثمن معروف أسديته ، ولا جعل يدك السفلى لمن كانت
عليه هى العليا ، وأعاذك من عز مفقود ، وعيش مجهود ، وأحياك ما كانت الحياة أجمل بك ،
وتوفاك اذا كانت الوفاة أصح لك ، بعد عمر مديد ، وهموً بعيد ، وختم بالحسنى عمك ،
وبلّغك فى الأولى أملك ، وسدد فيها مضطربك ، وأحسن فى الأخرى منقلبك ، إنه سميع
مجيب ، جواد قريب“ (١) .

وفى ظنى أن هذا الكتاب أغنى ما يكون عن الشرح والتعليق ، وللقارئ أن يتأمل قوله :
” لا أحوجك الله الى اقتضاء ثمن معروف أسديته“ فان هذه الجملة تدلنا على فهم الكاتب
لنفوس الكرام ، فانه ليس أصعب ولا أعسر من أن يضطر الكريم الى اقتضاء ثمن المعروف ،
لأنه لا ينتظر ثمن المعروف إلا لثام الناس . وأنظر بعد ذلك تعرضه فى حكمة ورفق الى الحياة
والموت . فانه لم يطلب لرئيسه ما طلب أبو نواس للأمين إذ قال :

يا أمين الله عش أبدا دم على الأيام والزمن
أنت تبقى والفناء لنا فاذا أفئتنا فكنا

فتلك أمنية سخيفة أن يدعو الناس بعضهم لبعض بالبقاء والخلود فى دنيا لا بقاء فيها
ولا خلود .

واذا مضينا نتعرف الى التعابير الجميلة فى كتاب التنوخي وجدناها كثيرة ، فأى جمال فاته
فى قوله :

” ونعوذ بالله من الإدبار ، وتغير النعم ، وإيحاشها بقلة الشكر“ .

وللقارئ أن يتأمل كيف تستوحش النعم بقلة الشكر ، فانه تصوير جميل ، آنس الله نعمنا
بما يلهمنا من واجب الشكران .

وأنظر قوله على لسان رجل يخاطب رئيساً أتهره على البكور إليه :

” ما العجب منك . العجب مني حين ربطت أملئ بك ، وأسهرت عيني توقعا للنجس في البكور إليك . وأسهرت عيالي وغلماني ، وتملمت التجشم إليك ، وأتزلت بك حاجتي ، حتى نلتقاني بمثل هذا^(١) .“

وعند التنوخي ألفاظ متخيرة قلّ استعملها اليوم ، مع أنها دقيقة الدلالة على معانيها ، من ذلك قوله على لسان ابن الجصاص :

” قتت البارحة في الظلمة الى الخلاء ما زلت ألتحظ المقعدة حتى وقعت عليها !“^(٢)

فإن كلمة ” ألتحظ “ أدق من كلمة ” ألتمس “ التي كثر استعمالها اليوم .

وقوله على لسان بعض الخلفاء في العزم على إنقاذ رجل طالت عطلته ، ونحمل ذكره :

” إذا أقبلنا عليه وندبناه لهذا الأمر العظيم تجدد ذكره ، وتطرى أمره“^(٣) .

فإن كلمة ” تطرى “ تعطي صورة جديدة ، فكأن الجاه الخامل ، يماثل العود الذابل ، وكأن إقبال الدنيا يصنع بالرجل المحدود ، ما يصنع الماء بالعود .

وعند التنوخي مرونة في التعبير وذلك أهم ما يتحلى به صائغ الكلام . وأنظر قوله :

” فباكرت اسماعيل فحين رآني قال : هذا وجه غير الوجه الأمسي“^(٤) .

يريد : هذا وجه غير وجه الأمس ، والنسبة الى الأمس قليلة في الكلام ، مع أنها أدل على معناها من الإضافة وأصرح في الأداء .

وأنظر قوله على لسان صديق ينصح صديقه وقد عرض عليه الوالي أن يتقلد القضاء فرفض :

” اتق الله في نفسك ! ... إنك تعود الى بلدك فيقول أعداؤك : طلب القضاء فلما شوحد وجد لا يصلح فرد“^(٥) .

فقد جمعت الجملة الأخيرة صورا عديدة من أدق ما يكون من الإيجاز، والايجاز لا يقع مثل هذا الموقع إلا من كاتب مَرِن يعرف كيف يقود القلم ويسوس الكلام .
ومن مظاهر المرونة قوله :

” فلما رآني أبو جعفر أكبر ذلك وتهلل وجهه وقال : الى عندي ياسيدي الى عندي“^(١) .
ومعروف أن « عند » تنصب على الظرفية ولا تجر إلا بمن . نحو : من عند الله ،
بجرها بالى سير إلى الحرية في التعبير .

١١ — فاذا خَلِينَا مَرونته وتصرفه في الكلام جانبا ومضينا نستقصى ما أثبتته من التعابير العامية وقع لدينا من ذلك شيء كثير . ويجدر بنا في هذا المقام أن نؤكد ما قلناه في دراسة أسلوب أحمد بن يوسف المصري : ونحن نرى أن إدخال بعض التعابير العامية الدقيقة في اللغة الفصيحة يزيد بها ثروة ، والناس لا يلجأون إلى العامية إلا حين يرونها أقرب إلى تصوير أغراضهم في بعض الأحيان . والعامية هي عنصر من اللغة الفصيحة دخل في حكم المبتذل بكثرة الاستعمال ، والكاتب المجيد يستطيع أن يلقي عليها مسحة من الطرافة والجدّة بحيث يراجعها رونقها القديم . وسنرى في هذه الدراسة أصول التعابير الجارية على ألسنة الناس ، فإن أكثرها كان فصيحاً ، فلما كثرت تداوله أضيف ظاماً إلى لغة العوام وتحاماه كبار الكتاب .

(١) من ذلك كلمة « الصورة » بمعنى الحالة ، نجدها على ألسنة التجار والفلاحين فنعدها عامية ، ولكنها في كلام التنوخي كانت فصيحة ، وأنظر قوله :

” فدخلنا إليها فحين رآته أكرمته ، وبشت به ، وسألته عن خبره فصدقها عن الصورة“^(٢) .

(ب) والعامية يقولون : « فاتشه » إذا آخبره ليعرف ما عنده من سر أو كفاية ، ويقولون « كسبه » بتشديد السين إذا فتح له باب الكسب ، وقد وقعت هاتان اللفظتان في قول التنوخي :

” فلزمه وفاتشه فوجده كاتباً فاستخدمه وكسبه مالا عظيماً“^(٣) .

(ج) ونحن تتريب أن نكتب « شال المائدة » بمعنى رفعها ؛ لأن القاموس لا ينص إلا على شال به إذا رفعه ، والعامية يقولون بدون تحرج « شالوا الطعام » بمعنى رفعوه . فلنتظر كيف وقع هذا التعبير منذ عشرة قرون في قول التنوخي :

” ما تسمح نفسى بطريق التشيع على هذا الحب ، شيلوه ^(١) “ .

وقوله :

” وقام أبو جعفر ، وقنا ، وشيلت ^(٢) المائدة “ .

وقوله : ” فشالني الجيران الى منزلي ^(٣) “ .

(د) والعامية يقولون : ” اخرج برا “ أى الى الخارج ، وقد ورد هذا التعبير في قول التنوخي :

” فخرج الى برا حتى أصعد أكلك من فوق ^(٤) “ .

(هـ) وفي الأقاليم المصرية تكثر كلمة ” روزنة “ وهي الفتحة في السقف أو في الحائط ، وأكثركتاب يتحामون هذه اللفظة ظنا منهم أنها عامية مع أنها موجودة في كلام التنوخي إذ يقول :

” فخرج وجلس ينتظر أن تخاطبه من روزنة في الدار الى الشارع ^(٥) “ .

(و) وكلمة ” بطل “ كثيرة الوقوع في لغة التخاطب ، ولكن قلما يستعملها الكتاب . وكانت قديما مستعملة في اللغة الفصيحة ، وحكاها التنوخي فقال على لسان أحمد بن محمد المدائني يحاور بعض الصوفية :

” أخبرني اذا كنت شيخا في معنالك ، جلسا في ذات نفسك ، فأصاب يافوخك تقطيع يعرقب خرزك على سبيل العلم ، وكنت تحت الارادة ، هل يضر أوصافك شيء من تعطفك بجبل القدرة ، يا بطل ^(٦) ! “ .

(ن) والعامية يستعملون كلمة "أذية" بمعنى إيذاء، وقد وقعت في كلام التنوخي إذ قال :
" فأردت أذية آبن الحارث " .^(١١)

(ع) وكلمة "صبية" بمعنى فتاة كانت مستعملة في اللغة الفصحى، وقد هجرت اليوم ،
وقد جاء في كلام التنوخي على لسان عريب :
"روهايتين الصبيتين الشعر" .^(٢١)

(ط) وعوام مصر يقولون "جرف الأموال" بمعنى آتتها ، وهي كذلك في نشوار
المحاضرة في قصة وقعت في مصر .^(٣١)

(ے) والعوام يستخفون حذف نون الرفع في "يفعلون" و"تفعلين" والتنوخي
يجرى ذلك في اللغة الفصحى فيقول :
"فبعثت في جمعها والرسل تكذني بالاستعجال ، والقهارمة يستبطئوني" .^(٤)

(ك) وكلمة "ست" بمعنى سيدة ، كانت مستعملة في اللغة الفصحى ، وكان ظني أنها
لم تستعمل إلا في مصر، حيث يقدر أنها كلمة مصرية قديمة ، ولكن رأيتها قد استعملت
كذلك في بغداد، واليك الشواهد الآتية :
"فقلت لها يا ستي إني قد عملت أبياتا أشتى أن تصنعني فيها لحنا" .^(٥)

"كنت مملوكا روميا فمات مولاي فعتقني فحصلت لنفسى رزقا برسم الرجالة وتزوجت
بستي زوجة مولاي ، وقد علم الله أني لا أتزوجها إلا لصياتها ، لا لغير ذلك" .^(٦)
"فقال لها يوما : بالله يا ستي غني" .^(٧)

والمسيو مرسيه يرجح أن كلمة "ستي" مخففة عن "سيدتي" لا أنها منقولة عن "ست"
المصرية بدليل استعمالها في بغداد ، ولست أرى ما يمنع أن تكون آتت من بغداد عن
طريق المصريين .

(١) ص ١٣٩	(٢) ص ١٣٢	(٣) انظر ص ٢٦٢	(٤) ص ١٤٣
(٥) ص ١٣٢	(٦) ص ٢٤٦	(٧) ص ٥٥	

(ل) والعوام يتولون : " ما علينا من فلان " وهي في الأصل عبارة فصيحة ، وأنظر

قول التنوخي :

"فدخل عليه غلمانة فقالوا : يا سيدنا ! الوزير مجتاز في شارعنا . فقال : ما علينا منه !"^(١)

(م) والعامّة يقولون أحيانا : " هاتم " في مكان " هاتوا " وقد وقعت في كلام

التنوخي على لسان المعتضد :

"هاتم أعمدة الخيم الكبار الثقال"^(٢) — "هاتم فلانا الطيبي"^(٣) .

وفي موطن آخر : "هاتم فلانا الكاتب"^(٤) .

وما نريد أن نسرف في الاستقصاء ، وفيما أسلفناه ما يكفي للإبانة عن مرونة التنوخي وقدرته على التصرف في فنون الكلام ، وفي هذه الشواهد مقنع لمن يريد أن يعرف كيف تطورت التعابير ، وكيف أمتزج العامي بالفصيح .

* * *

١٢ — بقي علينا أن نشير إلى بعض ما أشتمل عليه نشوار المحاضرة من طرائف الأخبار ، وهو كما قدمنا يرجع إلى عدة ألوان ، منها الحلو والمز ، والجد والهزل . فمن خير ما فيه من الجد ما كتب المؤلف خاصا بالحسن بن علي بن زيد المنجم إذ قال بعد كلام :

"فكنت إذا جئته — وهو إذ ذاك على غاية الجلالة وأنا في حدّ الأحداث — اختصني ، وكان يعجبه أن يقرّظ في وجهه ، فأفاض قوم في مدحه ، وذكر عمارته للوقوف والسقايات ، وإدارة المساء في دنابة المسرقان وتفريقه مال الصدقات على أهلها ، وذنبت معهم في ذلك فقال لي هو : يا بني ! أرباب هذه الدولة إذا حدثوا عنى بهذا وشبهه قالوا : المنجم إنما يفعل هذا رياء ، وما أفعله إلا لله تعالى ، وإن كان رياء فهو حسن أيضا ، فلم لا يراو عنى بهذا الرياء ؟ ولكن الطباع خست حتى الحسد أيضا ، كان الناس قديما إذا حسدوا رجلا

(١) ص ٢١٤ (٢) ص ٧٤ (٣) ص ١٤١ (٤) ص ٤٥ (٥) المسرقان : نهر

بخوزستان ، والدابة بالصم وتكسر طرف الرادى . (٦) عل الصواب : ذهب معهم في ذلك .

على يساره حرصوا على كسب المال حتى يصيروا مثله ، وإذا حسدوه على علمه تعلموا حتى يضاوه ، وإذا حسدوه على جوده بذلوا حتى قيل إنهم أكرم منه...^(١) فالآن لما ضعفت الطبائع ، وصغرت النفوس ، وعجزوا عن أن يجعلوا أنفسهم مثل من حسدوه في المعنى الذي حسدوه عليه ، عدلوا الى تنقص المبرز ، فان كان فقيرا سعوا على فقره ، وان كان عالما خطئوه ، وان كان جوادا قالوا هذا متاجر بجوده وبخلوه ، وإذا كان فعلا للخير قالوا هذا مرءاء^(٢) .

ففى هذه الفقرات تحليل دقيق لطباع الناس ، ونرى المنجم مع حبه لحسن السمعة وبعد الصيت يذكر أنه يعمل ما يعمل آبتغاء مرضاة الله . والواقع أن الموفقين لعمل الخير قلما يسمون من حب المدح والثناء ، والطبيعة البشرية أضعف من أن تقبل على الخير المطلق ، فكل محسن يجب أن يذكر إحسانه بالجميل ، مهما أخلص لله ، وعلى الجماهير أن تفهم ذلك ، وأن لا تضن على المحسنين بمظاهر التبجيل ، فانه لا شيء أقتل لنوازع الخير في نفوس الكرماء من نكران الصنيع ، وقد أفصح عن هذا يحيى بن طالب إذ قال :

يزهّدنى فى كل خير صنعته الى الناس ما جربت من قلة الشكر

ونرى المنجم بعد ذلك يعود الى نقد طباع الناس فيذكر أنها خست وضعفت ، وأن رذائلهم كان فيها قديما شيء من النفع ، حين كان الحسد يحملهم على مباراة من يحسدون في ميادين العلم والسخاء والمال . فقد كان الحسد من البواعث على الحد والتحصيل ، ثم خبت ناره ، وصار علالة يتلهى بها ضعفاء العزائم وصغار النفوس .

١٣ - ومن طرائف الأقاصيص الجدية ما نقله مرويا عن وهب بن منبه أنه كان في عهد بنى إسرائيل حمار يسافر بخمر له ، ومعه قرد ، وكان يمزج الخمر بالماء نصفين ، ويبيعه بسعر الخمر ، والقرد يشير اليه أن لا تفعل ، فيضربه ، فلما فرغ من بيع الخمر وأراد الرجوع الى بلده ركب البحر وقرده معه ، وخرج فيه ثيابه والكيس الذى جمعه من ثمن الخمر ، فلما سار في البحر

(١) حتى قيل : كذا في الأصل وظاهر أن السياق يستوجب « حتى يقال » .

(٢) عليها شعروا . (٣) ص ١٢ و ١٤

استخرج القرد الكيس من موضعه ، ورقى الدقل وهو معه حتى صار في أعلاه ، ورمى الى المركب بدرهم والى البحر بدرهم ، فلم يزل ذلك دأبه حتى قسم الدراهم نصفين ، فما كان بحصة الخمر رمى به الى المركب بجمعه صاحبه ، وما كان بحصة الماء رمى به الى البحر فهلك ، ثم نزل عن الدقل ^(١) .

ونشير أولا الى أن هذه الأقصوصة تخرج عن شرط نشوار المحاضرة ، وإن لم يشر المؤلف الى ذلك ، فان من المؤكد أن أخبار وهب بن منبه وأكثر الاسرائيليات كانت دؤنت قبل القرن الرابع .

ومغزى هذه الأقصوصة واضح : فان واضعها يريد أن يقرر في الأذهان أن فكرة الخير والشر والحرام والحلال لا تخفى على أحد ، وأنها مفهومة عند القروء ، في وقت لم يكن فيه من يرى أن القرد أصل الانسان ، أو هو إنسان فاته الترقى والنهوض ، والأقصوصة ظريفة في وضعها وفي الخيال الذي صبّت فيه ، ولا سيما اذا لا حظنا ان عند القرد جوانب مضيئة في ذهنه ، وأن له من الشائتل الانسانية نصيبا غير قليل ، وفي الأقصوصة تسجيل لطرائق اليهود في جمع المال عن طريق المكسب الخبيث ، وكذلك يفعلون .

١٤ — ومن الأخبار الدالة على قوة النفس أن أبا برك الخرمي المازي قال له لما أدخله على المعتصم . يا برك ! انك قد عملت ما لم يعمله أحد ، فاصبر الآن صبرا لم يصبره أحد . فقال له : سترى صبرى ! فلما صاروا بحضرة المعتصم أمر بقطع أيديهما وأرجلهما بحضرتة ، فبدىء بيا برك فقطعت يميناه ، فلما جرى دمه مسح به وجهه كله حتى لم يبق من حلية وجهه وصورة سحته شيء ، فقال المعتصم : سألوه لم فعل هذا ؟ فسئل فقال : قولوا للخليفة : إنك أمرت بقطع أربعتي وفي نفسك قتلى ، ولا شك أنك لا تكويها وتدع دمي يتزف الى أن تضرب عنقي ، فخشيت أن يخرج الدم مني فتيق في وجهي صفرة يقدر لأجلها من حضر

أنى قد فزعت من الموت، وأنها لذلك لا من خروج الدم، فغطيت وجهى بما مسحته عليه من الدم حتى لا تبين الصفرة .

فقال المعتصم : لولا أن أفعاله لا توجب العقوبة لكان خقيقا بالاستبقاء لهذا الفضل وأمر بامضاء أمره فيه : فقطعت أربعته ثم ضربت عنقه، وجعل الجميع على بطنه وصب عليه التَّنْفُط وضرب بالنار، وفعل مثل ذلك بأخيه فما كان فيهما من صاح أو تأوه .^(١)

وأمثال هذه الأخبار تفسر لنا السرفى عنف الثورات التى كانت تهدد الحكومات الإسلامية، فقد كانت هناك مطامع ، وكانت هناك عزائم أقسى من الصخر وأمضى من السيوف، وفى أخبار تلك النفوس الطاغية ما يفسر لنا أيضا كيف كانت الحكومات الإسلامية تعتمد دائما على قادة من الطغاة المستبدين ، فانه لا يقل الحديد إلا الحديد ، ولكل عراقٍ حجاج !

١٥ - وفى نشوار المحاضرة أخبار كثيرة عن أريحية الوزراء وسخائهم ، من ذلك ما نقل المؤلف عن أبيه أنه سمع القاضى أبا عمر يقول :

عرض إسماعيل القاضى وأنا معه على عبيد الله بن سليمان رقاعا فى حوائج الناس فوقع فيها ، فعرض أخرى وخشى أن يكون قد ثقل عليه فقال له : إن جاز أن يتطوّل الوزير أعزّه الله بهذا . فوقع له . فعرض أخرى وقال : إن أمكن الوزير أن ييجيب إلى هذا . فوقع له . فعرض أخرى وقال : إن سهل على الوزير أن يفعل ذلك ، فوقع له . فعرض أخرى وقال شيئا من هذا الجنس ، فقال له عبيد الله : يا أبا إسحاق ! كم تقول إن أمكن وإن جاز وإن سهل؟ من قال لك إنه يجلس هذا المجلس ثم يتعذر عليه فعلُ شئ، على وجه الأرض من الأمور فقد كذبك ، هات رقاعك كلها فى موضع واحد . قال : فأخرجها إسماعيل من كمه وطرحها بمحضرتها فوقع فيها . وكانت مع ما وقع فيه قبل الكلام نحو ثمانين رقعة .^(٢)

وفي مثل هذا الجبر إن صحت تفاصيله ما يبين كيف تضععت الحكومات الإسلامية وتداعت في زمن قليل ، فقد كان الوزراء مفتونين بالمجد الكاذب والحمد المصنوع . ولا ننس أن أمثال هذه الرقاع التي كان يمشيها الوزراء بلا تردد كانت ترجع إلى الاستبداء وكان الوزراء يعرفون أن أتباعهم يستفيدون من قضاء حوائج الناس ، وفي نشوار المحاضرة نصوص تدل على أن الرشوة كانت شيئا مفهوما في مكاتب الوزراء .

١٦ - وشيوع الرشوة بين طبقات الحكام يفسر لنا غوامض التاريخ الإسلامي ، فقد أكثر المؤرخون القول في نكبة البرامكة مثلا وردوها إلى أصول أكثرها صحيح ، ولكن أكبر الأسباب فيما افترض هو إقبال ذوى الحاجات على البرامكة ، وكان لذلك الإقبال ربح مستور يجهله بعض الناس ويعرفه الرشيد . ولهذا السبب عينه نرى كيف كان الخلفاء يستصفون أموال عمالمهم ووزرائهم حين يفضيرون عليهم ، وكانت مصادرة أموال الحكام المغضوب عليهم لا تجدد من يتفرغ لها من الجمهور الذي كان يعرف أنها جمعت من الحرام .

ونستطيع أن نفهم من هذا كيف كان فريق من ذوى الدين والمروءة ينفر من المناصب العمومية ، وخاصة منصب القضاء . وأهل العصر الحاضر لا يفهمون هذا حق الفهم : لأن رقابة الجمهور عن طريق الصحافة كبحت كثيرا من جشع الحكام والوزراء ، وكشفت عورات كثير من المنافقين الذين يدعون نقاء الأيدي والسرائر ، والله بما يضمرون عليم !

١٧ - ومن طريف ما في نشوار المحاضرة حديث القاضي أبي يوسف مع زوجته حين كان فقيرا ، فقد نقل أن أبا يوسف صحب أبا حنيفة لتعلم العلم على فقر شديد ، فكان ينقطع بملازمته عن طاب المعاش ، فيعود إلى منزل مختل ، وأمر قل ، فطال ذلك ، وكانت أمرأته تحتال له ما يقتاتة يوما بيوم ، فلما طال ذلك عليها خرج إلى المجلس وأقام فيه يومه ، وعاد ليلا فطلب ما يأكل ، فجاءته بغضارة مغطاة ، فكشفها فاذا فيها دفاتر ، فقال : ما هذا ؟ قالت : هذا ما أنت مشغول به نهارك أجمع ، فكل منه ليلا ! فبكى وبات جائعا ، وتأخر من غد عن المجلس

حتى أحتال ما أكلوه، فلما جاء الى أبي حنيفة سأله عن تأخره فصدقه، فقال : ألا عرفتني فكنت أمدك ؟ ولا يجب أن تغتم، فإنه إن طال عمرك فسبأ كل بالفقه اللوزينج بفستق المقشور . قال أبو يوسف : فلما خدمت الرشيد وأختصصت به قُدمت بحضرته يوما جامعة لوزينج بفستق، فحين أكلت منها بكيت وذكرت أبا حنيفة، فسالني الرشيد عن سبب ذلك فأخبرته .

وهذا الحديث من أطرف ما يتأسى به طلبة العلم الذين يرجون أن يغنيهم الله بعد فقر ، ويرفعهم بعد نحول .

وقد ذكر التنوخي السبب الذي اتصل به أبو يوسف بالرشيد^(١)، فأرانا أن أبا يوسف كان يتلطف بعض الشيء في فتاويه ليخرج أميره من بعض المحرجات . وهذا بالطبع جانب ضعيف من أبي يوسف ومن الرشيد، ولكن أين نحن من أولئك الناس ! أولئك قوم كانوا يشعرون بمعاني الحلال والحرام، ويلتمسون لضمائرهم وسائل الهدوء في ظلال التأويلات . أما أهل العصر الحاضر فقد أنصرفوا عن استفتاء الفقهاء فيما يحزبهم من أزمات الضمائر والقلوب ، وصار أكثر الناس لا يبالي ما حرمت الشرائع وما حلت من مختلف الشئون، وعاد الأمر كله الى القوانين الوضعية، بحيث لا خطر على الجاني إلا أن يؤخذ ، ولا عاصم لصاحب الحق إلا أن يكون بيده عهد مكتوب !

١٨ — ويظهر من نشوار المحاضرة أن المتقدمين كانوا يستكثرون أن يكون للقضاة هوى وتشيب، فقد جاء فيه أن أبا إسحاق الزجاج قال :

” كما ليلة بحضرة القاسم بن عبيد الله وهو وزير غنت جاريته بدعة :

أدلّ فأكرم به من مدلّ ومن ظالم لدعى مستحلّ

إذا ما تعزز قابله بذل وذلك جهد المقبل

فأدت فيه صنعة حسنة، فطرب القاسم عليه طربا شديدا، وأستحسن الصنعة والشعر، وأفرط في وصف الشعر، فقالت بدعة : يا مولاي ! إن لهذا الشعر خبرا أحسن منه . قال : ما هو ؟ قالت : هو لأبي حازم القاضي ! قال : فعجبنا من ذلك مع شدة تقشف أبي حازم وورعه وتقبضه . فقال لى الوزير : بالله يا أبا إسحاق بكر الى أبي حازم واسأله عن هذا الشعر وسببه ، فباكرته وجلست حتى خلا وجهه ولم يبق إلا رجل بزى القضاة عليه قلنسوة ، فقلت له : بيننا شيء أقوله على خلوة . فقال : قل ، فليس هذا ممن أكرم ، فقصصت عليه الخبر، وسألته عن الشعر والسبب، فبسم وقال : هذا شيء كان في الحادثة قتله في والده هذا (وأوما الى القاضي الجالس فاذا هو آبنه) وكنت اليها مائلا، وكانت لى مملوكة ولقلى مالكة، فأما الآن فلا عهد لى بمثله منذ سنين ، ولا عملت شعرا منذ دهر طويل ، وأنا أستغفر الله مما مضى . قال : فوجم الفتى ونجل حتى أرفض عرقا . وعدت الى القاسم فأخبرته فضحك من نجل الابن وقال : لو سلم من العشق أحد لكان أبو حازم !^(١)

والفكرة في ذاتها مقبولة ، فان العشق والتشبيب من ألوان المرح التى قضى العرف باستهجان صدورها من القضاة . على أن عواطف الحب كانت تحتاج كثيرا من قضاة المسامين ، وكتب الأدب مملوءة بأخبارهم في هذا الباب . من أجل ذلك أرجح أن عجب ذلك الوزير وأصحابه من غزل أبي حازم لم يكن مصدره أنه قاض لا يصح أن يتغزل ، وإنما كان لأن أبا حازم اشتهر بالتقى والتصون حتى صار من المستغرب أن ينسب اليه حب أو تشبيب . أما نجل الابن فصدره فيما أظن أن أباه صرح بأن أمه كانت مملوكة له ، وأنه تزوجها طاعة للهوى .

١٩ - وفي نشوار المحاضرة أخبار تدل على أن الغناء لم يكن من العمل المقبول ، بحيث كان القيان محتججن الى التوبة إن كتب الله لهن التوفيق . وفي ذلك يقول المؤلف :

” أخبرنى من أثنى به أن ابراهيم بن المدبر قال : كنت أتعشق عريب دهرًا طويلا ، وأتفق عليها مالا جليلا ، فلما قصدنى الزمان ، وتركت التصرف ولزمت البيت ، كانت هى

أيضا قد أسنت وتابت من الغناء وزمنت ، فكنت جالسا يوما اذ جاء بوابي وقال : طيار
عريب بالباب ، وهى فيه تستأذن . فعجبت من ذلك وأرتاح قلبى اليها ، فقامت حتى نزلت
بالشط فاذا هى جالسة فى طيارها ، فقلت : يا ستى ! كيف كان هذا ؟ قالت : اشتقت اليك ،
وطال العهد ، فأحببت أن أجده وأشرب عندك اليوم ! قلت : فأصعدى . قالت : حتى
تجىء محفى ، قال : فاذا بطيار لطيف قد جاء وفيه المحفة ، فأجلست فيها وأصعدتها الخدم ،
وتحدثنا ساعة ، ثم قدم الطعام فأكلنا ، وأحضر النبيذ فشربت وسقيتها فشربت ، وأمرت
جواريا بالغناء ، وكان معها منهن عدة محسنات طياب حذاق ، فتغنين أحسن غناء وأطيبه ،
فطربت وسررت ، وقد كنت قبل ذلك بأيام عملت شعرا ، وأنا مولع فى أكثر الأوقات بترديده
 وإنشاده ، وهو :

إن كان ليك نوما لا آنقضاء له فان جفنى لا تثنى لتغميض
كأن جنبي فى الظلماء تقرضه على الحشية أطراف المقاريض
أستودع الله من لا أستطيع له شكوى المحبة إلا بالمعارض

فقلت لها : يا ستى ! إني قد عملت أبياتا أشتهى أن تصنعى فيها لحنا . فقالت :
يا أبا إسحاق ! مع التوبة ؟ قلت لها : فأحتالى فى ذلك " الى آخر الحديث ^(١) .

والواقع أن الغناء كان موضع خلاف عند علماء المسلمين ، ولهم فى إباحته وتحريمه
أقاويل نجد صداها عند الغزالي مثلا فى كتاب الإحياء . وكره الغناء والتحرز من مصاحبة
المغنين والمغنيات قد تغلغل فى كثير من البيئات الإسلامية ، وكان فى فقهاء الإسلام من يقول
بتكسير آلات الموسيقى والطرب ، وقد شرحت ذلك ونقدته فى كتاب (الأخلاق عند الغزالي)
ويكفى أن أشير هنا الى أن ثورة الوهابيين على الموسيقى وآلاتها ليس إلا بعثا لما كان يراه
كثير من فقهاء الأقدمين . فالفكرة قديمة ، وإنما تتطور وتتحول من وضع الى وضع وفقا
لتطور الظروف وتحول الأذواق .

١٤ - حكاية أبي القاسم البغدادى

١ - مؤلف هذه الحكاية هو أبو المطهر الأزدي محمد بن أحمد ، وهو رجل يذكر قليلا جدا في المجموعات الأدبية ، ولم نستطع الوصول الى معرفة أخباره في كتب التراجم ، ولكن المسيو ميتس (Mez) هدانا في المقدمة الألمانية التي صدر بها طبعته لهذه الحكاية الى أن الأزدي كان يعيش في صميم القرن الرابع .

والظاهر أنه ولد في الربع الأخير من القرن الثالث فقد كان في سنة ٣٠٦ من الفتيان الماجنين ، بدليل قوله : "ولعهدى بهذا الحديث سنة ست وثلاثمائة ، وقد أحصيت أنا وجاعة بالكرخ أربعائة وستين جارية ، في الجانين ، وعشر حرائر وخمسة وسبعين من الصبيان البدور يجمعون من الحسن والحذق والظرف ، ما يقوت حدود الوصف ، هذا سوى ما كنا لا نظفر بهم ولا نصل اليهم لعزتهم وحرصهم ورفائهم ، وسوى من كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالفتاء والضرب إلا اذا نشط في وقت ، أو ثمل في حال ، وخلع العذار في هوى قد حالته وأضناه ... الخ^(١)" .

وفي مكان آخر يتحدث عن مجلس أنس قضاء مع ابن الحجاج وأبي محمد يعقوبى وأبى الحسن بن سكرة^(٢) ، وهم من أعيان القرن الرابع ، عاش أولهم الى سنة ٣٩١ وثالثهم الى سنة ٣٨٥ لحكاية أبي القاسم البغدادى وضعت بلا ريب في أواسط القرن الرابع .

٢ - وليست حكاية أبي القاسم التي وضعها أبو المطهر الأزدي إلا فنونا من القول أراد بها وصف الجنون وتصوير الماجنين من أهل بغداد وأصفهان . فهي ليست قصة بالمعنى المعروف ، ولكنها مجلس واحد يطرد فيه القول من فن الى فن في دعاية وظرف . (و) أبو القاسم

البغدادي) بطل القضية رجل جمع أدوات النصب والاحتياط والنفاق . وهو يشبه من بعض الوجوه أبا الفتح الاسكندري في مقامات بدیع الزمان : فانا نراه يدارى أهل المجلس وينافقهم فيلبس ثوب التقي والصالح ، حتى اذا رأهم على استعداد للهزل أنقلب لاعبا متمزدا عارفا بغرائب الخلاعة والمجون^(١) .

ولنعط الكلمة للؤلف ليحدثنا عن منهج كتابه :

”... بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهله والصلاة على سيدنا محمد النبي وآله والسلام، أما الذى أختاره من الأدب فالخطاب البدوى والشعر القديم العربى، ثم الشوارد التى أفرعتها خواطر المتأخرين من أعلام الأدباء، والنواذر التى اخترعتها قرائح المحدثين من أعيان الشعراء، هذا الذى أحصله من أدب غيرى وأقتنيه وأتملى به وأدعيه وأروييه من ملح ماتنفسوا به وتنافسوا فيه، ويصدق شاهدى عليه أشعار لنفسي دوتها، ورسائل سيرتها، ومقامات حضرتها . ثم إن هذه حكاية عن رجل بغدادي كنت أعاشره برهة من الدهر فيتفق منه ألفاظ مستحسنة ومستحشنة، وعبارات [عن] أهل بلده مستفصحة ومستفيضحة ، فأثبتها خاطرى لتكون كاللذكرة في معرفة أخلاق البغداديين على تباين طبقاتهم، وكالاتموزج الماخوذ عن عاداتهم، وكأنها قسد نظمتهن في صورة واحدة يقع تحتها نوعهم، وتترك فيها أشخاص ذلك النوع على أحد واحد بحيث لا يختلفون فيه إلا باختلاف المراتب، وتفاوت المنازل، ولعلى صرت في ذلك كما قال أبو عثمان الجاحظ في فصل من كلامه :

(١) ولنلاحظ أن شخصية أبى القاسم وشخصية أبى الفتح من الشخصيات الخرافية ، وصدورها على طريق التكنية ارون من التفخيم أو التمليح ، والتكنية ظاهرة عربية ، ولا يشترط فيها أبوة فقد يكنى الصبي أحيانا وهو لم يستحق أن يكون أباً ، وربما ولد له فسمى ولده بغير ماكنى به ، وتكنية الصغير تفاؤل له بالحياة وطول العمر والولد ، وتكنية الكبير تعظيم له عن التسمية باسمه ، وقد تجعل العرب للرجل الكنية والكنتين والثلاث على مقدار جلالته في النفوس (راجع نقد النثر ص ٤٢ و ٤٣) .

وفي معجم الأدباء لياقوت — ص ١٨٨ ج ٥ — في أخبار الكسائي كلام صريح في الاختيار بالكنية وعيب التكنية في مجالس الخلفاء ، لما في ذلك من مظاهر الزهو والخيلاء .

وقد عرضنا للتكنية بكلام مفصل في الجزء الثاني ص ٢٨٨ ، ٢٨٩

”وإنا مع هذا نجد الحاكية من الناس يحكى ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم لا يغادر من ذلك شيئاً ، وكذلك تكون حكايته للغربى والحراسانى والأهوازى والسندى والزنجى ، نعم حتى تجده كأنه أطبع منهم ، فإما إذا حكى كلام الفأفاء فكأنه قد جمع كل طرفة في كلام كل فأفاء في الأرض في لسان واحد ، كما أنك تجده يحاكى الأعمى بصورة ينشئها بوجهه وعينه وأعضائه لا تكاد تجد من ألف أعمى واحداً يجمع ذلك كله ، فكأن هذا الحاكى قد جمع ما هو مفترق فيهم ، وحصر جميع طرف حكايات العميان في أعمى واحد . ولقد كان فلان^(١) يقف بباب الكرخ بحضرة المكارين فينهب فلا يبقى حمار مريض ولا هرم حسير ولا متعب بهير إلا نهق ، وقد يسمع نهيق الحمار على الحقيقة فلا ينبعث له ولا يتحرك تحركته لصوت هذا الحاكى ، وكأنه قد جمع جميع النغم التى تناسب نهيق الحمار فجعلها نهيق حمار واحد ، فأرتاحت لسماع ذلك نفوس جميع الحير . ولذلك زعمت الأوائل أن الانسان إنما قيل له العالم الصغير سليل العالم الكبير لأنه يصور بيده كل صورة ، ويحكى بفمه كل صوت ، ولأنه يأكل كل النبات كما تأكل البهائم ، ويأكل اللحم كما تأكل السباع ، ويأكل الحب كما تأكل الطيور ، ولأن فيه أشكالا من جميع أجناس الحيوان“ .

وإذ قدمت هذه الجملة فأقول : هذه حكاية مقدرة على أحوال يوم واحد من أوله الى آخره ، أو ليلة كذلك ، وإنما يمكن أستيفائها وأستغراقها في مثل هذه المدة ، فمن نشط لسماعها ولم يعدّ تطويل فصولها وفضولها كلفة على قلبه ، ولا لحنا يرد فيها من عباراتهم قصور معرفة يعيرن بها ، لا سيما مع آتئائه منها الى الحكاية البدوية الأدبية التى أردفتها بها ، ومع قول أحد البلغاء (ملح النادرة فى لحنها ، وحلاوتها فى قصر متنها ، وحرارتها فى حسن منطقها) كلفت له من البسط جهده المتعب على غيره^(٢) المتع له . ثم إن لى قدمة شوط أستعيه وأستغيره من شعر أبى عبد الله بن الججاج وهو قوله :

(١) هو فى البيان والتبيين (أبوردوبة الزنجى) ص ٣٩ ج ١

(٢) فى هذه العبارة ركافة وغموص .

يا سيدى، دعوة من شعره
يحمرى على العادة والعرف
لا بد أن يغفل عن لفظة
طريفة يأتى بها سخفى

٣ — وهذه المقدمة تبين غرض المؤلف : فهو يريد وصف الحياة في بغداد لعهدده ،
وسياق الحكاية صريح في أنه قصد الى وصف جانب خاص هو جانب العبث والمجون .
والطريف في منهج المؤلف هو شعوره بأهمية تدوين العادات والألفاظ ، وإشارته الى أن
اللمن قد يكون أصرح من الفصاحة في عرض الملح والفكاهات ، وأن السخف قد يكون
وسيلة الى طريف الألفاظ في بعض الأحيان .

وأكثر ألفاظ البغداديين فيما دونه أبو المطهر غير قاموسية ، أعنى أنها لم تدون في المعاجم .
وأبو المطهر يقصد اليها قصدا : فهو رجل مثقف العقل يجرى في درس اللغة على منهاج .
من ذلك ما أنطق به المحدث :

— يا أبا القاسم ، تعرف شيئا من السباحة ؟

فيجيب :

— يا أحق ! يا سوادى لا يحسن أن يركب البقر ، وتركى لا يحسن أن يترع القوس !
أنا والله أسبح من الضفدع ومن التين ! أعرف من السباحة أنواعا لم يحسنها قط ، سمك
ولا بط ، أعرف منها الشق والذرع والغمر والاستلقاء والتزاور والشكلبي والطاوس والعقربى
والمقرفض والموزون والكامل والطويل والمقيسد . كان أستاذى في جميعها ابن الطوا
والزنايرى .

وفى هذا الحوار يعلمنا أبو المطهر أسماء العوم ، وهى أسماء لا نجد شرحها كاملا
في القواميس ، ولا نجد في أهل زماننا من يعرف ما لها من مدلول . وقد تكون أسماء العوم
في أندية الرياضة المصرية مما يمت الى لغات أجنبية .

ولا يقف أبو المطهر عند هذا . بل ينطق المحدث بألفاظ الملاحين فيقول :

— يا أبا القاسم ، أريد أن أعرف شيئا من ألفاظ الملاحين وأحوالهم .

فيقول :

— يحتاج أن نعريف ألوان المراكب من السفن والسميريات ، والمراكب العماليات ،
والزبازب ، والكندوريات ، والبالوع ، والطيطاب ، والجدى ، والجاسوس ، والورجيات ،
والقوارب ، والخطيات ، والشاملى ، والجعفرات ^(١) .

وللحديث بقية فيها استقصاء لألفاظ الملاحين ، وهى خطة تذكر بما صنعه المسيو كولان
Colin عين عاشر الملاحين المصريين ليعرف الألفاظ الفنية لأجزاء السفن المصرية . فأنظر
كيف سبق أبو المطهر صاحبنا كولان بعشرة قرون !

ويتصل بهذا تدوينه لمظاهر الحضارة فى بغداد ، فقد سخر من أهل أصبهان اذ يجد
السالك محال كريمة الأسماء مثل : «موضع المجذومين» و «درب الثم» و «درب العنى»
ويقول : «هل أرى عندكم من أبواب الصناعات والمهن مثل من أرى ببغداد من الوراقين ،
والخطاطين ، والخطاطين ، والخراطين ، والزرادين ، والمزوقين ، والطباخين ، والطحانين ، ومن
لا يحصى عددا من الحذاق المعجزين ؟ » ^(٢) .

٤ — ولأبى المطهر صور فنية يقصد إليها رغبة فى الدعاية ، من ذلك قوله فى وصف
مناقق :

«ويقبل خلال الأحاديث على من يليه من الثمين فيفاوضه ويسمع من أحاديثه ويستش
لها ويقول :

ياسيدنا ، ذا والله ليس كلام البشر ، انما هو سحر يولّه القلوب والأسماع ، كلام والله كبر
الشراب ، وبرد الشباب ، بل كالنعيم الحاضر ، والشباب الناضر ، قطع الزهر ، وعقد السحر ،
ما هو إلا كالشجر بالولد الكريم ، الى سمع الشيخ العقيم ، حسن الديباجة ، صافى الزجاجة ، حلو
المساغ ، يعاق به المريض ، ويجبره المهيض ، يقود سامعه الى السجود ، ويجري مجرى الماء

في العود، قد آتسّع له بحمد الله مَشَرع الإطناب، وآتفرج عنه مسلك الإسهاب، فهو ينثر الدر على الدر .

فيقول الذي على يساره : في أى شيء أتم ؟ فيغمز اليه بعينه ويقبل عليه ويقول :
ياسيدنا ! أنا في محنة صلعاء بلا طاقة شعير ، في كلام أثقل من الجندل ، وأمر من الخنظل ، هذيان المحموم ، وسوداء المهموم ، لمشله يتسلى الأخرس عن كلمه ، ويفرح الأصم بصممه . كلام والله يصدى الحاطر ، إن لم يُعش الناظر . كلام تتعثر الأسماع من حزونه ، وتتحير الأوهام من وعورته ، لا مساغ له في الأسماع ، ولا قبول من الطباع .

ثم يلتفت الى اليمين فينشده صاحبه الذي يليه شعرا فيقول :
أعيذه بالله ! ما أصفى نظره ، وأنبى درره ، وأغزر بحره ، وأحكم نخته ونجره ...^(٢) لو جعل خلعة على الزمان لتحلى بها مكائرا ، وتجلى فيها مفانرا . شعر والله يختلط بأجزاء النفس ، الآذان والله تصير أصدافا لهذا الدر .

ويلتفت عنه ثانيا الى اليسار فيقول :

ياسيدنا ! أما كنت تسمع ذا الشعر البارد العبارة ، الثقيل الاستعارة ، وتلك الإشارة الفاترة ! ياسيدنا ، بلا حلاوة ولا طراوة . ليس إلا إقواء وإطاء وأخطاء . لو شعر ، أعزّه الله ، بالنقص لما شعر !

ثم يقبل على اليمين ثالثا ويأخذ في تقريطه ويقول :

سيدنا بحمد الله كريم الأخلاق والأطواق ، المجد لسان أوصافه ، والشرف نسب أسلافه ، ما ورث المحاسن عن كلالته ، ولا ظفر بها عن ضلالته . شجرة طيبة أصلها في الماء ، وفرعها في السماء ، ثم هو بحمد الله في الكرم والجود بحر لا يظما وارده ، ولا يمتنع بارده ، لو أن البحر قدره ، والسحاب مده ، والجبال ذهبه ، لقصرت عما يهبه ، وفي العلم البحر الممد لسبعة أبحر ، كأنما يومئ بحمد الله منه أعمار سبعة أنسر . شجرة فصل عودها أدب ، وأغصانها علم ، وبثمرتها

عقل، هذا بحمد الله مع خلق كنسم الأنوار، على صفحات الأشجار، في نفحات الاستنار، خلألق^(٢) في ذكاء الخلق، وشمائل في صفاء الشمول، أذكرى من حركات الريح بين الريحان، جد كعلو^(١) الجّد، وهزل كديقة الورد، سبحة ناسك، وتفاحة فاك، وعشرة يكاد مأوها يقطر، وصحوها من الغضارة يمطر. ثم المنظر الذى تبهر وضاءته العيون، متبرقع والله ببديع الجمال، متعوذ من عين الكمال، متخلل مخائل الأمثال. أحلى والله من الوبل، على المحل، الخلق وضى، والخلق رضى، والفضل مضى^(٣). محاسن أنا والله منها فى روضة وغدير، بل فى جنة وحسرى.

ويلفت الى من يليه ويقول على العادة فى النفاق والخبث :

ذا والله سخنة عين، عصارة لؤم، فى فؤاد خبث، كالكمأة لا أصل لها ثابت، ولا فرع ثابت، لو قُذِفَ والله الليل بلؤمه لطفئت أنوار نجومه. لايبض حجره، ولا يثمر شجره، حجة لا تروى، وزند لا يورى، قالب جهل مستور بثوب، يعثر فى عنان جهله، ويتساقط فى ذبول خرقه، صخرة خلفاء لا تستجيب للرتقى، وحية صماء لا تتسمع الى الرقى، كأنى اذا ناظرته أسفر منه عودا، وأهر طودا، ثقیل الطلعة، بغیض التفصيل والجملة. يحكى ثقل الحديث المعاد، ويمشى على العيون والأبصار، هو والله فى العين قذاة، وبين النعل والأنحص حصاة. كأن وجهه على الحقيقة هول. المطلع النحس يطلع من جبهته، والنخل يقطر من وجنته. وجه يشق على العين، وكلام لا يسوغ فى الأذن، ما كنت أدري والله أیحدث أم يحدث، مدخل أكله أمدر من مخرج ثقله، لا يفرق والله بين محساء ومفساء... الخ^(٥).

وأول ما يلاحظ فى هذه الصورة كثرة القسم. وكان ذلك لعهد المؤلف من طبيعة البغداديين. والصورة عادية من حيث السياق : فليس فيها تحليل لطبيعة المنافق غير هذا الوضع البسيط وهو التلون والتقلب، والظهور بوجهين، وتلك أظهر ما فى شيم المنافقين.

(١) الخلق بفتح الخاء الطيب . (٢) فى الأصل (علو) بالعين المعجمة . (٣) مضى وخفف للسجع .

(٤) أمدر : أخبث، وبضعة مذرة : فاسدة .

(٥) راجع ص ١١٣ و ١١٥ .

وليس لأبي المطهر يد في تلوين هذه الصور : فهي جملة من المحامد والمتامح جمعها من ألفاظ معاصريه ، وكنا أشرنا في النص الفرنسي الى أنه آقتبسها من كتب الثعالبي ، ويظهر لما الآن أن الثعالبي هو الذي آعتمد على أبي المطهر في نظم هذه الصورة الفنية .

٥ — ومن هذا الباب ما كتبه في وصف الثقل :

« يا أول ليلة الغريب ، اذا بعد عن الحبيب ، ياطلعة الرقيب ! يا يوم الأربعاء في آخر صفر ، يا لقاء الكابوس في وقت السحر ! يا خراجا بلا غلة ، يا سفرا مقرونا بعة ! يا أخلق من طيلسان ابن حرب ، يا أشأم على نفسه من ضرورة وهب ! يا أبغض من قدح اللباب في كف المريض ، وأنكر من نظر المفلس في وجه الغريم البغيض ! يا أتن من الكنيف في سحر الصيف ، وأثقل من طلعة البغيض على الضيف ! يا وجه المستخرج في يوم السبت ، يا إفطار الصائم على الخبز البحت ! يا أبرد من الشمال في كانون ، وأوسخ من فراش الحرب المبطون ! يا أقذر من ذباب على جعس رطب ، وأحقر من قملة في أذن كلب ! يا أقذر من جفنة الدباغين ، وأتن من ريح القصابين ! يا أبلد من حضيض الحمام ، وأتن من حانوت الحمام ! يا أقذر من طين السماكين ! يا أوحش من شخص الظالم في عين المظلوم ، وأكره من صوت البوم اذا صك سمع المحموم ! يا أبرج من غم الدين ، وأشد من وجع العين ، وأوحش من بكرة يوم البين ! يا ليلة المسافر في كانون الآخر ، على أكاف بأس ، وبرد قارس ! يا أذل من ناسج برد ، ودابغ جلد ، وراكب قرد ، وسائس عرد ! يا أثقل من طفيل يعربد على الندماء ، ويقترح أنواع الغناء ، ويتشهى بعد أكل الغداء والعشاء ، ألوان الصيف في الشتاء ، مجشما للساق ، قاطعا على المغنى ، يواثب ويذنى . يا أشد على الأحرار من تطاول الحجاب ، وعبوس البواب ، وجفاء الحجاب ، وسوء المنقلب والإياب ! يا أشد من كربة صاحب المتاع الكاسد ، وأضيق من قلب الكاشح الحاسد ، وأكرب من الاستماع الى المغنى البارد ! يا أكره من هجرات الصديق ، ومن النظر الى زوج الأم على الريق ، ومضيق الطريق ، بل من سوء القضاء ، وجهد البلاء ، وشماتة الأعداء ،

وحسد القرباء ، وملازمة الغرماء ، وخيانة الشركاء ، وملاحظة الثقلاء ، وملابسة السفهاء ،
ومسائلة البخلاء ، ومعاداة الشعراء ^(١) .

وقد شربنا في النص الفرنسى الى أن هذه الصورة منقولة عن رسالة الخوارزمى ، ونرجح
الآن أن الخوارزمى هو الذى حاكى أبا المطهر في وصف الثقل ، لأن الخوارزمى مات
سنة ٣٨٣ أو ٣٩٣ وأبو المطهر كان شابا ماجنا في سنة ٣٠٦ من المستبعد أن يكون عاش
طويلا بعد منتصف القرن الرابع ^(٢) .

وقد عدنا فوازنا بين الرسالتين : رسالة أبي المطهر ورسالة الخوارزمى فوجدناهما تتوافقان
في ألفاظ وتختلفان في ألفاظ . وفي العبارات المتقاربة تظهر الدقة في جانب الخوارزمى ، فأبو
المطهر يقول :

”يا أثن من الكنيف ، في سحر الصيف“

والخوارزمى يقول :

”يا كنيف السجن في الصيف“

وهي عبارة أفذر وأشنع .

ورسالة الخوارزمى طويلة جدا ، ولكن هيات أن يصل الى ما وصل اليه أبو المطهر
من الإغش والإقذاع فانه ثر أحاجيه في كتابه ثر الشوك . وهذه الأحاجي البشعة من مظاهر
الحضارة في بغداد ، ونعبد القارئ أن يدهش من ذلك ، فان الحضارات تقتضى فنونا من
المناقب والمثالب لا تستطيعها البداوات . ويعيوب أصحاب الحرف والصناعات ، ورذائل
المترفين ومساوى الموسرين لا تُعرف إلا في الحواضر المزهرة ، ومن أجل ذلك اتخذنا أحاجي
أبي المطهر عنوانا على قوة الحضارة في بغداد .

(١) في الأصل (القرباء) . (٢) راجع ص ١٢٠ .

(٣) وقد ورد وصف الثقل على هذا النحو أيضا في تزيين الزمان (أنظر القائمة الدياربية ص ٧٩ ، ٨٠٠ ، طبع استامبول) .

وهل يستطيع البدوى أن يفهم كيف تكون القذارة في جفنة الدباغين ، وريح القصبين ،
وطين السماكين ؟ هيهات ! فتلك وأمثالها بلايا لا يعرفها إلا الحضريون !

٦ — ومن طريف الصور ما جرى به قلمه في وصف الجمال ، وهو كأهل عصره
يتحدث عن جمال النساء وجمال الغلمان ، ففي الفن الأول يقول :

”وذكاء البغداديين ومجونهم أكثر من أن يحصى وأشهر من أن يذكر ، فما ظنك بخرعوبة
من بنات الملوك قد جمعت الذكاء مع الملاحاة ، والفطنة مع الصباحة ... قد أطر الفتاة^(١) شاربها ،
وزوى الإباء حاجبها ، ورخم ألقاظها ، وفتر النعيم الحاظها ، وأرهف الظرف أعطافها ،
وألانت النعمة أطرافها ، ولذ للراشف مقبلها ، وأغتص بالبرق مخلخلها ، وأطرد ماء النعيم
بين رياض وجنتها ، وترقرق جريال الشباب على صفحاتها ، وتورد من صبح الحياء خدها ،
وأهتز من نضارة الصبا قدها ، وشخص للطراوة نهدها ، وأرتجت من الشحم روادفها ،
وتشربت أنوار الحسن سوافها ، ثم أعيدت ساخطة على محبها ، وقد قطب التيه جبينها ،
وشمخت النخوة بعزينها ، وطفقت تعدد عليه ذنوبه بأناملها المترفة ، وتأبى قبول معاذيره
المزخرفة ، حتى إذا انتهى عاشقها في الاستكانه والخضوع ، وبلى أكامه بسوارب الدموع ،
أقرت متبسمة عن شيت الدر ، ونضحت بلطيف كلامها على ذلك الحرى والحر . ثم أقبلت
نرجستها تدمعان رحمة لعاشقها المبلى ، فترى والله حباب الدموع ، وأحمر الحجل ، ونفسا
تموت فتحبيها بزاد من القبل ، وتجشمت بعد ذلك زيارة في ملأه من الظلام ، وواقته وهو
سادر في ساعة الأحلام ، وقد سرى أمامها أرج المسك الفتيق ، وعبق الجوق منها برياً الراح
العتيق ، وأثنت متمالة وقد بل البهر غلائلها ، وفتر الأين مفاصلها ، وأرعد الوجد فرائصها ،
وغمز المشى أنماصها ، وجعلت تمتن عليه بيلماتها ، وتدعى فضل غرامها ، وتناسمه من

(١) الفتاة : طراوة السن ، قال الشاعر :

إذا عاش الفتى سبعين عاما * فقد ذهب البشاشة والفتاة

وفي الأصل (الفتاة) وهو تحريف . . (٢) الأين : التعب .

أحاديثها بما هو أقر لعينه، وأشهى الى نفسه، من طول بقاءها، وبلاغ نعمائها، تدوى بالحاظها،
وتدأى بالفاظها، تردى بمقلتها، وتحى بقبلتها... الخ^(١)

وفي الفن الثاني يقول :

”كم تشغلني يا أبله ، وتسألني عن الأباطيل ، وتقطع كلامي بما لا يفيدك؟ ما أرى والله
على رأس أحدكم غلاما نظيفا غنج الحركات ، حلو الشمائل ، خنت الأعطاف، بابل الطرف،
يمشي بخصر دقيق ، وردف ثقيل ، غنت عليه المناطق ، ودل على حسن صنعة الخالق ، خده
جلنار ، وعينه نرجس ، وشاربه زمرد ، وشفتاه مرجان أو عقيق ، ونغره دروريقه رحيق^(٢)
كأنه دينار منقوش ، أو جرعة عسل ... لو جذب عصو منه أنفطر، أرق من نسيم الهواء،
وألد من الماء بعد الظما، كأنه طاقة ريحان، أو غصن بان، أو قضيب خيزران ، أو طاقة
آس ريان، كأن جبينه هلال ، وكأن حاجبه خط بقلم، كأن عينه عينا جؤذر ، وكأن أنفه
حد سيف، وكأن وجنته النجر، أولون الراح، أو حمرة التفاح . أحسن من نور زهر الربيع
الباكر على الغصن الروي . أحسن من الروض المطور . كأن شاربه طراز بنفسج على ورد
جنى ... كأن شاربه زهر الخبز الأخضر، وعذاره طراز المسك الأذفر، على الورد الأحمر،
إذا تكلم يكشف حجاب الزمرد والعقيق ، عن الدر الأنيق ... كأن فيه حلقة خاتم، وكأن نغره
البرد، أو أخوان تحت غمامة . كأن فاه النجر، نبت فيه الدر، كان عنقه إبريق فضة ... كأنما
لبس بدنه قشور الدر، كأنه فضة قد مسها ذهب، كأن بطنه قبطية ، وساقه بردية ، وقدمه
لسان حية . كأن وجهه الشمس، وكأنه دارة القمر، وكأنه المشتري، وكأنه الزهرة، وكأنه
الدرة، وكأنه الغمامة . أطهر من الماء الزلال، وألد من معانقة الخيال، وأزهر من النار،
وأزكى من الأرض التي تنبت البنفسج، ... كالظبي الغرير، والقمر المنير، والغصن النضير،
والمهاة على الغدير... الخ“^(٣)

(١) (ص ٧٦، ٧٧) . (٢) الجللار : زهر الرمان، وهو فارسي معرب .

(٣) ص ٦٥ و ٦٦

وهذه الصورة أيضا منقولة عن معاصريه من كتاب القرن الرابع ، ودليل ذلك أنها خلت من الرباط الوثيق الذى يجمع بين أواصر الإنشاء المتين . فهى أوصاف حشرت حشرا ، ولم تكلف الكاتب إلا التقاطها من أزاهير الأسجاع ، بحيث يصعب التمييز بين مانقله وما أبدعه . وإن كنا نجد جودة القصص فى مثل قوله يصف غلام آبن عرس :

”كان اذا حضر ألقى إزاره وقال لأهل المجلس : اقترحوا وآستفتحوا ، فانى ولدكم ، بل عبدكم ، أخدمكم بغنائى ، وأساعدكم على رخصى وغلائى ، من أرادنى مرة واحدة أردته ألف مرة ، ومن أحبنى رياء أحببته إخلاصا ، ومن مات لى مت عليه . لم أبخل عليكم بحسنى وظرفى ؟ ولم أتعسر عليكم ؟ وانما خلقت لكم ! ولم أنطاول عليكم ؟ وأنا غدا مضطر اليكم ، اذا بقل وجهى ، وتدلى سبالى ، وتولى جمالى ، وتكش خدى ، وتعوج قدى . حاجتى والله اليكم غدا أشد من حاجتكم الى اليوم . لحا الله سوء الخلق ، وشراسة الطباع ، وقلة الرعاية والحفاظ ...^(١) الخ .

٧ — وقد وصف الخمر فى أما كن متفرقة من حكايته أظهرها ما جاء فى صفحة ١٠٩ وصفحة ١٣٢ وهى كذلك صفات نجدها عند معاصريه ، فلا موجب لعرضها فى هذا الفصل ، ونشير الى أننا استظرفنا وصفه للخمر بأنها ”أرق من دين أبى نواس^(٢)“ !

وهو مأخوذ من قول أبى نواس نفسه فى وصف الصهباء :

عتقت فى الدن حتى * هى فى رقة دينى

٨ — وقد يلقاك أبو المطهر بنظرات فلسفية يعلل بها غلبة المجون على الناس ، فقد وصف أحد المؤلفين فى زمانه بأنه كان اذا سمع غناء تمرغ فى التراب ، وهاج ، وأزبد ، ونعر ، وآستعر ، وعض بنانه ، وركل برجله ، ولطم وجهه ألف لكمة فى ساعة . وهنا يسأل السامرون :

(١) ص ٥٨ . (٢) وجاء فى ١٣٢ «نشاط الشراب يطوى على ما فيه من الخطأ» نشاط تحريف ، وصوابه (بساط) و «متابعة الأبطال ، ترك الشيوخ كالأطفال» والأبطال ، محرفة والصواب (الأرطال) و «ياخذ من ثقلهم ، ويضحك من عقلهم» و (ثقلهم) محرفة ، والصواب (ثقلهم) .

— يا أبا القاسم ! كل هذا يجري لسماح غناء ؟

فيقول :

— هذه صورة اذا استولت على أهل مجلس وجدت لها عدوى لا تمكك ، وغاية لا تدرك :
لأنه قل ما يخلو الانسان من صبوة ، أو صباية ، أو حمرة على فائت ، أو فكر في متنى ، أو خوف
من قطيعة ، أو رجاء لمستظر ، أو حزن على حال . فالتاس كأنهم على جديلة واحدة في هذه
الحال^(١) .

٩ — وقد عرض لفكاهات البغداديين ونواديرهم في غير موضع ، وهى فى الأكثر
فكاهات ماجة لا تحسن روايتها فى هذا الكتاب ، ولا بأس من ايراد هاتين الناديتين :
استعرض رجل جارية مليحة وتوقف عن شرائها لعرج كان بها فقالت : ان كنت تريد
جملا تحج عليه فما أصلح لك ، وان كنت تريد جارية للتعلة فالعرج لا يمنعك من ذلك^(٢) .
وقال آخر لجارية : ليتك أمسيت تحتى ! فقالت : نعم ياسيدى ، مع ثلاثة آخر^(٣) !
أى اذا كان على الجنازة .

وفى الكتاب قصص كثيرة عن مجون أهل بغداد وخلاعة مغنيهم وقيانهم ، وأوصاف
سابقة لسهراتهم ومجالس لهوهم وأنسهم . ذلك كله بأسلوب جميل جذاب يحمل الفارغين على
تشبهى اللهو والمجون . وكأنا أريد المؤلف أن يجعل تلك البقصة مرجعا لأكثر المعانى الهزلية ،
فلم يترك بابا من أبواب الدعابة إلا طرقة ، ولم يدع معنى من معانى الخلاعة إلا ألم به .
وأحسبه حشر فى كتابه أفقر ما روى من الشعر المساجن الخليج .

ولهذا النوع من التأليف قيمته على أى حال ، فهو لون من ألوان الأدب تحتاج اليه النفس
فى ساعات الملل .

١٠ — وفى الكتاب ألفاظ لا تزال حية على السنة عوام المصريين ، كقول شاعر

فى وصف ثقيل :

يا كل شيء وحيث مهول^(١) يارأس خنزير ووجه غول^(٢)
والشاهد في (شئ وحش) .

وقول آخر :

ياسفل الناس وأوباشهم من بين صفعان الى ضارط^(٣)
والشاهد في (أوباش) وهي مقلوبة عن (أوشاب) .

وقول أبي القاسم :

”ياسفل العالم ! اذا أسكرتموني فمن يزني حينئذ بأمر هذا الديوث الذي أنا في داره“ .
وقول شاعر :

ويك ستي كلميني قبل أن أبصر مثله^(٤)

وعوام المصريين يقولون : ”فلان عليه حمة لسان“ يعنون أن له لسانا طويلا ، أى
ثرثارا . ومثل هذا التعبير ورد في بيت ماجن تقبح روايته في مثل هذا الكتاب .

١١ — وجملته القول ان كتاب أبي المطهر الأزدى سخيف ، ولكنه مع سخفه ظريف ،
والمؤلف خليق بأن يوصف بما رواه لأحد الشعراء :

شيخٌ سخيفٌ ولكن يأتى بسخيفٍ مليح

وهناك قصيدة رائية لأبي دلف الخزر جى من شعراء القرن الرابع اسمها القصيدة
الساسانية^(٥) وهي في الشعر حكاية أبي القاسم في النثر كلتاها تصف أخلاق الأوباش وتحكى
الفاظهم . ومراجعة هذين الأثرين مفيدة لمن يعنيه أن يعرف ما أهملت المعاجم من ألفاظ
الجماهير السوقية . وبكل مدينة أحياء ماجة لتفرد بالفاظ وتعاير تمثل ما فيها من شواذ
الأخلاق ، وفي القاهرة اليوم ناس يسمون (أولاد البلد) لهم كتابات وإشارات لا يفهمها
الخواص ، كالذى يقع لأهل (Belleville) من أحياء باريس .

(٣) ص ١٢٦

(٢) ص ١٢٤

(١) ص ١١٩

(٤) تجد هذه القصيدة مشروحة في قيمة الدرّج ٣ ص ١٧٦ — ١٩٢

(١)

الفهرس المفصل

نقد النثر الفنى

صفحة	صفحة
الرسائل والخطب فن واحد أو فنان	غاية النقاد بالشعر وأنصرفهم عن النثر... ١٧
٢٣ متقاربان	كيف شغل النقاد بنثر القرآن ... ١٧
٢٥ الموضوعات هى التى تحدّد الصياغة الفنية	طائفة من الكتب الخاصة بالنثر ونقده... ١٨، ١٧
نقد رأى الميسور مرسيه فى فهم خطاب	الموازنة بين الشعراء والكتاب... ١٨
٢٥ معاوية	مظاهر إيثار الشعر على النثر فى البيئات
الجمع بين الشعر والنثر وفقا لموجبات	العريضة ١٩
٢٥ المعانى والأغراض	المفاضلة بين الشعر والنثر... ١٩
كلمة جاسمة فيما يصلح للشعر وما يصلح	نقد رأى الثعالبي ٢٠، ١٩
للنثر... ..	رأى ابن المعدل فى حياة الشعراء... ٢٠
٢٦ غلبة الشعر على كتاب القرن الرابع	وصية أبى تمام للبحترى ودلالاتها على
نماذج من شعر الصاحب وأبن العميد	'أحوال الشعراء النفسية ... ٢١
٢٧ وبديع الزمان	رسالة الشاعر الى العالم ... ٢١
٢٨، ٢٧ نقد رأى القلقشندي... ..	نقد رأى ابن رشيق ٢٢، ٢١
٢٩ خلاصة القول فى الشعر والنثر... ..	أثر النزعة الشخصية فى أحكام النقاد ... ٢٣، ٢٢
٢٩ دواعى الشعر لا تزال تترخ بها الحياة	نقد رأى أبى هلال العسكري... .. ٢٤، ٢٣
٣٠ الغرض من تأليف هذا الكتاب	

(١) ليس الغرض من هذا الفهرس استقصاء موضوعات الكتاب، ولكن الغرض إرشاد القارئ الى أهم الموضوعات التى عرض لها المؤلف بالنقد والتحليل.

الباب الأول

تطور النثر من عصر النبوة الى القرن الرابع

صفحة

١ - النثر الجاهلي

هل كان للعرب ترفى في عصور

الجاهلية ؟ ٣٣

نقد رأى الأستاذ خليل مطران ... ٣٣

نقد رأى المسيو مرسيه والدكتور طه

حسين ٣٣

خطب أهل الجاهلية ٣٤

كان للجاهليين ترفى ولكنه ضاع ... ٣٤

نقد حديث خنافر الحميرى ٣٥

خطبة قس بن ساعدة موضوعة ٣٥، ٣٦

خطب وفود العرب عند كسرى موضوعة ٣٦

هل كان كسرى يتكلم العربية ؟ وهل

كان عند النعمان ديوان إنشاء ؟ ... ٣٧، ٣٨

المحاورات المنسوبة الى أهل الجاهلية ... ٣٧

ما حفظ من الشعر أكثر جداً مما حفظ

من النثر ٣٧

ضياح خطب الاسلاميين أنفسهم لقلة

التدوين ٣٧

القرآن من شواهد البلاغة الجاهلية ... ٣٨

خطا المسيو مرسيه والدكتور طه في دعواهم

أن ابن المقفع أول كاتب في اللغة

العربية ٣٨

خطا من ظن أن القرآن لا هو شعر ولا

هو نثر ٣٨

صفحة

أين نضع القرآن من عهود النثر في اللغة

العربية ؟ ٣٩

سر اللغة هو في طريقة الأداء لا في أعيان

الألفاظ ٣٩

عرض القرآن لما كان في عصره من

المعضلات العقلية والاجتماعية والروحية ٤٠

ليس القرآن مجموعة أناشيد ومزامير يرتلها

المسلمون وإن أشتمل على سور قصيرة

مسيجوعة للدعاء والابتهال ٤٠

خلق القرآن من الشعر الموزون ٤١

نظام الآيات يخالف نظام النثر المرسل

ونظام السجع ٤١

القرآن يسوق القصص وقد يكرر القصة

الواحدة ٤١

تبتدى بعض السور بألفاظ غير مفهومة

اختلف في تأويلها المفسرون ٤١

رأى المسيو بلانشو في فواتح السور القرآنية

نظم القرآن نظماً غائياً وكان ترتيبه ملحوظاً

في أوضاعه الثرية ٤٢

القرآن لا يلتزم السجع ٤٢

الابتداء بالبسملة ٤٢

الأسلوب يختلف بين السور المكية والمدنية

تصوير القرآن لما كان يعرف الجاهليون

من الحقائق الأدبية والاجتماعية والدينية ٤٢

كان للعرب ثمر فني قبل أن يتصلوا بالفرس
واليونان ٤٣

٢ - نشأة النثر الفني

يرى المسيو مرسيه أن الزخرف الفني
وصل الى العرب من الفرس ويرى
الدكتور طه أنه وصل اليهم من
اليونان، وهذه مدرسة قديمة ترجع
الى رينان ٤٤
تأثر العرب بالفرس في حياتهم الأدبية ... ٤٥
القرآن يفيض بالصنعة والزخرف ... ٤٥
من الواجب أن يجعل ميدان النضال
عصر النبوة لا العصر العباسي ... ٤٥
كيف يتعذر في الوقت الحاضر درس
القرآن دراسة تحليلية ... ٤٥
القرآن أثر عربي صرف لم يتأثر بالفرس
ولا باليونان ٤٦
الزخرف طابع أصيل في اللغة العربية ... ٤٧
هل كانت اللغة الأدبية التي سبقت
الاسلام تخالف كثيراً لغة القرآن ... ٤٧
نشأة العلوم العربية ٤٧
كان البدع موجوداً وتطور على السنة
الشعراء ٤٨
لم يكن العرب أميين بالدرجة التي يصورهم
بها أكثر الباحثين ٤٨
كان الجاهليون يعرفون النقد الأدبي ... ٤٨
كان الاسلام تاجاً لنهضة علمية وأدبية
وسياسية وأخلاقية واجتماعية وفلسفية ٤٨٤٤٨

الحياة الأدبية والاجتماعية لعهد النبي لم
تصور بصورتها الحقيقية الى الآن ... ٤٩
كيف ضاعت آثار الوثنيين والنصارى
واليهود ٥٠، ٤٩
كيف ضاعت آثار حزب المعارضة لعهد
الرسول ٥٠
ضياح أكثر آثار النبي وأصحابه ... ٥٠
كان للعرب في عصر النبوة أدب يمثل
طوبى التحول والانتقال ٥٠
كان للعرب أدب يقرب في أسلوبه
وروحه من أسلوب القرآن وروحه ٥١
تسمية العصر الذي سبق القرآن «بالجاهلي»
تسمية دينية فقط، وإلا فهو عهد
معرفة ونور ٥١
كيف استمسك العرب المسلمون بأهداب
الأدب الجاهلي وعدوه وحده المرجع
في ضبط أساليب اللغة العربية ... ٥١
كيف كان الأدب الجاهلي يصنع ويباع
في الأسواق ٥١
الجاهليون في رأينا هم سكان الحواضر،
وكانت لهم آداب وعلوم وفنون ... ٥١
الأدب الجاهلي لم يضع إلا عند المتأخرين
في المكاتب الشرقية والغربية آثار جاهلية
لم تدرس الى اليوم ٥٣
كيف وآد المسلمون بعض آيات الأدب
الجاهلي ٥٤، ٥٣
تشاؤم الخلفاء من رواية طائفة من الأدب
الجاهلي ٥٤

صفحة	
٦٠	تقد رأى الأستاذ أحمد الزيات
٦٠	عبد الحميد بن يحيى أول من نقل تقاليد
٦٠	القرس الى الكتابة العربية
٦٠	هل كانت شخصية عبد الحميد بن يحيى
٦٠	خرافية؟
٦١	السجع لم يلتزم في النثر الاسلامى
٦١	جهد واصل بن عطاء ودلالته على
٦١	إجادتهم للنثر
٦١	اهتمام الكتاب ببسط المعانى وتأكيدها
٦١	رسالة الحسن البصرى الى عمر بن
٦١	عبد العزيز
٦٢	مشاورة المهدي لأهل بيته
٦٢	نقد أسلوب الجاحظ
٦٣	الخيال فى كلام الخطباء والكتاب

٤ - أطوار السجع

٦٤	خطأ المسيو مرسيه والدكتور طه حسين
٦٤	السجع من مميزات البلاغة الفطرية ...
٦٥	شواهد من السجع فى اللغة الفرنسية ...
٦٥	شواهد من السجع فى أسماء الشهور عند
٦٥	الفرنسيين والمصريين
٦٥	السجع من خصائص اللغة القرآنية ...
٦٥	تشابه صور الترتيل عند المسلمين
٦٦	والنصارى واليهود
٦٧	أمثلة من سجع القرآن
٦٨	السجع فى الأحاديث النبوية
٦٨	السجع فى خطب الخلفاء

صفحة

٥٤	شاهد من الأدب المصرى الحديث الذى
٥٤	تناساه الناس عامدين
٥٤	ليس أبو الأسود أول من وضع النحو
٥٤	كما ينتقد الأزهريون. وليس النحو
٥٤	أثر من اتصال العرب بالسريان والروم
٥٥	كما يظن المستشرقون
٥٦	رأى ابن فارس فى قدم العروض
٥٦	رايه فى معرفة القدماء بأصول التصريف
٥٦	ليس ابن المعتز أول من وضع علم البديع
٥٦	٣ - النثر الفنى فى العصر الاسلامى
٥٧	كيف أيقظ الاسلام العرب وأحيا أدبهم
٥٧	الخلاف بين المهاجرين والأنصار وقيام
٥٧	الأحزاب لسياسة أثرا فى النهضة النثرية
٥٧	عمق النثر بفضل اتصال العرب بالأئمة
٥٧	الأجنبية
٥٧	حرص أمراء العرب على تربية أبنائهم
٥٨	تربية بدوية
٥٨	كيف كان النبي وأصحابه يتبدئون الرسائل
٥٨	أثر القرآن فى إحياء البلاغة العربية ومناقشة
٥٨	رأى المسيو مرسيه فى دعوى تجنب
٥٨	العرب محاكاة القرآن
٥٨	الايجاز والإطناب ومراعاة ظروف
٥٩	الخطاب
٥٩	لم يكن الكتاب والخطباء جميعا موفقين
٥٩	الى ترك الفضول
٥٩	رأى ابن قتيبة فى الايجاز والاطناب ...
٦٠	كتاب يزيد بن الوليد

صفحة		صفحة	
٨١	رسالة كلثوم بن عمرو العنابي ...	٦٩	نقد رأى المسيو ديومبين في نهج البلاغة
٨١	ظهور السجع في الكتابة والتأليف ...	٦٩	رسالة على اسان عمر يخاطب بها أبا عبيدة
٨١	كتاب في ذم أحمد بن الخصيب ...	٧٠	السجع في خطب خلفاء بني أمية ...
٨٢	كلمة ابن المعتز في مدح مدينة سر من رأى وذم مدينة بغداد ...	٧٠	السجع في لغة الزهاد والنسك في العصر الأموي ...
٨٣، ٨٢	شواهد من كلامه المسجوع ...		نقد ما رأى المسيو مرسية من كراهة
٨٣	السجع في عناوين فصول كتاب الزهرة	٧١	معاوية للسجع ...
٨٤	السجع في عناوين الكتب ...	٧١	ابن المقفع كان يسجع، وكذلك عبد الحميد
٨٤	السجع في بعض كتب ابن المقفع ...	٧٢	شاهدان من نثر عبد الحميد ...
٨٥	السجع في عناوين كتاب الموشى ...	٧٢	شاهد من الكلام الموزون عند ابن المقفع
٨٥	شاهد من سجع الوشاء في كتابه ...	٧٣، ٧٢	ميل الأذواق العربية الى إيثار السجع ...
٨٦، ٨٥	أشجع على فصوص الخواتم ...		ما وضع من الأحاديث على السنة
٨٦	السجع في الغزل والوصف والهجاء ...	٧٣	الأعراب ...
٨٦، ٨٦	السجع في كلام الجاحظ ...	٧٤	الترام السجع في وصايا الآباء للأبناء ...
٨٧	ما هو المزدوج ...	٧٤	وصية عبد الله بن شداد وعلقة بن ليلى
٨٨	دفاع الجاحظ عن السجع ...	٧٤	زعماء الوافدين على الخلفاء يؤثرون السجع
٨٩	الحقائق المستخلصة من كلام الجاحظ ...	٧٤	العجاج في حضرة عبد الملك بن مروان
٩٠، ٨٩	رأى الحفاجى في السجع ...		صعصعة بن صوحان في حضرة معاوية
	القرآن أنزل بلغة العرب وعلى عرفهم	٧٦، ٧٥	ابن أبى سفيان ...
٩١	وعادتهم ...	٧٧	كان السجع من وسائل العفاة والمجتدين
	شاهد مسجوع من كلام قطرى بن	٧٨	بدیع الزمان اقتبس طريقة السائلين ...
٩١	الفجاء وآخر خطيب من آل صوحان	٧٩	أعرابي يلاحى أحد الفتيان ...
٩٢	كان الكلام يوضع على السنة الرواة مسجوعا ...	٧٩	أعرابي وقف على قوم فنعوه ...
٩٣، ٩٢	دفاع أبى هلال العسكري عن السجع ...	٨٠	رأى الرقاشى في إيثار السجع ...
	رأى الحريرى في الإتياع، وشيء من		خطا صاحب (الريحان والريحان) في الخلط
٩٣	شواهد في اللغة العامية عند المصريين	٨٠	بين الخطب والموزون ...

صفحة	السجع في بعض ما ترجم المتقدمون من	صفحة	السجع في الشعر وهو التصريح ٩٤
٩٩	الفارسية واليونانية والعبرية ٩٩	٩٥	دفاع ابن الأثير عن السجع ٩٥
١٠٠	درس السجع ضروري في بناء هذا الكتاب	٩٦	السجع من أسرار الإعجاز في القرآن ... ٩٦
	السجع يعطل حركة الفكر والعقل في كثير		القرآن لا يكاد شيء يخرج منه عن السجع
١٠٠	من الأحيان ١٠٠	٩٦	والموازنة ٩٦
١٠١	السجع في العصر الحاضر ١٠١	٩٦	هل كان عصر الجاحظ بريئا من السجع؟ ٩٦
	رأى ابن أبي الحديد ورأى شوقي	٩٧	شواهد من سجع الجاحظ ٩٧
١٠٢	في السجع ١٠٢	٩٧	رأى قدامة بن جعفر في السجع ٩٧
		٩٨	رأيه في سجع أهل القرن الرابع ٩٨

الباب الثاني

خصائص النثر في القرن الرابع

٢ - السجع والازدواج

١١٣	طرائق الكتاب في إثارة السجع والازدواج
١١٤، ١١٣	الطائفة التي تلتزم السجع ١١٤، ١١٣
١١٥، ١١٤	شواهد من سجع الصحاب وابن العميد ... ١١٥، ١١٤
٢١٥	التوحيدى يمزج بين السجع والمزاوجة ٢١٥
	شاهد مطول من نثره في وصف نكبة
١١٦-١٢١	أبى الفتح بن العميد ١١٦-١٢١
١٢١	تحليل بعض فقرات هذه الرسالة الطويلة ١٢١
١٢١	أسلوب الشريف الرضى ١٢١
١٢٢	أسلوب أحمد بن عبد ربه ١٢٢
	حرية النثر عند ابن مسكويه وإخوان
١٢٢	الصفاء ١٢٢
	موازنة بين أسلوب التوحيدى
١٢٣	وإبن مسكويه ١٢٣
١٣٤	شاهد من نثر ابن مسكويه ١٣٤

١ - خصائص نثرية

١٠٥	هل في القرن الرابع خصائص نثرية ... ١٠٥
١٠٥	إثارة البديع ١٠٥
١٠٦	الترام السجع في جميع الرسائل حتى المطولة ١٠٦
	تضمين الرسائل أطايب الشعر ومختار
١٠٦	الأمثال ١٠٦
	الكتابة في الموضوعات التي كانت خاصة
	بالشعر كالغزل والمدح والمجاء والفخر
١٠٧	والوصف ١٠٧
١٠٧	رسالة بديع الزمان في ذم أحد القضاة ... ١٠٧
	رسالته الى شاب عاد يستميل فؤاده بعد
١٠٩	أن عزل وضاع صباه ١٠٩
١١٠	عدم التقيد بصيغة خاصة في بداية الكتب ١١٠
١١١	شواهد مختلفة ١١١
	خصائص النثر في القرن الرابع ليست إلا
١١٢	فنونا تطورت على الزمان ١١٢

صفحة	صفحة
٥ - التسيب	شاهد من نثر إخوان الصفا في وصف الرسول ١٢٤
النسيب فن قديم وجدت منه شواهد	١٢٥
في القرآن	ابن خزم والفارابي والاشارة الى الفرق
١٤٧	بين الكتابة العلمية والكتابة الأدبية ... ١٢٥
القصص الغرامى فى عصر بنى أمية	٣ - تصوير الحياة العقلية
وبنى العباسى	قوة حزب الشيعة ورسالة الخوارزمى
١٤٨	فى مناصرتهم ١٢٦
أقصوصة غرامية	تفسير أمثال هذه الرسالة لغوامض التاريخ ١٢٧
وصف المخطوبات	اختلاف الفرس والعرب ١٢٧
١٤٩	تصوير الكتاب لنعيم العقل والحواس ... ١٢٨
وصف الهوى والنساء	رأى الثعالبي وآبن قتيبة فى الأدب
١٥٠	المكشوف ١٢٩
رسالة تشييب حدث بها مخارق المغنى ... ١٥١	خصومات الكتاب ١٢٩
وصف أبى العتاهية لمخارق ١٥١	رسالة بديع الزمان الى أبى نصر بن المرزبان
كلمات غزلية لعل بن عبيدة الريحاني ... ١٥٢	الخصومة بين الحمداني والخوارزمى ... ١٣٠
رسالة تشييب كتبها إسحاق بن إبراهيم	خصومة التوحيدى لابن عباد وآبن العميد ١٣١
الموصلى ١٥٢	٤ - الفكاهات
كتاب غلام من ولد أنوشروان الى رفيق	الفكاهة فن قديم أزدهر فى القرن الرابع ١٣٢
له بالديوان ١٥٣	تحليل المقامة الشامية ١٣٢
جواب ذلك الرفيق ١٥٤	تحليل المقامة المضيرية ١٣٣
كتاب شوق أرسله الجاحظ الى أبى المدبر	وصف حمل هنزيل لأبى الخطاب
كتاب حب أرسلته معشوقة لابن المعتز	الصايبى ١٤٠
وجواب أبى المعتز على ذلك الخطاب ١٥٦	أبو إسحاق الصايبى يعزى عن ثور
كتاب شوق لابن العميد ١٥٧	أبيض ١٤١
خطاب وجد لقابوس بن وشمكير ... ١٥٧	عهد الطفل للصايبى ١٤٢
فقرات فى محاسن النساء والغلمان ... ١٥٨	
خطاب المذكر أسهل من خطاب المؤنث	
فى توجيه الضمائر والإشارات ... ١٦٠	
غزل المذكر نوع من الثورة على التقاليد	
الأدبية ١٦١	

منحة

٨ - المبتذل والطريف

- ١٨٠ ... ما هو المبتذل وما هو الطريف ؟ ...
- ١٨٠ ... رأى المسيو ديمومين ...
- ١٨٠ ... توجد المبتذلات في جميع اللغات ...
- ١٨١ ... نماذج من المبتذلات (الكليشيات) ...
- ١٨٢ ... تعابير مبتذلة لسبب غير كثرة الاستعمال ...
- ١٨٣ ... انتقال المبتذلات من عصر الى عصر ...
- ١٨٣ ... تعابير تحيا على السنة أصحابها فقط ...
- ١٨٤ ... أنواع المبتذلات ...
- ١٨٤ ... في اللغة العربية تعابير تفيض قوة وحياة
- ١٨٥ ... ولكن أنصرف عنها الكتاب ...
- ١٨٥ ... تعابير توجهها الضرورة اللغوية وتحببها
- ١٨٦ ... الصور الفنية ...
- ١٨٦ ... «الكليشية» لا يوجد في اللغة العربية إلا
- ١٨٧ ... قليلا ...
- ١٨٨-١٩١ ... نماذج من التعابير الحية ...
- ١٩١ ... كلام سعيد بن حميد وتوفيق البكري ...
- ١٩٢ ... إحياء الصور القديمة يزيد اللغة قوة ...
- ١٩٢ ... رأى أبي العلاء في حلاوة القرآن ...
- ١٩٢ ... البلاغة كالموسيقا يزيد بها التكرار قربا من
- ١٩٢ ... النفس ...
- ١٩٢ ... عناية كتاب القرن الرابع بخلق أنصار من
- ١٩٣ ... الخواص ...

منحة

رد الفعل لهذه التزعة عند كتاب العصر

- ١٦١ ... الحاضر ...
- ١٧٢ ... موقفنا موقف المؤرخ للظواهر الأدبية ...
- ## ٦ - الاخوانيات
- ١٦٣ ... قدم هذا الفن في اللغة العربية ...
- ١٦٦-١٦٣ ... فقرات من الاخوانيات ...
- ٢٦٦ ... انتهاب كتاب القرن الرابع لمعاني المتقدمين ...
- ١٦٦-١٦٦ ... الاخوانيات عند التوحيدى ...
- ٧٧٠-٧٦٩ ... الاخوانيات عند بدیع الزمان ...
- ١٧٠ ... الاخوانيات عند العتيبي ...

٧ - الوصف

- موضوعات الوصف عند كتاب القرن
- ١٧١ ... الرابع ...
- ١٧٢ ... فقرات مختلفة في الأوصاف ...
- ١٧٣ ... إغارة توفيق البكري على كتاب القرن الرابع
- ١٧٤ ... إغارة كتاب القرن الرابع على معاني من
- ١٧٤ ... سبقهم من الكتاب والشعراء ...
- ١٧٧ ... نظرية الفن للفن ...
- ١٧٥ ... فهم المعاصرين لفن القرن الرابع ...
- ١٧٥-١٧٨ ... صور فنية على السنة أرباب الصناعات ...
- ١٧٨ ... وصف البلاغة ...
- ١٧٩ ... قيمة الزخرف عند كتاب القرن الرابع ...

الباب الثالث

كتاب الأخبار والأقاصيص

صفحة	
٢١٩-٢١٦ ...	الغاز شعرية
٢٢٠، ٢١٩ ...	القدماء والمحدثون من الشعراء
٢٢١ ...	رأى بديع الزمان في آراء المعتزلة ...
٢٢٢ ...	المجون في بغداد ...
٢٢٣ ...	فكاهة الحمام ...
٢٢٤ ...	نصائح بديع الزمان ...
٢٢٦، ٢٢٥ ...	أخلاق بديع الزمان في مقاماته ...
٢٢٦ ...	أهمية المقامات ...
	٣ - أحاديث ابن دريد
٢٢٧ ...	حياة ابن دريد وشاعريته ...
٢٢٨ ...	حياته في بيته ونظرته الى المحاسن المعنوية
٢٢٩ ...	خفة روحه وحلاوة نكته ...
٢٢٩ ...	جراته في بيته ودرسه ...
٢٣٠ ...	أحاديثه القصصية ...
٢٣١ ...	ظرفه في تصوير حج أبي نواس ...
٢٣٢، ٢٣١ ...	اهتمامه بتصوير الشائل العربية ...
٢٣٢ ...	تصويره لشجعان العرب وأجوادهم ...
٢٣٢ ...	وصفه لأعيان الجاهلية ...
٢٣٣ ...	حديث المرأة التي عاشت بجوار قبور أهلها
	٤ - روايات الأغاني
٢٣٤ ...	حياة الأصفهاني ...
٢٣٤ ...	أثر أخلاقه الشخصية في أعماله الأدبية ...

صفحة	
	١ - المقامات
١٩٧ ...	القصص في البيئات العربية ...
	هل كان بديع الزمان هو المنشئ الأول
١٩٨ ...	لفن المقامات ...
١٧٧ ...	رأى الحريري ...
١٩٩، ١٩٨ ...	ابن دريد هو مبتكر هذا الفن ...
٢٠٠ ...	أحاديث ابن دريد ...
٢٠١ ...	ماهى المقامات في كلام ابن المدبر ...
٣٠١ ...	طريقة ابن دريد وطريقة بديع الزمان ...
٢٠٢ ...	مقامات ابن نباتة السعدي ...
٢٠٢ ...	مقامات الحريري ...
٢٠٢ ...	فن بديع الزمان وفن الحريري في المقامات
٢٠٣، ٢٠٢ ...	شيوخ هذا الفن في الأقطار العربية ...
	انتقال هذا الفن الى الفارسية والعبرية
٢٠٣ ...	والسريانية ...
٢٠٤ ...	فن المقامة غير فن القصص ...
٢٠٥ ...	أهمية ابتداع بديع الزمان ...
	٢ - مقامات بديع الزمان
٢٠٦ ...	كانت مقاماته خمسين ولم تكن أربعائة
٢٠٦ ...	شواهد من المقامات ...
٢٠٩ ...	وقوف بديع الزمان عند شخصية واحدة ...
٢٠٩ ...	شغفه برسم السوءات ...
٢١٦-٢١١ ...	الوصف في مقامات بديع الزمان ...

صفحة	مقنة
٢٥٢ ... ما نقله ابن دريد عن السجستاني ...	٢٣٥ ... تعقبه هفوت الشعراء ...
... حديث عامر بن الظرب العدواني وحمة	٢٣٥ ... مبعج كتاب الأغانى ...
٢٥٢ ... ابن رافع الدوسي ...	٢٣٦ ... موضح من أخبار ابن أبي ربيعة ...
٢٥٢ ... هل كان الجاهليون يفكرون فى البلاغة ؟	... احتفاء الأصفهاني بأخوانه الطريفة من
٦ - حكايات ابن الأنبارى	٢٣٧ ... الأخبار ...
٢٥٤ ... هل كان ابن الأنبارى يضع القصص ؟	٢٣٧-٢٤٠ ... قصص ابن أبي ربيعة ...
... قصة السفينة الذى كان يجمع بين الرجال	٢٤١ ... نقد الأصفهاني لبعض الأخبار ...
٢٥٤ ... والنساء فى مكة وعرفات أخبار ابن أبي ربيعة وضعت تفسير
... لغة ابن الأنبارى ...	٢٤١ ... لتعمره ...
٢٥٥ ... قصة سوار ...	٢٤٢ ... لم يخترع الأصفهاني كل أحداث عمر
٧ - التوابع والزوابع	... أقاصيص من حياة الأصفهاني
٢٥٨ ... معنى التوابع والزوابع ...	٢٤٣-٢٤٥ ... الشخصية ...
٢٥٨ ... رأى الدكتور أحمد ضيف ...	٥ - أخبار ابن دريد
٢٥٩ ... متى كتبت رسالة التوابع من هو عبد الرحمن بن أخى الأصمى ...
٢٦٠ ... التشابه بين رسالة التوابع ورسالة الغفران	٢٤٧ ... اختلاق ابن دريد ...
٢٦١ ... مطامع الرسالة والاتصال بزهير بن نمير الجنى	... بعض النواحي العقلية من ابن دريد ...
١٦٢ ... هل كان الخطباء والكتاب شياطين ؟	٢٤٨ ... قصة لقمان بن عاد ...
٢٦٢ ... شعر البغال والخمير فى عالم الجن ...	٢٤٩ ... حكايات ابن خالويه ...
٢٦٣ ... حكم ابن شهيد بين بغل وحمار روح العصر ...
٢٦٤ ... بغلة أبى عيسى ...	٢٤٩ ... أبو عمر الزاهد وتلقياته ...
٢٦٤ ... فهم ابن شهيد لعالم الطير تحليل أخبار ابن دريد ...
٢٦٤ ... وصف الأوزة ...	٢٥٠ ... وصف الزوج المنشود ...
٢٦٥ ... ملاحة الأوزة لابن شهيد الأخبار العليسية ...
٢٦٥ ... مذهب الجاحظ فى الكتابة ...	٢٥١ ... قصة الفتى العاشق ...
... رأى ابن شهيد فى أهل الأندلس تعليل الكلمة التى قالها عبيد بن الأبرص
٢٦٥-٢٦٦ ... وهو مختصر ...	٢٥٢ ... وهو مختصر ...

٩ - أخبار التوحيدى

- ٢٨١ ما هو عمل التوحيدى فى الأفاضيص ...
٢٨١ نقل فلسفة اليونان عن اللغة السريانية
٢٨١ محصول العرب من الوجهة الفلسفية ...
٢٨٢ واضح حديث السقيفة ...
٢٨٣ خلاصة هذا الحديث ...
٢٨٤ بوارى الشر الذى كان يهدد كان المسلمين

١٠ - قصص الببغا

- ٢٨٦ طرف من حياته ...
٢٨٦ القصص الغرامى عند العرب ...
٢٩٣-٢٨٦ قصة طريفة فيها قليل من المجون ...

١١ - أحمد بن يوسف المصرى

- ٢٩٦-٢٩٤ رأى مؤلف هذا الكتاب فى أسرار البلاغة
٢٩٧ كتاب المكافأة ...
٢٩٨ للصوص الشرفاء ...
٢٩٩ أسلوب أحمد بن يوسف ...
٣٠٠ نموذج من دقة الإشارة ...
٣٠١-٣٠٠ قصة الفتاة الدمية التى تزوجت من رجل كريم ...

- ٣٠٢ تعابير جيدة ...
٣٠٣ بعض المأخذ فى أسلوب ابن يوسف ...
٣٠٦ تعابير مصرية ...
٣٠٦ السر فى فصاحة الكلمات ...
٣٠٧ الغرض الذى وضع لأجله كتاب المكافأة ...
٣٠٨ أقسام الكتاب ...

- ٢٦٦ كان ابن شهيد مبتلى بمحمد معاصريه ...
٢٦٧ غرام ابن شهيد بمعارضة كتاب المشرق
٢٦٧ اصطدامه بشيطان أنف الناقة ...
٢٦٨ زهو ابن شهيد ...
٢٦٨ رأيه فى البيان ...
٢٦٩ رأيه فى شعره ...

٨ - الانسان والحيوان أمام محكمة الجن

- ٢٧١ تأثر كاتب الرسالة بكتاب كليله ودمنة ...
٢٧١ قصة الخوصومة بين الانسان والحيوان ...
٢٧٢ وصف جزيرة صاغون ...
٢٧٣ روح الفكاهة فى الرسالة ...
٢٧٤ تأثر الكاتب بنظرية المثال ...
٢٧٤ أوصاف حسية وعقلية لمختلف الشعوب
زعماء الوفود يصفون أمهم وينقدهم
وزير الجن ...
٢٧٦ تعابير تعين أذواق الشعوب ...
اللغة العربية لم تسد سيادة تامة فى أرض فارس ...
٢٧٧ الطبيعة يأكل بعضها بعضا ...
٢٧٧ النقل بالعربات ...
٢٧٧ التشابه بين الكلب والانسان ...
٢٧٩ أصل العداوة بين الإنسان والجن ...
٢٨٠ دور القران ...
٢٨٠ السبب فى كثرة الملوك عند الانس ...
٢٨٠ نتيجة المحاكاة بين الانسان والجن ...

صفحة	صفحة
٣٣٤ ... القاضي أبو يوسف وعنف زوجته ...	٣١٠ ... المحن والشدائد من أجل ما بهب الله ...
٣٣٥ ... أبو يوسف عند الرشيد ...	٣١٠ ... قوة العقيدة ...
٣٣٥ ... تسيب القضاة ...	فصل كتاب المكة في مؤلف هذا
٣٣٦ ... صلة ابن المدبر بعريب ...	٤١١ ... الكتاب ...
٣٣٧ ... بين عريب و ابراهيم بن المدبر ...	١٢ - عبد الله بن عبد الكريم
٣٣٧ ... الغناء عند المسلمين ...	شخصيته ...
١٤ - حكاية أبي القاسم البغدادى	قصة وقعت في قصر ابن طولون ... ٣١٢-٣١٤
٣٣٨ ... حياة أبي المطهر الأزدي ...	١٣ - المحسن التنوخي
٣٣٩ ... الغرض من هذه القصة ...	نشوار المحاضرة ...
٣٣٩ ... شخصية أبي القاسم البغدادى وشخصية	٣١٦ ... موضوع هذا الكتاب وما حذف منه ...
٣٣٩ ... أبي الفتح الاسكندري ...	٣١٧ ... أهمية هذا الكتاب ...
٣٣٩ ... منهج أبي المطهر في قصته ...	قوة الحس ودقة الملاحظة وخصب اللغة
٣٤٠ ... حكاية شمائل العميان والحيوانات ...	عند التنوخي ...
٣٤١ ... وصف المحبون في بغداد ...	٣١٩ ... المتقدمون لم يتفردوا بالابداع ...
٤٤١ ... ألفاظ السباحة والملاحين ...	٣٢٠ ... ثورة التنوخي على أمراء عصره ...
٣٤٢ ... أسماء الشوارع في أصبهان ...	٣٢١ ... الوقت الذي وضع فيه كتاب النشوار ...
٣٤٥-٣٤٢ ... صورة فنية في وصف متافق ...	٣٢٢ ... طريقة التنوخي في التأليف ...
٣٤٥ ... وصف الثقيل ...	٣٢٣ ... نقل آداب الناس ...
٣٤٦ ... موازنة قصيرة بين رسالة أبي المطهر	٣٢٤ ... درس النفوس ...
٣٤٦ ... ورسالة الخوارزمي ...	٣٢٤ ... لغة المؤلف ...
٣٤٧ ... وصف جمال النساء ...	٣٢٥ ... خطاب من ثر المؤلف ...
٣٤٨ ... وصف جمال الغلمان ...	٣٢٦ ... تعابير جميلة ...
٣٤٩ ... وصف غلام ماجن ...	٣٣٠-٣٢٧ ... كلمات حية ...
٣٤٩ ... تحليل المحبون ...	٣٣١ ... نقد طباع الناس ...
٣٥٠ ... فكاهات البغداديين ...	٣٣١ ... قرد يفهم فكرة الخير والشر ...
٣٥١ ... تعابير بغدادية تحيا في مصر ...	٣٣٢ ... بابك الخرمي وقوة النفس ...
٣٥١ ... رأي الخرجي في ألفاظ الماجنين من	٣٣٣ ... أريحية الوزراء ...
٣٥١ ... أو باش بغداد ...	٣٣٤ ... شيوع الرشوة عند الحكام الأقدمين ...

تصحیحات^(١)

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٧٧	٦	القول	القول
٨١	١٤	من عمك غيره	من عمك خيره
٨٣	١٧	من اغتفر	من اغتفر
٨٤	١	خطيرة	حظيرة
٩٧	١٩	عبوب	عيوب
١٠١	٢٣	ولن يصيرها	ولن يضيرها
١٢٠	١٢	كتابه	كاتبه
١٣٩	٦	يعلق	يعلق
١٥٦	٧	أتى	انى
٢١٣	٢١	كوته	كوته
٣٠٧	١٣	في كل غير	في كل خير

(١) صحح هذا الكتاب بعناية شديدة . ولكن ذلك لم يصل به الى العصمة من الخطأ ، وقد رأينا تصحيح ما رأيناه من الأغلاط . وإن كنا على ثقة من أن القارئ الفطن لن يغيب عنه المعنى لكلمة ينقصها إجماع أو يشوبها تحريف . وقد نظرنا في الجزء الثاني فلم نجد فيه إلا أغلاطا يسيرة جدا يدركها القارئ بدون توقف ، فلم نر موحجا لاثباتها هناك .



كَمَّلَ طبع الجزء الأول من كتاب "النثر الفني في القرن الرابع"

بمطبعة دار الكتب المصرية في يوم الخميس ١٦ شوال سنة ١٣٥٢

(أول فبراير سنة ١٩٣٤) محمد نديم

ملاحظ المطبعة بدار الكتب المصرية

الأخلاق عند الغزالي

قُدِّمَ هذا الكتاب الى الجامعة المصرية ، ونوقش أمام الجمهور في ١٥ مايو سنة ١٩٢٤ ونال به المؤلف شهادة العالمية بدرجة « جيد جدًا » ولقب دكتور في الآداب .

يقع هذا الكتاب في ٤٣٤ صفحة ، وبه كثير من الرسوم التاريخية التي تمثل طائفة من المعالم القديمة ، وبه مقدمة بديعة بقلم الكاتب الفيلسوف الدكتور منصور فهمي . وهذا الكتاب ضروري جدا لمن يحب الوقوف على فلسفة الأخلاق ، وعلى العصر الذي عاش فيه الغزالي ، والمصادر التي آستقى منها آراءه الفلسفية ، والفرق بين الخير والشر ، والكفر والإيمان ، والشك واليقين ، والجبر والاختيار ، وما الى ذلك من المباحث الهامة التي حار في فهمها الباحثون ، وخبط أكثرهم فيها خبط عشواء .

وفي هذا الكتاب باب ممتع في الموازنة بين الغزالي وبين الفلاسفة المحدثين ، حيث تناول المؤلف بالنقد والتحليل آراء ديكارت ، وبسكال ، وهوبس ، وبوتلير ، وكارليل ، وسبينوزا ، وجسندى ، ومالبرانش . . وفيه كذلك صورة لآراء علماء العصر في الغزالي : كالدكتور منصور فهمي ، والشيخ علي عبد الرازق ، ومحمد بك جاد المولى ، والأستاذ عبده خير الدين ، والشيخ عبد العزيز شاويش ، والكونت دى جالارزا ، والشيخ عبد الوهاب النجار ، والشيخ حسين والى ، والشيخ عبد الباقي سرور ، والشيخ يوسف الدجوى .

وقد قامت حول هذا الكتاب ضجة عنيفة ، فمن الواجب أن يطلع عليه أهل العلم ليقفوا على كنه ما فيه من آثار حرية الفكر والرأى .

مؤلفات زكى مبارك

- ١ - الأخلاق عند الغزالي .
- ٢ - La Prose Arabe au IV^e siècle de l'Hégire
- ٣ - البدائع .
- ٤ - شرح الرسالة العذراء Étude sur La Lettre Vierge
- ٥ - حب ابن أبي ربيعة وشعره (الطبعة الثالثة) .
- ٦ - ديوان زكى مبارك .
- ٧ - الموازنة بين الشعراء .
- ٨ - مدامع العشاق (الطبعة الثانية) .
- ٩ - ذكريات باريس .
- ١٠ - تحقيق نسب « كتاب الأم » .

إصلاح أشنع خطأ في تاريخ التشريع الإسلامى

كِتَابُ الْأَمِّ

لم يؤلفه الشافعى وإنما ألفه البوطى وتصرّف فيه التبع بن سليمان

بحث وتحقيق

بقلم

الدكتور زكى مبارك

يطلب من المكاتب الشهيرة وثمان النسخة خمسة قروش

(مطبعة دار الكتب المصرية ٦١/١٩٣٢/٣٠٠٠)